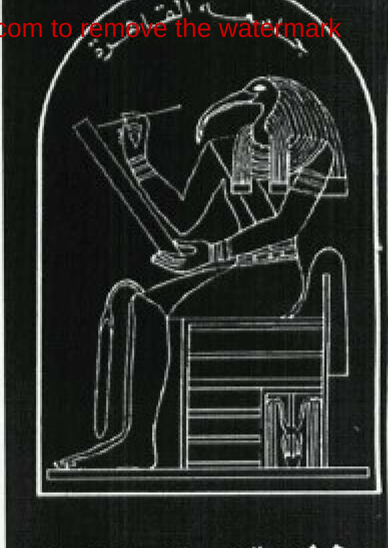


المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة



يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الرابع والعشرون يناير ٢٠٠١

رفع

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة

يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الرابع والعشرون

يناير ٢٠٠١ م

المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم السيدة الأستاذة الدكتورة/ ليلى عبد الجوادإسماعيل رئيس التحرير على العنوان التالى : كلية الآداب - جامعة القاهرة (قسم التاريخ) بريد الأورمان - محافظة الجيزة .

All Correspondence to be directed to :
Editor - in Chief : Prof. Laila A. Esmaeel
Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A. R. E

قواعد النشر

* ترحب المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة .

* تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع ، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث .

* المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر ، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

* تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أيا كان قرار هيئة التحكم .

* النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .

* الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها .

شكـــــر

للسادة الأساتذة المشاركين فى تحكيم بحوث هذا العدد وهم بحسب تسلسل البحوث

أ.د. المرحوم رأفت عبد الحميد	أ.د. عليه عبد السميع الجنزورى
أ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل	أ.د. أحمد السيد دراج
أ.د. عصام الدين عبد الرؤوف	أ.د. رأفت البراوى
أ.د. محمود عرفه	أ.د. حسنين محمد ربيع
أ.د. حامد زيان غانم	أ.د. عطية أحمد القوصى
أ.د. رؤوف عباس حامد	أ.د. محمد عفيفى

أ.د. عبد العليم أبو هيكل

والشكر للسادة المدرسين والمدرسين المساعدين المشاركين فى مراجعة هذا العدد وهم :

- د. محمد عبد النعيم
- السيد / محمد الزامل
- السيد/ محمد رمضان
- السيد/ حسن قرنى

محتويـــات العـــدد

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

يسعدنى كل السعادة أن أقدم للقارئ المصرى والعربى الكريم العدد الرابع والعشرون من مجلة المؤرخ المصرى فى ثوبه الجديد ، داعية الله عز وجل أن تظل مجلة المؤرخ المصرى منارة هادية للباحثين المصريين والعرب فى كل مكان .

وفى هذا العدد روعى أن يقوم بتحكيم البحوث صفوة من الأساتذة المتخصصين فى كل فروع التاريخ ، وأن يقوم بتحكيم البحث الواحد أكثر من أستاذ، حتى بلغ عدد الأساتذة المشاركين فى تحكيم بحث واحد ثلاثة أساتذة فى بعض الأحيان ، وذلك لتحرى الدقة فى انتقاء البحوث التى تنشر فى مجلة المؤرخ حتى تظل محتفظة بمكانتها فى طليعة المجلات العلمية المحكمة فى مصر والعالم العربى ، خاصة بعد أن ذاعت شهرتها فى مختلف الأوساط العلمية المصرية والعربية ، وأقبل الكثيرون على اقتنائها .

ولا يفوتنى فى النهاية أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم التقدير والامتنان للسادة الأساتذة المشاركين فى بحوث هذا العدد سواء أن كانوا محكمين أم باحثين ، كما لا يفوتنى أن اتوجه بالشكر الجزيل للسادة الأساتذة أعضاء اللجنة المختصة بالنظر فى شئون المجلة داخل قسم التاريخ ، وكذلك لجنة مراجعة المجلة .

والله أسأل التوفيق والسداد .

أنه نعم المولى ونعم النصير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رئيس التحرير

أ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل

أولاً : البحوث والدراسات



د. طارق منصور(*)

معاهدتا ٩٠٧، ٩١١ بين البيزنطيين والروس

اثنتان أم واحدة؟ دراسة تحليلية (**)

يخبرنا الراهب الروسى نسطور[١] أنه فى عام ٩٠٧م/ ٦٤١٥ من بدء الخليقة هاجم الأمير الروسى أولج (٨٨٢-٩١٣م) Oleg[٢] اليونانيين (أى البيزنطيين) ، بعد أن ترك ايجور[٣] فى كييف Kief.[٤] وقد أخذ معه جيشاً مكوناً من الفارانجيين Varangians[٥] والسلاف والتشود Chuds والكريفتشيين Krivichians والمريين Merians والبولين Polyanians والسيفريين Severians والدريفليين Derevlians والرادمتشيين Radimichians والكروات Croats والدوليبيين Dulebians والتفرسيين Tivercians.[٦] وبهذه القوة المحتشدة أبحر أولج بجياده وسفنه نحو الإمبراطورية البيزنطية ، وكان مجموعها ألفى سفينة.[٧]

لقد وصل الأمير الروسى أولج أمام القسطنطينية ، التى كانوا يطلقون عليها اسم تسارجراد Tsar'grad ، إلا أن البيزنطيين حصنوا الطريق إليها وأصدوا الأبواب . ونزل أولج بقواته على الشاطئ ، وأمر قواته أن يحصنوا السفن إلى الشاطئ . وأخذ الروس يشنون القتال حول القسطنطينية ، ويعملون السيف فى رقاب البيزنطيين ؛ وقاموا بتدمير قصور

---

* كلية الآداب - جامعة عين شمس

عديدة وأحرقوا الكنائس . وقد ضربوا أعناق بعض الأسرى البيزنطيين ، كما قاموا بتشويه البعض الآخر منهم ، وأطلقوا السهام على بعضهم وقذفوا بالبعض الآخر إلى البحر ؛ وبهذا أنزل الروس كوارث عديدة بالبيزنطيين . ويشير نسطور إلى تكتيك حربى قام به الروس أثناء القتال حول القسطنطينية ، حيث أمر أولج محاربيه بعمل عجلات ألصقوها بالسفن ؛ وعندما واتتهم الرياح ، فردوا الأشرعة وشقوا طريقهم نحو المدينة . وعندما شاهد البيزنطيون هذا المنظر ، تملكهم الخوف ، وأرسلوا رسلهم إلى أولج ، وناشدوه ألا يدمر المدينة وعرضوا عليه دفعهم للضريبة حسبما يرى ؛ وبهذا ، أوقف أولج قواته . وقدم البيزنطيون له ولقواته الميرة والخمر ، إلا أنه رفض قبولها لاعتقاده أنها مخلوطة بالسم . وقد طلب أولج من البيزنطيين دفع ضريبة قدرها أثنتا عشرة جريفنا grivny[٨] لكل رجل من رجاله ، مع ما يوازى ضريبة أربعين رجلاً عن كل سفينة من سفنه الألفين ، حتى يرحل عن القسطنطينية .

انصاع البيزنطيون لهذه الشروط ، ومن ثم عقد أولج سلاماً مع الإمبراطورين البيزنطيين ليو السادس (٨٨٦-٩١٢م) Leo VI الإسكندر (٩١٢-٩١٣) Alexander ، وأرسل خمسة سفراء [٩] إلى القسطنطينية للأباطرة حتى يتسلموا الضريبة . وقد وعد البيزنطيون أولج بأن يوفوا له طلباته ، حيث طلب منهم ضرورة دفع اثنتا عشرة جريفنا عن كل مقعد من مقاعد سفنه الألفين للقوات الموجودة عليها ، بالإضافة إلى المبالغ التى طلبها للمدن الروسية المختلفة ، وهى على النحو التالى : أولاً ، كييف Kievf ثم تشرينجوف Chernigov ، ثم بيرياسلاف Pereyslavl' ، ثم بولوستك Polotsk ثم روستوف Rostov ، ثم لوبيتش Lyu-bech ، وبعد ذلك المدن الأخرى ؛ وهى المدن التى يعيش فيها الأمراء التابعين لأولج .

اقترح الروس ، على حد ذكر الحولية الروسية الأولى ، عدداً من الشروط على البيزنطيين وهى على النحو التالى : " ينبغى أن يتلقى الروس الذين يفدون إلى القسطنطينية كل ما يحتاجونه من القمح . وكل من يأتى من التجار الروس إليها يتلقى مؤنة ستة أشهر من الخبز والخمر واللحم والسمك والفاكهة ؛ ولتكن الحمامات جاهزة لهم مهما كان حجمهم . وعندما يعتزم الروس العودة إلى ديارهم على الإمبراطور البيزنطى أن يزودهم بالطعام ، ومراسى السفن ، والحبال والأشرعة وكل ما يلزمهم لرحلة العودة " . وقد قبل البيزنطيون هذه الشروط التى اقترحها الروس للانصراف عن القسطنطينية والعودة إلى بلادهم .[١١]

ويبدو أن البيزنطيين لم يريدوا أن يخرجوا من هذه المفاوضات مع الروس دون فائدة ، فمتى استجابوا لشروط الروس التى يتضح تماماً أن الغرض منها هو حصولهم على المؤنة اللازمة لرحلة عودة تجارهم من القسطنطينية إلى كييف مجاناً طلبوا من الروس ما يلى :

" إذا جاء الروس إلى القسطنطينية بلا بضائع ، فلن يتلقوا أية مؤنة . وألا يقوم الروس القادمون إلى هنا بارتكاب العنف ضد المدن البيزنطية أو فى أرجاء بلادنا ، وهو الأمر الذى سيتولى الأمير الروسى تطبيقه بصورة شخصية على رعاياه الروس . ومتى يصل الروس إلى هنا سوف يتم تسكينهم فى حى سانت ماماس St. Mamas (١٢) وسوف ترسل حكومتنا موظفينا لتسجيل أسمائهم ، وهؤلاء سوف يتلقون مخصصهم بصورة شهرية على النحو التالى، أولا مواطنو مدينة كييف ثم مواطنى مدينة تشرينجوف ، وبيرياسلاف ثم المدن الأخرى. وهؤلاء لن يدخلوا المدينة إلا عزلاً ومن خلال بوابة واحدة فى مجموعات قوام كل منها خمسون رجلاً فى المرة الواحدة وبصحبة نائباً للإمبراطور.(١٣) وعليهم مباشرة أعمالهم التجارية حسب احتياجاتهم دون دفع أية ضرائب ". (١٤)

هكذا، رأينا أن الروس اقترحوا بعض الشروط التى لا تشكل أية أهمية بالنسبة للبيزنطيين، الذين لن يضيرهم تقديم المؤنة والحبال والأشرعة ومراسى السفن للروس عند عودتهم ، وذلك لفض الاشتباك بين الطرفين والانصراف عن مدينة القسطنطينية والعودة إلى بلادهم . إلا أن الدبلوماسية البيزنطية لم تكن من السهولة أن تترك هؤلاء البرابرة يعودوا إلى بلادهم دون الاستفادة منهم طالما أنها استجابت لشروطهم . وإذا ما دققنا النظر فى مطالب البيزنطيين من الروس سنجد أن البيزنطيين كانوا حريصين كل الحرص على البضائع التى ترد من الشمال عن طريق الروس ، الذين لن يقدموا لهم أية مؤنة إذا وفدوا على القسطنطينية بدونها . فقد كان الروس يحملون فى تجارتهم الفراء بشتى أنواعه (١٥) والشمع - الذى كان يمثل ضرورة ملحة للبيزنطيين لإنارة الكنائس التى كانت تنتشر فى أرجاء الإمبراطورية البيزنطية - والعسل والأرقاء ، الذين كانوا يستخدمون للخدمة فى المنازل والأراضى الزراعية والمصانع البيزنطية.(١٦)

كانت الحكومة البيزنطية حريصة كل الحرص على ألا تحدث اشتباكات بين التجار الروس فى القسطنطينية وبين البيزنطيين(١٧) ، فحددت لهم مكاناً يقع خارج أسوار العاصمة ، نحو الشمال منها ، وهو حى سانت ماماس ؛ كما حظرت عليهم دخولها إلا برفقة أحد ضباط

الإمبراطور ، ومن خلال بوابة واحدة فقط ، وفي مجموعات قوام كل منها خمسون رجلاً في المرة الواحدة . أما الامتياز الوحيد الذي منح للتجار الروس آنذاك فهو اعفاؤهم من الضرائب ، وهو الأمر الذي يشير إلى وجود نوع من المكوس فرض على التجار الأجانب ، نظير اشتغالهم بالتجارة في القسطنطينية . ويخبرنا الجغرافي العربي ابن خرداذبة ، الذي ولد في عام ٢٠١هـ/ ٨٢٧ م وتوفي عن عمر يناهز الخامسة والثمانين في عام ٩١٢[١٨] ، أن التجار الروس كانوا يدفعون العشر للإمبراطور البيزنطي ، كضريبة عن تجارتهم في الأراضي البيزنطية .[١٩]

هكذا ، تم الاتفاق بين الطرفين ، وبالشروط السابقة ، على فض الاشتباك وانصراف الروس عن القسطنطينية والعودة إلى ديارهم أو على حد تعبير نسطور " تم عقد السلام بين الامبراطوران ليو السادس والاسكندر من ناحية وبين الأمير أولج من ناحية أخرى ". وقد ألزم الطرفان أنفسهم بالقسم على تنفيذ ما اتفق عليه ، فقد قبل الإمبراطورين ليو السادس والاسكندر الصليب ، ودعوا أولج ورجاله ليؤدوا القسم بالمثل . ولما كان الروس حتى ذلك الوقت وثنيين[٢٠] ، فطبقاً لعقيدتهم أقسموا بأسلحتهم وبإلههم بيرون Perun ، وفولوس Volos رب الأنعام ، على أن يحفظوا السلام مع البيزنطيين . وعلى هذا ، فقد رفع الروس حصارهم لمدينة القسطنطينية وولوا ظهورهم ، بعد أن علقوا دروعهم على أبوابها دليلا على النصر.[٢١]

أرسل الأمير الروسي أولج اتباعه إلى القسطنطينية في عام ٩١١ م لإقامة سلام مع البيزنطيين وعقد معاهدة بينهم وبين الروس . لكن قبل أن نتحول إلى الحديث عن المعاهدة وذكر تفاصيلها ينبغي أن نقف قليلاً عند الهجوم السابق الذي قام به الروس في عام ٩٠٧م تحت قيادة أميرهم أولج ، على القسطنطينية وأن نضعه في محكمة التاريخ . لقد انفرد الراهب الروسي نسطور بذكر تفاصيل هذه الحملة وأشار بصراحة إلى انصياع البيزنطيين للضريبة ، التي قدموها للروس حتى يكفوا عدوانهم على الأراضي البيزنطية ، وحتى يرفعوا الحصار عن القسطنطينية ، وهذا الأمر جعل العديد من المؤرخين المحدثين ينكرون وقوع مثل هذه الحملة على القسطنطينية ، مستندين في ذلك إلى أن المصادر البيزنطية لم تنبذ ببنت شفة عنها ؛ ومن ثم ليس هناك من النصوص التاريخية غير الروسية ما يعضد رواية نسطور في الحولية الروسية الأولى . ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخين المؤرخ البلجيكي الأشهر هنري

جريجوار H. Grégoire (٢٢) ، والمؤرخ الانجليزى ستفن رنسمان S. Runciman(٢٣) والمؤرخة الفرنسية جيرمين داكوستا لوييه G. da Costa-Louillet (٢٤) ، والمؤرخ دوللى R· Dolly (٢٥) وعلى الرغم من هذه المعارضة الشديدة من قبل المؤرخين السابقين لمثل هذه الحملة ، إلا أنه يكاد يجمع غالبية المؤرخين المحدثين على وقوعها . وعلى حد تعبير فازيلييف A. Vasiliev فإن الغالبية العظمى من المؤرخين الروس يجمعون على أن هذه الحملة حقيقة تاريخية لامراء فيها (٢٦) ؛ ومن هؤلاء المؤرخين كارامزين Karamsin(٢٧) وفيرنادسكى Vernadsky(٢٨) ، كما أيد الكثير من المؤرخين الأوروبين الغربيين هذه الحملة ومنهم المؤرخ الفرنسى جورج لوكليرك Le Clerec(٢٩) ، وألفونسين كورت A. Court(٣٠) ، والمؤرخة الإنجليزية شادويك N. Chadwick(٣١) والمؤرخ الفرنسى لوى بربيه L. Bréhier .وتعتبر الدراستان اللتان قاما بهما المؤرخ الروسى جورج اوستروجورسكى G. Ostrogorsky (٣٣) والمؤرخ الإنجليزى روميلى جنكينز R. Jenkins (٣٤) غاية فى الأهمية للرد على من يتكرون حملة الروس فى عام ٩٠٧م على القسطنطينية .

يبطل المؤرخ اوستروجورسكى نظرية من سبقوه بعدم تاريخية الأمير أولج ، ويقر بأنه شخصية حقيقة فهو الذى ذكر فى معاهدة ٩١١م ، كما سنرى فيما بعد ، التى أبرمت بين البيزنطيين والروس(٣٥) ويعتمد اوستروجورسكى بصورة رئيسية على فقرة واردة فى حولية سيميون الماجستير واللغثيت ، والتى يصف فيها الروس ، فى عهد ليو السادس ، على أنهم درومبيتاى Δρομῖται .(٣٦) ونظرا لأهمية هذه الفقرة الواردة عند سيميون الماجستير واللغثيت ، والمتعلقة بالروس ، فقد عكف العديد من العلماء المحدثين على دراستها ، لأنها الأثر الوحيد الذى يشير إلى الروس فى عهد ليو السادس (٣٧)؛ على الرغم من أنها لا تتحدث عن حملة أولج على القسطنطينية فى عام ٩٠٧م .

كما يؤكد أوستروجورسكى على أنه لا غضاضة من أن ترد رواية فى مصدر غير بيزنطى ، كالحولية الروسية فى حالتنا هذه ، تتحدث عن حدث يتعلق بالإمبراطورية البيزنطية ذاتها ، وفى نفس الوقت لا يوجد ذكر له فى المصادر البيزنطية . فكم من الأحداث وقعت فى الإمبراطورية البيزنطية عرفها المؤرخون من خلال مصادر غير بيزنطية . سواء كانت لاتينية أو إسلامية أو فارسية أو غير ذلك . وليس أدل على ذلك من أن الهجوم البيزنطى الذى وقع على مدينة دمياط فى عام ٨٥٣م (٣٨)لم يرد له ذكر فى المصادر البيزنطية ، ولم نعرفه إلا من خلال المصادر الإسلامية .(٣٩)

هنا تجدر الإشارة إلى نقطة هامة فى هذا الشأن وهى صيغ بعض الفقرات التى وردت فى الحولية الروسية الأولى ، وبالتحديد فى سياق ديباجة معاهدة ٩١١م بين البيزنطيين والروس ، والتى تؤكد نشوب قتال من قبل بين الطرفين قبل توقيع هذه المعاهدة . فيقول المؤلف أن الأمير أولج أرسل رسله لعقد سلام وتوقيع معاهدة مع البيزنطيين.(٤٠) وفى موضع آخر من الحولية نقرأ هذه العبارة " فى البداية فإننا سنتوصل إلى عقد سلام مع البيزنطيين ، وسيحب كل منا الآخر بكل قلبنا وإرادتنا وبكل ما نملك من طاقة سنمنع رعايا أمرائنا (الروس) من ارتكاب أية جريمة أو عمل شرير (ضد البيزنطيين)".(٤١)

هكذا ، يشير كاتب الحولية الروسية الأولى إلى أن معاهدة ٩١١م كان يسبقها محادثات بين الطرفين واتفاقيات تمهيدية ، وهى بطبيعة الحال ما تم عقب حصار الروس للقسطنطينية فى عام ٩٠٧م بقيادة الأمير الروسى أولج ؛ وهذا التوافق والترتيب الزمنى سجله نسطور بصورة تامة وبدقة فى التعبيرات السابقة.(٤٢) وعلينا أن نضيف نقطة أخيرة حول طبيعة مؤرخى الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، فقد جبل هؤلاء المؤرخون على تسجيل الانتصارات التى تحرزها الدولة البيزنطية على جيرانها من الأعداء ؛ فإذا ما وقعوا فى غرام أحد الأباطرة جعلوا منه قديساً محارباً ، يضاهى سانت ديمتريوس فى دفاعه عن سالونيك ؛ وإذا كادوا لأحد من الأباطرة تباروا فى تسجيل النكبات التى تحل بالإمبراطورية فى عهده ، لإظهار غضب الرب عليه وأنه السبب فيما يحل بهم من كوارث ونكبات.(٤٣)

لكن على الرغم مما ذكره أوستروجورسكى من أدله وافتراضات تاريخية،أو بالرغم مما يسوقه الباحث ، تأتى دراسة العالم الإنجليزى جنكينز لتؤكد وجهة نظر أوستروجورسكى حول حقيقة وقوع حملة ٩٠٧م على القسطنطينية .

لقد استخدم جنكينز بعض الروايات الواردة فى حولية سيميون الماجستير والتى ترتبط بهجوم ليو الطرابلسى Leo of Tripoli على تسالونيك فى عام ٩٠٤م ، وقارنها بقائمة جغرافية لبعض البقاع الواردة فى نفس المصنف أيضاً ؛ وتمكن من أن يخرج بخط سير حقيقى لحملة جاءت من الشمال نحو القسطنطينية فى عام ٩٠٧م ، أى حملة الأمير الروسى أولج . وكان وصفه لخط سير هذه الحملة ، بعد مقارنة الأماكن الجغرافية الواردة عند سيميون الماجستير ، على النحو التالى : " جاء الروس أو الدروميتاى بقيادة رؤسائهم الممنوحين الحكمة أو الوحى الإلهى ، بحراً ؛ وداروا حول رأس هيموس Cape Haemus ، وعبروا الحدود

الإمبراطورية إلى ميسمبريا . وجاءت قوة عبر بلغاريا أو نزلت إلى الشاطئ عند مسيمبريا أو ميديا Media . واندفعت هذه القوة عبر تراقيا حتى وصلت إلى بحر مرمره عند سيليبريا Se-lybria . وهناك دارت السفن إلى داخل الاستنون Stenon عند فاروس Pharos حيث هزمت الأسطول البيزنطى فى هيرون Hieron ، وأحرزت موطئ قدم لها على ساحل بثينيا ، قرب جبل تريكفالوس Trikphalos ، الواقع فى ثيم الأوبسيق غرب آسيا الصغرى . وقد هوجمت القسطنطينية بحراً وبراً من ميديا إلى سيليبريا . وكان يقود الأسطول البيزنطى المدافع آنذاك يوحنا رادينوس John Rhadenos ". (٤٤)

هكذا ، يمكننا القول أن حملة ٩٠٧م ، التى قام بها الروس تحت قيادة أميرهم أولج على القسطنطينية كانت حقيقة لا مراء فيها ، وليس هناك ثمة ما يدعو لإنكارها أو إثبات عدم وقوعها . والآن على الباحث أن يعدو سريعاً نحو المعاهدة التى تم التوقيع عليها فى عام ٩١١م بين البيزنطيين والروس ، لنستكمل ما بدأناه فى الحديث عنها قبل أن نتحول لمناقشة تاريخية حملة ٩٠٧م. وقد يكون من الملائم أن نذكر بنود هذه المعاهدة كاملة ثم نقوم بمناقشتها وتحليلها ومقارنتها بما تم الاتفاق عليه فى عام ٩٠٧م بين الطرفين ، كما سبق وذكرنا . وذلك نظراً لأن هذه هى المرة الأولى التى يصل إلينا فيها بروتوكول كامل لمعاهدة بيزنطية – أجنبية .

" نص معاهدة ٩١١م بين البيزنطيين والروس "

" هذه هى نسخة من المعاهدة التى تم التوصل إليها فى ظل حكم الإمبراطورين ليو والإسكندر . نحن أبناء أمة الروس : كارل Karl، انجيالد Ingoiald، فارولف Farulf، فيرموند Vermund، هرولاف Hrollaf، جنار Gunnar، هارولد Harold، كارنى Karni، فريثليف Frethleif، حروأر Hroarr، انجانتير Angantyr، ثروأند Throand، ليثولف Lei-thulf، فاست Fast، وستينفيث Steinvith، أرسلنا أولج ، أمير الروس العظيم ، وكل الأمراء العظام الأجلاء والنبلاء العظام boyars الخاضعين لسلطانه إليكم ، أنتم ليو (السادس)# والإسكندر (شقيقه) وقسطنطين Constantine (المقصود هنا قسطنطين السابع ابن ليو السادس ، الذى توج إمبراطوراً مشاركاً لأبيه فى عام ٩٠٨م) أباطرة البيزنطيين ، بناء على إرادة أمرائنا العظام وبأمرهم، ،نيابة عن كل أولئك الروس الذين يخضعون لأميرنا".

" إن الصفاء الذى يسود بيننا من إقامة أواصر الصداقة والحفاظ عليها بعون الله والقائمة بالفعل الآن بين المسيحيين (أى البيزنطيين) والروس ، قد يكون مناسباً أن ننشر ونؤكد هذه الصداقة ليس فقط بالكلمات بل أيضاً بكتابتها وفى ظل قسم غليظ على أسلحتنا طبقاً لعقيدتنا وشرعنا. وقد وافقنا على نحو بين باسم الصداقة والسلام الإلهى على ما أسفر عنه هذا الاجتماع من بنود على النحو التالى :

بداية نظراً لأننا سوف نعقد سلاماً مع مواطنيكم (البيزنطيين) وسيحب كل منا الآخر بكل قلبه وإرادته ، نمنع بكل ما نملك من طاقة أياً من رعايا أميرنا المبجل من ارتكاب أية جريمة أو عمل شرير . وبلا ريب سوف نلزم أنفسنا بقدر المستطاع أن نبقى من الآن وإلى الأبد على الصداقة الثابتة السرمدية التى أعلنت باتفاقنا مع (مواطنيكم) البيزنطيين وتم التصديق عليها بالتوقيع والقسم . وبإمكان (مواطنيكم) البيزنطيين أن يحافظوا من الآن فصاعداً وللأبد على نفس هذه الصداقة الثابتة السرمدية نحو أمير الروس المبجل ونحو كل رعايا أميرنا المبجل .

" وفيما يخص الشروط المتعلقة بما ينجم عنه خسائر فإننا نقر فيما يلى :

البند الأول : " إذا وجدت أدلة دامغة على وقوع ضرر فسيكون هناك إقرار حقيقى بمثل هذه الأدلة . لكن لو أن هذا الإقرار متعارض ، فإن الحزب المعارض سوف يؤدى قسماً على حقيقة هذا ، وبعدما يأخذ القسم طبقاً لشريعته ، سوف تفرض عقوبة بالنسبة للإثم المرتكب الظاهر ".

البند الثانى : " مهما يكن إذا قتل روسى مسيحياً ، أو قتل مسيحى روسياً ، فإنه سوف يلقى الموت جزاء ما اقترفه من جريمة . وإذا هرب رجل عقب ارتكاب جريمته، فإن أقرب أقارب الضحية فى هذه الحالة سوف يتلقى تعويضاً قانونياً من ممتلكات المتهم ، فى الوقت الذى ستتلقى فيه زوجة القتيل مبلغاً مماثلاً ، وهو حقها القانونى . وفى حالة ما إذا كان المدعى عليه فقيراً وهرب ، فإنه سيتم الحجز على ما يملك حتى يعود ، ويتم العفو عنه ".

البند الثالث : " إذا ضرب أى رجل آخر بسيف أو اعتدى عليه بأى نوع من السلاح ، فإنه طبقاً للقانون الروسى ، فإنه سيدفع خمس قطع من الفضة لكل ضربة أو اعتداء . وإذا ما كان المدعى عليه فقيراً ، فإنه سوف يدفع مقدار ما يستطيع ، وسيجرد من كل ما يرتديه من ملابس أيضاً ، وسيقر بالقسم أيضاً بأنه ليس له أحد يمده بالعون ولن تستمر هذه الحالة بعد ذلك ضده ".

البند الرابع : " إذا ما سرق روسى مسيحياً أو العكس وألقى على السارق متلبساً بواسطة المجنى عليه ، وقتل أثناء مقاومته القبض عليه ، ولن تفرض عقوبة على موته لا بواسطة البيزنطيين ولا بواسطة الروس وسوف يسترد المجنى عليه ما سرق منه وإذا استسلم السارق فإنه سيؤخذ ويوثق بواسطة المجنى عليه ، وسيعود المتهم بعد ذلك بعد أن يتحمل تعويضاً فى نفس الوقت قدره ثلاثة أضعاف ما سرق جزاء جرأته على فعل ذلك ."

البند الخامس : " إذا ما ارتكب أى شخص ، سواء كان يونانياً (بيزنطياً) أم روسياً ، عنفاً ضد الآخر أو تعامل معه بتعسف واستولى على بعض ما يملكه بالقوة ، فإنه سوف يدفع ثلاثة أضعاف قيمته. "

البند السادس : " إذا جنحت سفينة (بيزنطية) بفعل الأمواج العاتية على شاطئ أجنبى ، وكان واحداً من رعايانا الروس قريباً منها ، فعليه مسئولية تزويدها ثانية بالمؤن وإرسالها بحمولتها إلى إقليم مسيحى (أى بيزنطى). وسوف نتولى قيادتها خلال الممرات المحفوفة بالمخاطر إلى أن تصل إلى مكان آمن . لكن إذا ما احتجزت أية سفينة بفعل عاصفة أو عائق أرضى ملاحى ما يحول دون الوصول إليها ، فإننا نحن الروس سنمد يد المساعدة لطاقم السفينة ، وسنتولى أمرهم وأمر تجارتهم بكل أمان ؛ هذا إذا ما وقع هذا الحادث بالقرب من الأراضى البيزنطية . لكن إذا ما وقع مثل هذا الحادث بالقرب من الساحل الروسى ، فإن حمولة السفينة سوف تفرغ منها ، وسنقوم ، نحن الروس ، بانتزاع ما يمكن أن يكون نافع لصالح ملاكها. وعندئذ ، عندما نتجه إلى بلاد اليونان (أى إلى بيزنطة) للتجارة ، أو فى سفارة إلى

الإمبراطور، فإننا سوف نسلمكم بكل شرف ثمن حمولة السفينة. لكن إذا ما قتل أى شخص على متن السفينة أو أسئ معاملته بواسطة رعايانا الروس ، أو إذا سرق أى شئ منها ، فإن من ارتكبوا مثل هذه الأفعال عندئذ سوف يخضعون للعقوبة المتخذة من قبل ".

البند السابع : " ومنذ هذه اللحظة فصاعداً ، إذا وقع أسير فى الحبس سواء من الروس أو البيزنطيين وبيع حينئذ إلى دولة أخرى ، فإن أى روسى أو بيزنطى يعيش فى تلك المنطقة عليه شراء الأسير ، وأن يرد الشخص الذى اشتراه إلى بلاده الأصلية . وسوف يعوض المشترى عن المبلغ الذى أنفقه فى سبيله ، أو أن تحتسب بطريقة أخرى قيمة عمل الأسير اليومية من مبلغ الشراء . ولو أخذ أى روسى بواسطة البيزنطيين ، فإنه سيرد بالمثل إلى بلاده الأصلية ، وسيدفع ثانية ثمن شراءه ، كما اشترط طبقا لقيمته " .

البند الثامن : " متى تجدون أن الحرب ضرورة ملحة، أو عندما تقودون حملة ، وتودون التزود بالروس الذين يرغبون فى شرف العمل مع إمبراطوركم ويأتون فى أى وقت ويريدون البقاء فى خدمته ، فأنه يسمح لهم بالعمل فى هذا المجال طبقاً لرغبتهم ".

البند التاسع : " إذا بيع أى أسير من أى منطقة بين المسيحيين ، أو إذا بيع أى أسير بيزنطى بين الروس ، فإنه سيحرر بعشرين بيزنط [٤٥] ويعاد إلى بلاده الأصلية ".

البند العاشر : " وفى حالة إذا ما سرق أحد الأرقاء الروس أو هرب أو بيع بالإكراه ، وأقام سيده الروسى دعوى وأثبتها فإن الرقيق سيعاد إلى الروس . وإذا فقد تاجر رقيقاً ورفع شكاية (إلى الإمبراطور البيزنطى) ، فعليه أن يجده ؛ لكن إذا رفض أحد ما السماح للشاكى القيام بالبحث ، فإن الموظف المحلى سوف يصادر حقه فى المنحة ".

البند الحادى عشر : " فيما يتعلق بالروس الذين يقاتلون باحتراف فى بيزنطة تحت أوامر الإمبراطور المسيحى ، إذا مات أحدهم دون أن يوصى بتركته لأحد وليس له

أقارب هناك ، فإن ممتلكاته ستعاد لأقربائه البعيدين فى بلاد الروس . لكن إذا اتخذ الروسى المتوفى ترتيب ما بشأن بضائعه ، فإن الشخص الذى اختاره كتابياً كوريث له سيتسلم الأملاك التى أوصى بها . ومثل هذا الإجراء الواجب للميراث سيطبق فى حالة الروس المشتغلين بالتجارة ، والرحالة الروس فى بيزنطة ، وأولئك الذين لهم ديوناً قائمه هناك ".

البند الثانى عشر : " إذا اتخذ مجرم من بيزنطة ملجأ، سوف يرفع الروس شكاية إلى الإمبراطور المسيحى (أى البيزنطى) ، وسيلقى القبض على مثل هذا المجرم ويعاد إلى بلاد الروس ، بغض النظر عن احتجاجاته . وسوف يؤدى الروس نفس الخدمة للبيزنطيين وقتما تحين المناسبة ".

الخاتمة : " وكتقليد وارتباط وثيق يربط رعاياكم اليونانيين (البيزنطيين) ورعايانا الروس على حد سواء فقد أعددنا المعاهدة الحالية لتُسجل فى نص قرمزى (المداد) على الرق من نسختين . وقد أكد إمبراطوركم هذه المعاهدة ، باسم الصليب المقدس الذى لا يتجزأ ، بتوقيعه عليها وتسليمها لرسلنا. وطبقاً لعقيدتنا الخاصة وعرف بلادنا ، فقد أقسمنا لإمبراطوركم ، الذى يتولى حكمكم بفضل من الله بأننا لن ندنس أنفسنا ، ولن نسمح لأى من رعايانا أن ينتهك السلام والصداقة التى تم توكيدها بواسطة البنود التي تم التوصل إليها فيما بيننا . وقد أرسلنا هذه الوثيقة لتصديق جلالتكم عليها لكى نؤكد ونعلن رسمياً مثل هذه المعاهدة التى تم التوصل إليها فيما بيننا ، فى ٢ سبتمبر من عام ٦٤٢٠ من الخليقة (= ٩١١م)، الدورة الضريبية الخامسة عشر". (٤٦)

على هذا النحو تنتهى بنود معاهدة ٩١١م التى تم توقيعها بين الروس والبيزنطيين ، وقد عاد رسل الأمير الروسى أولج إلى كييف ، بعد أن أغدق عليهم الإمبراطور ليو السادس الهدايا الثمينة من الذهب ، والثياب الفخمة ، والطيالس ، وبعد أن أمر اتباعه بترتيب جولة لهم بين ربوع القسطنطينية وآثارها وقصورها . وعندما وصل رسل الروس إلى كييف قصوا على أميرهم كيف نجحوا فى إقامة السلام بين البيزنطيين والروس وأكدوه بالقسم. (٤٧)

وإذا ما انتقلنا إلى تحليل هذه المعاهدة فسنجد أن أسلوب صياغتها يعكس خبرة كاتبها بأسلوب عقد المعاهدات بين الدولة البيزنطية والدول الأخرى .فالمعاهدة عبارة عن مقدمة يشرح فيها الكاتب الهدف من عقدها بين الطرفين ويشير إلى الأشخاص الذين قاموا بمهمة إنهاء إجراءات عقدها مع الإمبراطور البيزنطى ، وعددهم خمسة عشرة مندوباً روسياً . وتشير هذه المقدمة ، بل والمعاهدة كلها ، إلى بروتوكول بيزنطى بحت فى أسلوب كتابة المعاهدات ، فالدولة البيزنطية هى صاحبة الباع الأطول فى الدبلوماسية الدولية وليس الروس. (٤٨) وعلى هذا قد يكون من المحتمل أن الفريق البيزنطى الذى اشترك فى المباحثات مع الروس من أجل التوصل إلى هذه المعاهدة بين الروس والبيزنطيين هو الذى صاغ بروتوكول المعاهدة . ومع هذا ، لن نطلق العنان لهذا الافتراض الآن إلا بعد الانتهاء من تحليل المعاهدة .

توجد العديد من الملاحظات الهامة على مقدمة المعاهدة ، فهى كما سبق القول ، تشير إلى عدد السفراء الروس الذين ذهبوا إلى القسطنطينية من أجل الحصول على توقيع الإمبراطور البيزنطى على المعاهدة ، وعددهم خمسة عشرة مندوباً روسياً . وهذا العدد يشير بدوره إلى التنظيم السياسى الذى يشكل المجتمع الروسى . فمن هؤلاء الخمسة عشرة مندوباً واحداً ينوب عن الأمير الروسى أولج ، والأربعة عشرة مندوباً الآخرين يشيرون إلى الأمراء الروس الآخرين الذين يدينون بالطاعة لأولج ، والذين جاءوا مندوبين عنهم إلى القسطنطينية . ويشير هذا الرقم أيضاً إلى اتساع دائرة نفوذ الأمير الروسى أولج فى عام ٩١١م عنه فى عام ٩٠٧م ، حيث تظهر لنا أسماء خمسة رسل روس ذهبوا إلى القسطنطينية من أجل عقد اتفاق ٩٠٧م بين الروس والبيزنطيين ، وهم كارل ، فارولف ، فيرموند ، هرولاف ، وستينفث . وهؤلاء السفراء الخمسة اشتركوا أيضاً فى معاهدة ٩١١م ، ومن المحتمل أنهم الذين قادوا دفة المحادثات مع البيزنطيين بحكم خبرتهم السابقة فى عام ٩٠٧م .

وتشير الكلمات الأولى من المقدمة أيضاً إلى أن المعاهدة بدأت مباحثاتها فى عهد الإمبراطور ليو الساس وأخوه الاسكندر ، وهما اللذان تم فى عهدهما عقد اتفاق ٩٠٧م . هذا على عكس الخاتمة التى تشير صراحة إلى أن توقيع المعاهدة قد تم فى عهد الإمبراطور ليو السادس وأخوه الإسكندر وابنه قسطنطين ، الذى توج إمبراطوراً مشاركاً فى عام ٩٠٨م .

والملاحظة الأخيرة التى تشير إليها مقدمة المعاهدة هى محاولة كل من الطرفين الالتزام بقدر الإمكان بالمحافظة على هذه المعاهدة وإقامة أواصر الصداقة بين الشعبين .

وينتقل كاتب المعاهدة بعد ذلك إلى الحديث عن البنود التى تم الاتفاق عليها بين الروس والبيزنطيين ، وهى إثنا عشر بنداً ، وتعالج هذه البنود بطبيعة الحال أموراً قائمة بين البلدين ، كجرائم السرقة التى قد يتعرض لها التجار الروس أو البيزنطيين (البند الأول ، الرابع ، الخامس) ؛ وجرائم القتل (البند الثانى ، الثالث) ، الأسرى (البند السابع ، التاسع) ، الأرقاء (البند العاشر) ، تسليم المجرمين (البند الثانى عشر) . أما أهم بنود هذه المعاهدة فهو البند السادس المتعلق بالإجراءات التى تتخذ حيال السفن البيزنطية التى تتعثر فى طريقها لأى سبب كان وتقذف بها الأمواج إلى الشاطئ الروسى . أما البندان الثامن والحادى عشر فيتعلقان بالمرتزقة الفارانجيين والروس الذين يعملون في الدولة البيزنطية سواء بطلب من البيزنطيين أم برغبة شخصية منهم ؛ سواء بصورة نظامية فى الجيش البيزنطى أم بصورة وقتية.

وتجدر الإشارة إلى أن العقوبات أو التعويضات الواردة فى البند الأول ، الثانى ، الثالث ، الرابع ، الخامس ، السابع ، التاسع تطبق على الروس والبيزنطيين على حد سواء . وهذا يشير بدوره إلى الرغبة المشتركة بين الحكومتين فى وضع حد للجرائم المعلقة بن البلدين ، والتى يمكن تحاشى وقوعها فيما سبق ، ومن ثم فهى بنود اتفق الطرفان بتراض منهما على إقرارها فى المعاهدة . أما البندان العاشر والثانى عشر منها فمن وضع الروس ولصالحهم فقط ، ولا يوجد هدف للدولة البيزنطية من وراءها. والبند السادس قد يبدو فى ظاهرة العام مشترك بين الروس والبيزنطيين ، إلا أن حجم الفائدة التى يغلها الروس من هذا البند أكبر من تلك التى يجنيها البيزنطيون ، فالروس يعطون لأنفسهم الحق ، فى هذا البند ، فى الاستيلاء على حمولة السفينة البيزنطية التى تقذف بها الأمواج على الشاطئ الروسى ، بل وانتزاع كل ما قد يكون نافع منها ويغل قدراً من المال . ويتعهدون برد ثمن هذه الحمولة إلى البيزنطيين عندما يذهبون للتجارة فى القسطنطينية فى أقرب فرصة أو يذهبون فى سفارة الإمبراطور البيزنطى . وهذا يعنى أن الروس أعطوا لأنفسهم امتياز الاتجار بهذه الشحنة والتربح منها إلى أن يحن الوقت المناسب لرد ثمنها للدولة البيزنطية . ويزداد هذا البند أهمية عندما نقرأ العبارة التالية الواردة

به " ... لكن إذا ما وقع مثل هذا الحادث بالقرب من الساحل الروسى ... " حيث تشير هذه العبارة صراحة إلى أن الروس أصبحت لهم أملاكاً على السواحل الشمالية للبحر الأسود (بحر بونطس) فى مستهل القرن العاشر الميلادى . وهذا الأمر يشير إلى دخول عنصر جديد ساهم فى تشكيل الخريطة السياسية لمنطقة السهوب ، مما سيترتب عليه تغييرات عرقية وديموغرافية وسياسية بالمنطقة ، كانت الدولة البيزنطية طرفاً فيها . وسنرجئ الحديث عن هذا الأمر قليلاً لحين الانتهاء من تحليل المعاهدة .

ويمكن اعتبار أن البندين الثامن والحادى عشر ، واللذين يتحدثان عن المرتزقة الروس الذين يعملون فى الجيش البيزنطى ، قد وضعا لصالح الروس أيضاً أكثر منه لصالح البيزنطيين . فقد أعطى الأمير الروسى الحق لنفسه بالسماح لمن يود العمل بالجيش البيزنطى من المرتزقة الروس ، وشرط هذا الأمر بحالة الحرب فقط . ويشير البند الحادى عشر إلى إجراءات الميراث التى ينبغى أن تتخذ فى حالة مقتل أحد هؤلاء المرتزقة ، أو فى حالة مقتل أحد التجار الروس داخل أراضى الدولة البيزنطية .

ويختتم الكاتب معاهدة ٩١١م بخاتمة يوضح فيها أن هذه المعاهدة نسخت من نسختين على الرق ، إحداهما بطبيعة الحال تحفظ فى أرشيف البلاط البيزنطى ، والموقع عليه من الأمير الروسى ، والثانية تحفظ فى كييف ، وهى الموقع عليها من الإمبراطور البيزنطى ؛ والتى عاد بها السفراء الروس إلى أميرهم أولج . ويشير الكاتب إلى وجود قسم ينبغى أن يؤدى من الطرفين لتوكيد المعاهدة ، وبطبيعة الحال فقد أقسم الإمبراطور البيزنطى على الصليب المقدس، بينما أقسم الروس باسم إلههم بيرون ، وفولوس . ولم يفت الكاتب أن يسجل ، بدقة شديدة التاريخ الذى أبرمت فيه المعاهدة ، حيث تم التوقيع عليها فى الثانى من شهر سبتمبر من عام ٦٤٢٠ من الخليقة ، وهو يوازى عام ٩١١من الميلاد؛ أى فى عهد الإمبراطور ليو السادس وأخوه الاسكندر وابنه قسطنطين [٤٩] .

وأخيراً بناءً على التحليل السابق ، يمكننا القول أننا أمام معاهدة بيزنطية – روسية متكاملة الأركان فهى واضحة الهدف ومؤرخة بدقة شديدة وتحتوى على مقدمة ثم موضوع ثم خاتمة ؛ وقد تم التوقيع عليها من الأطراف المعنية بالأمر ، الإمبراطور البيزنطى ليو السادس ، والأمير الروسى أولج ؛ وإن كان المحتوى يعكس اتجاه مؤشر الفائدة نحو الجانب الروسى . وهذه المعاهدة بالشكل الذى وردت عليه تعتبر بيزنطية الصياغة ، من حيث البروتوكول الذى

أعدت بنا ماً عليه . فالفضل إذن فى الصياغة القانونية يعود للبيزنطيين لا الروس ، الذين كانوا حديثى العهد بأسلوب التعامل مع القوى الكبرى كالدولة البيزنطية على سبيل المثال .

والآن إذا سلمنا بأن ما تم فى عام ٩١١م بين البيزنطيين والروس معاهدة تامة فهل يمكن القول أن معاهدة ٩١١م متممة لمعاهدة - أو اتفاقية ٩٠٧م ؟ أى أن الاثنين يكملان بعضهما البعض؟ أم أنهما شيئان مختلفان فى الشكل والمضمون ؟ وقبل الشروع فى الرد على كل هذه التساؤلات علينا أن نعرض لوجهات نظر بعض المؤرخين المتباينة حول هذا الأمر . فالمؤرخ الروسى ڤازيليف فى دراسته الهامة عن الهجوم الروسى الثانى على القسطنطينية ، يرى أن الحولية الروسية الأولى قد احتوت على وثيقتين رسميتين لمعاهدتين ؛ الأولى شذرة من معاهدة عقدت فى عام ٩٠٧م، والأخرى معاهدة أبرمت فى عام ٩١١م . وفى رأيه أن النص الأول عبارة عن معاهدة أولية ، بينما الثانى عبارة عن النسخة النهائية من نفس المعاهدة [٥٠] . ويعتقد المؤرخ الروسى شخماتوف A. Shakhmatov أن الأمير الروسى أولج لم يعقد سوى معاهدة واحدة فقط مع البيزنطيين ، وهى معاهدة ٩١١م ؛ كما أن كاتب الحولية نقل بعض شروطها إلى اتفاق ٩٠٧م[٥١] . أما المؤرخ الروسى سولوفيف A. Soloviev فيرى أن ما عقد فى عام ٩٠٧م لم يكن سوى اتفاق مبدئ يتناول امتيازات السفراء والتجار الروس فى الدولة البيزنطية ، وقد تم هذا الاتفاق على أيدى خمسة رسل للأمراء الرئيسيين الذين كانوا موجودين بذاتهم عند أسوار القسطنطينية . أما الاتفاقية الثانية التى تمت فى عام ٩١١م فهى أكثر وضوحاً ، ولا تكرر الأولى على الإطلاق ، وقد تمت على أيدى خمسة عشر سفيراً روسياً[٥٢] . أخيراً ترى المؤرخة الفرنسية ابرين سورلان أن ما تم عقده بين الروس والبيزنطيين فى عامى ٩٠٧ ، ٩١١م هما معاهدتان منفصلتان ، وإن كانت تختلف كل منهما عن الأخرى فى الشكل والمضمون[٥٣] .

على هذا النحو اختلف المؤرخون المحدثون حول المسميات التى أطلقت على معاهدتى ٩٠٧ و ٩١١م وعلى مضمونها . وإذا كانت المعاهدة التى تمت بين البيزنطيين والروس فى عام ٩٠٧م ضرورة حتمية ، حتمتها الظروف العصيبة التى كانت تمر بها الدولة البيزنطية ، إلا أن الشكل القانونى لها لم يكن مكتملاً كمعاهدة ٩١١م ؛ أى أنها لم تحتوى على مقدمة ومضمون وخاتمة وتاريخ دقيق مسجل بها ، بالإضافة إلى التوقيعات ، وأنها لم تنسخ من نسختين ، لتحفظ إحداهما بالقسطنطينية والأخرى بكييف .

كما أن الشروط التى احتوتها معاهدة ٩٠٧م كانت فى معظمها تعهدات بيزنطية حيال التجار الروس الذين يفدون على القسطنطينية أما الشروط البيزنطية الواردة فى هذه المعاهدة فقد تكون ايضاحات بيزنطية لتنظيم التواجد الروسى فى القسطنطينية ، حتى يكون الروس على علم بما لهم وما عليهم . وقد أقسم الطرفان البيزنطى ممثلاً فى الإمبراطور ليو السادس وأخوه الاسكندر ، والروسى ، ممثلاً فى رسل الأمير أولج ، على حفظ السلام بينهما . إذن ما الدوافع التى حدت بالبيزنطيين للتوقيع على مثل هذه المعاهدة ؟ وهل كان الهجوم الروسى الناجح على القسطنطينية فى ذلك العام هو السبب المباشر أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى ذلك ؟

لقد ساعدت الظروف الخارجية والداخلية التى كانت تمر بها الدولة البيزنطية الأمير الروسى أولج على أن يجعل الدولة البيزنطية تمر بمرحلة حرجة من تار يخها . ففى الشرق كانت معاهدات تبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين لا تزال قيد البحث بالإضافة إلى ثورة القائد أندرونيقوس دوقاس Andronicus Ducas الذى هرب من المسلمين فى فبراير أو مارس من عام ٩٠٧م الأمر الذى تبعه قيام مشكلات على الحدود الشرقية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البيزنطى غائباً عن القسطنطينية ، حيث كان القائد البيزنطى هيمريوسHimerius يقود الحملة البحرية على قبرص فى عام ٩٠٦م [٥٤] ؛ أما فى الغرب فكانت الأوضاع لا تقل خطورة عن الشرق ، فقد هاجم القائد الإسلامى ليو غلام زرافة مدينة سالونيك ، ثانى أهم المدن البيزنطية ، ونجح فى اجتياح هذه المدينة وتخريبها وأسر العديد من سكانها فى عام ٩٠٤م [٥٥] ، وقد انتهز سيميون Symeon خان البلغار الحالة المتردية فى البلقان وتذبذب النفوذ البيزنطى هناك فأغار على مدينة سالونيك محاولاً ضمها إلى أملاك دولته . واضطر ليو السادس إلى عقد معاهدة مع سيميون البلغارى تنازل بمقتضاه عن أجزاء من البلقان مقابل رفع يده عن سالونيك والانسحاب منها . ومنذ هذا الاتفاق خمدت نار الحرب بين البلغار والبيزنطيين فى الجبهة الغربية طوال عهد ليو السادس [٥٥]ومع هذا تبقى الحقيقة أن حدود دولة البلغار الأولى فى عهد الخان سيميون قد أصبحت متاخمة لحدود الدولة البيزنطية مباشرة فى البلقان [٥٦]؛ وهذا بدوره كان كفيلاً باشعال فتيل الحرب بينهما متى حانت الفرصة . أما عن الأحوال الداخلية التى تسببت فى غليان المجتمع البيزنطى ، لاسيما فى القسطنطينية ، فهى مشكلة الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس وما نجم عنه من مشاكل دينية أضجت مضجع بطاركة القسطنطينية . فقد وضعت زوى Zoe محظية الإمبراطور ليو

السادس له طفلاً فيما بين مايو - سبتمبر عام ٩٠٥م فى الغرفة الأرجوانية بالقصر ، عرف فيما بعد باسم قسطنطين بورفيروجنيتوس Constantine Porphyrogenitus. (٥٧) وفى عام ٩٠٦م تم تعميد هذا الطفل فى كنيسة آيا صوفيا ، وبعدها بأيام قليلة قام ليو بتتويج زوى بنفسه إمبراطورة ، وصارت زوجة له رغم معارضة الكنيسة الشديدة ورغم أنف البطريرك نيقولا مستيكوسNicholas Mysticos (٥٨). وفى خضم هذه الأحداث الداخلية والخارجية جاءت حمله الأمير الروسى أولج على القسطنطينية فى عام ٩٠٧م ، جعلت البيزنطيين من هول المفاجئة العسكرية وشدتها يسعون للحصول على سلام على وجه السرعة مع الروس على حد قول فازيليف (٥٩).

إزاء كل هذه الظروف الحرجة التى مرت بها الدولة البيزنطية كان من المحتم على الإمبراطور ليو السادس أن يقبل السلام مع الروس وكذلك الشروط التجارية التى طلبوها منه ، وذلك حتى يتخلص من الخطر الراهن ، الذى لم تكن هناك وسيلة للتخلص منه سوى الدبلوماسية ، مثلما حدث مع سيميون البلغارى من قبل . وعلى هذا فالمعاهدة التى تمت فى عام ٩٠٧م لم تكن سوى اتفاق سريع بين الطرفين لمواجهة الوضع الراهن ، أملى فيه الروس شروطهم على بيزنطة وقبلتها الأخيرة . وكما سبق القول جاءت الشروط البيزنطية كإيضاحات قانونية للروس لتوضح لهم ما لهم وما عليهم عند وفودهم إلى القسطنطينية والإقامة بها . ولا يوجد ثمة رابط يربط بين هذه المعاهدة وتلك التى عقدت فيما بعد عام ٩١١م ، اللهم السفراء الروس الخمسة الذين شهدوا المعاهدتين ، وكذلك حكام البلدين ، الإمبراطور ليو السادس والأمير أولج .

وجاءت معاهدة ٩١١م التى أبرمت بين البيزنطيين والروس لتشير صراحة إلى وجود نوع من المباحثات التى دارت بين الطرفين ، حيث يذكر نسطور فى حوليته ، فى مستهل حديثه عن المعاهدة ، " هذه هى نسخة من المعاهدة التى تم التوصل إليها فى ظل حكم الإمبراطور ليو والاسكندر ... " ويشير نفس الكاتب أيضاً إلى أن الهدف من عقد هذه المعاهدة هو مد أواصر الصداقة القائمة بالفعل بين البلدين والحفاظ عليها وتوكيدها ليس بالكلمات فقط بل بالمداد أيضاً والقسم الغليظ" (٦٠). ومن المحتمل أن هذه المباحثات قد بدأت عقب انصراف الروس عن القسطنطينية فى عام ٩٠٧م ، وأنها استمرت خلال السنوات الأربع التالية ، ربما بشكل غير متصل ، عن طريق التجار الروس الذين كانوا ينوبون عن الأمراء الروس بما فيهم أولج نفسه ويفدون إلى القسطنطينية . ومتى تم التوصل بينهما وبين البيزنطيين إلى صيغة نهائية

مقبولة للطرفين ، قام الأمير الروسى أولج بإرسال سفرائه رسميا إلى القسطنطينية فى عام ٩١١ م لأخذ توقيع الإمبراطور ليو السادس عليها . ومما يؤكد هذا العبارة الواردة فى مقدمة المعاهدة والتى تقول أن السفراء الروس جاءوا بناء على إرادة أمرائهم العظام وبأمر منهم ، ونيابة عن كل الروس الذين يخضعون للأمير الروسى أولج . هذه هى الملابسات التاريخية التى عقدت على أثرها معاهدة ٩١١ م بين البيزنطيين والروس ، وكما سبق القول فإنها من الناحية القانونية تعتبر معاهدة متكاملة الأركان ، وتختلف تماما عن معاهدة ٩٠٧ م . وقد يكون من المحتمل أن كاتب المعاهدة لم يشأ أن يكرر ما اتفق عليه بين الطرفين فى عام ٩٠٧م ثانية فى نص معاهدة ٩١١ م . ومن ثم لا نجد ذكر بشأن التجار الروس فى معاهدة ٩١١ م . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ، إذا كانت الظروف الخارجية والداخلية فى الدولة البيزنطية هى التى حتمت عليها التوقيع على معاهدة ٩٠٧ م فما الدوافع التى حدت بها للتوقيع على معاهدة ٩١١ م خاصة أنه لا يوجد تهديد روسى عسكرى مباشر للقسطنطينية كذلك الذى كان قائمـــاً فى عام ٩٠٧ م ؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغى أن نشير إلى أن الخطر الإسلامى للدولة البيزنطية لم ينته فى الشرق ، أما فى الغرب فان سيميون البلغارى كان يتحين الفرصة للانقضاض على الأراضى البيزنطية ؛ وقد واتته هذه الفرصة عندما توفى الإمبراطور ليو السادس فى عام ٩١٢ م ، حيث رفض خليفته الاسكندر أن يدفع الضريبة لرسل البلغار بل ووبخهم أيضا وبهذا جاءت الفرصة الذهبية لسيميون خان البلغار للهجوم على الأراضى البيزنطية ، حيث اجتاحت قواته تراقيا فى ربيع عام ٩١٣ م ولم يكن لا الاسكندر ولا أى شخص أن يطفئ لهيب الحرب آنذاك على حد قول المؤرخ فاين Fine . [٦١] هذه الأحداث إن دلت على شئ فإنما تدل على حنكة ليو السادس فى كبح جماح خان البلغار سيميون ، ولم يحول دون تحقيق رغبته سوى الاتفاقيات التى كان قد عقدها معه ليو السادس . وفى الوقت نفسه كان الأسطول البيزنطى بقيادة هيمريوس يتبادل الهجمات البحرية مع الأسطول الإسلامى ، ففى عام ٩١٠م أغار الأسطول البيزنطى على سواحل قبرص الشرقية ، وكانت غارة غاشمة ، وقد رد الأسطول الإسلامى على هذه الإغـارة . [٦٢] وفى العام التالى جهز الإمبراطور ليو السادس بدافع الانتصارات السابقة ، الأسطول بقيادة هيمريوس لغزو جزيرة كريت واستردادها من أيدى المسلمين ، وهذا يعنى ببساطة شديدة غياب البحرية عن القسطنطينية عام ٩١١م . الأمر الذى يشكل خطورة كبيرة فى مواجهة الغزاة الروس الشماليين إذا ما فكروا فى غزو الأراضى البيزنطية .[٦٣]

وقد تكون الظروف السابقة المحيطة بالدولة البيزنطية كفيلة لأن تجعل الإمبراطور ليو السادس يقبل على توقيع معاهدة ٩١١م مع الروس . بيد أن الخطر الأكبر كان قادما من الشمال ليس في شكل هجوم مباشر على الحدود الشمالية البيزنطية بل فى شكل تحولات عرقية وديموغرافية فى منطقة السهوب .

ففى هذا الصدد يذكر قسطنطين بورفيروجنيتوس أنه منذ خمسين عاما أو خمسة وخمسين عاما سبقت تأليف كتابه " عن الإدارة الإمبراطورية " حدث أن اتفق الغز والخزر على قتال البشناق Pechenegs وطردهم من أراضيهم الواقعة شمال بحر الخزر (بحر قزوين) . وعلى أثر هذا حاول البشناق أن يستقروا فى خزاريا ، ولكن طردوهم منها ؛ وواصل البشناق هجرتهم صوب الغرب ، وعبروا نهر الدون ، وغزوا أراضى المجيار Magyars . الذين اضطروا بدورهم إلى مزيد من التراجع نحو الغرب حتى المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيبر وسيريت (٦٥) .

وأيا كانت الأسباب التى أدت إلى نشوب القتال بين البشناق من ناحية ، والغز والخزر من ناحية أخرى ، فالحقيقة الثابتة أنه مع بدايات القرن العاشر الميلادى كان البشناق يقيمون شمالى البحر الأسود ، بالقرب من مدينة خرسون البيزنطية Cherson وكذلك مدينة بسبورPosporus .(٦٦) كذلك لا ننسى العبارة الهامة التى وردت فى سياق معاهدة ٩١١م والتى تشير إلى أن الروس صارت لهم سواحل على البحر الأسود أيضاً (٦٧). وهكذا ، كانت كل هذه التحولات السياسية والعرقية فى منطقة السهوب شمالى البحر الأسود تشكل تهديدا مباشرا للممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة القرم Crimea . فقد كانت مدينة خرسون البيزنطية مركزاً متقدما للنفوذ البيزنطى شمال البحر الأسود ، ترقب من خلاله الدولة البيزنطية التحولات السياسية التى تمر بالقبائل القاطنة فى منطقة السهوب . وإزاء البلاط المد الروسى نحو البحر الأسود والتهديد العسكرى للقسطنطينية ، لم يكن أمام البيزنطى سوى اللجوء إلى الدبلوماسية . فتمكنت من استمالة البشناق بالرشاوى المالية والثياب الحريرية الموشاة بالذهب والأقمشة الأرجوانية والهدايا الأخرى (٦٨)، وعقدت الصداقة معهم .(٦٩) ، وبالمثل لم يكن هناك مناص أمام الدولة البيزنطية سوى قبول المعاهدات مع الروس أيضا ، خاصة وأنها لا تستطيع القتال فى أكثر من جبهة فى آن واحد ، فما أسهل عليها أن تروض قبائل الشمال بقليل من الثياب الحريرية أو بقليل من الذهب . وهكذا دفعت كل هذه الظروف التى مرت بها الدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور ليو السادس إلى قبوله التوقيع لا على

معاهدة ٩٠٧م فحسب بل على معاهدة ٩١١م أيضا . وجاءت المعاهدة الأخيرة نتيجة مفاوضات متبادلة بين الطرفين البيزنطي والروسي ، وحملت بين ثنايا شروطها تعهدات روسية - بيزنطية مشتركة .

وفي الخاتمة إذا كانت الدولة البيزنطية قد قبلت التوقيع على هاتين المعاهدتين مع الروس ، فكل منها كانت لها ظروفها السياسية التي حدت بالدولة البيزنطية للتوقيع عليها . وعلى هذا ، فقد جاءت كل معاهدة من هاتين المعاهدتين مختلفة في الشكل والمضمون ، ولا تكرر إحداهما الأخرى . وينبغي أن نشير إلى عدم قبول رأي المؤرخين الذين يذهبون إلى أن معاهدة ٩٠٧م كانت جزءا من معاهدة ٩١١م ، أو أن بيزنطة لم تعقد سوى معاهدة ٩١١م مع الروس . فالأحداث والظروف العصيبة التي كانت تمر بها الدولة البيزنطية جعلتها تقبل شروط السلام مع الروس في عام ٩٠٧م أو في عام ٩١١م ، وبهذا فهناك معاهدتان منفصلتان عقدتا بين البيزنطيين والروس في عام ٩٠٧ ، ٩١١م .

الهوامـــش

* أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى ا.د. علية الجنزورى وإلى ا.د. ليلى عبد الجواد لتفضلهما بمراجعة هذا البحث وتنقيحه وإبداء ملاحظات قيمة عليه . وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث ألقى فى الموسم الثقافى لسمنار التاريخ الإسلامى والوسيط بكلية الآداب ، جامعة عين شمس عام ٢٠٠٠م .

(١) نسطور ، ولد نسطور نحو عام ١٠٥٠ م وتوفى فى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى . وكان راهباً فى دير الكهوف Caves فى مدينة كييف منذ بداية الربع الأخير من القرن الحادى عشر تقريباً وحتى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى . ترك لنا كتباً عديدة منها سيرة القديسين بوريس Boris وجلب Gleb ولدا فلاديمير الأول Vladimir ؛ بالإضافة إلى هذه الحولية التى كانت تعرف باسم " وقائع الأيام الخالية " وقد رسم نسطور من خلال كتبه صورة أدبية عن المواطنين الروس الأوائل باستخدامه تقنيات الكتابة البيزنطية التقليدية لسير القديسين . لمزيد من التفاصيل عنه أنظر Franklin, S. & Hallingsworth, p., " Nestor ", *ODB*, 2 (1991), P. 1459; The Russian Primary Chronicle, Laurentian text, Eng. trans. S. H. Cross and O.P. Sherbowitz-Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953), pp. 6-12;

* طارق منصور ، الروس والمجتمع الدولى ٩٤٥-١٠٥٤ ، (القاهرة ، ٢٠٠١) ص غ - ب ب .

(٢) أولج Oleg ، كان أميراً لبلاد الروس من عام ٨٨٢-٩١٣م ، اصطحب جيشاً واستولى على كييف عنوة فى عام ٨٨٢م وقتل دير وأسكولد أمير كييف آنذاك . انظر، *R.P.C.*, pp. 60-61.

(٣) ايجور Igor ، كان أميرا لبلاد الروس من عام ٩١٣-٩٤٥ ، وكانت حياته مليئه بالحروب العسكرية أشهرها ضد بيزنطة ، حيث قاد حملتين عليها فى أعوام ٩٤١ ،٩٤٤م . لمزيد من التفاصيل عنه انظر ، *R.P.C.*, pp. 71-79' Grégoire, H., " La légende d'Oleg et l'expédition d'Igor", *BACBelg*, 23 (1937), pp. 80-94 .

(٤) كييف ، كانت تحت السيادة الخزرية إلى أن استولى عليها دير واسكولد من أيدى الخزر .

(٥) الفارانجيون ، هم العناصر الاسكندنافية الأولى التى خرجت من شبه جزيرة اسكنديناوة وزحفت بقيادة روريك Rurik شرقاً ، وأسسوا مدينة لادوجا Ladoga على بحيرة لادوجا . وقد أطلقت المصادر الإسلامية عليهم اسم الورنك ، وهى تعنى عضو فى اتحاد التجار ، وهى كلمة مشتقة من الكلمة الاسكندنافية فار Var أى العهد أو العقد ، وتشير كلمة الورنك إلى المغامرين النورمان الذين ارتبطوا بعهد أو تضامن . انظر ، ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ، (القاهرة ، ١٩٩٠)، ص٨ .

(٦) التشود ، الكريفتشيون ، البوليون ، السفيريون ، الدريفليون ، الرادمتشيون ، الكروات ، الدوليبيون ، التفيرسيون ، جميعهم قبائل سلافية كانت تعيش فى المناطق الواقعة فيما بين الفولجا شرقا والبحر البلطى غربا ، والبحر الأسود جنوبا . وقد حملت هذه القبائل إما أسماء الزعماء الذيم حكموهم أو أسماء المناطق

الجغرافية التى عاشوا بها . وقد تمكن الروس من فرض سيطرتهم عليهم ، وأخضعوهم لنفوذ أمراء كييف الروس . عنهم انظر ، *R.P.C.*, pp. 52-60.

(٧) *R.P.C.*, p. 64.

استنتجت ا.د. ليلى عبد الجواد فى دراستها " تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ، ص ٤٠-٤٢ " من خلال بعض الفقرات الواردة عند المؤرخين المسلمين أنهم لم يغفلوا الإشارة لهذا الهجوم .

(٨) grivny ، يبدو أن هذه الكلمة مشتقة من الألمانية Funt والتى تعنى جنيهاً ، وعلى هذا فالجريفنا ، وهى عملة روسية قديمة ، تساوى جنيها فضيا تقريبا . وقد كان الوزن الرئيسى هو ذلك المسمى الجنيه الكوفى (العراقى) = (٤٠٨ جرامات) ، إلا أن وزن الجريفنا كان يتناقص حسب سعر المعدن . وكانت الجريفنا قابلة للقسمة إلى عشرين نوجاتى nogaty ، ٦٢ كونى Kuny أو ٥٠ ريزانى Rezany ؛ وتشير هذه الكلمات ذاتها إلى الفراء المتنوع الذى كان مستخدماً كوسائل للتعاملات المالية ، فالجريفنا كون grivna Kun كانت تعنى الفراء المساوى لجريفنا فضية . وأثناء القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت الكونا Kuna مساوية للقيراط البيزنطى ويساوى ما يقرب من ٧١ سنتا ؛ وكانت الجريفنا الفضية تساوى ما يقرب من ٤,٢٥ دولارا (بسعر الخمسينات) انظر ، *R.P.C.*, pp. 234, n. 25 جدير بالذكر أن القيراط البيزنطى كان الوحدة التى تنقسم إليها النوميزما البيزنطية (ت ٢٤ قيراطا) ؛ وهو يساوى سدس جرام من الذهب ، انظر ، Pestman, P., *The New Papyrological Primers*, (Leiden, 1995), p.48.

(٩) هؤلاء السفراء هم كارل Karl ، فارلوف Farulf ، فيرموند Vermund ، هرولاف Hrollaf ، وستينفث Steinvith ، انظر ، *R.P.C.*, p. 46; Soloviev, A., " L'organisation de l'état russe au X^e siècle," dans: *L'Europe aux IX^e - XI^e siècles aux origines des états nationaux*, (Varsovie, 1968), p.250. Reprinted in : *Byzance et l'information de l'état russe*, (London, 1979).

(١٠) *R.P.C.*, p. 64

(١١) R.P.C., pp. 64-65.

(١٢) حى سانت ماماس ، لم يكن ضاحية نائية ، بل كان على قدر من الأهمية بالنسبة للقسطنطينية فيخبرنا كودينوس ، فى كتابه عن المنشآت ، أنه كان به قصر إمبراطورى ومضمار خاص بالأباطرة . *Georgii Codini De Aedificiis*, in: Opera Omnia, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 157, (Turnholti, 1970), Col.598.

وفى هذا القصر كان يعيش الإمبراطور قسطنطين الخامس فى كثير من فترات حكمه . كذلك أقامت به

الإمبراطورة ايرين وابنها قسطنطين السادس ، عندما وقع زلزال بالقسطنطينية فى ٢/٩/٧٩٠ . وفى نفس هذا القصر شهد الاحتفال بزواج قسطنطين السادس ، شهد أيضا حادثة حرمانه من البصر . كما أقام به ميخائيل الثالث مراراً ، بل إن اغتياله على أيدى باسيل المقدونى Basil I كان فى هذا القصر أيضا . ومما يجدر ذكره أن كروم Crum ، خان البلغار ، اجتاح حى سانت ماماس سنة ٨١٣م ، وأضرم النيران فى القصر الإمبراطورى ، وحطم التماثيل بعد أن حمل معه كل ما هو ثمين على عربات إلى عاصمته . وبالرغم من هول الكارثة ، لم تلبث سانت ماماس أن تصبح ثانية مقرا إمبراطوريا ، وأصبح بناؤها لا يقل أهمية عن ذى قبل وكان يوجد بهذا الحى أيضا سجن البروأستيون Proasteion ، الذى شهد الكثير من الاعتقالات السياسية لاسيما إبان الحركة الأيقونية . وكان حى سانت ماماس يستقبل الحجاج السلاف عند مرورهم بها ، وهم فى طريقهم إلى القدس . انظر، Porgoire, R., " Saint Mamas le qurtier des russes à Constantinople", *EO*, 11 (1908), pp. 206-209.

انظر أيضا ، طارق منصور ، الروس والمجتمع الدولى ، ص ١٧-١٨ ، هـ ٢٩ . وقد كان هذا الحى يقع خارج أسوار القسطنطينية على خليج القرن الذهبى بالقرب من بلدة إيفان سيراى كابى Eivan-Serai Kapyo ؛ ويرتبط بالمدينة عن طريق البوابة المعروفة باسم اكسيلوبورتا Xyloporta ، انظر ، *R.P.C.*, p. 236, n.34.

(١٣) هذا الموظف الذى كان ينوب عن الإمبراطور فى اصطحاب التجار الروس إلى داخل المدينة كان عليه ضمان سلامة سكان العاصمة من هؤلاء الروس ، وضمان عدم حصولهم على بضائع بيزنطية أكثر مما هو مقرر لهم ، أو حصولهم على بضائع ممنوعة . كما كان عليه إرشادهم إلى القوانين المعمول بها داخل القسطنطينية حتى لا يقعوا تحت طائلة القانون البيزنطى . وقد كان يطلق عليه اسم ليجاتاريوس . انظر ، ليو السادس ، والى المدينة ، ترجمة / السيد الباز العرينى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ١٩ ، ج١ (١٩٥٧) ، ص١٧٤ ؛ Sorlin, I., " Les traités de Byzance avec La Russie au X^e siècle", *CMRS* Vol. II-3 (Paris, 1961), pp. 349-350.

(١٤) R.P.C., p. 65.

(١٥) كان لدى الروس العديد من أنواع الفراء ، منها فراء السمور ، وفراء السنجاب ، والثعالب ، والوشق وشتى أنواع الوبر . انظر ، طارق منصور ، الروس والمجتمع الدولى ، ص٢٤٤ .

(١٦) Browning, R., *Bulgaria and Byzantium, a comparative study across the early medieval frontier*, (London, 1975), p. 109.

(١٧) يمكن أن نطلق على التاجر الروسى اسم " التاجر المقاتل " لأن التجار الروس كانوا دائما يسافرون وهم مدججون بالسلاح ، بهدف الدفاع عن النفس ، كما فى حالة مرورهم بإقليم البشناق وهم فى طريقهم إلى القسطنطينية . انظر

Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*. ed. G. Moravcsik, Eng. trans ، R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949), pp.56-63.

وكان من المحتمل أن يتحول هذا التاجر فى لحظة إلى مقاتل شرس ضارباً بالتجارة عرض الحائط ، إذا ما تعرض لمضايقات من البيزنطيين . انظر ، طارق منصور ، الروس والمجتمع الدولى ، ص ٢٦-٢٧ .

(١٨) Soloviev, *L'état russe*, p. 260.

(١٩) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، (القاهرة ، د.ت) ، ص ١٥٤ . من المحتمل أن هذا الإعفاء كان بدافع من البيزنطيين لرغبتهم الشديدة فى الاستحواذ على نشاط الروس التجارى . وقد كان الروس يدفعون ضريبة العشور هذه للبيزنطيين فى خرسون . انظر Franklin, S. and Shepard, J., The Emergence of Rus 750-1200, (London, New York, 1996) , p. 108.

(٢٠) تعتبر المصادر العربية هى الوحيدة التى أشارت إلى ديانة الروس قبل اعتناقهم المسيحية فى عام ٩٨٩م ، فقد فصل الوزير العباسى ابن فضلان الحديث عن مراسم الروس الدينية وكيفية تقربهم إلى الآلهة . عن هذا انظر ، ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والروس والصقالبة ، تحقيق/ سامى الدهان ، (دمشق ، ١٩٧٨)، ص ١٧٨-١٨٠ . انظر أيضاً ، ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس ، ص ٥٢-٥٤ .

(٢١) *R.P.C.* p. 65

(٢٢) Grégoirem, H., "La légende d'Oleg et l'expédition d'Igor" , *BACBelg*, 23 (1937), pp.80-94; idem., Miscllanea epica etymologica, I. la légende d'Oleg, *B*, 11 (1936), pp.601-607.

(٢٣) Runciman, S,. *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963), p.110.

(٢٤) Da Costa-Louillet, G., "Y eut-il des Invasions russes dans L'empire byzantin avant 860?", *B*,15 (1940-1941), pp.231-248.

(٢٥) Dolly, R., "Oleg's Mythical Campaign against Constantinople", *BLSMPARS*, 40 (1949), pp. 106-130.

(٢٦) Vasiliev, A., "The Second Russian Attack on Constantinople," *DOP*, 6 (1951), P.195.

(٢٧) انظر ، Karamsin, M., *Histoire de L'empire de russie*. Trad. fran. S. Thomas et Jauffet, (Paris, 1819), tome 1.

(٢٨) Vernadsky, G., *Kievan Russia*, (New Haven, 1948), pp. 26-27.

(٢٩) Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de la russie ancienne*, (Paris, 1783), pp. 102-116.

(٣٠) انظر ، Court, A., "La russie à Constantinople", *RQH*, 19 (1876), pp. 84-90

(٣١) Chadwick, N., *The Beginning of the Russian History*, (Cambridge, 1966), p. 25 .

(٣٢) Bréhier, L., *Vie et mort de Byzance*, (Paris, 1947), pp. 150-151.

(٣٣) Ostrogorsky, G., "L'expédition du prince Oleg contre Constantinople en 907" , *AIK*, 11 (1940), pp. 47-62.

(٣٤) Jenkins, R., "The Supposed Russian Attack on Constantinople in 907", *SP*, 24 (1949), pp. 403-406.

(٣٥) Ostrogorsky, *Prince Oleg*, p. 48.

(٣٦) Symeon Magister ac Loghethetae, *Chronographia*, e. I. Bekker, in : Theophanes Continuatus, *CSHB*, (Bonnae, 1838), p.707

"Ρῶς δέ,οἱ καὶ Δρομῖται, φερώνυμοι ἀπὸ Ρῶς τινος σφοδροῦ δια δραμόντες ἀπηχήματα τῶν χρεσαμένων ἐξ ὑποθηκής ἤ θεοκλυτ ἱας τινὸς καὶ ὑπερσχόντων αὐτούς, ἐπικέκληηται. Δρομῖται δὲ ἀπὸ τοῦ ὀξέως τρέχειν αὐτοῖς προσεγέντο. ἐκ γενους δὲ τῶν Φράγγων καθίστανται".

لعل تسمية دروميتاى اليونانية التى أطلقت على الروس كانت مشتقة من المراكب التى كانت تستخدم آنذاك والتى تسمى درومونه ، وتعنى العداءة ، لسرعتها الكبيرة فى الإبحار . انظر درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، (الإسكندرية ، ١٩٧٤) ، ص ٤٦-٤٨ ؛ رنسمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة / عبد العزيز توفيق جاويد ، (القاهرة ، ١٩٦١)، ص ١٨٠ . إلا أن جنكينز يذكر أنهم سموا بهذا الاسم لأنهم يستطيعون العدو سريعاً . انظر ، Jenkins, Russian Attack, p. 405. وهذه التسمية مشتقة من الكلمة اليونانية ὁ δρόμος وتعنى سباق ، عدو ، أو أية حركة سريعة . انظر ، Liddell, H., and Scott, R., Greek - English Lexicom, (Oxford, 1961), p. 405.

جدير بالذكر أن البيزنطيين أطلقوا على الروس عدة مسميات أخرى منها التاوروسكيزيون ταυροσκύθοι والـروس Ρῶς . انـظـر ، *Leonis Diaconi Caloensis Historiae Libri Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti*, ed. C. B. Hase, *CSHB*, (Bonnae, 1828), P. 63 ff.

ولمزيد مـن التفاصيـل حـول أصـل المسميات التـى أطلقـت علـى الـروس ، انظر ، Soloviev, *L'état russe*, pp. 257-266; Sorlin, *Les traités*, p. 316; Ahrweiler, H., "Les relation entre les russes et les byzantines dans IX^e siècle," *Bulletin d'information et de coordination de l'association international des études byzantines*, 5(1971), pp. 44-46.

(٣٧) عن ترجمات المؤرخين القدماء لهذه الفقرة انظر ، Vasiliev, *Russian Attack*, pp. 187-189.

(٣٨) عن تفاصيل هذا الهجوم انظر ، عليه عبد السميع الجنزوري ، هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، (القاهرة ، ١٩٨٥) ، ص ٥٣-٦٣ .

(٣٩) Ostrogorsky, *Prince Oleg*, pp. 51-52.

(٤٠) *R.P.C.*, P.65

عن تفاصيل هذه المعاهدة انظر الصفحات التالية من البحث .

(٤١) R.P.C., P. 66.

(٤٢) Ostrogorsky, *Prince Oleg*, P. 54.

(٤٣) من أوضح الأمثلة على ذلك موقف كل من ثيوفانيس Theophanes والبطريرك نقفور Nicephoros من الإمبراطور ليو الثالث الايسوري Leo III وابنه قسطنطين الخامس Constantine V عند تأريخهم للفترة الصراع الايقوني الذي بدأه الإمبراطور ليو الثالث . انظر ، Theophanes, *Chronicle*, Eng. trans. H. Turelledove (*Pennsylvania*, 1982), pp. 85-155.

تعتبر الترجمة التي قام بها المؤرخ الإنجليزي C. Mango لحولية ثيوفانيس من أفضل ترجمات هذا المصدر الهام . انظر ، *The Chronicle of Theophanes Confessor*, Eng. trans. C. Mango and R. Scott, (Oxford, 1997), pp. 452-619; Nicephoros, Patriarch of Constantinople, Short History, Eng. trans. C. Mango, *CFHB*, Vol. 13, (Washington, 1990), pp. 125-163.

(٤٤) Jenkins, *Russian Attack*, p. 405.

انظر أيضاً ، عليه عبد السميع الجنزوري ، العلاقات الروسية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية ، (القاهرة ، ١٩٨٩) ، ص ٦٣-٦٤ .

*** تجدر الإشارة إلى أن العبارات الواردة بين الأقواس في سياق المعاهدة من وضع الباحث لتقويم النص .

(٤٥) البيزنط ، اسم مشتق من بيزنطة أطلقه اللاتين على النوميزما البيزنطية ، وهي عملة تساوي ٥، ٤٥ ، ٤ جراماً من الذهب ؛ وكان أول من سكه الإمبراطور قسطنطين الأول ، وكان وقتها يساوي ٥ ، ٤٥ جراما من الذهب . لمزيد من التفاصيل انظر ، بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة / حسين محمد عطية ، الإسكندرية ، ١٩٩٨، ص ١٩٣-١٩٤ ، هـ ١٧ .

(٤٦) *R.P.C.*, pp. 65-68.

الدورة الضريبية : كانت تستخدم مراراً في التأريخ في العصر البيزنطي . وهي عبارة عن دورة من ١٥ عاماً ضريبياً ، وقد أدخل هذا النظام منذ عام ٣١٢م. ومثلما كان المؤرخون البيزنطيون يستخدمون هذا المصطلح للتأريخ في كتاباتهم ، كان المصريون يستخدمونه أيضاً للتأريخ في الوثائق البردية في العصر البيزنطي ، في ختام كل وثيقة ، انظر ، *Pestman, papyrological Primer*, p. 41 . لمزيد من التفاصيل ، انظر ، Bagnall , R. and Worp, K., *The Chronological Systems of Bayzantine Egypt*, (Zutphen, 1978), pp. 17-35.

(٤٧) *R.P.C.*, pp. 58-69.

(٤٨) Verndsky, *Kievan Russia*, p. 27.

(٤٩) يرى فازيليف أن قسطنطين توج إمبراطوراً مشاركاً فى ٩ يونيه عام ٩١١م وأن ليو السادس توفى فى ١١ مــــايو ٩١٢م . انظر ، Vasiliev, Russian Attack, p. 221.

إلا أن الدراسة التى قام بها الأستاذين جريرسون وجنكينز المشتركة صححت هذا التاريخ وأثبتت أن التتويج تم يوم ١٥ مايو عام ٩٠٨ م . انظر ، وسام عبد العزيز ، الزواج الرابع ، ص ٩٣ ، هـ ٥٦ . انظر أيضـاً ، Grierson, P. & Jenkins, R., "The Date of Constantine VII's Coronation", *B*, 32(1962), pp. 133-138.

وقد يكون التاريخ الذى قدمته الحولية الروسية لمعاهدة ٩١١ م صحيح إلى حد كبيــــر . انظــــــر ، Vasiliev, *Russian Attack*, p. 221; Sorlin, *Les traités*, p. 358.

(٥٠) Vasiliev, *Russian Attack*

(٥١)نقلا عن ، Vasiliev, *Russian Attack*, p. 219

(٥٢) Soloviev, *L'état russe*, pp. 249-250.

(٥٣) انظر : Sorlin, *Les traités*, pp. 343 ff., 350ff.

(٥٤) Vasiliev, Russian Attack, p. 220.

عن ثورة أندرونيقـوس دوقـاس ، انظر ، Karlin-Hayter, P., "The Revolt of Andronicus Ducas", BsL, 27 (1966), pp. 23-25.

(٥٥) عن هذا الهجوم الناجح ، انظر ، J. Kaminatos, De Expugnatione Thessalonicae, ed. Gertrude Bhilig, *CFHB*, vol. LV, (Berlin, 1973); German trans. Einnahme Thessalonikes durch die Araber in Jahre 904: ubers., eingeleitet und erklart, by Gertrud bhilig.1. (Graze, 1975); Farag, W., "Some Remarks on Leo Tripoli's Attack on Thessalonikii," *BZ*, 82 (1989), pp. 133-139;Vasiliev, A., *The Byzantine Empire*, (Madison, 1952), p. 315; Grégoire, H., La-communique arabe sur la prise de Thessalonique 904," *B*, 22 (1952), pp. 373-378.

انظر أيضـاً ، إسمت غنيم ، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ، (الإسكندرية ، ١٩٨٣) ، ص ١٨٨-٢٠٢ .

(٥٦) Browning, *R., Byzantium and Bulgaria*, p. 61; Fine, J., *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993), p. 140 .

لمزيد من التفاصيل عن العلاقات البيزنطية البلغارية فى عهد ليو السادس ، انظر ، Runciman, S., A *History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930), pp. 137-155 ; Fine, *Medieval Balkans*, pp. 137-142; Karlin-Hayter, P., "Clément d'Ochrid, la guerre bulgare de Léon et prise de Thessalonique en 904", *B*, 38 (1965), pp. 606-611. انظر

أيضـاً ، هانى، عبد الهادى البشير ، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة البلغار الأولى ،

٦٨١-١٨-١٠م ، (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ،١٩٩٩م) ، ص ١٠٦-١١٦

(٥٧) انظر ، هانيء عبد الهادى ، دولة البلغار الأولى ، ص ١١٥ .

(٥٨) وسام عبد العزيز ، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ، (الإسكندرية ، ١٩٩٩)، ص ٣٩ .

(٥٩) Vasiliev, *Russian Attack*, p. 221.

لمزيد من التفاصيل حول الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس وما نجم عنه من مشاكل ، انظر ، وسام عبد العزيز ، الزواج الرابع ، ص ٣٥-١٠٠ . انظر أيضاً ، Jenkins, R., " Three Documents Concerning the Tetragamy", *DOP*, 16 (1962), pp. 229-241; Karein-Hayter, P., " Le synode à Constantinople de 886 à 912 et la rôle de Nicholas le mystique dans l'affaire de la tétragmie", *JÖP*, 19 (1970), pp. 59-101; Oikonomides, N., " Leo VI's Legalization of 907 Forbidding Fourth Marriage : an Interpolation in the *Procheiros Nomos* (IV, 25-27), *DOP*, 30(1976), pp. 174-195.

(٦٠) Vasiliev, *Russian Attack*, p. 221.

(٦١) انظر مقدمة المعاهدة فيما سبق .

(٦٢) Fine, *Medieval Balkans*, p. 143.

(٦٣) Tsougarakis, D., *Byzantine Crete from the 5th Century to the Venetian Conquest*, (Athens, 1988), pp. 53-54 . انظر أيضاً إسمت غنيم ، كريت الإسلامية ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

(٦٤) عن هذه الحملة انظر ، Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoiis Aulae Byzantinae*, ed. I. Reiskii, CSHB, tome I, (Bonnae, 1829), pp. 651-660; Tsougarakis, *Byzantine Crete*, pp. 45-56; Whittow, M., *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996),p. 185. انظر أيضاً ، أسمت غنيم ، كريت الإسلامية ، ص ٢٠٥-٢١٠ . يرى فرنادسكى أن البحارة الروس الذين اشتركوا فى هذه الحملة وفدوا على القسطنطينية بأمر من أولج ، الذى أرسلهم استناداً إلى الصداقة القائمة بينه وبين بيزنطه . انظر ، Vernadsky, Kievan Russia, p. 27 .

(٦٥) Const. Porph., *DAI*, I, P. 167.

(٦٦) طارق منصور ، الروس والمجتمع الدولى ، ص ١٦٢؛ المتولى السيد تميم ، البشناق والبيزنطيون دراسة فى سياسة بيزنطه الشمالية ١٠٨٥-١١٢٢م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٦، ص ٥٣-٥٤ .

(٦٧) طارق منصور ، الروس والمجتمع الدولى ، ص ١٦٢-١٦٣ .

تقع مدينة بسبور على النتوء الشرقى للساحل الجنوبى لشبه جزيرة القرم ، وهى حالياً مدينة كرش الواقعة على الجانب الغربى من مضيق كرخ ، الذى يصل البحر الأسود ببحر آزوف . انظر ، المتولى تميم ، البشناق ، ص١٩ ؛ محمد فتحى الشاعر ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى ، (القاهرة ، ١٩٨٩) ، ص ١٨١ .

(٦٨) انظر ، البند السادس من معاهدة ٩١١ م .

(٦٩) Jenkins, R., *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071AD.*, (London, 1966), p. 260.

(٧٠) Const. Porph., *DAI*, I, P. 48-49.

قائمة المختصرات

AIk	*Annales de l'Institut Knodakov.*
B	*Byzantion*, 1924 ff.
BAcBELG	*Bulletin de la Classe des lettres de l'Acadćmie Royal de Belgique.*
BLSMPARS	*Bulletin des Lettres et des Sinces Moralles et Politique de l,Académie Royal de Belgique.*
BsL	*Byzantinoslavica*, (Prague, 1929ff).
BZ	*Byzantiniche Zeitschrift*, (Leipzig, München, 1892ff.).
CFHB	*Cropus Fontium Historiae Byzantinae*, (Washington, 1967ff.).
CMRS	*Cahiers du Monde Russe et Soviétique*, (Paris).
CSHB	*Cropus Scriptorum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, 1828-1897).
DOP	*Dumbarton Oaks Papers*, (Cambridge, Mass., 1941 ff.).
EO	*Échos d'Orient, Revue d'histoire, de géographie et de liturgie orientales*, (Paris, Bucharest, 1897-1942).
JÖB	*Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*, 18 - Wien, (Kölen, Graze, 1969 ff.).
ODB	*Oxford Dictionary of Byzantium*, (Oxford, New York 199), 3 Vols.
PG	*Patrologia cursus completus*, series Graeco-Latina, ed. J.P. Migne, (Paris, 1857-1866, 1880-1903), reprinted in Turnholti, 161 Vols.
R.P.C.	*The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text, Eng. trans. & ed. by S. H. Cross & O. P. Sherbawitz- Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953).
RQH	*Revue des Questions Historiques*, (Paris, 1876 ff.).
Sp	*Speculum.*

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر الأجنبية :

- **Codinus, G.,** *De Aedificiis,* in: Opera Omnia, ed. J. P. Migne, *PG*, tome157, (Turnholti, 1970).
- Constantine Prophyrogenitus, *De Administrando Imperio,* ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, Vol. I. (Budapest, 1949).
- Constantine Prophyrogenitus, *De Cermoniis Aulae Byzantinae,* ed. I. Reiskii, *CSHB*, tome I, (Bonnae, 1829).
- Kaminatos, J., *De Expugnatione Thessalonikae*, ed. Gertrude Bhlig, *CFHB*, Vol. IV, (Berlin, 1973); German trans. Einnahm Thessalonikae durch die Araber im jahre 904: ubers., eingeleitet und erklart, by Gertrude Bhlig, (Graze, 1975).
- *Leonis Diaconi Caloensis Historiae Liberi Decem et liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti*, ed. C. B. Hase, *CSHB*, (Bonnae, 1828), pp. 3-178.
- Nikephoros Patriarch of Constantinople, *Short History*, text, Eng. trans & com. Cyril Mango, *CFHB*, vol. XIII, (Washington, 1990).
- Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia*, ed. I. Bekker, in: Theophanes Continuatus, *CSHB*, (Bonnae, 1838).
- *The Chronicle of Theophanes Confessor*, Eng. trans. C. Mango and R. Scott., (Oxford, 1997).
- *The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text, Eng. trans. & ed. by S. H. Cross & O.P. Sherbawitz- Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953).
- Theophanes, *Chronicle*, Eng. trans. Harry Turrtledove, (Pennsylvania, 1982) .

ثانياً : المصادر العربية والمعربة :

- ابن خرداذبة ، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) المسالك والممالك ، (القاهرة ، د. ت.).
- ابن فضلان ، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ، رسالة ابن فضلان ، فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة (٣٠٩ هـ/ ٩٢١م) ، تحقيق / د. سامي الدهان ، (دمشق ، ١٩٧٨).
- بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة / حسين محمد عطية ، الإسكندرية ، ١٩٩٨ .
- ليو السادس ، كتاب والي المدينة ، ترجمة / السيد الباز العريني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ١٩، ج١ (١٩٥٧) .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- Ahrweiler, H., "Les relation entre les byzantins et les russes au IX^{e} siècle", dans: *Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association International des Etudes Byzantines*, 5 (Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
- Bagnall, R. and Worp, K., *The Chronological Systems of Byzantine Egypt* Zutphen, 1978.
- Bréhier, L., *Vie et mort de Byzance*, (Paris, 1947).
- Browning, R., *Byzantium and Bulgaria, a comparative study across the early medieval frontier*, (London, 1975).
- Chadwick, W., *The Beginning of Russian History*, (Cambridge, 1946, reprinted in 1966).
Court, A., " La Russie à Constantipole ", *RQH*, 1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
- Da Costa - Louillet, G., " Y eut-il des invasions russes dans l'empire byzantine avant 860?", *B*, 15 (1940-41), pp. 231-248.
- Dolly, R., " Oleg's Mythical Campaign against Constantinople ", *BLSMPARS*, 40 (1949), pp. 106--130.
- Farag, W., " Some Remarks on Leo Tripoli's Attack on Thessalonikii", *BZ*, 82 (1989), pp. 133-139.
- Fine, J. V., *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).
- Franklin, S. & Hollingsworth, P., "Nestor," *ODB*, (1992), p. 1459.
- Franklin, S. and Shepard, J., *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).
- Grégoire, H., "La légende d'Oleg et l'expedition d'Igor", *BAcBelg*, 23(1937), pp. 80-94.
- Grégoire, H., "La communique arabe sur la prise de Thessalonique 904", *B*, 22(1952), pp. 373-378.
- Grégoire, H., "Miscellanea epica et etymological, I: la légende d'Oleg, II: l'expédition d'Igor", *B*, 11(1936), pp. 601-607.
- Grierson P. and Jenkins, R., " The Date of Constantine VII's Coronation" , *B*, 32 (1962) , pp. 133-138 .
- Jenkins, R., *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD*, (London, 1966).
- Jenkins, R., The Supposed Russian Attack on Constantinople in 907" , *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
- Jenkins, R., " Three Documents Concerning the Tetragamy", *DOP*, 16(1962), pp. 229-241.

- Karamsin, M., *Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fran. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
- Karlin-Hayter, P., " Clément d'Ochrid, la guerre Bulgare de Léon et prise de Thessalonique en 904", *B*, 38(1965), pp. 606-611.
- Karlin-Hayter, P., " La synode à constantinople de 886 à 912 et le rôle de Nicholas le mystique dans l'affaire de la tétragamie", *JÖB*, 19(1970), pp. 59-101.
- Karlin-Hayter, P., " The Revolt of Andronicus Ducas", *BsL*, 27(1966), pp. 23-25.
- Le Clerc, *Histoire Physique, Morale, civile et politique de la russie ancienne*, tome I, (Paris, 1783).
- Liddlle, H. and Scott, R., *Greek - English Lexicon*, (Oxford, 1961).
- Moravcsik, G., *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970).
- Oikonomides, N., " Leo VI's legalization of 907 Forbidding Forth Marriage: an Interpolation in the Procheiros Nomos (IV, 25-27), *DOP*, 30() (1976) , pp. 174-195.
- Ostrogorsky, G., " L'expédition du prince Oleg contre Constantinople en 907", *AIK*, 11 (1940), pp. 47-62 .
- Pares, B., *A History of Russia*, (New York, 1947).
- Pestman, P., *The New papyrological Primer*, Leiden, 1995.
- Porgoire, R., " Saint - Mamas le quartier des russes à Constantinople", *EO*, 11(1908), pp. 203-210.
- Runciman, S., *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930).
- Runciman, S., *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963).
- Soloviev, A., " L'organisation de l'état russe au X^{e} siècle", *L'Europe aux IX^{e} - XI^{e} siècles* aux origines des états nationaux, (Varsovie, 1968), pp. 249-268. Reprinted also in : Byzance et la formation de l'état russe, (London, 1979).
- Sorlin, I., " Les traités de Byzance avec la Russie au X^{e} siècle", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
- Tsougarakis, D., *Byzantine Crete from the 5th Century to the Venetian Conquest*, (Athens, 1988).
- Vasiliev, A., " The Second Russian Attack on Constantinople", *DOP*, 6(1951), pp. 161-225.
- Vasiliev, A., The Byzantine Empire, (Madison, 1952).

- Vernadsky, G., *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).

- Whittow, M., *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).

رابعاً : المراجع العربية :

- إسمت غنيم ، الدولة البيزنطية وكريت الإسلامية ، (الإسكندرية ، ١٩٨٣).

- درويش النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، (الإسكندرية ، ١٩٧٤).

- رنسمان ، س. ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة / عبد العزيز توفيق جاويد ، (القاهرة ، ١٩٦١).

- طارق منصور محمد ، الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥-١٠٥٤م ، القاهرة ، ٢٠٠١.

- عليه عبد السميع الجنزوري ، العلاقات البيزنطية الروسية في عهد الأسرة المقدونية ٨٦٧-١٠٥٦م، (القاهرة ، ١٩٨٩).

- عليه عبد السميع الجنزوري ، هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، (القاهرة ، ١٩٨٥).

- ليلى عبد الجواد إسماعيل ، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ، (القاهرة ، ١٩٩٠).

- المتولي السيد تميم ، البشناق والبيزنطيون دراسة في سياسة بيزنطة الشمالية ١٠٨٥-١١٢٢م ، (رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٦).

-محمد فتحي الشاعر ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

- هاني عبد الهادي البشير ، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة البلغار الأولى ٦٨١-١٠٨١م ، (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد ، كلية الآداب ، جامعة طنطا، ١٩٩٩).

- وسام عبد العزيز فرج ، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ، الدلالة التاريخية والأبعاد السياسية ، (الإسكندرية، ١٩٩٩) .



د.هانئ عبد الهادي البشير (*)

البيالصة فى آسيا الصغرى
فى ضوء مصنف بطرس الصقلى (**)

لا نعرف عن بطرس الصقلى Petrus Siculus أى معلومات سوى أنه كان راهباً ، وأن الإمبراطور باسيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) كلفه فى عام ٨٦٩-٨٧٠م بالسفر إلى العاصمة البوليصية تفريك Tefrik ، من أجل إجراء مفاوضات حول تبادل الأسرى بين الجانبين ، وسافر الصقلى على رأس وفد لإتمام هذه المهمة ، واستغرقت المفاوضات بين الجانبين قرابة التسعة شهور قضاها بين البيالصة Paulicians ، مما أعطاه فرصة لإتمام الشق الثانى من مهمته بوصفه رجل دين ، وهو الاستعلام بدقة عن هؤلاء الهراطقة لكتابة تاريخهم . وشاءت الأقدار أن يعلم باستعدادهم لإرسال بعثة إلى بلغاريا ، مستغلين حداثة عهد البلغار بالنصرانية (اعتنق البلغار النصرانية على المذهب الأرثوذكسى عام ٨٦٤م) لنشر هرطقتهم هناك فى محاولة لضرب بيزنطة من الخلف . ولعل هذا ما جعل بطرس يذكر فى بداية كتابه ، الذى يحمل عنوان"Historia Manichacirum qui et Pauliciani dicuntur" أى تاريخ المانيين المدعوين بالبيالصة " أنه كتبه لدحض هرطقة البيالصة ولإرساله لأسقف بلغاريا كى يكون على دراية بخطورة هؤلاء الهراطقة (١) " .

* - كلية الآداب - جامعة حلوان

هكذا كان لدى بطرس الصقلى مبررين لكتابة مؤلفه ، وهما التشهير بالبيالصة ودحض أفكارهم بناء على أوامر الإمبراطور باسيل الأول من أجل كل الأرثوذكس ، ولتحذير الكنيسة البلغارية من خطر البيالصة . ويعتبر هذا الكتاب أهم مصدر عن البيالصة ، ولن نبالغ إذا قلنا أن تجاهل بعض الباحثين ، وأبرزهم مكرتشيان Mkrttschian ، لكتاب بطرس قد أوقعهم فى أخطاء جسيمة عن البيالصة ، الأمر الذى أثار المؤرخ هنرى جريجوار Grégoire وجعله يصف كتاب مكرتشيان بالزيف ، ويدافع عن بطرس بطريقة محت أى شكوك حول مصداقية كتابه[٢] .

هنا يجب الاعتراف بأن تاريخ بطرس الصقلى بكل تناقضاته وتنوع أسلوبه مصنف اعتمد على مصادر أصلية وذات قيمة كبيرة عن البيالصة لفترة قاربت القرنين من الزمان (من منتصف القرن السابع إلى ما يقرب من منتصف القرن التاسع الميلادى) وعن الحركات الثنائية فى البلقان ، لأنه من بين بيالصة تفريك انطلقت البعثات التبشيرية التى نشرت البوليصية فى بلغاريا وغيرها . واتضح من خلال الأدلة والبراهين التى قدمها بعض المحدثين أن الـ Le Precis de Pierre L'Higoumene (موجز بطرس رئيس الدير) من تأليف بطرس الصقلى أيضاً وقد كتبه بعد عودته من تفريك بفترة وجيزة وقبيل استيلاء باسيل الأول على عاصمة البيالصة . وفى كل الأحوال يكفى أن بطرس الصقلى كان أول من تعامل وبشكل مباشر مع البيالصة ونحلتهم فضلا عن كونه معاصرا لكثير من الأحداث التى ذكرها . ولسبب أو لآخر لم يظهر مخطوط تاريخ بطرس الصقلى إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى على عهد الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Commenenos (١٠٨١-١١١٨م) عندما أخذ على عاتقه مهمة القضاء على البيالصة . وحديثا تم نشر المخطوط فى الـ Patrologia Graeca ثم قامت المؤرخة جويلار Gouillard عام ١٩٧٠م بترجمته للفرنسية ونشرته فى دورية Travaux et Memoires[٣].

تنقسم معلومات بطرس الصقلى عن البيالصة إلى قسمين : الأول خاص بتاريخهم قبل سفره إلى تفريك وأغلبه ينصب على المانية وصلتهم بها ، والثانى عن العقيدة البوليصية فى تفريك . القسم الأول ضعيف وغامض ومضطرب نتيجة لتسليم بطرس الصقلى المسبق بحجج الأرثوذكسية السيئة عن البيالصة ، وربما يكون اقتباساً من بعض مذكرات الهراطقة التى

كانت منتشرة فى ذلك الوقت . أما القسم الثانى فأكثر وضوحا لاعتماد بطرس على شهادة معاصرين للأحداث وخاصة الرسائل التى كتبها سرجيوس - تاخيكوس وأورد بطرس منها نحو ست رسائل ضمن مؤلفه محل الدراسة (٤).

أما عن البيالصة ، فقد اختلف المؤرخون القدامى والمحدثون حول أصل كلمة بيالصة . فيرى القدامى أنها اشتقت من اسم ولدى إمرأة مانية بسميساط Samosata - على الحدود الشامية على نهر الفرات - تدعى كالينيس Callinicc وهما بولص وحنا ، ويتضح هذا من الصيغة اليونانية بوليكيانى Paulikiani (Παύλικιανοι) المشتقة من الاسم بوليانى Pauliani Πουλοιωοννοι أى بولص حنا (٥). وبالنسبة للمحدثين فينتابهم الشك فى ذلك ، وبخاصة وإن المعلومات الواردة لدى القدماء بشأن حنا وبولص قليلة وغامضة ولا تكفى لاستنتاج مصطلح يتعلق باسم البيالصة . ويفضل بعضهم اشتقاق اسم البيالصة من اسم القديس بولص ، مبررين ذلك بتوقير البيالصة للرسول بولص من ناحية ، وإطلاقهم لاسمه وأسماء تلاميذه على بعض قادتهم من ناحية أخرى (٦). أما بعضهم الآخر فقد أرجع مصطلح Paulikiani إلى أصل أرمنى ، وهذا يتضح من مفرداته نفسها . فالأصل هو Paulواللاحقة ik والتى تعنى حرفياً أتباع أوPauliani كلمة أرمينية مشتقة من Paulikiani. وبالتالى فـ أبناء بولص الصغير التعس وربما أتباع بولص الصغير . وبناء عليه فالشخصية التى تشير إليها النصارى الأرمن بصيغة Polik لا يقصدون بها اسم القديس بولص ،ولكن اسم أحد البيالصة الأوائل والذى يحمل اسم بولص أيضاً . ويعتبر بولص هذا المعلم الأول للبيالصة الذين اشتقوا اسمهم من اسمه . ومن ثم لو أردنا الحديث عن كلمة بيالصة دون تمييز اجتماعى أو عنصرى أو جغرافى ، لاتضح أن البوليصية كلمة أرمينية الأصل كما أنها نشأت وتطورت فى أرمينية أيضاً (٧).

بالرغم من أن هذا الرأى ليس هناك ما يؤكده ، فإنه ليس لدينا أيضاً ما يدحضه ، وهو أكثر إقناعاً عن أصل كلمة بيالصة ، ولكنه ليس بالحل القاطع أيضاً ، ولا يزال الأصل التاريخى للطائفه البوليصية غامضاً إلى حد كبير ويحتاج للمزيد من البحث والدراسة .

أما البيالصة أنفسهم ، فترجع أغلب الآراء أنهم ينحدرون من المانيين Manichaeans (أتباع مانى) مباشرة ، وتتضح هذه العلاقة عند حديث بطرس الصقلى عن أصل الطائفة البوليصية . وذلك عندما ذكر أنه فى وقت ما ، دون أن يحدد تاريخاً معيناً ، قامت سيدة

تدعى كاليتيس Calinice فى سميساط بتربية ولديها بولص Paul وحنا John على العقيدة المانية ثم بعثت بهما بعد ذلك للتبشير بين سكان المناطق المجاورة (٨).

لكن غموض هذا العرض وتكراره فى مواضيع مختلفة جعل المؤرخ الفرنسى بول لومرل Lemerle,P يشكك فى مصداقيته ، واعتبره مجرد أسطورة صيغت بين الأرثوذكس قبيل سفر بطرس الصقلى للعاصمة البوليصية تفريك Tefrik . بدليل تكذيب البيالصة لها وعدم اعترافهم بهذين الأخوين ، إلا أن بطرس لم يتخل عنها لإيجاد صلة قوية بين البيالصة والمانيين (٩). أما المؤرخ أوبلنسكى Obolensky,D فاكتفى باستنكاره هذا العرض لعدم دقته وغموضه بدرجه يصعب معها تحديد تاريخ معين لنشاطات كالينيس وولديها أو حتى إذا ما كانت تعاليم بولص وحنا تتفق أو تختلف بشكل أو بأخر عن تعاليم المانية (١٠). ولكن انجلى هذا الغموض بمجرد أن أخذ بطرس الصقلى يتحدث عن المؤسس الحقيقى للطائفة البوليصية (إبان النصف الثانى من القرن السابع الميلادى) وهو المعلم والداعية الأرمنى قسطنطين Costantine المولود بقرية مانانالى Mananali إبان عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١-٦٦٨م) Constans II (١١).

كان قسطنطين هذا من أتباع مانى ، إلا أنه حرص على تدعيم معتقداته بنصوص من العهد الجديد ، وحرم على أتباعه قراءة أى كتب أخرى ، كى يقلل من الرجوع إلى تعاليم مانى بعد ما وجد أن مانى نفسه أصبح مبغوضا هو وغيره من كبار المانيين لدى قطاع عريض من البيالصة نتيجة لما وصمتهم به بعض الكتابات المانية من صفات سيئة . وعلى الرغم من ذلك كانت إصلاحات قسطنطين هذه لا تعنى الابتعاد كلية عن جوهر المانية ولكن إعادة صياغتها فى قالب جديد ومقبول لدى النصارى (١٢).

وبعد فترة وجيزة من تلك التغيرات هاجر قسطنطين من مانانالى إلى كيبوسا Kibossa . ولا تخبرنا المصادر عن أسباب ذلك ، إلا أن المحدثين يرون أن هذا الانتقال يرجع لأحد أمرين ، إما هربا من العرب ومن الأرمن الذين هجروا بلادهم إلى الأراضى البيزنطية على أثر الهجوم الإسلامى عليها عام ٣٥هـ/٦٥٥م ، وإما من اضطهاد بطريرك أرمينية نرسيس الثالث (٦٤١-٦٦١م) . وكرمز لتبعيته للقديس بولص قبل نحو ستمائه عام إلى المقدونيين ، كما أطلق على أتباعه اسم المقدونيين ، ويتضح هذا من قوله " أنتم المقدونيين وأنا سيلفانوس المرسل لكم من قبل بولص ". وأسس كنيسة هناك سماها بالكنيسة المقدونية ،وظل نحو سبعا وعشرين سنة يدعو الناس لنحلته حتى ذاع أمرها وأصبحت تشكل خطراً على الأرثوذكسية

البيزنطية والأرمينية ، وبخاصة بعد أن أعلن عن مساواة كنيسته بالكنيسة الشرعية فى البلاد . وأصبح للبيالصة على هذا النحو تنظيم معارض يمكن أن ينفجر فى وجه الكنيسة الشرعية فى أى لحظة ، مما أثار مخاوف الإدارة البيزنطية وجعلها ترسل مبعوثا إمبراطوريا يدعى سيميون Symeon ومعه أمر برجم قسطنطين - سيلفانوس وإعادة تلاميذه الضالين إلى الكنيسة الأرثوذكسية ليعلنوا توبتهم [١٣]. وبمجرد وصول سيميون قبض على قسطنطين وتلاميذه ، ثم أمر هؤلاء التلاميذ برجمه بالحجارة أمامه ، ولما رآهم يلقون بالحجارة وراء ظهورهم بدلا من أن يقذفوه بها، كلف ابن قسطنطين بالتبني ، المدعو جوستوس Justus برجمه حتى مات ، أما تلاميذ قسطنطين فقد آثروا الموت على انكار معتقداتهم والعودة لحظيرة الأرثوذكسية . ولما فشلت كل محاولاته معهم قام بتشتيتهم ثم عاد إلى القسطنطينية ، ولكن صلابة قسطنطين - سيلفانوس وتلاميذه ومواجهتهم له تركت أثرا بالغا فى نفس سيميون ، ولذلك هرب من العاصمة البيزنطية بعد نحو ثلاث سنوات عائدا إلى كيبوسا واعتنق معتقدات البيالصة ، وجمع تلاميذ قسطنطين - سيلفانوس ونظمهم وحل محل زعيمهم الراحل كمعلم وقائد للطائفة. وعلى نمط سلفه اتخذ اسم أحد تلاميذ بولص ، وهو اسم تيتوس Titos [١٤].ولكن سرعان ما دفع حياته ثمنا لردته عن الأرثوذكسية فبعد حوالى ثلاث سنوات من زعامته شب نزاع بينه وبين المدعو جوستوس Justus ، ابن قسطنطين - سيلفانوس بالتبنى ، بسبب تفسير بعض النصوص عن الثنائية الكونية وربما بسبب الغيرة الشخصية ولجأ جوستوس لأسقف كولونيا Colonea وكشف له عن كل أسرار البيالصة . وعلى الفور أخبر الأخير السلطات فى القسطنطينية ، ورأى الإمبراطور جستنيان الثانى Justinian II أن هذه الطائفة ، التى كان من المفروض أن والده قد قضى عليها ، لازالت قائمة وتشكل خطراً على الإمبراطورية . ولذلك أمر بالقبض على البيالصة وحرق كل من أصر منهم على عقيدته بما فيهم سيميون تيتوس نفسه[١٥]. وكالمعتاد لم يذكر بطرس الصقلى وغيره من المؤرخين القدامى تواريخ محددة لهذه الأحداث . إلا أنه يمكننا فى ضوء هذه الأحداث ومقارنتها ببعضها البعض التوصل لتواريخ محددة وتتفق وسير الأحداث . ذلك أنه من الملاحظ أن السبع والعشرين سنة التى بشر فيها قسطنطين - سيلفانوس بمعتقداته هى أيضاً فترة حكم الإمبراطور قنسطانز الثانى ، ولكن هل كانت الفترتان متوافقتان تماماً مع بعضهما البعض ؟ ولو سلمنا بذلك فما هو مصير فترة الثمانى عشرة سنة المنحصرة بين عامى ٦٦٨-٦٨٥م وهى فترة حكم الإمبراطور قسطنطين الرابع الذى لم يرد له ذكر فى الأحداث ؟ لقد جعلنا هذا الغموض نشكك فى إن بطرس الصقلى لم يتمكن من التمييز بوضوح بين ما يتعلق بعهد

الإمبراطور قنسطانز الثانى وما يتعلق بعهد الإمبراطور قسطنطين الرابع . فرأيناه يذكر اسم قسطنطين حفيد (εγγωv) هرقل دون أن يحدد من قسطنطين هذا ؛ ولكى يخرج البطريرك فوتيوس هو الآخر من هذا المأزق ذكر قسطنطين سليل (απογονοσ) هرقل دون أى تحديد . ولو جاز لنا أن نؤرخ لهذه الأحداث ، لوجدنا أن كدرينوسCedrenus.G عندما أرخ لبداية عهد قسطنطين سيلفانوس كزعيم لطائفة البيالصة أرخ له بين أحداث السنة الثالثة عشرة والسادسة عشرة من حكم قسطنطين الثانى مما يجعلنا نجعل عام ٦٥٥م البداية لظهور قسطنطين سيلفانوس ، وهذا سيؤدى بدوره إلى جعل السبعة والعشرين عاماً لقسطنطين سيلفانوس تدخل ضمن الجانب الأكبر من عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م) ولكى يكون تعذيب سيميون تيتوس قد حدث بعد ست سنوات من وفاة قسطنطين سيلفانوس وإبان عهد جستنيان الثانى ، فلابد أن يكون قسطنطين سيلفانوس مات سنة ٦٨٢م حتى إذا ما أضفنا إليها ست سنوات (ثلاث سنوات قضاها سيميون بالقسطنطينية عقب عودته من كيبوسا وثلاث سنوات قضاها بعد عودته إليها) تصبح عام ٦٨٨م أى إبان الفترة الأولى من عهد جستنيان الثانى (٦٨٥-٦٩٥م). وهذا يتوافق وسير الأحداث مثلما وردت بالمصادر البيزنطية [١٦].

كيفما كان الأمر ، فقد كان من بين الهاربين من الاضطهادات التى أمر بها الإمبراطور جستنيان الثانى شخص أرمنى يدعى بولص وابنيه ثيودور Theodore وججنزيوس Geg-nesios . نجحوا فى لم شمل البيالصة وقيادتهم ، ولسبب أو لآخر تجاهل بولص حق ابنه ثيودور ونصب ججنزيوس فى منصب المعلم والقائد الروحى للبيالصة ، وأعطاه اسم تيموثيوس Timothios . وتحت تأثير أحد الوشاة أرسل الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى Leo III(٧١٧-٧٤٠) يستدعى ججنزيوس - تيموثيوس إلى القسطنطينية كى يختبر بطريرك القسطنطينية مدى قوة إيمانه الأرثوذكسى . ويوضح هذا الموقف أن ليو الثالث كان معتدلا إلى حد ما مع البيالصة . ولا يرجع ذلك لاتفاقه معهم فى محاربة عبادة الصور والأيقونات بقدر ما كان يرجع لمشاكله المعقدة فى آسيا الصغرى إبان تلك الفترة . وتمكن ججنزيوس - تيموثيوس عن طريق المكر والحيلة تارة واستخدام الاستعارة والمجاز تارة أخرى من إقناع البطريرك بقوة إيمانه وصدقه . ولذلك برأه من تهمة مناهضة الأرثوذكسية وسمح له بالعودة لبلاده. فعاد إلى إبيسباريس Episparis وجمع تلاميذه وانتقل على الفور إلى مانانالى . والحقيقة أن تبرئة البطريرك له جعلت السلطات البيزنطية تشعر بالارتياح وغضت

الطرف عنه حينا من الدهر ، مما أعطاه فرصة لممارسة نشاطه فى هدوء وأسس كنيسة بمانانالى عرفت باسم كنيسة آخايا Achia ، وظل نحو ثلاثين عاما يدعو لنحلته إلى أن مات على أثر إصابته بمرض الطاعون (١٧).

نلاحظ هنا أن المصادر لم تحدد لنا موقع إبيسباريس الجغرافى ، ولماذا عاد إليها ججنزيوس مباشرة بعد رجوعه من القسطنطينية بدلا من كيبوسا ؟ ولعل هذا يرجع إلى أن إبيسباريس كانت ضمن أراضى الإمبراطورية البيزنطية من ناحية ، وإلى أنه لم ينس الاضطهاد الذى سبق أن وقع ضد البيالصة فى كيبوسا من ناحية أخرى . وبالتالى بمجرد عودته سالما من القسطنطينية شعر بالحاجة للفرار بعيدا عن يد الإمبراطور ليو السادس ولذلك عجل بالانتقال إلى مانانالى الواقعة خارج الأراضى البيزنطية (١٨).

أما عن البطريرك الذى اختبر ججنزيوس فى العاصمة ، فتذكر المؤرخة جويلار أنه إما جرمان Germain (٧١٥-٧٣٠م) أو أنستاس Anastase(٧٣٠-٧٥٤م) أما المؤرخ لومرل فيرجح أنه الانتهازى أنستاس المدين لليو الثالث برفعه إلى منصب بطريرك ، وليس المتشدد جرمان الذى كان لا يمكن أن يطلق سراحه بهذه السهولة . وبالنسبة لفترة الثلاثين عاما التى مكثها ججنزيوس فى مانانالى فيمكن تحديد بدايتها بعام ٧١٨م ، لأن الأرجح أن مرض الطاعون الذى أشار إليه بطرس الصقلى كان من جراء الوباء الذى اجتاح القسطنطينية عام ٧٤٧م . صحيح أن من رواية ثيوفانيس أو نقفور اللذين ذكرا هذا الوباء ، لم تأخذ فى الاعتبار آسيا الصغرى (١٩). إلا أننا لا نستبعد وصول العدوى إلى آسيا الصغرى عن طريق تنقل السكان بين المنطقتين . وهو ما يجعلنا نحصر فترة ججنزيوس بين عامى ٧١٨-٧٤٨م . بيد أن هناك فجوة بين وفاة سيميون - تيتوس عام ٦٨٨م ، وظهور ججنزيوس عام ٧١٨م . ويمكننا التخمين بأنها الفترة التى احتاج إليها بولص والد ججنزيوس لتجميع ولم شمل أفراد الطائفة بعد ما أصابهم من اضطهاد ، وبعد أن تقدمت به السن وأصبح للطائفة كيان قائم ترك القيادة لابنه ججنزيوي ، وربما يرجع إغفال المصادر لدور بولص لعمله فى السر والكتمان خشية من أى اضطهاد بيزنطية جديدة .

ولكن يبدو أن الاقتضاب كان سمة غالبة على كتابات بطرس الصقلى ولم يذكر لنا معلومات كافية عن ججنزيوس هو الآخر . وكل ما ذكره هو أنه كان لتيماتيوس - ججنازيوس ابن شرعى هو زكريا ، وآخر بالتبنى هو جوزيف Joseph . ولو خلف زكريا والده قد اعتبرنا بولص والد ججنزيوس قد أسس أسرة حاكمة ، ولكن حدث خلاف شديد بلغ حد الشجار بين

ابني ججنزيوس اللذين أصبح لكليهما تلاميذ وأتباعه ، وطالب كلاهما بحقه في زعامة البيالصة . ولما ضاقت بهما مانانالى على أثر هذا الصراع ، قررا الرحيل منها سرا وفضلا ذلك على القتال بعد أن عرضهما الصراع لسخرية جيرانهم . ولكن هذا المبرر غير مقنع ، ويبدو أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو وقوع مانانالى تحت السيادة الإسلامية ، فسبب لهم ذلك متاعب جمة (٢٠).

يتضح ذلك مما أورده بطرس الصقلي نفسه من تفاصيل . ذلك أنه على مقربة من مانانالى اعترض المسلمون طريقهما ، بعد أن ارتابوا في تحركاتهما للهروب إلى رومانيا Romania (يقصد الأراضي البيزنطية) . وحينئذ هرب زكريا وترك أتباعه للمسلمين ، أما جوزيف فقد تحايل وأعلن أنه متوجه هو وأتباعه نحو بلاد الشام بحثا عن الكلأ والمرعى فصدقوه ، وانتهز أقرب فرصة وهرب مع أتباعه إلى إبيسباريس ، التي ربما لم يفرق البطريرك فوتيوس بينها وبين مانانالى (٢١). ويرى بعضهم أنه يجب أن نتوقع أن المراقبة العربية على مثل هؤلاء المشبوهين كانت قوية، ولعل هذا ما دفع جوزيف للهرب إلى الأراضي البيزنطية ، وربما يرجع ذلك أيضاً لوطأة الضرائب التي عانت منها أرمينية في ظل الخلافة العباسية (٢٢). ولكن هذه الآراء ليس هناك ما يؤديها . نظرا لعدم الاستقرار ، لم تستمر إقامة جوزيف في إبيسباريس ، ذلك أن شخصا يدعى كريكوراكيس Krikorakes ، ربما كان حاكم هذه المدينة ، حاول القبض على جوزيف ، مما أجبره على الهرب هو وأتباعه في اتجاه فريجيا Phrygia إلى أن استقر في أنطاكية بيسيديا Pisidia . ولا تخبرنا المصادر عن نشاطه هناك سوى أنه اتخذ اسم إيبافراديت Epaphradite – أحد تلاميذ بولص الرسول – وظل بها نحو ثلاثين عاماً يرجح أنها كانت بين عامي ٧٤٨–٧٧٨م ، إلى أن مات في مكان ريفي ، لا نعرف موقعه على وجه التحديد ، ويسمى خرتوكوبيون Chortokopeion (٢٣).

لم يكن لجوزيف – إيبافراديت أبناء فخلفه شخص أرمني يدعى بآنس Baanes وصفه بطرس الصقلي بأنه يهودي الأصل تارة ، وثمره لعلاقة غير شرعية تارة أخرى ، وأنه كان سادس قائد للبيالصة وقرن اسمه بلقب Ρυπαροσ [أي القذر البذئ] . ولم يحفظ لنا من سيرته سوى أن أزمة حادة حدثت بينه وبين شخص آخر ظهر على الساحة ونافسه على زعامة الطائفة ، وهو المدعو سرجيوس Sergius ، الذي تمكن من إقصائه وحل محله ككبير للطائفة البوليصية (٢٤).واتخذ سرجيوس اسم تخيكوس Tychikos ، أحد تلاميذ بولص أيضاً ، اسما له ، وتدل لهجته على أنه كان مبشرا حقيقيا، ومنها قوله في إحدى رسائله " لقد تجولت

على قدماى شرقا وغربا لأبشر بإنجيل المسيح " ، وظل على رأس الطائفة نحو أربع وثلاثين سنة منذ عهد الإمبراطورة إيرين (٧٩٧-٨٠٢م) Irene إلى عهد ثيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) Theophil بين عامى ٨٠١-٨٣٥م (٢٥).

لكن ماذا عن الفترة الواقعة بين عامى ٧٧٨-٨٠١م؟ الواقع أن المصادر لم تذكر شيئاً عنها ، ولعل ذلك يرجع - من وجهة نظر الباحث - إلى أن الصراع الداخلى بين بآنس وسرجيوس كان هو الغالب عليها ، ولذلك بمجرد أن حسمه سرجيوس لصالحه وجدنا وفرة من المعلومات وبخاصة لدى بطرس الصقلى ، الذى ضمن علينا بأى معلومات عن موقف الإدارة البيزنطية تجاه البيالصة فى الفترة الماضية . ولم يذكر غيره من المؤرخين ، الذين تمكن الباحث من الاطلاع على كتاباتهم ، شيئا عن هذا الأمر باستثناء ثيوفانيس الذى أورد معلومة مقتضبة عن قيام الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) Constantine V فى عام ٧٥٥-٧٥٦م بتجهيز بعض جماعات البيالصة إلى تراقيا Thrace يحموا حدود الإمبراطورية من جهة نهر الدانوب من ناحية ، وليرجحوا كفة الأيقونيين فى مواجهة جموع الأيقونيين بمنطقة البلقان من ناحية أخرى . وحذا ابنه وخليفته ليو الرابع (٧٧٥-٧٨٠م) Leo IV حذوه ونقل أعداد منهم إلى تراقيا عام ٧٧٧-٧٧٨م ، مما كان له أثره المباشر فى تغيير البناء الإثنى لمناطق جنوب شرق البلقان . ولكن بعد انعقاد المجمع المسكونى السابع عام ٧٨٧م على عهد الإمبراطورة إيرين وإقراره لعبادة الأيقونات ، بدأ عصر جديد من الاضطهاد البيزنطى ضد البيالصة ولم يتوقف إلا باعتلاء الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) Nicephore ، العرش البيزنطى (٢٦). ويرجع هذا التسامح إلى أن نشاط سرجيوس خلال السنوات العشر من ٨٠١ إلى ٨١١م ، التى واكبت عهد الإمبراطور نيقفور الأول كان ضئيلا ولم يمثل أى خطر على الإمبراطورية البيزنطية . إلا أن هذا التسامح عرض نيقفور للنقد ،اتهمه المؤرخ ثيوفاينس بالسلبية وبأنه صديق حميم للبيالصة(٢٧).ولا غرابة فى هذا الاتهام ، ذلك أن الراهب ثيوفانيس كان يمقت الإمبراطور نيقفور الأول لفرضه ضرائب باهظة على الشعب دون أن يستثنى منها الكنائس والأديرة ، ولتدخله المستمر فى عائدات وموارد تلك الكنائس والأديرة.

لكن نشاط سرجيوس إبان عهد الإمبراطور ميخائيل الأول رنجاب (٨١١-٨١٣م) Mi-chael I Rhngabe أثار مخاوف الإمبراطورية وأوجد حالة من القلق لدى البيزنطيين . ويبدو ذلك من شهادة ثيوفانيس التى أرجعت النكبات التى حلت بالإمبراطورية أمام البلغار لغضب الرب بعد أن رأى الأباطرة يتقاعسون فى مواجهة الناس - من بينهم البيالصة - يعادون

الأيقونات . كذلك وصف ثيوفانيس أولئك الذين تمنوا خروج قسطنطين الخامس من قبره ليواجه أولئك البلغار بأنهم بيالصة انتهزوا الفرصة لنشر عقائدهم البغيضة لدى ذوى النفوس الضعيفة . وتوضح شهادة ثيوفانيس - على الرغم من مبالغتها - مدى تأثير هراطقة البيالصة على الرأى العام داخل القسطنطينية ذاتها . ولعلها تفسر أيضاً الجدل الذى ثار فى العاصمة حول ضرورة إعدام هؤلاء الهراطقة ، وغضب صاحبها من المستشارين الذين عارضوا توقيع عقوبة الإعدام عليهم فربما يندمون وتقبل توبتهم (٢٨).

قام الإمبراطور ميخائيل بحركة اضطهاد واسعة ضد البيالصة ، بأن أصدر أمراً بالقضاء عليهم . وعهد لليو الأرمنى ، استراتيجوس ثيم الأناضول ، بتنفيذ ذلك فى كل من فريجيا وليكاولى ، أما فى قبادوقيا والبونت فإنه وكل اثنين من رجال الكنيسة هما ، توماس أسقف نيو قيصرية Neocesaria والأكسارخ باراكونداكس Parakondakes ، للقيام بتلك المهمة (٢٩). ولكن أدى هذا الاضطهاد لرد فعل دام ولجحت إحدى جماعات البيالصة المعروفة باسم سينوخورتيس Cynochortites فى قتل الأسقف توماس ، فى حين قتلت الجماعة الأخرى المعروفة بالاستاتى Aststi الاكسارخ باراكونداكس وردت القوات البيزنطية على أعقابها . وبعد الحديث عن رد فعل البيالصة ذكر بطرس الصقلى أن سرجيوس رأى من الحكمة - رغم هذا النصر - أن يلجأ للمسلمين ، أعداء بيزنطة التقليديين للاستفادة منهم فى حربه ضد بيزنطة . ونكاية فى الأخيرة ، منحه عمر بن عبد الله الأقطع أمير ملطيه قريتى أرجا مون Ar-gaoun وأمارا Amara على حدود أرمينية ، فى منطقة سيواس الجبلية والقريتان من ملطية ،ليستقر فيها هو وأتباعه . وبدأت من ذلك الحين الحقبة العسكرية فى تاريخ البيالصة ، وسار الشقان الدينى والعسكرى معا وجنبا إلى جنب ، فقد جذب الاستاتى الكبيرى العدد والآمنين فى الأراضى الإسلامية الكثيرين من ذويهم فى الدين إلى جانبهم . وشنوا من معاقلهم الجديدة العديد من غارات السلب والنهب داخل الأراضى البيزنطية . والغريب أن سرجيوس كان غير موافق على الغارات التى اعتاد البيالصة على سنها على الأراضى البيزنطية ويتضح ذلك من قوله " إننى لست مسئولا عن هذا البؤس والشقاء ، فكثيرا ما أمرتهم بالامتناع عن سلب وأسر الرومان (البيزنطيين) ولكنهم لم يطيعونى " (٣٠). وربما كان ذلك تراجعا مؤقتا من سرجيوس حقنا للدماء باعتباره رجل دين بالدرجة الأولى .

لا نعلم بعد إن كان الإمبراطور ليو الخامس الأرمنى (٨١٣-٨٢٠م) Leo V the Ar-menian قد واصل سياسة الاضطهاد أم لا . أما البيالصة فقد ظلوا على عدائهم

للإمبراطورية البيزنطية ، وذكر البعض أن فرقا منهم كانت ضمن جيش الثائر توماس Tomas الصقلي إبان ثورته التي استمرت من عام ٨٢١م حتى عام ٨٢٣ ضد الإمبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠-٨٢٩م) Michael II[٣١]. ومع ذلك فلا زال وجود البيالصة ضمن جيش توماس أمراً غير مؤكد ، لأنه تم الاعتماد في ذلك على الدليل الأدبي أكثر من الدليل التاريخي ، كما أن الأمر لم يرد بأي من المصادر التي رصدت هرطقة البيالصة ، فضلا عن أن البيالصة كانوا يعادون عبادة الأيقونات ، أما توماس فكان مؤيدا ونصيرا لها . وإن كان في الغالب أن توماس كان له أتباع من مختلف الجنسيات ومن الطبقة الأرستقراطية أيضاً . وازداد العداء بين الجانبين في عهد الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) Theophilius . يؤكد ذلك رواية نقلها البعض من سيرة القديس مكاريوس Makarius رئيس دير بيلكت Peleket في ذلك الدير ، وورد بها أن القديس مكاريوس كان قد تم نفيه في عهد الإمبراطور ليو الخامس الأرمني بسبب عدائه الشديد لعبادة الأيقونات ، ثم أعاده الإمبراطور ميخائيل الثاني بعد ذلك من منفاه في سنه ٨٢١م ، ولكن بعد اعتلاء الإمبراطور ثيوفيل العرش البيزنطي وجهت له نفس التهم السابقة وحكم عليه بالنفي ، غير أنه مكث بعض الوقت بسجن القسطنطينية قبل أن يغادرها ، فوجد به بعض البيالصة الذين حكم عليهم بالإعدام ، ونفذ هذا الحكم عليهم جميعاً باستثناء واحد منهم افتدى نفسه بالارتداد عن هرطقته . مما يدل على أن الاضطهاد البيزنطي للبيالصة كان على أشده في عهد الإمبراطور ثيوفيل [٣٢].

لم يقم سرجيوس بالرد على هذا الاضطهاد ، كذلك لم يحل لجوءه للمسلمين دون مصيره المحتوم ، ذلك أن أحد الحانقين ويدعى Tzanion من Kastellon بمنطقة نيقوبوليس Ni-kopolis ، استغل فرصة انشغال سرجيوس بشق بعض الأخشاب في أحد منحدرات أرجا مون وضربه بالفأس فقتله في سنه ٦٣٤٣ من خلق العالم (أي سنه ٨٣٤ أو سنة ٨٣٥م) . ولما رأى تلاميذ سرجيوس المعروفون برفاق الطريق ، أنهم متساوون وأنه لا فضل لأحدهم على الآخر ، قرروا ألا يتولى عليهم أحد خلفا لسرجيوس وانهمكوا بعض الوقت في قتل أتباع بآنس وفي شن بعض الغارات على الأراضي البيزنطية[٣٣].

لكن سرعان ما فاجأنا بطرس الصقلي بدون مقدمات وبطريقة غامضة بالحديث عن ظهور شخص يدعى كاربياس Karbeas كقائد ومعلم للبيالصة في أرجا مون . ولما رأى أنها ضاقت بأعداد البيالصة المتزايدة ، أسس مدينة أخرى هي مدينة تفريك لاستيعابهم ، وليتخلص من التبعية للمسلمين ، وليكون على مقربة من الأراضي البيزنطية ليتمكن من شن الغارات عليها ومن جانبه كرر البطريرك فوتيوس ما ذكره بطرس الصقلي دون أي إضافه تذكر[٣٤].

هنا نتسائل عن الوقت الذي ظهر فيه كارباس وأقام في أرجا مون التابعة للمسلمين ، وما هي ظروف إغارته على الأراضي البيزنطية قبل دخوله في حرب مفتوحه مع بيزنطة ؟ يبرز لنا ما كتبه ميخائيل سنسل Michael Syncelle عام ٨٤٤-٨٤٥م ويعرف باسم " شهداء عمورية الاثنان والأربعون " وأيده بعض المحدثين ، من أن الإمبراطور ثيوفيل عين المدعو كاليستون Kalistos – ولابد أن ذلك كان قبل وفاة ثيوفيل يوم ٢٠ يناير عام ٨٤٢م – دوقا لإقليم كولونيا Kolonia بآسيا الصغرى ، ولما وجد كاليستوس أن الكثيرين من كبار الشخصيات بكولونيا يعتنقون هرطقة البيالصة ، سعى بالقوة ليثنيهم عن طريقتهم ، إلا أنه لم ينجح في ذلك وتمكن هؤلاء البيالصة من القبض عليه عن طريق الخيانة وأرسلوه إلى أرجا مون لأتباع كارباس الذين كانوا على صلة بهم ، وعلى الفور سلمه هؤلاء الاتباع لحلفائهم المسلمين ، فأرسلوه لسجن سامرا كي يسجن مع أسرى عمورية البيزنطيين ، ومكث بهذا السجن إلى أن قتل معهم بعد نحو ست سنوات(٣٥).

من ناحية أخرى ، كان استيلاء المعتصم على عمورية – وفقا للمصادر الإسلامية – عام ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م فلو أضفنا إليها السنوات السبع التي ذكر المؤرخ بيوري Bur. J أن أسرى عمورية قضوها بسجن سامرا على أساس أن ميخائيل سنسل ذكر السنوات الست بعد عام من أسرهم ، لأتضح أن قتل هؤلاء الأسرى كان نحو عام ٨٤٥م . وسيزداد الأمر وضوحا بما ورد عند بعض الكتاب البيزنطيين وخاصة صلة ثيوفانيس وكدرينوس . وخلاصة ما ذكراه هو أن الإمبراطورة ثيودورا Theodora مارست السلطة كوصية على ابنها ميخائيل الثالث Mi-chael III عقب وفاة زوجها ثيوفيل عام ٨٤٢م ، ولما نجحت في إعادة عبادة الصور والأيقونات عام ٨٤٣م ، حرصت على أن تحقق نجاحا مماثلا في هذا المضمار بالشرق ، بأن عقدت العزم على إعادة البيالصة اللاأيقونيين بكولونيا إلى الأرثوذكسية ، وإلا استأصلت شأفتهم . ولما وجدت أن الوسائل الدبلوماسية لم تجد معهم أرسلت ثلاثة من القادة هم ليو أرجيري Leo Argre ، وأندرونيكوس دوكاس Andronicus Doucas وسوداليس Soudalis ، على رأس جيش قوى لحسم الأمر بحد السيف . وبدأوا بمصادرة أموالهم لصالح الخزانة العامة ثم أعملوا فيهم السيف بحماس وحميه دينية ، وسقطت من البيالصة أعداد غفيرة من القتلى والأسرى (٣٦).

في غضون ذلك كان شخص يدعى كارباس يشغل منصب بروتوماندатور Protomandator ، تحت إمرة ستراتيجوس ثيم الأناضول المدعو ثيودوتوس مليسنوس

معه Theodotos Mellissenos . وبمجرد أن علم أن والده من بين القتلى فى كولونيا هرب معه نحو خمسة آلاف من المنشقين إلى عمر بن عبد الله الأقطع أمير ملطية ، فرحب بهم ثم أرسلهم للخليفة العباسى - أى الخليفة المعتصم - فأحسن استقبالهم ووطنهم فى أرجا مون وأمارا ، ولما ضاق بهم المكان بعد أن نزحت إليهم أعداد كبيرة من ذويهم ، قام كارباس ببناء مدينة تفريك لاستيعاب هذه الأعداد واتخذها منذ ذلك الحين حاضرة للبيالصة(٣٧).

غير أن صاحب صلة ثيوفانيس لم يذكر هو الآخر تواريخ محددة لهذه الأحداث . إلا أننا يمكننا أن نوفق بينه وبين ما ورد برواية " شهداء عمورية الاثنان والأربعون " التى بموجبها كان كارباس عام ٨٤٤م على الأكثر زعيما للبيالصة المقيمين بالأراضى الإسلامية من ناحية ، وما ذكره كل من بطرس الصقلى والبطريرك فوتيوس من ناحية أخرى ، وذلك بأن نتبنى فترة ضيقة من الزمن . ذلك أن البيالصة وجدوا أنفسهم - فى العام التالى (٨٤٣-٨٤٤م) من ممارسة الإمبراطورة ثيودورا الوصاية على ابنها ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) وإعادتها النهائية لعبادة الصور والأيقونات المقدسة ، وتوجيهها حملة الاضطهاد السابقة الذكر ، وهروب كارباس فى أعقابها مباشرة ومن معه من رفاقه إلى ديار الإسلام - وسط تلك الأزمة التى ألمت بهم فى حاجة ماسة لزعيم يقودهم . فرأوا أن قدرات كارباس تؤهله لشغل هذا المركز ، لذا اختاروه زعيما عليهم . ويعنى هذا أن البيالصة لم يعودوا يحرصون على معلم روحى بقدر ما أصبحوا يحرصون على أن يقودهم قائد عسكرى . ولا ريب أن الظروف المحيطة بهم هى التى فرضت عليهم ذلك . وكان اختيارا موفقا ، ونجح كارباس فى شن العديد من الحملات وغارات السلب والنهب من أرجا مون وتفريك ضد الأراضى البيزنطية سواء بمفرده أو بمساعدة أمير ملطية . ومن ثم فأصول ما يمكن أن نسميه بدولة بيالصة كارباس ترجع لعام ٨٤٣-٨٤٤م (٣٨).

صحيح أنها كانت دولة صغيرة ولكنها أصبحت حرة بعد تخليصها من وطأة التبعية المباشرة دون أن يقطع كارباس علاقته الوثيقة بهم والتى وصلت لدرجة أن اتهمه البعض باعتناق الإسلام ، ويرجع هذا الحرص من جانبه إلى أنه لا يزال بحاجة للدعم العسكرى من جانب أمير ملطية ، وأمير طرسوس فى صراعه مع بيزنطة . وأخذت قوة هذه الدويلة تزداد يوما بعد الآخر بفضل تدفق أعداد البيالصة إليها من كل حدب بعد ما سمعوا بهذه النجاحات ، وبفضل عائد غارات السلب والنهب وفداء الأسرى وأن كارباس كان يعمل لحسابه دون

المسلمين كلما وجد لديه القدرة على ذلك (٣٩). وبهذا يتضح أن العداء المشترك لبيزنطة جمع بين المسلمين والبيالصة ، وجعلها في خندق واحد في مواجهتها .

ولا شك أن تأسيس مدينة تفريك يعتبر أهم حدث في تاريخ كاربياس . ومع ذلك لم يذكر كاتبنا تاريخا محددا له وكل ما ذكره هو دوافع كاربياس لإنشاء هذه المدينة ، وهي ليكون على مقربة من الأراضي البيزنطية لشن الغارات على الأراضي البيزنطية ولاستقبال الفارين من اضطهاد بيزنطة ، والأهم من ذلك هو الهروب من التبعية للمسلمين . واختلفت هذه الدوافع بعض الشئ لدى البطريرك فوتيوس ، حينما بالغ متهما العرب المسلمين بأنهم كانوا يجردون البيالصة من كل شئ خشية من تنامي قوتهم ، وأنهم كانوا حاقدين ومتعصبين مما جعل بعض البيالصة يمارسون عقيدتهم سراً بل والتظاهر باعتناق الإسلام ، مما جعل كاربياس يسعى على قدم وساق لإنشاء تفريك(٤٠) .

هنا يمكن أن نفترض أن هجرة كاربياس من أرجا مون وتأسيسه لتفريك كان قبل عام ٨٥٦م. لأنه ما كادت الإمبراطورة ثيودورا تعزل من الحكم في ذلك العام ، حتى نشط البيالصة بالتعاون مع المسلمين في قتال البيزنطيين . ورد بتروناس Petronas ، أخو ثيودورا ، والذي كان يشغل منصب ستراتيجوس ثيم التراقسيون بأن قاد الجيش البيزنطي في صيف عام ٨٥٦م وشن بعض الغارات على سميساط وآمد Amida ثم تقدم نحو الشمال الغربي كي يصل لتفريك ، ليقضي على كاربياس بها ، وأحرق عدة قرى في طريقه إليها ، وأسر الكثيرين من الأعداء ، إلا أنه لم يواصل زحفه وعاد إلى بلاده قبل أن يصل تفريك . وتتبعه عمر بن عبد الله الأقطع وكربياس على رأس قواتهم فلم يدركوه (٤١).

وكيفما كان الأمر ، استمر كاربياس في مشاركه المسلمين صراعهم مع بيزنطة ليس حبا فيهم ولكن لتحقيق المزيد من الانجازات لصالح بني جلدته ويتضح هذا في عام ٨٥٩م . ذلك أن الإمبراطور الشاب ميخائيل الثالث قاد في هذا العام وبصحبته خاله بارداس Bardas وبتروناس حملة ضد المسلمين في آسيا الصغرى ، وعند سميساط انقض المسلمون وحليفهم كربياس على الجيش الإمبراطوري ، وأحدثوا فيه القتل ولم ينج الإمبراطور إلا بصعوبة . وأبلى كاربياس في هذه المعركة بلاء حسنا وأسر نحو مائة من كبار الجيش البيزنطي مما جعل بيزنطة تدفع مبالغ كبيرة لفدائهم (٤٢). ومنذ ذلك الوقت أصبح كاربياس واحدا من أكثر الشخصيات خطرا على بيزنطة حتى قبل أن تماثله كان يقف في إحدى الكنائس الأرثوذكسية

إلى جانب تماثيل القادة المسلمين الذين كانوا مصدر قلق للإمبراطورية البيزنطية (٤٣). ورغم هذه المبالغة إلا أنها تعبر عن مدى تأثيره هو وأتباعه على صناع القرار البيزنطى فى تلك الأونة .

لم يمتد العمر طويلا بكاربياس وتوفى عام ٨٦٣م دون أن يشارك في الحملة التى قام بها عمر بن عبد الله الأقطع على الأراضى البيزنطية ودمر فيها ثيم الأرمنياق وواصل سيره باتجاه الشمال حتى وصل لسواحل البحر الأسود . وردا على ذلك جهز الإمبراطور ميخائيل الثالث فى عام ٨٦٤م جيشا قوامه نحو خمسين ألفا من الجنود المسلحين وجعله تحت إمرة بتروناس قائد التراقسيون ، وتمكن هذا الجيش من الأحاطة بالجيش الإسلامى عند بوزون Poson بالقرب من نهر Lalakaon وقتل عمر بن عبد الله الأقطع ، دون أن يرد ذكر أو أى إشارة للبيالصة فى هذه المعركة . ولا نعرف لماذا لم يحاول البيزنطيون بعد معركة Poson أن يقضوا على البيالصة بمقرهم فى تفريك ؟ ربما كانت هناك خطة منظمة وبتاريخ محسوب ، ويحتمل أنهم ظنوا أن هزيمة الجيش الإسلامى ومقتل أمير ملطية يكفيان لإضعاف قوة البيالصة (٤٤).

لكن أثبتت الأحداث عكس ذلك ، وبلغت الأزمة ذروتها بين الإمبراطورية والبيالصة فى عهد خليفة كاربياس المدعو كريزوشير Chrysocheir . وضن علينا بطرس الصقلى وفوتيوس فى هذه المرة بالكثير من المعلومات عن هذا الزعيم ، ولعل هذا يرجع إلى أنه كان رجلا عسكريا بالدرجة الأولى ، وغالبا لم يعر أى منهما اهتماما يذكر بالأحداث السياسية والعسكرية ، بل كان هدفهما الرئيسى هو الهرطقة وكيفية دحضها . ولذلك كان كل ما ذكراه أن كاربياس خلفه ابن أخيه وصهره كريزوشير على رأس الطائفة البوليصية (٤٥). وكان كريزرشير سليل أسرة عريقة ، وكان مثل كاربياس قائدا عسكريا ولكن برتبة سباثاريوس Spatharius وربما كانت صلته بعمه الراحل سببا رئيسا فى اعتناقه الهرطقة . ويبدو أن البطريرك فوتيوس كان متوقعا ذلك وتخوف منه ولذلك كتب له ثلاث مرات قبل أن يعتنق الهرطقة . الأولى كى يقوى أيمانه الأرثوذكسى ، والثانية يحذره من المخاوف والشكوك التى تحوم حول مدى صدق أرثوذكسيته والشعور بميله نحو البيالصة وما يجب أن يفعله ليبدد هذه المخاوف ، والثالثة يخبره بانكشاف أمره وسوف يدينه كمرتد . ولكن با ءت كل هذه الجهود بالفشل وانحاز كريزوشير للهرطقة وهرب عند عمه كاربياس فى تفريك فاستقبله بالترحاب وزوجه من ابنته وريثا له . ولكن تعالت أصوات بعض المحدثين بأن هناك شخصا أخر معاصرا يحمل اسم حنا كريزوشير Johon Chrysocheir وكان البطريرك فوتيوس أيضا على صلة به

وقطعها ، مما يجعلنا لا نستطيع أن نجزم بصلة القرابة بين كريزوشير وكارابياس . إلا أنه يصعب علينا أن نسلم بوجود تطابق تام بين الشخصيتين ، لعدم وجود أدلة قاطعة على ذلك من ناحية . ولأنه حتى لو كان هناك بالفعل شخص يدعى حنا كريزوشير فمن الممكن أن يكون أحد رفاق القائد كريزوشير أو عمه كارابياس (٤٦).

وعلى أي حال ، كان كريزوشير خلفا جديرا بخلافه صهره حيث شرع لعدة سنوات في إعادة تنظيم القوات البوليصية ، مما جعل الإمبراطور باسيل الأول يظن أن البيالصة وهنت قوتهم وأن الفرصة أصبحت سانحة لتوجيه نشاطه العسكرى نحو غرب البحر المتوسط لتسديد ضربة قوية للمسلمين – أى الأغالبة – فى جنوب إيطاليا ، وذلك عن طريق نقل بعض الفرق من قوات الإمبراطورية المرابطة بآسيا الصغرى والمكلفة بالدفاع عنها ، إلى الغرب . ومع أن المصادر لم تشر صراحة إلى جهود باسيل الأول لإعادة توزيع القوات الإمبراطورية ، فإن كفاحه فى الغرب خلال الفترة التالية يؤيد مثل هذا الاستنتاج(٤٦).

تصرف كريزوشير على الفور عندما علم بتحركات باسيل الأول نحو الغرب دون أن يطلب مساعدة المسلمين ليس لأنه كان ينوى القيام بغارات لا تحتاج لمساعدتهم ، ولكن لعظم قواته وحسن تخطيطه مما جعله مطمئنا لنجاح مشروعه التوسعى على حساب الإمبراطورية البيزنطية وبدأ هذا المشروع بأن توغل على رأس قواته داخل أراضيها ، وشن فى عام ٨٦٨-٨٦٩م حملة قومية نجح فيها فى اجتياح منطقة نيقوميديا Nicomedia ونيقية على شواطئ البروبنطس Propontis أى شواطئ بحر أيجه ، وسلب منطقة ثيم التراقسيون حتى مدينة إفسوس Ephesus على البحر الإيجى (٤٨). ومن المؤكد أن نجاح البيالصة فى حملتهم يرجع لحد كبير إلى تخفيض باسيل الأول حجم القوات البيزنطية بالأقاليم الشرقية . صحيح أن هذا لا يعنى أن كل الولايات الشرقية جردت من قواتها ، ولكن تم نقل القوات الأكثر فعالية فيها . مما أعطى كريزوشير الفرصة لإلحاق الدمار ببعض الأقاليم البيزنطية بشكل أربك الإمبراطور الجديد فى بداية عهده .

يمكننا معرفة أسباب غارات كريزوشير على المناطق السابقة فى بيثينيا Bithynia البيزنطية (ثيمى الأوبتيماطى Optimates والأوبسيق Opsikian) وثيم التراقسيون دون سواها . ذلك أنه كان هناك اثنان من كبار القادة عارضا تولى باسيل الأول عرش الإمبراطورية وهما سمباتيوس Symbatius ، ستراتيجوس ثيم التراقسيون ، وصديقه جورج بجانس George Peganes . ورغب كريزوشير فى كسب هذين القائدين لجانبه ولم شمل أتباعهما من ناحية ،

كما سعى لاستغلال الشعبية الكبيرة التى كان لا يزال يحظى بها الإمبراطور ميخائيل الثالث رغم وفاته ، من ناحية أخرى . والأهم من كل ذلك هو أن مناطق ثيمى بيثينيا والتراقسيون كانت من أكثر الأقاليم الإمبراطورية غنى وكثافة سكانية . وهكذا كانت دوافع كريزوشير سياسية واقتصادية فى آن واحد (٤٩).

وحتى الطريق الذى سلكه كريزوشير فى هذه الحملة كانت وراءه دوافع استراتيجية . فالمنطقة بين نيقوميديا ونيقية كان يمر بها الطريق إلى ملاجينا أبلكتا Melagina Aplekta ، تلك القلعة التى تقع على الطريق العسكرى إلى الشرق والتى كانت تتجمع بها قوات المناطق المحيطة والقريبة منها - ومن بينها القوات التابعة لاستراتيجوس الأوبتيماطى ولكونت الأوبسيق - انتظارا لوصول الإمبراطور البيزنطى كى ترافقه فى زحفه نحو الشرق ، كما كانت أيضاً استراحة للركب الإمبراطورى أثناء مروره بها . وبالتالى فهى قلعة ذات موقع هام للإمبراطورية ، ورغب كريزوشير فى حرمانها منها (٥٠). ويتبادر للذهن هنا ملاحظة هامة ، وهى أن أى استراتيجية تحبذ الحل العسكرى كى تكون ناجحة لابد لها من توفير عنصرين هامين ، قواعد ثابتة وشبكة طرق آمنة . وغياب أحدهما بالنسبة لكريزوشير كان سيحول دون نجاح أى هجوم يفكر فى القيام به على ملاجينا أبلكتا . ولو أضفنا إلى ما سبق عنصرى الوقت والمباغتة ، لأصبحت كل دوافع كريزوشير واضحة تماما .فمما لاشك فيه أن اختياره توقيت انشغال باسيل الأول بالغرب ومباغته الأراضى البيزنطية كان وراء تحقيقه هذا النصر(٥١).

لمواجهة هذا التهديد الخطير كان على باسيل الأول أن يختار حلا من ثلاثة : إما أن يستدعى قواته من الغرب ويتخلى عن توجهه الغربى ، إما أن يحتال على كريزوشير لبعض الوقت ويتظاهر بالرغبة فى التفاوض معه إلى أن يتمكن من إسقاطه ، أو يحاول من خلال الدبلوماسية أن يعالج سياسة بيزنطة الخاطئة تجاه البيالصة وربما ينجح فى إعادتهم للكنيسة الأرثوذكسية . ورفض باسيل الأول الحل الأول لسببين : الأول ، خوفه من احتمالية أن تدور الدائرة عليه من جانب المسلمين ، والثانى ، رغبته فى محاكاة قادة بيزنطة العظام أمثال جستنيان الأول وغيره(٥٢). ورفض الحل الثانى أيضا ، لأنه لا يعرف كم من الوقت سيحتاج لينهى مشروعه فى الغرب . أما الحل الثالث ، فرأى أنه أفضل الحلول ، ولذلك أرسل فى عام ٨٦٩ / ٨٧٠م بطرس الصقلى كسفير له للتفاوض مع كريزوشير من أجل إحلال السلام ،

ولتبادل الأسرى . بذل بطرس الصقلى قصارى جهده واستخدم كل الوسائل الدبلوماسية المتاحة فى ذلك الوقت ، من منح وعطايا من الذهب والفضة والملابس لإنجاح مهمته . ولكن دون جدوى وفشلت هذه السفارة فى تحقيق أى نتائج تذكر (٥٣). بل على العكس ، اعتبر كريزوشير هذه السفارة دليلا على ضعف الإمبراطورية البيزنطية ولذلك أعاد السفير الإمبراطورى ، بعد نحو تسعة شهور من المفاوضات المستمرة ، وحمله أنباء مفادها أن البيالصة كانوا دائما على اتصال بإخوانهم الذين وطنهم الإمبراطور قسطنطين الخامس قبل نحو قرن من الزمان في تراقيا ، إلى جانب رسالة سيئة للإمبراطور يقول له فيها " أيها الإمبراطور ، إذا كنت فعلا ترغب فى تحقيق السلام معى ، فعليك أن تتخلى عن الشرق - أى عن آسيا الصغرى - وتقصر نفوذك على الغرب - أى على جنوب إيطاليا - وإن لم تفعل ذلك فسوف نعجل بطردك من إمبراطوريتك " (٥٤) .

انقضاء نحو عامين ، منهما تسعة أشهر أقامها بطرس الصقلى فى تفريك ، فى المفاوضات وجد الإمبراطور باسيل الأول نفسه مضطرا للتخلى عن طلب احلال السلام ومواجهة تحدى هؤلاء الهراطقة . باستثناء ليو السادس (٨٨٦-٩١٢م) Leo VI ، نموذجا واحتذى فى مواجهة الأعداء لفترة قاربت القرنين من الزمان ، هى عمر الأسرة المقدونية . ذلك أن الإمبراطور باسيل الأول جمع فى خططه بين النظامين الدفاعى والهجومى واعتمد فى ذلك على سرعة حركة وتنقل الجيش البيزنطى . وكان هذا خير دليل على قدرة بيزنطة على البقاء والاستمرار (٥٥).بدأت الخطوة الأولى فى مشروع باسيل الأول العسكرى ضد البيالصة بتشكيل جيش قوى من المجندين الجدد نجح فى سد العجز الحاد فى قوات المشاة ، وبعد الانتهاء من الاستعدادات اللازمة قاده بنفسه عبر مضيق البسفور إلى خلقدونية ليسلك الطريق البرى المتجه نحو الشرق إلى جانب هذا الجيش تجمعت فى نقاط مختلفة على امتداد هذا الطريق الكثير من الوحدات الثيمات انتظارا لمرور الإمبراطور كى تنطوى تحت لوائه فى حملته الشرسة على البيالصة . إلا أن تجمع هذه القوات فى نقاط مختلفة جعل من الصعب معرفة العدد الحقيقى للجيش الذى قاده الإمبراطور باسيل الأول ، ولذلك لم ترد بالمصادر أى معلومات عن هذا الأمر (٥٦).

لكن من المؤكد أنها كانت قوات هائلة تتناسب مع الهدف الذى خرجت من أجله ، وهو

التدمير الشامل للقوات البوليصية وضم أراضيها للقضاء عليها كقوة عسكرية جديدة ناهضة في المنطقة قبل أن يستفحل خطرها ، ولحماية الثيمات الشرقية من أي غارات من جانبها . من ناحية أخرى لم يكن الهدف العسكري هو هدف باسيل الأول الوحيد ، بل كان هناك هدف سياسي أيضا ، وهو تحقيق شعبية كبيرة بين رعاياه . وكان لابد من برهان حقيقي على ذلك ، بأن تنجح الحملة في أداء مهمتها . ولكن واجهت الإمبراطور مشكلة صعبة وهي كيفية الوصول إلى تفريك كهدف جغرافي . فلو خطط للوصول إليها مباشرة لخطط كريزوشير هو الآخر لمواجهة مباشرة مما يسهل عليه أمر مواجهة هجوم الإمبراطور ، فالتحرك المباشر نحو العدو يعزز توازنه المادي والمعنوي بدرجة تزيد من قدرته على المقاومة . ولذلك حرص الإمبراطور باسيل الأول على إخلال توازن كريزوشير بتهديده لأهداف مختلفة في آن واحد عن طريق خطة متعددة المراحل (٥٧). دمرت خلالها قرى بأكملها ، وسقطت مناطق عدة ومعها أعداد من الأسرى ، كما فرض الحصار على مجموعة من القلاع الواقعة على أطراف كل من أبارا Abara وسباث Spathe وكوبتوس Koptos ، والتي رغم ضخامة صخورها وشدة انحدارها ومنعتها الطبيعية لم تصمد أمام حصار القوات الإمبراطورية . وبذلك يكون باسيل قد أحبط وبضربة واحدة حركة كريزوشير وحال بينه وبين حصونه ، ومنع عنه حلفاءه وهدد مصادر دعمه ، وضمن لنفسه قاعدة عسكرية في عمق الأراضي البوليصية (٥٨).

كان لهجمات باسيل الأول أثرها ولو مؤقتا على كريزوشير إذ جعلته يشعر بالقلق وقلة الحيلة إلا أن خبرته العميقة وتشبعه بأساليب القتال البيزنطية منذ أن كان يخدم بالجيش البيزنطي ، جعلته يتصرف بشئ من الحنكة ، وبدلا من أن يقاوم باسيل الأول تراجع وبكل بساطة عائدا إلى عاصمته تفريك بهدف استدراج الأعداء إلى قلب دولته وتوجيه ضربة قوية لهم . ونجحت الخطة واتجه الجيش الإمبراطوري نحو تفريك ولكن مدمرا لكل شئ في طريقه دون أن يعوقه عائق . ومن ناحية كريزوشير فحصانة أسوار عاصمته ومنعتها جعلته مطمئنا بداخلها دون أن يتخلى عن المقاومة (٥٩). وتمكن ، وفقا لسيميون اللغثيت Symeon Log-othete بعد معارك ضارية مع الجيش البيزنطي من إجباره على فك الحصار بل وإلحاق الهزيمة به ، ولم ينج الإمبراطور من الأسر إلا بأعجوبة (٦٠).

أما صاحب سيرة باسيل فوزع أحداث هذه الحملة على عامي ٨٧١-٨٧٢م . رأى

الإمبراطور بعد عدة مصادمات فى العام الأول (٨٧١م) أن حصانة أسوار تفريك ومنعتها تحول دون سقوطها بسهولة ، ولذلك رفع الحصار عنها وأغار على كل من أبارا وسباث حتى سقطتا فى يديه ، ووطن بهما بعض الحاميات ثم جمع ما بهما من أسلاب وغنائم واتجه عائداً إلى القسطنطينية . فاستقبله سكانها بالهتافات الحارة وتوجه بطريريك العاصمة بتاج النصر إلى كنيسة القديسة صوفيا St.Sophia (٦١).

يبدو أن الأمر قد التبس على سيميون اللغثيت حينما ذكر أن الهزيمة قد حاقت بالإمبراطور، لأن الذى أصاب الجيش البيزنطى كان مجرد انتكاسة ، لما واجهه من مصاعب ، تسببت فى تراجعه عن تفريك لا هزيمته . من هذه المصاعب قلة المؤن فالجيش البيزنطى كان كبير العدد ، وإذا كانت الثيمات البيزنطية قد زودته ببعض احتياجاته من الجنود وأعلاف لثيرانه وخيوله أثناء مروره بنقاط قريبة منها ، فإن هذا المدد انقطع عقب ابتعاده عنها وتوغله فى أراضى البيالصة . وبالتالى أصبح على الإمبراطور أن يحصل على احتياجات جيشه من أسلابه وغنائمه بأرض الأعداء . إلا أن سياسة الحرق والتدمير التى مارسها بأراضيهم ليحرمهم من بعض مصادر إمدادهم ، حرمته هو الآخر من نفس المصدر . وحينئذ أدرك باسيل الأول أن طول فترة حصار تفريك سيؤدى إلى نفاذ ما لديه من مؤنه لجنوده وأعلاف لحيوناته مما قد يضطره للتجول بحثا عن مثل هذه المؤن فيعرضه ذلك لكمائن العدو . ولهذا وجد الإمبراطور أن الإنسحاب أمر ضرورى . ولا يوجد دليل على أنه انسحب على أثر هزيمة لحقت به ، بل على العكس كان تراجعه منظما بدليل أنه استولى أثناء عودته بالأسلاب والغنائم . وكانت النتيجة المباشرة أن أخذت بعض القلاع البوليصية على امتداد مرتفعات تفريك جنوب منطقة توماخاما- سو Tomakhama -Su - ميلاس وكيوباكيب Milas, Kubakib حالياً - فى التخلى عن كريزوشير والانضمام لجانب الإمبراطور والعودة لحظيرة القسطنطينية (٦٢).

لما وجد كريزوشير نفسه عرضه لهجوم آخر من جانب الجيش البيزنطى أعد عدته للقيام بهجوم مضاد دون أن يلجأ لحلفائه العرب . وكانت خطته تنطوى على قطع خطوط الاتصالات البيزنطية وتشتيت مراكز قيادتها ، كما كان يأمل فى إعاقة وشل حركة الجيش البيزنطى . وربما رأى فى خطته هذه الأمل الأخير فى استعادة خسائره . ولذلك قام فى عام ٨٧٢م بالتوغل داخل أنقره Ancyra بثيم البقلار Buccellarion ، فقطع بذلك الاتصال بين ثيمى الأرمنياق وخرسون (خرشنة فى المصادر الإسلامية) Chersianon وكذلك بين نقطتى التجمع

أبلكتا فى قيصرية ودزايمون Dazaimon ، كما هدد حصن سانيانا Saniana العظيم ذا الأهمية الاستراتيجية لوقوعه على الضفة الشرقية لنهر هاليس Halys (٦٣). وهاجم كريزوشير فى طريق عودته منطقة كوماتا Commata فى جالاتيا Galatia الجنوبية مما هدد بقطع الاتصالات بين كابوركيون Kaborkin وكونونيا – أرخلايس Kononeia - Archelais وكذلك الاتصالات بين الأخيرة وأنقرة . وكان يهدف كريزوشير من وراء ذلك إلى إخلال التنظيم الجيد للجيش البيزنطى عن طريق قطع همزة الوصل بين قيادة ذلك الجيش وأجنحته (٦٤).

ورداً على هذه الغارات الخطيرة ، وضع الإمبراطور باسيل الأول جيشاً قويا فى نفس عام ٨٧٢م تحت إمرة زوج ابنته كريستوفر الذى كان يشغل منصب رئيس حرس القصر Do-mesticus Scholarum ، ووجهه للقضاء على كريزوشير . ولعلم كريستوفر بمدى كفاءة وخبرة خصمه العسكرية ، التزم الحذر فى كل تحركاته . ووضع خطة تتناسب مع كل تحركات خصمه كى تؤدى فى النهاية للإيقاع به فى كمين محكم . بأن كلف قوة صغيرة بمراقبة البيالصة دون أن يشعروا بذلك إلى أن وصل جيش كريزوشير إلى المنطقة Bathus Rhyax واضطر أن يعسكر عندها لحلول الليل . وعلى الفور صدرت الأوامر بتحرك الجيش البيزنطى ليعسكر على سفح جبل زوجولوين Zwgoloene المجاور ذى الغابات الكثيفة والتضاريس الصعبة (٦٥).

انقض البيزنطيون بصيحاتهم المدوية – الغلبة للصليب – على معسكر البيالصة مع بزوغ الفجر . وكان هول المفاجأة شديداً حتى أن البيالصة لم يعرفوا من أى اتجاه يأتيهم الهجوم . وحاقت بهم هزيمة مروعة قتل فيها الآلاف منهم ، وحاول كريزوشير نفسه الهرب مع قلة قليلة من أتباعه . وكان من بين هذه القلة رجل بيزنطى يدعى بولادس Pulades كان من بين الأسرى البيزنطيين عام ٨٧٠م ، ولظرفه وحسن طلعته قربه كريزوشير منه ليسليه . إلا أن بولادس لم ينس أن كريزوشير عدو له ولبنى جلدته إلى أن جاءت هذه الفرصة وتظاهر بالهرب معه . وما إن اقترب منه على بعد ثلاثين ميلا من أرض المعركة عند مكان يعرف بجبل قسطنطين ، حتى طعنه من الخلف فسقط عن جواده ولم يتركه البيزنطيون حتى فصلوا رأسه عن جسده ثم أرسلوها إلى القسطنطينية . ورشقها الإمبراطور ، وسط حفل أعد بمناسبة هذا النصر ، ثلاث مرات كى يبر بقسم أقسمه فى الانتقام من صاحبها . ولا شك أن وفاة كريزوشير أثلجت صدر

الإمبراطور كما أنها حطمت مقاومة البيالصة وجعلت أغلبهم يهجرون تفريك . فما أن وصل الجيش الإمبراطوري إليها في أعقاب هزيمته للبيالصة حتى وجدها شبه خالية من السكان فاستولى عليها وضمها للإمبراطورية البيزنطية (٦٦).

لم يذكر لنا بطرس الصقلي أو غيره من المصادر ما فعله الإمبراطور بالبيالصة في أعقاب هذا النصر ، أما المؤرخ الإنجليزي رنسيمان .Runciman فيرجح أن باسيل الأول عقب القضاء على القوة السياسية للبيالصة لم يستمر في إهانتهم أو إذلالهم ، بل تغاضى عما فعلوه ، وأقام بعضهم على الحدود الشرقية للإمبراطورية في مواجهة المسلمين وأدخل الكثيرين منهم في الخدمة العسكرية ضمن قوات الجيش الإمبراطوري وها هو ديلكونيتز Diaconitzes الصديق المخلص لكريزوشير يقوم بعد عدة سنوات بمآثر بطولية رائعة دفاعا عن الوجود البيزنطي في إيطاليا(٦٧). وبناء على ما سبق شنت بيزنطة حملتين ضد البيالصة ، احداهما عام ٨٧١م ، وكانت بقيادة الإمبراطور باسيل الأول ولم تتحقق كل أهدافها المرجوة ، والأخرى كانت في العام التالي بقيادة صهره كريستوفر ، وانتهت بالاستيلاء على تفريك ، ومع ذلك نسب النجاح لباسيل الأول كي يتم محو وصمة فشله في الحملة الأولى .

هكذا جاء الاحتكاك العسكري بين البيالصة وبيزنطة نتيجة لرفضهم عرض الإمبراطور - خلال سفيره بطرس الصقلي - بتبادل الأسرى وإحلال السلام وازدياد نشاطهم الديني ، ذلك النشاط الذي جعلهم يخرجون على الأرثوذكسية ويشقون عصا الطاعة على الإمبراطورية . وكي تكتمل الصورة لابد من تتبع الفكر الديني جعل البيالصة يناصبون الإمبراطورية العداء لفترة طويلة من الزمن .

الواقع أن بطرس الصقلي تعرض لفكر البيالصة الديني وحاول قدر استطاعته أن يفنده . كان أهم ما يميز العقيدة البوليصية هو انحدارها المباشر من المانية . ويتضح من مقارنة معتقدات البيالصة بالمانيين أن نظرية بطرس الصقلي ، التي جعلت من النحلتين وجهين لهرطقة واحدة ، صحيحة إلى حد كبير (٦٨). يدعم ذلك أن الثنائية البوليصية تشبه ثنائية ماني في كثير من مبادئها . فكان البيالصة يؤمنون بمبدأين الأول خير ، والثاني شر . الأول يمثله إله الخير وهو خالق وسيد العالم الآخر الذي قالوا عنه " إنكم لا تسمعون صوته ولا ترون وجهه " ، والثاني يمثله إله الشر خالق العالم الظاهري وحاكمه . وبموجب ذلك فالعالم المادي هو نتاج مبدأ الشر ، وبالتالي لم يقبل البيالصة عقيدة التجسيد النصرانية . إذ كيف يكون السيد

المسيح ، الذى جاء من الملأ الأعلى ، رسولا يتجسد فى جسد ينتمى لعالم الشر ؟ ولذلك اضطروه لاختلاق فكرة جديدة عن النصرانية ، جعلوا بموجبها السيد المسيح من أصل سماوى ، وحينما تجسد تجسد فى الظاهر فقط. وأوصلهم ذلك لانكار أمومة وعذرية العذراء مريم ، فأمه القدس السماوية دون سواها . ولأن هرطقتهم قامت على عدم التسليم بكل التعاليم الأساسية للنصرانية فقد أنكروا أيضا الكثير من تلك التعاليم الشفوى والمكتوب منها (٦٩). كما رفضوا العهد القديم وكذلك رسالة بطرس الصقلى الأولى والثانية والقربان المقدس وفسروا الكلمات التى تشير إليه فى الإنجيل على أنها ذات معنى مجازى لشئ آخر . ويتكون القانون الكنسى للبيالصة من أربعة نصوص إلهية ، وأربع عشرة رسالة للقديس بولص ، ورسالة يعقوب ، ورسالة يوحنا الأولى والثانية والثالثة ، ورسالة يهوذا ، فضلا عن أعمال الرسل . ويؤمنون بالأناجيل الأربعة وإن كانوا يفضلون إنجيل لوقا عما سواه . وكانت نظرتهم للقانون الكنسى محكومة بثنائيتهم الكونية التى تميزت بالعقلانية (٧٠).

لم يرفض البيالصة التعاليم الأساسية للأرثوذكسية فقط ، بل ونظام الكنيسة بأكمله وخاصة المتعلق منه بالقساوسة . ولا تخبرنا المصادر البيزنطية إذا ما كان لديهم قساوسة وكهنة أم لا ، ولكن نفهم مما أوردهم بطرس الصقلى أن لديهم رؤساء دينيون مثقفون كانوا لا يميزون أنفسهم عن غيرهم من الرعية . كما كانت لديهم نخبة من الملقنين الذين يقومون بإعادة تعميد رؤسائهم وبأسماء بوليصية أصيلة . ولا يحصل على لقب باراقليط Paraclet (الروح القدس) إلا من بلغ أعلى درجات التدريب والتلقين . وكان البيالصة يبغضون الكنائس الرسمية ورفات القديسين . وانصاعوا من البداية للأوامر التى تحثهم على مناهضة الصور المحفورة ، ثم تحولوا بعد ذلك لمناهضة عبادة الصور والأيقونات حتى أنهم كانوا يحطمون الصور والصلبان قدر استطاعتهم . وكحراس للإيمان الحقيقى أطلقوا على أنفسهم اسم النصارى ، بينما أطلقوا على البيزنطيين اسم الرومان Romans . وكانوا يفضلون بدأ أى حوار بالسؤال ، أخبرنى عن الذى يفرق بيننا وبين الرومان ؟ كما كانوا يمقتون الرهبان اعتقادا منهم أن الرهبانية أوحاها الشيطان للقديس بطرس الذى لقنها بدوره للبشر (٧١).

مع ذلك كان البيالصة يتظاهرون بالانصياع الكامل لتعاليم الكنيسة الأرثوذكسية ، لدرجة أنه كان من الصعب التمييز بينهم وبين سائر الأرثوذكس ، ولهذا السبب اتهموا بالنفاق . غير أن هذا النفاق أباحته تعاليمهم فى مواجهة الخصوم ، مما أفادهم فى الحيلولة دون تنفيذ حكم الإعدام على بعضهم فى كثير من الأحيان . كذلك اتصف البيالصة بالمرونة والشجاعة ، وشهد

لهم بطرس الصقلى بذلك وبإنكارهم للذاتهم وإقدامهم على التضحية بالنفس عند الضرورة . والحقيقة أن شجاعتهم أثناء شنقهم كان لها أثرها الملحوظ فى جذب الأعداء إلى عقيدتهم مثلما حدث مع القائد البيزنطى سيميون من قبل (٧٢).

لكن رغم الاقتناع الشديد بتأثر البوليصية بالمانية ، فسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن المانية كانت المؤثر الوحيد الذى أثر فى نمو البوليصية . ذلك أن بطرس الصقلى اعترف بنفسه أن كبار هراطقة البيالصة أضافوا بعض المصطلحات إلى الهرطقات القديمة ، وأن البوليصية ظهرت كشئ جديد (٧٣).

مما جعل بعض المحدثين يؤكدون على وجود علاقة بين البوليصية والماركيونية Mar-cinoian . ذلك أن التشابه بينهما كبير ويشير هؤلاء بوضوح إلى وجود اتصال بين الطائفتين ، ولم لا والماركونيون والبيالصة عاشوا فى منطقة واحدة ؟. فأرمينية التى كانت مليئة بالماركونيين – الذين كانوا فى نظر بيزنطة على صلة وثيقة بالمانية – فى القرن الخامس الميلادى أصبحت وطنا للبيالصة فى القرن السابع الميلادى . ثم ازدادت هذه العلاقة قوة بعد أن جمعهما العداء المشترك لبيزنطة ، مما جعل التشابه بين تعاليمهما يصل لحد التطابق فى بعض الأحيان . وقد تبدو الماركونية من هذا المنظور أكثر قربا للبوليصية عن المانية (٧٤).

بل ذهب البعض إلى اعتبار البيالصة خلفاء الماركونيين ، والعقيدة البوليصية مجرد تعديل للماركونية الأصيلة النقية . ولكن هذا الرأى يتعارض تماما مع ما ذكره بطرس الصقلى ويصعب التسليم به . غير أننا فى الوقت الذى نوافق بطرس الصقلى على رأيه بأن البوليصية تم اشتقاقها أساسا من المانية ، يجب أن نعترف بأن الماركويونية لعبت دورا هاما فى نهضة وتطور التعاليم البوليصية ، وأن الطابع الماركيونى كان له أثره المباشر وبنفس درجة المانية على الفكر العائدى لدى البيالصة . ومن ثم فالآراء التى ترى أن البوليصية انحدرت مباشرة عن المانية ، والآراء الأخرى التى ترى أن البوليصية كانت وببساطة مجرد أحياء للماركيونية ، ستكون غير دقيقة لو أخذنا ببعضها دون الأخرى ، فكلا من هذه الآراء يكمل الأخر وبشكل أساسى (٧٥).

هنا لا يمكننا الجزم بأن علاقة البوليصية كانت قاصرة على المانية والماركيونية ، بل لا نستبعد أن يكون لها علاقة أيضا ببعض النحل الأخرى كالماسليان Massalian وغيرها ، وخاصة فى الفترة المبكرة من تاريخها ، ولكننا بحاجة لأدلة على ذلك (٧٦).

كذلك نقل لنا بطرس الصقلي عن زعيم البيالصة سرجيوس - تاخيكوس قائمة بكنائس البيالصة المختلفة ومؤسسيها . ويجب أن نسجل هنا أن سرجيوس أعطى هذه الكنائس أسماء رمزية دون أن يحدد تاريخ نشأتها ومواقعها ، فأخذ بطرس على عاتقه مهمة التحديد الجغرافي لهذه الكنائس التي بلغت نحو سبع كنائس في أماكن مختلفة . الأولى كنيسة كيبوسا ، والثانية كنيسة أخايا ، وأسسها ججنزيوس - تيموثيوس في مانانالي ونلاحظ من اسم هاتين الكنيستين أنهما تحملان أسماء قرى ، أما باقي الكنائس الأخرى فسنجد أنها تحمل أسماء مدن . ولعل هذا يرجع إلى أن مقدونيا وأخايا كانتا ، من وجهة نظر البيالصة ، توازيان في المكانة الروحية بلاد اليونان باعتبارهما من المناطق التي بشر فيها القديس بولص من ناحية ، ولأن القديس بولص كان يجمع بينهما في كثير من الأحيان من ناحية أخرى (٧٧). أما الكنيسة الثالثة فهي كنيسة فيليبي Philippi التي لم يقترح بطرس الصقلي - دون أن يذكر سبب ذلك ، أي موقع لها . وكل ما ذكره أن الذي أسسها هو جوزيف - إيافراديت . وبالنسبة للثلاث كنائس الأخرى فمؤسسها هو المعلم سرجيوس - تاخيكوس ، الأولى كنيسة لاودكيا (اللاذقية) Laodicea في كونكريون Chonchorion بالقرب من نيو قيصرية ، والثانية كنيسة إفسوس Ephesus في منطقة ما بين النهرين ، والثالثة كنيسة كولوسا Colossa في أرجا مون بالقرب من ملطية . وإلى جانب هذه الكنائس الست ، هناك كنيسة أخرى اعتبرها البيالصة كنيستهم الأم ، وهي كنيسة كورنثه Corinth التي أسسها القديس بولص نفسه بكنيسة كورنثه بقيت الكنائس الست الأخرى لأتباعه الجدد (٧٨).

والشيء اللافت للنظر ، هو أن بطرس الصقلي في سرده ودحضه لمعتقدات البيالصة لم يتطرق للأسباب الحقيقية لقيام نحلتهم . ولا شك أنه كانت هناك أسباب مختلفة ، منها ما هو سياسي ، فها هو كريزوشير يرفض الموافقة على إحلال السلام إلا إذا تخلى له الإمبراطور باسيل الأول عن آسيا الصغرى ، بل وهدده أيضا بطرده من إمبراطوريته . ومنها ما هو ديني ، فتأثرهم بغيرهم من الطوائف الأخرى جعلهم يبغضون الكنيسة الأرثوذكسية التي تخلت من وجهة نظرهم عن دورها المنوط بها (٧٩). ولا يستبعد الباحث أن يكون البيالصة سعوا لاستغلال انهماك الإمبراطورية في مشاكلها الدينية وخاصة مشكلة الصراع الأيقوني لتأجيج نارها .

كانت هناك أيضا أسباب اجتماعية ترجع للأعباء الواقعة على كاهل الطبقات الفقيرة من المجتمع الحضري - ساكن المدينة - ولا يعني هذا أنها كانت ثورة قاصرة على الطبقة الكادحة

فقط ، بل شاركت فيها فئات مختلفة من المجتمع مثل السلاف فى تفريك ، وبعض جنود الثيمات ، بل وبعض ذوى الرتب العليا ، فسيميون كان مسئولا إمبراطوريا ، وكاربياس كان يعمل تحت إمرة ستراتيجوس ثيم الأناضول ، وكريزوشير عمل فى بداية حياته بوظيفة سباثاريوس Spatharios . كما شارك فيها أيضا الرعاة والمزارعون . كذلك لا تعنى النشأة الريفية لهذه الحركة أن لها خلفية ريفية أو عشقا للحياة التقشفية ، ولكن يرجع ذلك إلى أن الريف كان أكثر أمانا لها من المدينة فى تلك الفترة المبكرة . وبصفة عامة يمكن القول ، بأنها كانت بمثابة انتفاضة واسعة ضد رجال الإقطاع بالمجتمع البيزنطى(٨٠).

وكيفما كان الأمر ، كان البيالصة أحد الجماعات التى خالفت أفكارها ومعتقداتها الدينية صميم العقيدة الأرثوذكسية ، كما أنهم الجماعة الوحيدة التى شذت عن غيرها - من الجماعات المارقة فى آسيا الصغرى - باستخدامها السلاح لنشر أفكارها والدفاع عنها . ولا شك أن مجتمعاتهم كانت تعانى من فقدها الشرعية ، مما جعلها غير قادرة على أن تكون بمثابة القناة التى تربط بين النمو السريع للشقاق الدينى والثورة الاجتماعية ، ولذلك فبقدر ما كان مجدهم مشهودا كان قصير الأمد . بيد أنه إذا كان باسيل الأول قد نجح فى القضاء على ملكهم السياسى ، فإنه لم ينجح فى القضاء على مذهبهم الدينى(٨١) . مما جعل عقيدتهم تشكل رافدا أساسيا لحركة أخرى كانت لا تقل خطرا عنهم على بيزنطة وهى حركة البوجوميل وحركة التوندراكيت فى أرمينية ، والتى كانت امتدادا طبيعيا للبيالصة ، ولكن فى موضع آخر .

الهوامـــش

١- Lemerle., Pauliciens., pp. 18-20; Garsoian Heresy., p.94; Obolensky., Bogomils, pp. 29-30;

٢- Grégoire., Pauliciens, p.610; Mkrttschian., Paulikianer, pp. 13-16; Long Armenia, p. 182; Garsoian., Heresy, p.94; Lemerle., Paulikianer, p. 20.

٣- Petrus Siculus, Historia, cols. 1240-1349= Historie,pp. 3-67; Dictionaire, 12,pp. 2044-2045; Obolensky., Bogomils,pp. 30-31; G arsoian.,Heresy, p. 95.

ولمعرفة الأدلة على أن بطرس الصقلى هو صاحب الموجز أيضا أنظر :

Lemerle., Pauliciens, pp. 26-31; Loos., Mouvement, p.52.

٤- Lemerle., Pauliciens, pp. 24,117-118

لمزيد من التفاصيل عن رسائل سرجيوس - تاخيكوس . انظر :

Petrus Siculus, Historia, cols. 1293-1297= Historie,pp. 56-60.

٥- Petrus Siculus, Historia, cols. 1273= Historie,p. 36; Higoumène, Précis., p.80; Patriarch., Contra, col, 17 = Récit, p.120; Cedrenus, Historiarum, Vol. I.P.756; Anna Comnena., Alexiad, p.384; Euthymius Zigabenus., Dogmatica, Vol. 130, col. 1189; Obolensky., Bogomils,p. 54.

البيالصة فى المصادر البيزنطية هم البيالقة فى المصادر العربية انظر :

قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ٢٥٤ ، المسعودى : الأشرف ، ص ١٤٦، ١٧١ .

٦- Runciman., Manicheisme, p.49; Obolensly, p. 54; Dictionnaire, Vol. 12, p.57

٧- Mkrttschian., Paulikianer, pp.63-64; Obolensky., Bogomils.,p.55; Garsoian., Heresy., p,91. Runciman., Manichéisme, p.48.

أساء المسعودى ترجمة التاريخ الذى قصه البيزنطيون حينما جعل من بولص بن كالينيس المانية وبولص السميساطى أول بطاركة إنطاكية (٢٦٠-٢٦٨م) شخصا واحدا وذلك عندما ذكر " ... والبيالقة وهو المذهب الذى أحدثه بولص الشمشاطى ، وهو أول بطاركة إنطاكية ، وأصحاب الكراسى بها متوسطا بين مذاهب النصارى والمجوس وأصحاب الاثنين من تعظيم سائر الأنوار وعبادتها على مراتبها وغير ذلك .." ويعتبر التطابق بين الشخصين مستحيلا لأسباب تاريخية ، ففى سنة ٢٦٠م عندما أصبح بولص السميساطى بطريركا لإنطاكية كان مانى لا يزال يبدأ بالتبشير بعقيدته ، ولذلك يستحيل أن تكون والدة أسقف أنطاكية مانية . أيضا قصد المسعودى أن البيالصة كانوا أتباع بولص السميساطى وهذا ليس

بصحيح ، فقد أكد بطرس الصقلى أن البيالصة كانوا يلعنون بولص السميساطى . كما اعتبر بعض المحدثين أن العلاقة بين البيالصة وبولص السميساطى محض خيال ونتيجة للبس فى المعلومات ، لأن تعاليم بولص السميساطى تتعارض فى نواح كثيرة مع تعاليم البيالصة . أنظر : Petrus Siculus, Historia, cols. 1245= Historic,p. 12; Bogomils., pp.55-57; Gouillard, Heresie, p.308.

انظر أيضا :

المسعودى : الأشراف ، ص١٤٦ .

وأسباب رفض هذا التقابل قوية ، لمعرفتها انظر :

Runciman., Mainchéisme, pp.48-49; Obolensky., Bogomils, pp.55-56

وللوقوف على آراء بولص السميساطى انظر :

Obolensky., Bogomils, p.56.

انظر أيضا :

رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى ، ص١٦٥ .

٨- Petrus Siculus, Historia, cols. 1273-1297= Histoire, p.36; Patriarch Photius., Contra- col. 17 = Récit, p.120; Cedrenus., Historiarum, Vol. I, pp. 756-757; Pauliciens, p.23; Obolensky., Bogomils, pp.31-32.

٩- Lemerle, Pauliciens, pp.52-53; Dictionnaire, Vol. 12, p.58.

١٠- Obolensky., Bogomils, p.32.

١١- Petrus Siculus, Historia, col. 1276 = Histoire, P. 40

وتجدر الإشارة إلى أن قنسطانز الثانى لم يرد اسمه مباشرة بأى من المصادر البيزنطية . ففى الوقت الذى ذكره بطرس الصقلى باسم حفيد هرقل ذكره البطريرك فوتيوس باسم سليل هرقل . ومن المعلوم أن هرقل كان قد أنجب من زواجه الأول ابنا سماه قسطنطين (قسطنطين الثالث) وتوجه فى حياته ، ولكنه لم يتول الحكم بعد وفاة هرقل سوى عدة أشهر فى عام ٦٤١م نتيجة لوفاته . فخلفه ابنه قنسطانز الثانى الذى قصده بطرس الصقلى وذكره بحفيد هرقل . أما ما ذكره البطريرك فوتيوس بسليل هرقل فقد جعل البعض يظن أن المقصود هو قسطنطين الرابع Constantine IV (٦٦٨-٦٨٥م) ولكن ليس هناك أى مبرر لذلك . وأمكن استنتاج ما ذكرناه مما ذكره كدرينوس وبطرس الصقلى الذى قال أن قسطنطين (البوليصى) ظهر بعد استشهاد بطرس الرسول بنحو ستمائة عام وهو ما يتوافق مع عهد قنسطانز الثانى . انظر : Petrus Siculus, Historia, col. 1273 = Histoire, p36; PatriachPhotius., Contra., col. 17 = Récit, p.120; Cedrenus., Historiarum, t.1, pp.756-757; Lemerle., Pauliciens, pp.56-57; Runci-

man., Manicheisme, p. 37; Obolensky., Bogomils., p.32.

ويرى البعض أن أول ذكر للبيالصة ورد فى المجمع الدينى الذى عقد فى دوين Dvin (بأرمينية) عام ٥٥٤م أو ٥٥٥م تحت رعاية الكاثوليكوس (البطريرك) نرسيس الثالث (٦٤١-٦٦١م) Nerses III ، ولو صح فإن معرفتنا عن البيالصة سترجع للوراء نحو قرن كامل وذلك قبل ظهورهم على مسرح الأحداث بالأراضى البيزنطية . انظر : Lemerle., Pauliciens, p.54.

وتقع مانانالى فى صعيد الفرع الغربى من نهر الفرات بالقرب من الملاحات الحديثة بـ Kouminji - Ali وتطل على نهر مانانالى ، وليس بالقرب من سميساط مثلما ذكر كل من بطرس الصقلى والبطريرك فوتيوس الذى نقل عنه . ويوضح هذا أن بطرس الصقلى لم يكن - رغم استنكار المؤرخ بول لومرل لذلك - على دراية تامة بجغرافية المنطقة التى زارها . كما يوضح فى نفس الوقت المدى الذى وصل إليه الباحثون فى الدفاع عن سمعة بطرس الصقلى . فعلى سبيل المثال ، نظرا لأن سميساط Samosata لا تقع فى أرمينية عدلها البعض إلى أرسميساط Arsamosata ، واقترح البعض الآخر ضرورة البحث عن قرية تعرف باسم مانانالى بالقرب من أرسميساط . ومن المؤكد أن هناك الكثير من المعلومات التى تم تحويرها لتتوافق مع الحقائق الواردة بنص بطرس الصقلى ، حتى اعتبر بعض المؤرخين الأرمن أن أى مراجع تعارض رأى بطرس الصقلى تعتبر تحريفا للنص الأصلى ولا يجب الاعتراف بها . انظر :

Aristakés de Lastivert, Récit., pp.,61, Note. No.1.123; Patriarch Photius cnotra, 24 = Récit, p.124; Runciman., Manichéisme, p.177, Note. No.36; Lemerle., Pauliciens., P.58. Note No.19; Garsoian., Heresy, pp.94-95.

انظر أيضا :

فايز اسكندر : أرمينية ، ص١٨٣ حاشية رقم ٢٧٩ ، والخريطة الموجودة فى هذا البحث .

١٢- Petrus Siculus, Historia, cols. 1676-1277 = Histoire, pp.38-40;Patriarch Photius, Contra, col. 20 = Récit, p. 122 ; Obolensky., Bogomils,p. 32.

أورد بطرس الصقلى سيرة مانى بشئ من التفصيل الذى سنوجزه . وهو أنه كان فى مصر شخص يدعى سكيثيانوس Skythianos من أصل عربى ولا يمت بصلة لليهود ولا للنصارى . وعاش على نهج أرسطو وألف أربعة أعمال ، وبعد وفاته ورثه تلميذه المدعو ترينثوس Terebinthos الذى توجه إلى فلسطين ومن هناك إلى بلاد فارس وكى لا يعرفه أحد اتخذ اسم بوذا Bouddas . وعندما مات هو الآخر ورثته أرملته واشترت عبدا اسمه كوبريكوس Koubrikos وتبنته وعلمته ونشأ وسط فلاسفة وعلماء فارس . ولما توفيت هذه السيدة ورثها واتخذ اسما جديدا هو اسم مانى Mani الذى يعنى فى اللغة الفارسية حفظا أو صيانة وربما نفقة . واشتهر مانى كمناظر ومحاور ممتاز ، وبلغت به الجرأة أن أطلق على نفسه البراقليط Paraclet (الروح القدس) . لم يذكر بطرس الصقلى أى تواريخ إبان سرده لقصة مانى ، ولكن يؤكد المؤرخ لونج Long أنها جرت خلال القرن الثالث الميلادى . انظر :

Petrus Siculus, Historia, cols. 1257-160 = Histoire, pp.22-26; Long., Armenia, p.181.

١٣- Petrus Siculus, Historia, cols. 1276-1277 = Histoire, pp. 38-40; Patriarch Photius, Contra, col. 21 = Récit, p. 122 ; Pierre L'Higouumene., Precis, p. 81; Les Formules, p. 192; Grégoire., Sources, pp. 102-103; Changes, p. 28; Runciman., Mainchéisme, pp. 37-38; Long., Armenia, p. 182; Lemerle., Pauliciens, pp. 58,61-62,75. Loos., Mouvement, p.60 .

وعن الفتح الإسلامى لأرمينية ، انظر :

فايز اسكندر : الفتوحات ص ٢٥-٥٠ .

ولمعرفة موقع كيبوسا انظر الخريطة <

١٤- Petrus Siculus, Historia, col. 1281 = Histoire, p. 144; Pierre L'Higoumène, p.82; Les Formules, p.192; Cedrenus., Historiarum, t. 1, p. 757; Dictionnaire, vol. 12, pp. 58-59; Runciman., Manichéisme, 38.

بعد أن سرد بطرس الصقلى قصة سيميون ذكر أنه لن يذكره مرة أخرى باسم تيتوس ، لأن الفرق شاسع بينه وبين تيتوس الذى رسمه الرسول بولص أسقفا لكريت . وناداه بعد ذلك باسم كتس Kets أى الحوت الذى يعيش فى المياه . ويوضح هذا مدى غضب بطرس مما فعله سيميون . انظر :

Petrus Siculus, Historia, col. 1281 = Histoire, p. 44.

(١٥) Obolensky., Bogomils., pp. 34-35.

(١٦) Petrus Siculus, Historia, col. 1273 = Histoire, p. 36; Patriarch Photius, Contra, col. 17 = Récit, p. 120 ; Cedrenus., Historiarum, pp. 756-757; Lemerle., Pauliciens, pp. 61-62; Runciman., Manicheisme, pp. 39-40; Britannica, vol. 18, p. 433.

وجود اختلافات بين المحدثين ، ومن بينهم لومرل ورنسيمان ، حول تحديد التواريخ الدقيقة لهذه الأحداث هو تعبير عن وجهات نظر ليس أكثر ولكنه يتفق فى النهاية وسير الأحداث .

(١٧) Petrus Siculus, Historia, col. 1280-1285,1297 = Histoire, pp. 46-48, 60; Pierre L'Higoumène., Precis, p. 82; Patiarch Photius, col. 21 = Récit, p. 122; Runciman., Manichéisme, p. 38; Lemerle, Pauliciens, pp. 63-64,77; Dictionnaire, vol 12, p. 59.

ناقض كل من بطرس الصقلى وفوتيوس ، الذى أخذ عنه ، نفسيهما . فقد سبق أن ذكرا أن البيالصة سموا بهذا الاسم اشتقاقا من إسمى بولص وحنا ابنى كالينيس ، ولكنهما عند حديثهما عن بولص والد ثيودور

وجنتزيوس ذكرا أن البيالصة توقفوا عن تسمية أنفسهم بالمانيين واتخذوا اسمهم الجديد وهو البيالصة من اسم بولص هذا . انظر :

Petrus Siculus, Historia, cols. 1273,1284 = Histoire, pp. 36,46; Patriach Photius., Contra., cols. 17,53 = Récit, pp. 120,144.

لا يزال التفسير لكلمة إيبسباريس وموقعها الجغرافي غامضين . انظر :

Lemerle., Pauliciens, p. 52.

(١٨) Lemerle., Pauliciens, p. 65.

(١٩) Theophanes., Chronicle, pp. 112-113; Nicephorius., Breviarium, p. 139; PierreSicile., Histoire, p. 46, Note. No. 66; Grégoire., Églises, P.511; Lemerle., Pauliciens, pp. 65. note, No. 43; 76.

٢٠- Petrus Siculus, Historia, col. 1285 = Histoire, p. 48; Patriach Photius., Contra., col 57 = Récit, p. 150;Lemerle., Pauliciens, p.66.

٢١- Petrus Siculus, Historia, col. 1285 = Histoire, pp. 48-50; Patriach Photius., Contra., cols. 57-60 = Récit, p. 150.

٢٢- Lemerle., Pauliciens, p.77.

٢٣- Petrus Siculus, Historia, cols. 1285-1288 = Histoire, p. 50; Patriach Photius., Contra., col. 61 = Récit, p. 152; Églises, p. 511; Dictionnaire, vol. 12, p. 59.

٢٤- Petrus Siculus, Historia, col. 1288 = Histoire, pp. 50-51; Pierre L'Higoumène, p. 82; Patriach Photius., Contra., col. 61 = Récit, p. 152; Runciman, p. 38; Lemerle., Pauliciens., pp. 69-70.

وسرجيوس ابن درينوس Dryinos من بلدة أنيا Annia الواقعة على مقربة من مدينة طوبيا Tobia . نشأ في أسرة أرثوذكسية محافظة ولكنه عاشر في شبابه امرأة مانية تمكنت من جلبه للهرطقة . انظر :

Petrus Siculus, Historia, col. 1288 = Histoire, pp. 50-52; Garsoian., Heresy, p. 92. Note No. 28; Runciman., ManichEeisme, P. 38; Lemerle., Pauliciens., p. 70.

ويتضح من الحوار الذي دار بين سرجيوس والمرأة المانية ورواه بطرس الصقلي ، أن بطرس لم يكن صادقا في كل ما رواه عن البيالصة فهم لم ينكروا وجود الله مثلما ذكر . أنظر :

Petrus Siculus, Historia, cols. 1288-1292 = Histoire, pp. 52-54; Lemerle., Pauliciens, pp. 116-117.

وطوبيا هي تافيوم Tavium القديمة بجالاتيا Galatia التي كانت ضمن نطاق ثيم الأرمنياق قبل أن يضمها الإمبراطور ليو السادس إلى نطاق ثيم خرسون (خرشنه) . انظر:

Lemerle., Pauliciens, p. 70.

٢٥- Petrus Siculus, Historia, col. 1293 = Histoire, p. 56; Patriach Photius., Contra., col. 69 = Récit, p. 160; Les Formules., p. 192; Lemerle., Pauliciens, p. 71; Runciman., Manichéisme, p. 38.

٢٦- Theophanes., Chronicle, pp. 118-138; Dragojiovic., Paulicianism,p. 235; Runciman., Manichéisme, p. 41.

انظر أيضا :

فازيليف : الروم ، ص ٢٠٢ ، وسام فرج : دراسات ، ج ١ ص ، ١٩١ .

٢٨- Theophanes., Chronicle,p p.174-175. Lemerle., Pauliciens. pp. 71,81-82; Garsoian., Heresy, p. 98

٢٩- Petrus Siculus, Historia, col. 1300-1301 = Histoire, pp. 62-64; Patriach Photius., Contra., col. 77 = Récit, p. 166; Tobias., Strategy, p.43; Lemerle., Pauliciens, p. 71; Runciman., Manichéisme, p. 38.

انظر أيضا :

فازيليف : الروم ، ص ٢٠٢ .

٣٠- Petrus Siculus, Historia, cols. 1293-1296 = Histoire, p. 58;Theophanes Continuatus; pp. 165-166; Runciman., Manichéisme, pp. 38-39; Lemerle., Pauliciens, pp. 71-74.

انظر أيضا :

فازيليف : الروم ، ص٢٠٣ .

لم يذكر بطرس الصقلي سوى قرية أرجاءون أما أمارا فذكرها صاحب صلة ثيوفانيس ، انظر :

Petrus Siculus, Historia, col. 1301 = Historie, p. 64; Theophanes., Cont., p. 166

٣١- Theophanes., Cont., p. 55; Lemerle.Thomas, pp. 255-298.

٣٢- Theophanes., Cont., p. 55; Lemerle., Pauliciens, p. 83; Garsoian., Heresy, p. 91.

انظر أيضا :

فازيليف : الروم ، ص ٢٠٢ .

محمد عثمان : ثورة توماس ؛ هانئ البشير : العلاقات ، ص ٩٤-٩٥ .

٣٣- Petrus Siculus, Histoire, col. 1301 = Histoire, pp. 64-66; Patriach Photius ., Contra., cols. 80-81 = Récit, pp. 168-170.

٣٤- Petrus Siculus, Historia, col. 1301 = Historie, p. 66; Patriach Photius., Contra., cols. - 81 = Récit, pp. 166-171 .

٣٥- Lemerle., Pauliciens, pp. 86-87.

انظر أيضا :

فازيليف : الروم ، ص ٢٠٣ .

(٣٦) Theophanes Cont., pp. 165-167; Cedrenus., Historiarum, t, II, pp. 153-154; Buary., ERE, pp. 271; Tobias., Strategy, P.p. 43; Runciman., Manichéisme, p. 42; Lemerle., Pauliciens, p. 88; Dictionnaire, t. 12. p.59.

انظر أيضا :

الطبرى : الأمم ، جـ٧ ، ص ٣٨٠ ، ابن الأثير: الكامل ، جـ٦ ، ص ٤٨٠-٤٨٨ ، فازيليف : الروم ، ص٢٠١-٢٠٢ ، عليه الجنزورى : المرأة ، ص ١٧١ .

٣٧- Theophanes cont., P. 166; Lemerle; Pauliciens, p. 88 Tobias., Strategy P. 44.

انظر أيضا :

فازيليف : الروم ، ص٢٠٣ .

ويذكر فازيليف أن رواية صاحب صلة ثيوفانيس فى هذا الصدد مخطئة فى التاريخ صحيحة فيما عدا ذلك . انظر :

فازيليف : الروم ، ص ٢٠٣ .

والستراتيجوس هو قائد الإقليم الإدارى والعسكرى وهو بمثابة نائب الإمبراطور فى إقليمه ، مسئول عن أمنه وإدارته . انظر :

فايز الإسكندر : أرمينية ، ص ١٧٣ حاشية رقم ١٩١ .

وتعنى كلمة ثيم Theme (   ) فى الأصل قسم من الجند أو فرقة من الجيش (وهى تقابل فى المصادر

العربية تعبير جند/ بند) ثم أطلقت على المنطقة العسكرية فى التنظيم الإدارى العسكرى الجديد . ولقد ظهرت هذه الثيمات نتيجة لإعادة توزيع فرق الجند (الثيمات) على مناطق آسيا الصغرى عقب انسحاب الفرق العسكرية البيزنطية المتمركزة فى الشام وأرمينية عقب فتوح العرب المسلمين الكبرى . وكان انسحاب الفرق العسكرية البيزنطية إلى داخل آسيا الصغرى وإعادة توزيعها يهدف إلى إقامة خط دفاع جديد فى آسيا الصغرى . ومن هنا عرفت تلك المناطق التى استقر فيها الجند بالثيمات ، ويعد ثيم الأرمنياق أول ثيم تم إنشاؤه بآسيا الصغرى وكان ذلك على عهد الإمبراطور هرقل لمواجهة الأخطار الخارجية . وبالنسبة لثيم الأناضول فمشتق من اللفظة اليونانية Anatolia ومعناها الشرق . انظـــــر وسام فرج : دراسات ، ص ١٩٩ ؛ السيد الباز العرينى : الدولة ، ص ١٠٧ حاشية رقم ٣ ؛ طارق منصور : الجيش ، ص ٢٠٦ .

(٣٨) Lemerle., Pauliciens, pp. 85,89; Runciman., Mainchéisme, p. 42.

(٣٩) Lemerle., Pauliciens, p. 95; Runciman., Mainchéisme, p. 42.

(٤٠) Petrus Siculus., Historia, cols. 1301-1304 = Histoire, p. 66; Photius., Contra., Contra, col. 81 = Récit, p. 170; Lemerle., Pauliciens, p. 92; Runciman., Mainchéisme, p. 42.

(٤١) Theophanes Cont, P. 167; Bury., ERE, pp. 278-279; Runciman., Manichéisme, p. 42; Lemerle., Pauliciens, p. 94.

انظر أيضا :

الطبرى : ج٧ ص ٣٨٠ ؛ ابن الأثير: الكامل ، ج٧ ص٨١ ؛ فازيليف : الروم ، ص ٢٠٥ ؛ السيد الباز العرينى : الدولة ، ص٢٦٢ .

الغريب أن صاحب صلة ثيوفانيس يذكر حملة ٨٥٦م ولكنه لا يسجل إلا بدايتها أما نهايتها فإنه ضرب عنها صفحا ، ويدل هذا على أن المؤرخ المقدونى عمل ويحرص على محو انتصارات ميخائيل الثالث وقواده . انظر : فازيليف : الروم ، ص ٢٠٥ .

(٤٢) Genesius., Regium IV, p. 91; Bury., ERE, p. 279; Runciman., Manichéisme, p. 43; Lemerle., Pauliciens, p.94.

ولمعرفة الخلافات حول تاريخ هذه الحملة . انظر :

Lemerle., Pauliciens, p. 94.

(٤٣) Runciman., Manichéisme, p. 43.

(٤٤) Petrus Siculus., Historia, col. 1304 = Histoire, p. 66; Photius., Contra., Contra, col. 84 = Récit, p. 172; Lemerle., Pauliciens, p. 96.

(٤٥) Petrus Siculus., Historia, col. 1304 = Histoire, p. 66; Photius., Contra., Contra, col. 84 = Récit, p. 172; Lemerle., Pauliciens, p. 96.

(٤٦) Runciman., Manichéisme, pp. 43, 178. No. 50; Lemerle., Pauliciens, p. 96; Tobias., Strategy, p. 44.

(٤٧) Tobias., Strategy, pp. 44-45; Runciman., Manichéisme, p. 43.

ولمزيد من المعلومات عن صراع باسيل الأول مع الأغالبة فى جنوب إيطاليا . انظر :

وديع عبد الله : بيزنطة ، ص ٢٨-٨٢ .

(٤٨) Genesius., Regium , p. 121; Tobias.,Strategy, p.45 ; Obelensky., Bogomils, p. 29; Lemerle., Pauliciens, p. 103; Runciman., Manichéisme, pp. 43-44; Dictionary, vol. 3p. 1606.

(٤٩) Theophanes Cont., pp. 240-241; Tobias., Strategy, p. 45.

(٥٠) Genesius., Regium , p. 114; Ramsay., p. 202 Tobias., Strategy, pp. 45-46.

وملاجينا Melagina لها أسماء مختلفة منها ملاجنا Melagena وملاجانا Malagina وملا Mela

انظر :

Ramsay., Geography, p. 202.

(٥١) Tobias., Strategy, p. 46.

(٥٢) Tobias., Strategy, p. 46

(٥٣) Petrus Siculus., Historia, col. 1304 = Histoire, p. 66; Genesius., Regium, p. 122; Tobias., p. 46; Runciman., Manichéisme, p. 44.

أمكن استنتاج سفارة بطرس الصقلى من خلال ما ورد بمؤلفه بقوله " توجهت إليهم (أى البيالصة) فى بداية حكم باسيل الأول إمبراطورنا العظيم " وكان باسيل الأول قد تولى العرش بمفرده بدءا من سبتمبر عام ٨٦٧ م ثم توج قسطنطين ابنه الأكبر وأشركه معه فى الحكم قرب نهاية عام ٨٦٧م ثم توج ليون ابنه الثانى فى عام ٨٧٠م . ونلاحظ أن بطرس قبل سفره كان يتحدث عن وجود إمبراطورين على العرش البيزنطى ، وهذا يعنى أن رحيله كان قرب نهاية صيف عام ٨٦٩م . ولو أضفنا إلى التاريخ فترة التسعة شهور التى قضاها فى تفريك وتوج خلالها ليون أيضا ، لوجدنا أن عودته كانت فى صيف عام ٨٧٠م . ويتضح ذلك من ذكره للأباطرة الثلاثة عندما عكف على كتابة مؤلفه عقب عودته وشبههم بالثالوث المقـــــدس . انظر :Petrus Siculus,., Historia, cols. 1273-1276 = Histoire, p. 38; Lemerle., Pauliciens, p. 19 .

(٥٤) Genesius., Regium, p. 122; Tobias., p. 46; Runciman., Manichéisme, p. 44

(٥٥) Genesius., Regium, p. 121; Tobias., p. 47; Runciman., Manichéisme, p. 44

(٥٦) Vita Basilii, col. 282; Cedrenus., Historiarum, t. II, p.206; Tobias., Strategy, p. 47.

تجمعت عند ملاجينا Melagina – نقطة التجمع الأولى – فرق من الأوبسيق والاوبتيماتى Optimates والثيم التراقى Thracians كما كان فى انتظار الإمبراطور عند دوريلايون Dorylaion – نقطة التجمع الثانية – قوات التراقسيان والتاجماتا Tagmatic بقيادة رئيس حرس المدارس العسكرية . أيضا تجمعت عند كبركيون Kaborkion – نقطة التجمع الثالثة – فرق من الأناتوليك Anatolics وسلوقيا Seleucia اتجه نحو الجنوب الشرقى إلى كولونياSangarios . وبعد أن عبر الإمبراطور نهر سانجاريوس – أرخلايسArchelais - Kolonia – نقطة التجمع الرابعة – حيث كان فى انتظاره فرق من البقلارى Bukellarian وغيرها . كذلك وجد الإمبراطور عند قيصرية Cappadocia وقبادوقيا Caesareia-نقطة التجمع الخامسة – عددا من البافلاجونيين Paphlagonians والسبستين Sebasteians ، ثم انضم إليه عند نقطة التجمع السادسة والأخيرة فى Bathus Rhyax بالقرب من بازيامون Bazyiamon قوات من الأرمنياق Armeniac . وقد سارت كل هذه القوات تحت لواء الإمبراطور متجهة نحو هدفها الرئيسى وهو مدينة تفريك . انظر :

Tobias., Strategy, pp. 47-48; Ramsay., Geograpgy, pp. 200-201.

ولمعرفة حجم قوات الثيمات البيزنطية بآسيا الصغرى . انظر :

قدامة ابن جعفر : الخراج ، ص ٢٥٥-٢٥٩ .

(٥٧) Tobias., Strategy, pp. 49; Clausewitz, War, 1, pp. 204-210.

(٥٨) Vita Basilii, cols.Tobias., Strategy, p. 49; Ramsay., Geograpgy, p. 200.

(٥٩) Tobias., Strategy, p. 49.

(٦٠) Symeon Magister, p. 690; Tobias., Strategy, p. 50.

(٦١) Vita Basilii,col. p. 283;Lemerle., Pauliciens., pp. 99-100; Tobias., Strategy, p. 50.

ولمزيد من التفاصيل حول الخلاف بين المصادر عن هذه الحملة انظر :

Lemerle ., Pauliciens, pp. 96-103.

(٦٢) Vita Basilii, cols. 283-284; Cedrenus., Historiarum, t. II. p. 206; Tobias., Strategy, pp. 50-51; Lemerle ., Pauliciens, p. 99.

(٦٣) Genesius., Regium, p. 122; Tobias., Strategy, p. 52.

نهر هاليس هو النهر الذى غرق فيه الإمبراطور الألمانى أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، ولمعرفة موقع هذا النهر انظر الخريطة .

وانظر أيضا :

Ramsay., Geography, p. 197.

(٦٤) Genesius., Regium, p. 122; Lemerle., Pauliciens, p. 98; Tobias., Strategy, pp. 52-53.

وعن كرماتا انظر :

Ramsay., Geography, p. 227.

(٦٥) Vita Basilii, col. p. 228; Genesius., Regium, pp. 123-123, 128; Cedrenu., Historiarum, t. II, pp. 209-210; Tobias., Strategy, p. 53; Runciman., Manichéisme, pp. 44-45.

(٦٦) Vita Basilii, cols. pp. 290-291; Genesius., Regium, pp. 124, 128; Cedrenu., Historiarum, t. II, pp. 211-212;Long., Armenia, p. 183; Lemerle., Pauliciens, p. 103; Tobias., Strategy, p. 54; Runciman., Manichéisme, pp. 45.

ادعى جنزيوس أن الله أرسل زلزالا على تفريك فدمرها وشتت أهلها . ولكن هذه الشهادة غير ذى قيمة ، لأنه لا يوجد أى دليل على وجود زلزال بتفريك خلال تلك الفترة ، كما أنها تدل أيضا على أن جنزيوس لم يكن على دراية تامة بالظروف الحقيقية لسقوط تلك المدينة . انظر :

Genesius., Regium,p. 120; Lemerle Pauliciens, pp. 103-113.

(٦٧) Runciman., Manichéisme, p. 45.

(٦٨) Petrus Siculus ., Historia, col. 1241 = Histoire, p. 8; Obolensky., Bogomils, pp. 31-32.

ولمعرفة بعض آراء بطرس الصقلى فى تفنيد نحلة البيالصة . انظر :

Petrus Siculus ., Historia, col. 1248 = Histoire, p. 14.

(٦٩) Petrus Siculus ., Historia, cols. 1248,1253,1284 = Histoire, pp. 14,18-20,48; Cedrenus., Historiarum, t. 1, p. 759; Obolensky., Bogomils, pp. 39-40; Runciman., Manichéisme, pp. 50-51; Lemerle., Pauliciens, p. 127; Dictionnaire, vol. 12, p. 58.

وبالنسبة لثنائية مانى فهى تقر بمبدأين متعارضين الخير الشر ، وهما الرب أو الروح القدس ويمثله النور ، والمادة وتمثلها الظلمة . ويفترض المانيون أن العالم عبارة عن مزيج من هذين المبدأين أو العنصرين المتعارضين ، وأجزاء النور فيه هى أرواح البشر المسجونة داخل الجسد بفعل قوى الشر وتمثلها ظلمة المادة ومن ثنائية مانى أن مشيئة الرب تريد الفصل بين النور والظلام وعلى الإنسان أن يتعاون مع هذه المشيئة

يرفض نشر نوعه من خلال تقنين الممارسات الجنسية والتطرف فى التقشف الذى يدمر الجسد . والمانيون نباتيون ، ومنهم طبقة تعرف بالصفوة عزفت عن الخمر والزواج وحيازة الأملاك . وابتعادها عن الأشياء الدنيوية شديد ، فهم لا يزرعون ولا يحصدون ولا يقطعون كسر خبزهم بأيديهم كى لا يؤلموا الروح الممزوجة بها . وتختلف الثنائية البولصية عن نظيرتها المانية فى تسليم الأولى بأنه ليس هناك تعارض بين الرب والمادة ، والنور والظلام ، ولكن هذا التعارض قاصر على رب الخير خالق العالم الآخر ورب الشر خالق هذا العالم . انظر :

Petrus Siculus ., Historia, col. 1277 = Histoire, p. 40;Long., Armenia, pp. 181-182; Obolensky., Bogomils, p.46, Note, No.4.

(٧٠) Petrus Siculus ., Historia, col. 1256 = Histoire, p. 20; Obolensky., Bogomils, pp. 39-40; Long., Armenia, p. 182; Loos., Mouvement, p. 59.

(٧١) Petrus Siculus ., Historia, cols. 1253-1293 = Histoire, pp. 20,58; Patriarch Photius., Contra, col. 64 = Rècit, p. 154; Cedrenus., Historiarum, t.1,p. 759; Garsoian., Heresy, p. 97; Long., Armenia,p. 183; Runciman., Manichéisme,p. 51. Obolensky., Bogomils, pp. 41-42.

(٧٢)

Petrus Siculus ., Historia, cols. 1245,1280 = Histoire, pp. 12,42-44; Obolensky., Bogomils, pp. 34,42; Runciman., Manichéisme, p. 51.

(٧٣) Petrus Siculus ., Historia, col. 1277 = Histoire, p. 40; Obolensky., Bogomils, p.45.

(٧٤) Obolensky., Bogomils, pp. 45-46; Loos., Mouvement, p. 56.

تنسب الماركونية إلى ماركيون أحد مواطنى مدينة سينوب (على شاطئ البحر الأسود) وكان ماركيون قد سافر إلى روما حوالى عام ١٤٠م وتمكن بمرور الوقت من نشر معتقداته فى الغرب (روما وإيطاليا) وفى الشرق فى كل من بلاد الشام وقبرص وأرمينية وربما فارس أيضا . وبلغ اضطهاد الأباطرة الرومان للماركيونية ذروته فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) ولكن بعد اعتراف قسطنطين الكبير بالنصرانية تمتعت الماركيونية بفترة من التسامح أبان الربع الأول من القرن الرابع الميلادى ، غير أن هذا لم يغير من كونها هرطقة وقاومتها بيزنطة بعد ذلك إبان القرن الخامس الميلادى .... ويتضح التشابه بين تعاليم البولصية والماركيونية فى كون بعض التعاليم البولصية مثل الثنائية ، والتشبيهية Docetism ، وغيرها كانت بالفعل ضمن تعاليم ماركيون . انظر :

Obelensky ., Bogomils, p. 47; Loos., Mouvement, pp. 56-58.

(٧٥) Mkrttschia., Paulikianer, p. 110; Loos., Mouvement, p. 56; Obelensky, Bogomils, pp. 47-48.

(٧٦) Obeiensky., Bogomils, pp. 51-52.

تعنى كلمة الماسليان المصلين ، وانتشر مذهبهم بمدينة الرها فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ثم انتشر فى بلاد ما بين النهرين وأرمينية . ويتميز هذا المذهب بتعاليمه الأخلاقية التى تحث على حياة الزهد والتقشف والمبالغة فى أداء الصلاة . وتتلخص هذه التعاليم فى أن الشيطان والروح القدس يسكنان داخل النفس البشرية وأن طقوس الكنيسة غير قادرة على طرد الشيطان ولكن الصلاة المستمرة قادرة على ذلك . انظر :

عبد الغنى عبد العاطى : البوجوميل ، ص ٧١-٧٢ حاشية رقم ٣ .

(٧٧) Petrus Siculus ., Historia, col. 1297 = Histoire, p. 60; Cedrenus., Historiarum, t, 1, p. 758; Lemerle., Pauliciens, pp. 118-119; Obolensky., Bogomils, p.36.

(٧٨) Petrus Siculus ., Historia, col. 1297 = Histoire, p. 60; Gregoire., Sources, pp. 102-104; Obolensky., Bogomils, p.36; Lemerle, Pauliciens, pp. 119-120.

تجدر الإشارة إلى أن اللاذقية بآسيا الصغرى تختلف عن اللاذقية ببلاد الشام .

(٧٩) Genesius., Regium, p. 122; Loos., Mouvement, pp. 63-64.

(٨٠) Garsoian., Heresy, pp. 89-90.

انظر أيضا :

فايز اسكندر : أرمينية ، ص ١١٧ .

(٨١) Obelensky., Commonwealth, pp. 120-121.

أنظر أيضا :

عبد الغنى عبد العاطى : البوجوميل ، ص ٦٩-٧٠ .

قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولا : المصادر والمراجع الأجنبية

ARBCL Academie Royale de Belgique, Bulletin De la classe des lettres (1936).

Adontz, **Historiques** N. Adontz, " les Fonds Historiques de l'epopee Byzantine Digenis Akritas" **EAB** (Lisbonne, 1965), pp. 5-46.

Aristakés de lastivert, **Récit** Aristakes de lastivert Récit des Malheurs de la Nation Arménienne, trad par Canard, M, (Bruxelles, 1973).

Comnena, **Alexiad** Anna Comnena, The Alexiad, of the Princess Anna Comnena, Eng trans, by Dawes, E, (London, 1967).

Bréhier, **Vie et Mort** L. Bréhier, Le monde Byzantin, Vie et Mort de Byzanc (Paris, 1969).

Bury, **ERE** J.B.Bury, A history of the Eastern Roman Empire, from the fall of the Irene to the Accession of Basil 1, (AD, 802-867) (London, 1912).

B Byzantion, Bruxelles, 1936 ff.

BSI Byzantinoslavica, (Prague, 1964).

BS Byzantine Studies (1967).

Cedrenus, G. Cedrenus, Historiarum Compendium,

Historiarum ed Bekker. I **CSHB**, II (Bonn, 1838) .

Charanis, **Changes** P. Charanis " Ethnic Changes in the Seventh Century " **DOP**, 13 (Cambridge, Mass, 1959) pp. 25-44.

Clsusewitz, **War** K, Clausewitz, On War, trans by Graham J.J, 3 (London, 1956).

CSHB Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae Bonn, 1834 ff.

Dictionnaire Dictionnaire de Theologie Catholique, par Vacant.A, Mangenot. E, Amann. E, 12 (Paris, 1935).

Dragojlovic **Paulicianism** , D. Dragojlovic, " The History of Paulicianism on the Balkan Peninsula" Balcanica, V (Beograd, 1973) pp. 235-244.

DOP Dumparton Oaks Papers (Cambridge- Mass, 1971).

EAB Etudes Armeno-Byzantines (Lisbonne- 1965).

ERE Encylopaedia of Religion and Ethics, - (New York, 1915).

Euthymnus Zigabenus, **Dogmatica** Euthymnus Zigabenus, Ponphia Dogmatica, **PG**, 130 (Paris, 1864) Cols. 1189-1244.

Garsoian, **Heresy** N. Garsoian " Byzantine Heresy " **DOP**. 25 (Cambridge, 1971)pp. 85-113.

Genesios, **Regium** J. Genesios, Regium, ed Lachmann (Bonn, 1834).

Gouillard, **Heresie** J. Gouillard, " L'Heresie dans L'empire Byzantine des origines au XII Siécle " **TM**. 1 (Paris, 1965), pp. 299-324.

Grégoire, **Pauliciens** H. Grégoire, " Autour des Pauliciens" **B** XI (Bruexelles 1936), pp. 610-614.

Grégoire, Sources H. Grégoire, " Les Sources de L'Histoire des Pauliciens: Pierre de Sicile est authentique et "Photius" un faux" **ARBBC** 22 (1936) pp. 95-119.

Grégoire, Églises H. Grégoire " Pour L'Histoire des églises Pauliciens" **OCP**, 31 (Roma, 1947), pp. 509-514.

Lemerle, **Pauliciens** P. Lemerle, " L'histoire des Pauliciens d'Asie Mineure d'apres les sources Grecques" **TM**, 5 (Paris, 1973) pp. 1-144.

Lemerle, **Thomas** P. Lemerle ., " Thomas les Slave" **TM**, I (Paris, 1965)pp. 255-298.

Les Formules Les formules D'Abjuration trad par, Gouillard, **TM**, 5 (Paris, 1970) pp. 185-207.

Long, **Armenia** D. Long, Armenia Cradle of Civilization (London, 1982).

Loos, **Mouvement** M. Loos" Le Mouvement Paulicien a Byzance" **BSI**, 25 (Prague, 1964) pp. 52-68.

MKrttschian, **Paulikianer** K. MKrttschian, Die Paulikianer im Byzaantinischen Kaiserreiche, und Verqandte Ketzerische Erscheinungen in Armenien (Leipzig, 1893).

Nicephorius, **Breviarium** Patriarch Nicephorius, Breviarium Rerum post Mauricium Gestarum, **CSHB** (Bonn, 1837).

Obolenesky, **Bogomils** D. Obolenesky, The Bogomils, Study in Balkan Neo-Manichaeism (London, 1948).

Obolenesky, **Commonwealth** D. Obolenesky, The Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500-1453. (London, 1971).

ODB Oxford Dictionary of Byzantium, 3 (London, 1991).

Photius, **Contra** Patiarch Photius, Contra Manichaeos **PG**. 102 (Paris, 1864).

Photius, **Récit** Patriarch Photius, "Récit de la Reappariteion des Manicheens" trad par Paramelle J, **TM**. 5 (Paris, 1970), pp. 99-183.

Petrus Siculus, **Historia** Petrus Siculus, Historia, **PG**. 104 (Paris, 1864) cols. 1240-1349.

Pierre de Sicile, **Histoire** Pierre de Sicile, Histoire des Pauliciens, trad par Gouillard. J, **TM**, 4 (Paris, 1970) pp. 3-67.

Pierre L'Higoumène, **Précis** Pierre L'Higoumène, "Précis Sur les Pauliciens", trad par Gouillard. J, **TM**. 5 (Paris, 1970)pp. 69-97.

Ramsay, Geography W. Ramsay, The Historical Geography of Asia Minor. (Amesterdam, 1962).

Runciman, **Manicheisme** S. Runciman, Le Manichéisme Medieval, L'Heresie Dualiste dans Christianisme, trad par Petrement. S., Marty. J,(Paris, 1949).

Theophanes, **Chronicle** Theophanes,The Chronicle of Eglish translation of Mundi 6095-6304 (AD 602-813) With Introduction and notes By Turtledove, H, (Pennsylvania, 1982).

Theophanes, Continuatus Theophanes, Continuatus, Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monachus Continuatus, **CSHB**, ed Bekker, I, (Bonn, 1838)pp. 3-481.

Tobias, **Strategy** N. Tobias, " Basil I and Byzantine Strategy" **BS** III/I (1976) pp. 30-55.

ثانيا :المصادر والمراجع العربية والمعربة

ابن الأثير ، **الكامل** أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) : الكامل فى التاريخ ، ج١٢ (بيروت ، ١٩٨٢م).

السيد الباز العرينى ، **الدولة** السيد الباز العرينى (الدكتور) : الدولة البيزنطية ، (القاهرة ، ١٩٦٠م) .

الطبـرى ، **الأمم** أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) : تاريخ الأمم والملوك ، ج٨ ، (القاهرة ، ١٩٣٩م).

رأفت عبد الحميد الفكر المصرى رأفت عبد الحميد (الدكتور): الفكر المصرى فى العصر المسيحى (القاهرة ، مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠م) .

طارق منصور، الجيش طارق منصور محمد (الدكتور) : الجيش فى الإمبراطورية البيزنطية ، من بداية القرن السابع الميلادى إلى نهاية القرن التاسع الميلادى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب بنها (١٩٩٣م) .

عبد الغنى عبد العاطى ، البوجوميل عبد الغنى عبد العاطى (الدكتور): حركة البوجوميل فى الدولة البيزنطية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد ، دورية كلية الآداب - جامعة المنصورة ، العدد الثانى عشر مايو (١٩٩٢م) ص ٦٨-١١٨ .

علية الجنزورى ، المرأة : علية عبد السميع الجنزورى (الدكتورة) : المرأة فى الحضارة البيزنطية ، الطبعة الأولى ، (القاهرة ، ١٩٨٢م) .

فايز اسكندر ، أرمينية فايز اسكندر (الدكتور) : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (١٠٠٠-١٠٧١م / ٣٩٢-٤٦٣هـ) فى المصنف أرسياتكيس اللستيفرتى ،(الإسكندرية ، ١٩٨٣م) .

فايز إسكندر ، الفتوحات فايز نجيب اسكندر (الدكتور) : الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١ - ٤٠هـ/ ٦٣٢-٦٦٣م) ج١ (الإسكندرية ، ١٩٨٣م).

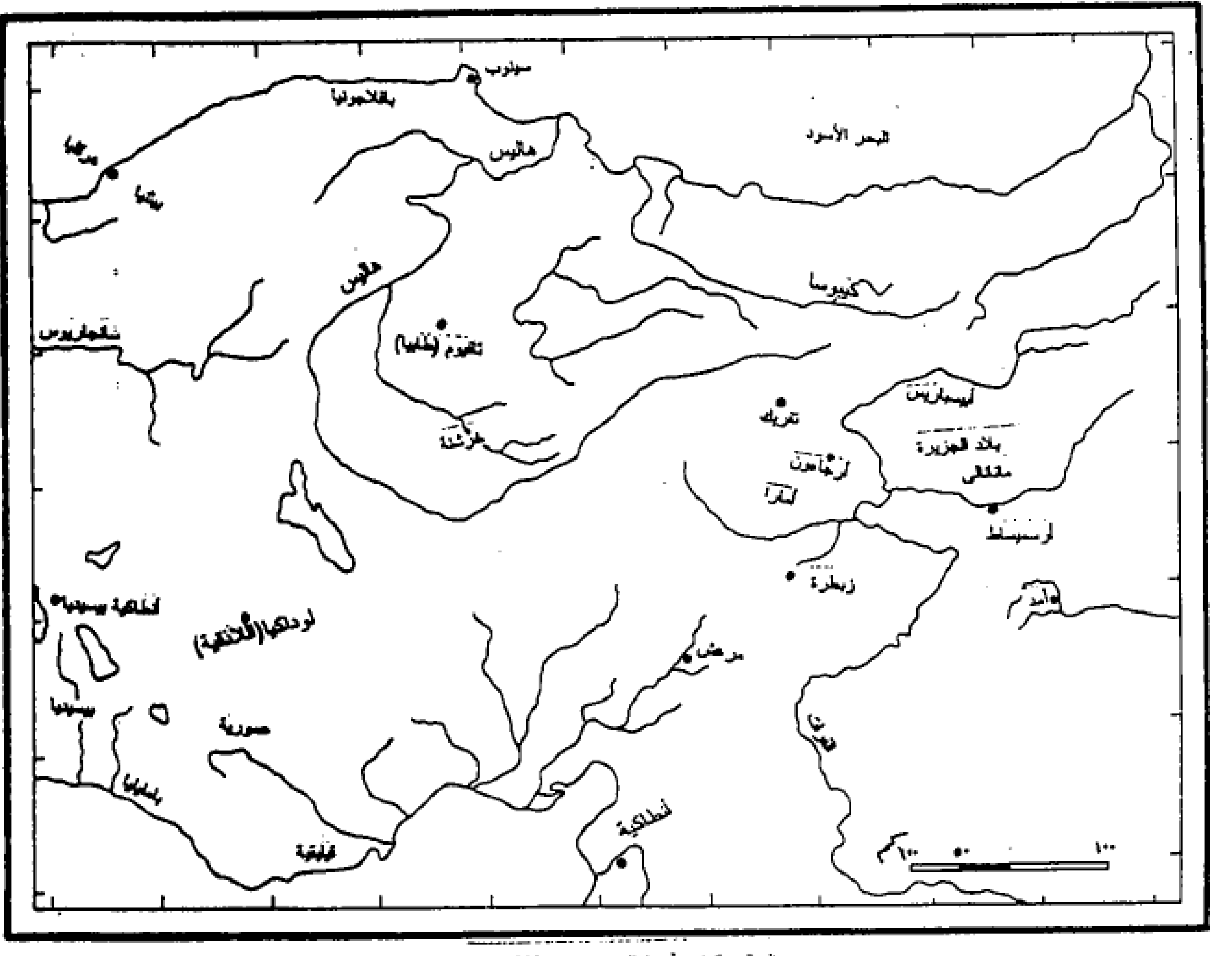
قدامة بن جعفر ، الخراج أبو الفرج قدامة ابن جعفر (ت ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢م) : نبذه من كتاب الخراج ضمن كتاب المسالك والممالك لأبى القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) ، (بغداد ، د - ت) .

محمد عثمان ، ثورة توماس محمد عثمان عبد الجليل (الدكتور) : ثورة توماس الصقلى فى الإمبراطورية البيزنطية (٨٢١-٨٢٣ / ٢٠٥-٢٠٧هـ) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة طنطا (١٩٩٢) .

هانئ البشير ، العلاقات هانئ عبد الهادى البشير (الدكتور) العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة البلغار الأولى (٦٨١-١٠١٨م) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة طنطا (١٩٩٩م) .

وديع عبد الله ، بيزنطة وديع فتحى عبد الله (الدكتور) : بيزنطة ومسلمو جنوب إيطاليا وصقلية فى عهد باسيل الأول المقدونى (٨٦٧-٨٨٦م/ ٢٥٣-٢٧٣هـ) ، (الإسكندرية ، ١٩٩٢م).

وسام فرج ، دراسات وسام عبد العزيز فرج (الدكتور) : دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية (٣٢٤-١٠٢٥م) ، الجزء الأول (الإسكندرية ، ١٩٨٢م) .



البيالصة فى أسيا الصغرى ، نقلا عن :
Lemerle., Pauliciens ,p.145 .

د. حسن خضيري أحمد(*)

مدينة بلرم وحياتها الفكرية
في عصر السيـــادة الفاطميـــة (**)

بدأ افتتاح العرب لجزيرة صقلية في عهد الأمير الأغلبي زيادة الله الأول بحملة قامت من سوسة(١)، في ربيع الأول سنة ٢١٢هـ / يوليو ٨٢٧م ، بقيادة القاضي أبي عبد الله أسد بن الفرات (٢)، وما لبث العرب أن استولوا على مدينة بلرم (Palermo) سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١م بعد حصار للمدينة دام عاما ، واستسلم والي المدينة البيزنطي بعد اشتداد المجاعة في المدينة المحاصرة (٣)، وفي الحقيقة لم يكن استيلاء العرب على بلرم إلا فاتحة سير بطيء ، كثير المراحل والوقفات والتقهقرات ، وكثر الالتواء ، غير مكتف بصقلية ساحة ، بل متفرع إلى شتى الأصواب (٤).

لما تم للعرب فتح معظم جزيرة صقلية ، عولوا على اتخاذ مدينة بلرم حاضرة لهم ، بدلا من مدينة سرقوسة الواقعة على ساحل الجزيرة الشرقي (٥)، ويبدو أن اختيار العرب هذا كان مرده إلى عوامل أمنية واستراتيجية في المقام الأول ، وقدر لهذه المدينة بفضل موقعها الاستراتيجي الممتاز ، وجغرافيتها الطبيعية أن تلعب دورا رئيسيا في شئون صقلية ، فهي تقع في الركن الشمالي الغربي من الجزيرة على شاطئ البحر التيراني ، مفتنة من مفاتن الطبيعة ، تأخذ العيون بخليجها وسهلها الأخضر المذهب المسمى بالغوطة الذهبية ، تحيط

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي

بها الجبال الشواهق فى شرقيها (٦)، وقد استفادت بلرم من موقعها الجغرافى فى كثير من أدوار تاريخها ، بيد أن هذا الموقع كان وبالا عليها فى بعض العهود ، حيث كانت هدفنا للفينيقين واليونانيين معا ، وأسس الفينيقيون مستعمرة على خليج بلرم عرفت باسم مشنات (Machanat) (٧)، أى بمعنى المرسى الأمين (٨)، ويرجح الباحثين (٩) أن اسم بلرم اشتق من هذه التسمية .

بلغت مدينة بلرم شأوا عظيما فى ظل الحكم العربى الإسلامى ، حيث ظهرت فيها نهضة داخلية ، وصارت أهم قاعدة حربية ، وتمتعت بنوع من الحكم الذاتى ، وإن تبعت اسميا حكام إفريقية ، كذلك كانت الثغر الأكبر الذى تقلع منه الأساطيل الإسلامية ، للإغارة على الشواطئ الإيطالية ، وباقى الممتلكات البيزنطية فى الجزيرة (١٠)، مما جعل الحوض الأوسط للبحر الأبيض والبحر التيرانى تحت رحمة المغاربة المسلمين (١١).

أدى اتساع الحضارة الإسلامية ، ودعم مدينة بلرم بالجيوش ، وازدياد عدد المهاجرين إليها من الأندلس ومصر وبلاد الشام ، أن اكتظت المدينة بالسكان ، ويعطينا الراهب ثيودوسيوس (١٢)، وصفا شائقا لمدينة بلرم التى زارها بعد نصف قرن من اتخاذها حاضرة للعرب فى صقلية بقوله : " مدينة شهيرة ، كثيرة بالسكان من أصليين وأجانب ، وهى تبدو وكأن المسلمين تدفقوا لاستيطانها من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى البحر ، حتى أنها لم تعد تتسع للوافدين الجدد..... ".

أما ابن حوقل(١٣) الجغرافى والرحالة العراقى الذى زارها سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م ، فيذكر "أنها مدينة صقلية الكبرى ، عليها سور من حجارة شامخ منيع" .. وفى موضع آخر يبدى اعجابه بكثرة البساتين والجنات حول بلرم.

ويبدى الادريسى(١٤) حماسا فى وصفه للمدينة التى طاب له فيها المقام حينا من الدهر بقوله : " .. هى المدينة السنية العظمى ، والمحلة البهية الكبرى ، والمنبر الأعظم على بلاد الدنيا ، وإليها فى المفاخر النهاية القصوى ، ذات المحاسن الشرائف ، ودار الملك فى الزمن المؤتنف والسالف .." .

أما الحميرى (١٥) فيذكر أنها قاعدة بلاد جزيرة صقلية ، وهى مدينة المسماه بالمدينة ، مثل قول ابن رشيق فى ذكرها :

أخت المدينة فى اسم لا يشاركها فيه سواها من البلدان والتمس

بينما يصفها ابن أبي دينار القيرواني[١٦] بأنها أفخر مدن جزيرة صقلية ، وهى المدينة العظمى على ساحل البحر محدقة بها الجبال .

وهكذا مرت مدينة بلرم فى ظل الحكم العربي بمراحل من التحول والتطور ، حتى غدت مدينة مستقرة صبغت تدريجيا بالصبغة المدنية ، وتوفرت لها المعايير الحضارية التى أهلتها لتكون حاضرة كبيرة ناضجة ، وصاحب هذا التطور طفرة فى عدد سكان المدينة ، بفضل الذين توافدوا إليها زرافات ووحدانا ، وقد استخلص أحد الباحثين (١٧) من رواية ابن حوقل بأن سكان مدينة بلرم كانوا يتجاوزون ثلاثمائة ألف نسمة ، وبذلك تكون أكبر من أى مدينة أخرى فى أوروبا باستثناء القسطنطينية[١٨] .

أما عن التخطيط العمراني للمدينة ، فيذكر ابن حوقل أنها مستطيلة الشكل[١٩]، ويقسمها الإدريسي إلى ثلاثة أسمطة (أقسام) يذكر أن السماط الأوسط أبهاها وأجلها مقارنة بالآخرين ، لما اشتمل عليه من القصور المنيعة ، والمنازل الشامخة ، والمساجد العديدة والفنادق الكبيرة والحمامات وحوانيت التجار الكبار ، هذا فضلا عن الجامع الأعظم ، " ... وصفته الآن تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة المنتخبة من أصناف التصوير ، وأجناس التزاويق والكتابات (٢٠)" .

ويطوف بنا ابن حوقل[٢١] فى حارات المدينة ، فيذكر منها حارة الصقالبة ، وهى أعمر وأجل الحارات ، وحارة المسجد المعروف بابن سقلاب ، وعلى طرف هذه الحارة الوادى المعروف بوادى عباس ، ثم الحارة الجديدة ، ويتفرع من هذه الحارات أزقة ودروب ، واتسمت المدينة باتساع شوارعها ، " فهى فسيحة السكك و الشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن ، قرطبية البنيان ، مبانيها كلها منحوتة من الحجر المعروف بالكذان[٢٢] " ، ويبدى الادريسي حماسا فى وصف مباني المدينة بقوله :" .. لا مبانى أعجب من مباني المدينة ، وأن قصورها مشارف القصور ، وأن ديارها منازه الدور[٢٣] ".

كان من الطبيعي أن ينعكس هذا التطور العمراني للمدينة على النشاط التجارى ، وإنشاء الأسواق ، وذكر أن سوق المدينة قد آخذ من شرقها إلى غربها ، مفروش بالحجارة ، عامر من أوله إلى آخره بضروب التجارة ، وأن أكثر الأسواق تقع فيما بين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة ، كسوق الزياتين والصيارفة والحدادين ، وأسواق القمح ، وباعة البقل

وأصحاب الفاكهة والخبازين ، هذا فضلا عن طائفة من الجزارين والأساكفة ، والدباغين والنجارين (٢٤)وكانت هذه الأسواق معمورة ، مشحونة بالأرزاق على اختلافها (٢٥).

على أن بلرم من المدن الثغرية ، التى روعى فى تخطيطها متانة تحصيناتها الحربية ، فقد بنى حول المدينة سور عظيم شامخ منيع (٢٦)، يمثل خط الدفاع الواقى للمدينة ، ويمكن من خلاله التحكم الجيد فى الدخول والخروج من المدينة ، والسيطرة على كل جزء منها(٢٧) .

أما عن توفر الماء العذب لسكان المدينة التى ظلت تنمو باستمرار ، سواء فيما يتعلق بعدد سكان أو التخطيط العمرانى ، يقول ابن حوقل : " .. وأكثر مياه البلد والحارات من الآبار .. "(٢٨)، بينما يذكر الإدريسى أن المياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة وعيونها جار ية متدفقة (٢٩)، وفى موضع آخر يقول : " وبها سقايات ماء عذبة جارية مجلوبة من الجبال المحدقة بيقعتها (٣٠)" .

أما ابن جبير ، فيذكر أن المدينة يشقها نهر معين (نهر عباس) ، ويطرد فى جنباتها أربع عيون (٣١)، وعن طواحين المدينة يذكر الادريسى أن مجموعة من الأرحاء الطاحنة مقامة على نهر عباس ما لا يحتاج معها إلى غيرها (٣٢).

ويبدو من هذا الوصف أن الماء كان يجرى توزيعه فى المدينة بطرق هندسية ، وأن كثرة السقايات (الأسبلة) ، والطواحين التى أسهب الجغرافيون والرحالة فى ذكرها ، تدل بوضوح على مدى الرقى الحضارى ، الذى كانت تحياه المدينة ، نتيجة لتطور المجتمع والاحتكاك بالحضارات الأخرى التى انفتحت عليها بلرم ، وتفاعلت معها بحكم موقعها البحرى.

على أن سكان بلرم فى عهد الأغالبة كانوا مزيجا من كثير من الشعوب والأجناس ، والديانات المختلفة ، كالصقليين النصارى ، والمسلمين واليونان واللمبارد واليهود والعرب والبربر (٣٣)، فضلا عن بعض الفرس والسودان الذين قدموا صحبة الجيوش الأغلبية ، وإن كان العرب يشكلون شريحة كبيرة من سكان المدينة ، وفى مركز قوة كبيرة (٣٤)، ولعل هذا التباين فى نسيج السكان خلق نوعا من النفور والتباغض ، وعدم التجانس ، كان يعكس وإلى حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، التى شهدتها المدينة ، وأثرت على مستقبلها السياسى فى المدى القريب .

ما لبثت رياح التغير أن عصفت بالمغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع

الميلادى بظهور الفاطميين الشيعة سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م ، الذين أطاحوا بحكم الأغالبة (٣٥)، وسرعان ما انقسمت المدينة إلى فئتين ، احداهما تناصر الفاطميين ، والأخرى تناوئ هذا الحكم الجديد، وأصبحت المدينة تموج بحركات التمرد والعصيان ، ووثبت الفئة المناصرة للفاطميين على أحمد بن أبى الحسين – آخر ولاة بنى الأغلب – " وانتهبوا ماله وحبسوه ، وولو عيهم على بن أبى الفراس(٣٦) " بيد أنه لم يستمر أكثر من ثلاثة شهور، وعزل ، وولى المهدى عبيد الله فى ذى الحجة سنة ٢٩٧هـ/ أغسطس ٩١٠م أحد رجال الفاطميين الأكثر اخلاصا وهو الحسن بن أحمد المعروف بابن أبى خنزير(٣٧)، وبذلك توطد الحكم الفاطمى فى صقلية عمليا ونظريا(٣٨).

لم تنعم بلرم بالاستقرار طويلا ، فما لبثت أن اندلعت فيها ثورة سنية مناهضة للفاطميين سنة ٢٩٩هـ/ ٩١٢م قادها أحد أثرياء المدينة ، ويدعى أحمد بن زيادة الله بن قرهب (٣٩)، ودعا الناس إلى نبذ سياسية الفاطمين والانطواء تحت راية الخلافة العباسية(٤٠)، " فاجتمع إليه وجوه أهل البلد ، وسألوه التأمر عليهم ، وأوثقوه من أنفسهم ، أنهم لا يخذلونه تولى أمرهم(٤١).. " .

وهكذا خرجت صقلية عن طاعة الفاطميين ، وأقام ابن قرهب إدارة سنية حازمة ، وتليت الخطبة باسم الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥-٩٠٨/ ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) ، الذى بعث إليه كتابا يضفى الشرعية على إمارته ، هذا فضلا عن الأعلام العباسية السود ، والملابس السوداء ، كما أنعم عليه الخليفة العباسى بوسام "الطوق الذهبى(٤٢)" ، وسرعان ما تقاطر على المدينة سيل من النازحين المالكين من إفريقية ، الذين نقموا على المهدى ، ووقفوا من دولته موقف العداء والمعارضة (٤٣).

وفى الوقت الذى بدا فيه حكم ابن قرهب يزداد استقرارا ورسوخا فى صقلية ، إذ بالبربر فى مدينة جرجنت (٤٤) يناصبونه العداء ، ويقومون بثورة ضده امتدت إلى أجزاء أخرى من الجزيرة ، وبعث الثائرون بصريخهم إلى الخليفة المهدى الفاطمى ، يقول النويرى : " ثم عصى عليه أهل صقلية ، كاتبوا المهدى(٤٥)" وبالفعل وقع ابن قرهب فى الأسر ، وأرسلوه الثوار إلى المهدى ، الذى أمر بإعدامه فى سنة ٣٠٤هـ / ٩١٦م(٤٦)، وعهد المهدى بإمارة صقلية إلى واحد من مشاهير القساة من رجاله ، وهو أبو سعيد موسى بن أحمد الضيف ، يعززه جيش كثيف من البربر (٤٧).

على أية حال وصل أبو سعيد إلى بلرم سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٦م، واستطاع أن يعيد الجزيرة إلى طاعة الفاطميين، ويقمع مقاومة أهل بلرم " الذين يكثرون الشغب على أمرائهم، ولا يطيعون، وينهبون أموالهم(٤٨)" ويضرب على أيدى الخارجين بقسوة حيث قبض على زعمائهم، وأرسلهم إلى المهدية عاصمة الفاطميين(٤٩).

وعن اخفاق هذه الحركة الاستقلالية في صقلية، وعدم استقرار الأوضاع في بلرم يعتقد بعض الباحثين (٥٠) أن مرد ذلك إلى مجموعة من العوامل تكمن في الهوة العميقة التى تفصل بين العرب والبربر، والتى لم يستطيعوا أن يقيموا عليها جسرا إلا للتخلص من أوامر أمير بعيد، هذا فضلا عن أن العرب أنفسهم كانوا منقسمين إلى قيسية ويمنية، أضف إلى ذلك أن هذا التمرد والعصيان كان عصيانا محضا بواعثه التعصب العقائدى أو المذهبى، هى الأمور التى كانت تملأ العالم الإسلامى تمردا وتفرقا.

على أنه لا يمكن قبول هذا التفسير وقسره على هذه الأسباب، التى دأبت الدراسات الأوروبية على إبرازها، ويكفينا للتدليل على ذلك، أنه على الرغم من تباين خلفية العديد من سكان مدينة بلرم الاجتماعية والمذهبية، فقد انضووا تبعا لذلك تحت رايات تخدم مصالحهم الخاصة، وتضرب بعاملى العرق والمذهب عرض الحائط، وهذا ما أكدته المصادر التاريخية فى تفسير موقفهم فى معارضة الأغالبة، تفضيل التعاون مع الفاطميين بعد ذلك(٥١). ووصف ابن حوقل ما بين أهلها من النزاع والنفور والتباغض وصفا يدعو إلى العجب، يدل على الخلاف بين المسلمين، لم يصل فى بلد من البلاد إلى مثل ما وصل إليه الأمر فى صقلية (٥٢).

ومن المرجح أن التغيرات السياسية والدينية التى عاشتها صقلية فى النصف الآخر من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، كانت تعكس وإلى حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها المنطقة فى المرحلة نفسها (٥٣). فالتغير الذى عاشته المنطقة، جعل بعض أهل بلرم لا يكتفون بتفضيل فرقة على أخرى، ومحاربة أبناء عمومتهم من سكان المنطقة فحسب، بل جعلت بعضهم يقف إلى جانب أهل السنة الفارين من مجازر الشيعه في إفريقية، لذلك يمكن القول أن معاداة المالكية للمهدى ترجع إلى سياسته الاقتصادية أكثر من دعوته المذهبية (٥٤)، ومن هنا يبرز العامل الاقتصادى بجلاء فى تفسير الصراع، فالخلفية الاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى الأوضاع السياسية، هى التى سهلت على الفاتحين

المسلمين فتح صقلية ، وفرضت عليهم اختيار موقع مدينة بلرم فى مناطق تخدم فى المقام الأول تجارة العبور فى قلب اقتصادية موحدة مترامية الأطراف تمتد من الأندلس إلى بلاد الشـام(٥٥)، وعلى ذلك فإن تعدد العوامل وتجانسها ، هى التى حثت سكان الجزيرة بعامة وبلرم بخاصة ، على أن يسرعوا فى مناصرة الفاطميين ، وتقويض حركة ابن قرهب طمعا فى تحقق بعض الطموحات السياسية والسيطرة على مقدرات بلادهم ، هذا فضلا عن أنه كان يسعى إلى تنمية رأس ماله من خلال تحالفه مع الفاطميين ، ووجد فى ذلك ضالته المنشودة ، ويبدو أن المهدى عبيد الله كان من العوامل الأساسية التى ساعدت على تقويض حركة ابن قرهب عن طريق عيونه من البربر ، الذين نجحوا في استثمار الخلافات بين أهل صقلية ، وتأليب البربر فى الخروج على طاعة الخليفة العباسى لصلات صقلية بأفريقية بلادهم الأصلية.

وكيفما كان الأمر وصول القوات الفاطمية إلى بلرم ، كان بمثابة إنذار ليس للمدينة فحسب ، بل لكل أهل الجزيرة ، بغض النظر عن اختلافاتهم العرقية أو المذهبية (٥٦)، بيد أن حركات التمرد والعصيان ما لبثت أن اندلعت مرة أخرى ، حيث تحالف كل من بربر جرجنت وعرب بلرم ، بل ونصارى الجزيرة ضد الضيف ، ومن الواضح أن أبا سعيد الضيف أدرك أن التمرد الذى استشرى بين أهل صقلية أكبر من أن يواجه بقواته المحدودة فى الجزيرة مما حدا به أن يرسل إلى الخليفة المهدى بأعداد وفيرة من الرجال ، ودخلت العساكر مدينة بلرم فى سنة ٣٢٠ هـ/ ٩١٧م (٥٧)، وجعل الضيف من مدينة بلرم مدينة مفتوحة ، حيث هدم سورها ، وجرد أهلها من الخيل والسلاح ، وعهد الضيف بولاية الجزيرة إلى سالم بن راشد ، وقفل راجعا إلى القيروان(٥٨).

لم تهدأ الأحوال فى بلرم ، حيث اندلعت ثورة أخرى فى المدينة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م (٥٩)، وعمت الانتفاضات سائر أنحاء الجزيرة ، ويبدو ذلك مرده إلى كثرة الضرائب التى فرضت فى ولاية سالم بن راشد الطويلة التى استطالت أكثر من عشرين عاما ، وأثقلت كاهل المواطنين ، هذا فضلا عن الكوارث التى تعرضت لها الجزيرة ، حيث يذكر فى سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م تعرض مدينة بلرم لنوء عظيم سالت له الأودية من المرتفعات المحيطة ببلرم ، فأغرقت الناس ، وهدمت الكثير من الدور فى أرباض المدينة وداخلها(٦٠) ، وكذلك فى العام التالى سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م ، تعرضت بلرم إلى ريح سموم ترتب عليه حرق دوالى العنب ، فلم يكن فى تلك السنة قطاف(٦١) .

وهكذا كان للتغير الاقتصادي والاجتماعي جل الأثر في أحداث الانهيار السياسي ، الأمر الذي أزكى نار الفتنة بين أهل بلرم وأمرائهم ، ولم يعد في وسعهم احتمال ظلم أميرهم الفاطمي ، مما حدا بهم أن يرفعوا بصريخهم إلى الخليفة القائم الفاطمي في سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٧م ، يشكون إليه طغيان الوالي سالم بن راشد وقبل الخليفة التماسهم ، وبعث إليهم بخليل بن اسحاق واليا (٦٢)، وبمجرد دخول الوالي الجديد بلرم ، بدأ بتجريد المدينة من دروعها ، وجعلها مدينة مفتوحة ، حيث قام بهدم أسوارها ، وخلع أبوابها ، ونقض الكثير من تحصيناتها ، وشرع في بناء مدينة بديلة ، تكون مركزا للحكم والادارة ، مقرا للحامية العسكرية ، وسماها الخالصة تحيط بمدينة بلرم (٦٣).

ومن المرجح أن اتخاذ عاصمة جديدة من قبل الخليفة القائم كان مرده إلى أزمة عدم الثقة بين نظام الحكم الفاطمي ، وبين أهل العاصمة القديمة ، الذين كثيرا ما يحنون إلى شغبهم وعصيانهم السابق ، إن لم يتمسكوا به ، هذا فضلا عن استشعار الوالي الفاطمي عدم الاطمئنان ، وهو يقيم وسط خصومه في بلرم .

وفيما يتعلق بمكان العاصمة الجديدة رأى الوالي أن يكون بحريا بعيدا عن الداخل ، " حتى يكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو "(٦٤)، كما عول على أن تتوجه دولته وجهة بحرية من حيث العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية ، حيث تصبح الدولة الفاطمية دولة جهادية بناء على اعتبار السواحل مناطق ثغور ، يمكن أن يطرقها العدو البحري ممثلا في الأسطول البيزنطي ، وإذا كان ابن خلدون ينص على عناية الفاطميين بالأساطيل ، إلى أن ينتهي الأمر بغلبة المسلمين على سواحل البحر المتوسط حتى "لم تسبح للنصرانية فيه ألواح(٦٥)" ، ومن هنا فقد اشتملت العاصمة الجديدة على دار لصناعة السفن ، شديد الحصانة ، إذ كانت في حضن الجبل(٦٦).

على أن مدينة الخالصة ، كانت كبيرة القطر ، لها سور يحيط بها ، يمثل أكبر الخطوط الدفاعية للمدينة قوة ، هذا فضلا عن خندق يحيط بالسور وفصيل ، وفي داخلها بساتين كثيرة ، ومتنزهات عجيبة وسقايات ماء عذبه جارية مجلوبة إليها من الجبال المحدقة ببقعتها (٦٧)، كذلك روعي في تخطيط هذه المدينة ربطها بالعاصمة القديمة بلرم بشوارع وطرق تأثرت مقاييسها واتجاهاتها بطبيعة المرور فيها ، وانعكس أثر التحصين وتأمين الوالي على تخطيط شوارع وسكك المدينة الفرعية ، التي عملت لها الدروب التي تغلق عليها ، والتي تمكن من السيطرة أثناء الفتن والاضطرابات (٦٨).

أما المسجد الجامع فكان يمثل محورا رئيسيا من محاور تخطيط المدينة ، ولا غرو فى ذلك فهو يمثل معقل السلطة الاسلامية ، وكان يقع وسط المدينة ، ويبدو أن الخالصة ، لم يكن فيها أسواق أو فنادق ، بل كانت مدينة ملوكية يسكنها الأمير وأتباعه ، هذا فضلا عن الجند ودار الصناعة والسجن وبعض الحمامات (٦٩).

على أن اتخاذ الخالصة حاضرة ومعقلا للسلطة السياسية فى صقلية ، انعكس على تكويناتها المعمارية والتى تمثلت فى قصر الوالى ، والدواوين وثكنات الجند ، التى كانت تضفى المهابة والفخامة على الكيان السياسى الفاطمى ، وما يحدثه ذلك في نفوس العامة من ردود فعل تبلورت فى هيئة النظام الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ظلت بلرم العاصمة التجارية والثقافية لصقلية ، يقطنها التجار ، والعلماء وأصحاب الحرف المختلفة ، تعج بالأسواق الحافلة وأنواع التجارات (٧٠)، هذا فضلا عن المساجد الكثيرة التي بلغت نيفا وثلاثمائة مسجد ، حتى أبدى ابن حوقل دهشته فى أنه "لم يجد لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار" (٧١)، وبعد أكثر من قرن من الزمان على زوال السيادة الاسلامية فى بلرم يقول ابن جبير : " .. أن المساجد كثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن " (٧٢).

وعن أرباض المدينة يحدثنا الادريسي عن مدينة ثرمه (Termini) ، التى تقع إلى الشرق من مدينة بلرم ، وعلى مسافة مرحلة منها ، تطل على البحر ، وبها قلعة حصينة من أجل القلاع ، وعليها سور يطيف بها (٧٣)، وإلى الغرب من مدينة بلرم ربض آخر يعرف بالتربيعة ، وهو المتنزهات البديعة وتكثر بها البساتين والجنات ، والأراضى الخصبة ، المفلوحة ، التى أقيمت عليها الكثير من الأرحاء ، " ولها بادية ورباع واسعة " (٧٤).

شهدت مدينة بلرم حركة فكرية مزدهرة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، العاشر والحادى عشر للميلاد، حتى غدت مجتمع أهل الأدب ، ومنتجع طلاب العلم من سائر أنحاء صقلية ، وعلى الرغم من أنها تقع فى طرف ناء من العالم الإسلامى ، وما شهدته من صراع حاد بين سكانها ، إلا أنها لم تكن بمعزل عن التيارات الفكرية الكبرى ، التى نمت فى البلاد الأسلامية ، ولعل ذلك يكمن فى عدة عوامل ساعدت على ازدهار الحركة الفكرية منها موقعها البحرى ، حتى غدت بوتقة جمعت كثيرا من مقومات الشرق والغرب ، وحلقة وصل بين العالم الاسلامى من جهة ، وبين أوروبا من جهة أخرى (٧٥).

ومما يجدر ذكره أن الموقع الجغرافى لبلرم قد استغلته ثقافتان مختلفتان فى عصرين مختلفين ، وكل ما حدث أن التوجيه الثقافي قد اختلف ، وقد تبع اختلاف التوجيه أن تغير

مظهر الثقافة العام من عصر لعصر ، وتم ذلك فى ظروف جغرافية تتصل بما للموقع والعامل الاقتصادى من أثر بعيد فى ازدهار الحركة الفكرية فى العصر الاسلامى .

يقول أحد الباحثين المنصفين (٧٦): " جلب المسلمون معهم ديانتهم وقوانينهم وأدبهم وفنونهم وعلومهم ، وبذلك جعلوا صقلية جزءا من حضارة إفريقية الزاهرة ، كما أصبحت الجزيرة فى عهدهم ملتقى للثقافات العربية واليونانية واللاتينية ، لقد جاء العرب بقصد الاستقرار فى الجزيرة ، لا لمجرد حكمها واستغلالها .. " فلم يكرهوا أحدا لا فى صقلية ولا فى غيرها على تبديل دينه ، وإنما فرضوا على الكتابيين الجزية ، وأطلقوا لهم الحرية فى الدين(٧٧) ، ومع أن صقلية لم تكن المعبر الوحيد الذى انسابت منه علوم العرب واليونان غربا ، إلا أنه لم يحدث فى مكان آخر غيرها ، أن قامت الحضارات العربية واليونانية واللاتينية جنبا إلى جنب فى سلم وتسامح (٧٨).

ونحن فى معرض حديثنا عن عوامل ازدهار الحركة الفكرية فى بلرم يجدر بنا أن نشير إلى أن جزيرة صقلية تمتعت بشئ من الاستقلال الذاتى فى عهد ولاتها الكلبيين (٣٣٦-٤٣١هـ/٩٤٧-١٠٤٠م) ، الذين يدعوهم ابن خلدون بالملوك (٧٩)، ونعتهم ابن حوقل بالسلاطين(٨٠) ، الذين لم يكونوا رعاة للحركة الفكرية فحسب ، بل كانوا هم أنفسهم كتابا وعلماء ومبدعيين (٨١)، وبفضل جهود تشجيع هؤلاء الولاة للعلم والعلماء ، تبلورت فى بلرم حركة فكرية خاصة ، لها طابع خاص ، وأصبحت القاهرة تشارك القيروان فى توجيه الحياة الفكرية فى بلرم ، وبذلك أعلنت بلرم عن وجودها الثقافى والعقلى ، وأصبحت تذكر مع القاهرة والقيروان وقرطبة ، " كثيرة العلماء والأدباء والفضلاء ، مضاهية للأندلس(٨٢) " ، وصار لها علماء وأدباء يهاجرون إلى الأندلس ومصر وشمال أفريقيا فى طلب العلم ، أو لأداء فريضة الحج ، ثم يعودون حاملين علوم المشرق والأندلس ، ليشاركوا فى الحياة الفكرية فى مدينة بلرم(٨٣).

على أن أسواق بلرم لم تكن مجالا لتبادل السلع فحسب ، وإنما كانت مجالا خصبا لتبادل الثقافات ، وعاملا هاما في تلاقح الآراء وامتزاج الأفكار ، وحلقة من حلقات الربط الثقافى ، " فقد دخل إليها المتجولون من سائر الأقطار ، والمترددون بين المدن والأمصار "(٨٤).

ومهما يكن من أمر فإن هذا الاتصال ، وشيوع الرحلة فى طلب العلم ، لم يفقد بلرم شخصيتها الثقافية ، بل لعلها احتفظت بسمات خاصة ، لأنه لا يمكن أن يكون علم بلرم كله

جلبا إليها ، كما ترد السلع التجارية إليها ، فذلك يتنافى مع أبسط حقائق الأشياء (٨٥)، فقد أنجبت بلرم عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والأدباء فى شتى فروع المعرفة ، يقول الحميرى (٨٦)، : "وكان فيها من العلماء والعباد والفقهاء والشعراء ، مالا يأخذه عد ، ولا يأتى عليه إحصاء".

كانت المساجد الجامعة بمثابة مراكز لهذه النشاطات الفكرية فى مدينة بلرم ، فضلا عن كونها بيوتا للعبادة ، تقام فيها الصلاة ، ويتلى فيها القرآن الكريم ، ورمزا ومنبرا للدين الإسلامى ولدولة الإسلام ، وبازدياد أعداد الداخلين فى الاسلام فى مدينة بلرم تعددت المساجد وكثرت وتقاربت ، ولما زار الرحالة ابن حوقل مدينة بلرم فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، أبدى دهشته لكثرة عدد المساجد فى المدينة ، وذكر أن بلرم وحدها كانت تضم نيفا وثلاثمائة مسجد ، وقرر أنه لم ير مثل هذا العدد فى بلد من البلدان الكبار ، ولا سمع به إلا فيما يتذاكره أهل قرطبة (٨٧)، وفى موضع آخر يقول : " ولقد كنت واقفا ذات يوم بها فى جوار دار أبى محمد القفصى الفقيه الوثائقى ، فرأيت من مسجده فى مقدار رمية سهم نحو عشر مساجد يدركها بصرى ، ومنها شيئ تجاه شيئ ، وبينهما عرض الطريق فقط " (٨٨).

وبعد قرنين من الزمان على زيارة ابن حوقل ، يعطينا ابن جبير صورة بهية عن مدينة بلرم النورمانية ، ويبدى اعجابة لكثرة المساجد فى المدينة بقوله " والمساجد كثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن "(٨٩).

ويعلل ابن حوقل هذه الكثرة فى المساجد "أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور ، لا يشركه فيه غير أهله وحاشيته ، وربما كانا أخوان منهما متلاصقة دارهما ، متصاقبة الحيطان ، وقد عمل كل واحد منهما مسجدا لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده"(٩٠).

وربما كان هذا التعليل الذى قال به ابن حوقل مبالغ فيه ، إلا أنه لم يدخل من حقيقة تصور تلك الروح الفردية التى كانت تغلب على الحياة الاسلامية فى بلرم ، هذا فضلا عن النزاع والنفور والتحاسد الذى استشرى بن سكان المدينة ، وعده ابن أبى دينار من أهم الأسباب التى عجلت بسقوط المدينة (٩١).

وبالإضافة إلى المسجد وجدت دور العلم سواء كانت مكاتب أو كتاتيب أو أربطة ، وكثر عدد المعلمين بها لدرجة كبيرة ، ويشير ابن حوقل إلى أن الغالب على البلد المعلمون والمكاتب فى كل

مكان ، حتى كان منهم فى بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم (٩٢)، ومع ذلك فإن كثرتهم تضطرد مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ، ورغبتهم عن الجهاد ، حيث كان يعفى المعلمون من الجهاد ، وأصبح من السهل على من يخشى لقاء العدو أن يتخذ التعليم حرفة له ، " ولذلك نزع إلى التعليم بلههم ، وحسنه لديهم جهلهم " (٩٣).

أما الرباطات التى انتشرت على الساحل ، فقد كانت مراكز مراقبة ، أكثر منها مراكز مدافعة ومنازلة ، وأصبح الهدوء والعزلة هما السمة الغالبة على المقيمين فيها ، وكان أكثر هؤلاء المجاهدين من القراء والمحدثين والفقهاء والزهاد ، وغدت تلك الربط معاهد تعليم وتربية وعبادة توجيه ، وكان يؤمها العلماء والطلبة من كل حدب وصوب ، بيد أن ابن حوقل يبالغ فى انتقاداته لها بقوله : " مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق.. قد عملوا السجادات منتصبين لأخذ الصداقات ، وقذف المحصنات .. مع جهل لا يفرق فيه بين فرض الوضوء وسنته " (٩٤). وفى موضع آخر يبالغ فى انتقاداته بقوله : " .. ليس بالبلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة بفن من فنون العلم ، ولا ذو مروءة ولا متدين ، والغالب عليه الرعاع ، وأكثر أهله سقاط أوضاع ، لا عقول لهم ولا دين كامل .. " (٩٥).

على أن ما ذكره ابن حوقل من انتقادات لاذعة لأهل المدينة ومعلميها ، وفقهائها يجعلنا نتوقف قليلا لمعرفة السبب وراء ذلك ، فإذا سلمنا أن مدينة بلرم حين زارها ابن حوقل لم تخل من الجبناء والفاسدين الذين لا يخلو منهم مكان ولا زمان ، وأن مجتمع المدينة به الكثير من الضغائن والأحقاد وغير ذلك من العلل والآفات الاجتماعية ، بيد أن طبقات الفقهاء والمحدثين والصوفية والنحاة والأدباء الموجودة بين أيدينا ، والشواهد التاريخية تجعلنا نشكك فيما ذكره ابن حوقل لعدة أسباب منها :

أن زيارة ابن حوقل لمدينة بلرم كانت فى سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م ، أى خلال ولاية أبى القاسم بن أبى الحسين الكلبى (٩٦)، هذه الفترة التى تعد بحق أوج إزدهار الحركة الفكرية فى مدينة بلرم (٩٧)، أضف إلى ذلك أن ابن حوقل كان من كبار المتشيعين للدولة الفاطمية ومذهبها ، فقد سبق له العمل فى الدعاية الشيعية والجاسوسية لحساب هذه الدولة ، وكان يخفى ذلك بستار من المصالح المشروعة كالتجارة والعلم (٩٨)، ومن نافلة القول أن نشير إلى أن شريحة كبيرة من سكان بلرم كانوا من أتباع مذهب مالك ، ومعظمهم من الفارين من اضطهاد الشيعة فى إفريقية (٩٩)، هذا فضلا عن أن المعلمين والفقهاء هم الذين كانوا يوجهون الرأى

العام فى أمور الدنيا والدين ، فقد كان أهل بلرم يرون فيهم ، " أنهم أعيانهم وألبابهم وفقهاؤهم ، ومحصلوهم ، وأرباب فتاويهم ، وبهم وعندهم يقوم الحلال والحرام ، وتعقد الأحكام ، وتنفيذ الشهادات ، وهم الأدباء والخطباء(١٠٠) " ، يحملون راية المعارضة فى وجه المذهب الشيعى ، حتى لم يقدر لهذا المذهب الذيوع والانتشار بين سكان بلرم رغم تبعية صقلية للدولة الفاطمية ، ولعل تدخلهم فى شئون الحكم ، وتمردهم على الحكم الفاطمى هو الذى جعل ابن حوقل يصب عليهم جام غضبه ، ويرميهم بكل نوع من أنواع الخسة والجهل والقصور ، يتضح من قوله : "حتى أنهم يتكلمون على السلطان فى سيره واختياراته ، والاطلاق بالقبائح من السنتهم بمعايبه ، واضافة محاسنه إلى مقابحه (١٠١)" .

كان أهل بلرم يشدون الرحلة إلى الشرق لاعجابهم بعلمائه ، وللحصول على إجازة ترفع من شأنهم فى مجتمع أنظاره مشدودة إلى مهد الإسلام واللغة العربية ، يقول ابن خلدون (١٠٢): " .. إن الرحلة فى طلب العلوم ، ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعليم " ، ومن هنا نشطت دحلات أهل بلرم إلى مصر التى وصلت إلى الذروة الفكرية والعملية فى العهد الفاطمى (١٠٣)، ولئن عرف الكثير من رجال الدين شدوا الرحال إلى الشرق ، فما أكثر الذين خفى ذكرهم ، يقول المقرى (١٠٤)، " حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا حال " ، وإذ أردنا أن نعطى صورة واضحة للحياة الفكرية فى مدينة بلرم ، نجد لزاما علينا الرجوع إلى كتب الطبقات فهى المراجع التى تؤرخ للحركة الفكرية ، وتتناول العلماء ، وتترجم لهم ، وتكشف عن آثارهم لهؤلاء العلماء فى مختلف العلوم .

من المعروف أن العلوم العربية الإسلامية ، إنما نشأت بسبب القرآن الكريم ، وما يدور حول دراسته من ضبط حروفه ، وتفسير غريبه ، وتفهم معانيه ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم موضع اهتمام المسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية ، ومنها صقلية ، والحقيقة أن العلوم الدينية بدأت فى صقلية منذ أن فتحت على يد الفقيه المالكي أسد بن الفرات ، ثم استمدت صقلية من افريقية رجالا يعمرونها بعد الفتح ، فذهب إليها هؤلاء بعقلياتهم ، وثقافاتهم ومذاهبهم ، وإذا أردنا أن نتصور حياة بلرم الفكرية ، كان لابد لنا أن نتعرف إلى حالها فى أفريقية قبل ذلك .

وفى الفقه كان يغلب على افريقية فى القديم مذهب الكوفيين ، ومذهب الأحناف(١٠٥) ، ثم أخذ جماعة ممن درسوا مذهب مالك يحاولون نشره ، بيد أن هذا المذهب لم يستطع أن يبسط ظله على إفريقية إلا أيام أسد بن الفرات ، وسحنون بن سعيد اللذين استمدا ثقافتهما الفقهية

من المشرق ، وأصحاب سحنون هم الذين نشروا مذهب مالك فى صقلية ، وكان نشاط الفقهاء يدور حول المدونة اختصارا وشرحا ، وبيانا لما فيها من غريب ، ونسجا على منوالها ، وظل الأمر على ذلك حتى آخر أيام العرب فى صقلية (١٠٦)، يعتقد بعض الباحثين(١٠٧) ، أن مذهب مالك بن أنس أخذ فى الانتشار فى صقلية، قبل انتهاء القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، فكيف نوفق بين ما ذكره الاصطخرى (١٠٨)، المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أن الجزيرة معظمها من أتباع أبى حنيفة ، ثم جاء بعده المقدسى(١٠٩) ، فيقول : " والغالب على أهل صقلية أ صحاب أبى حنيفة " .

كما يذكر لنا صاحب كتاب العيون والحدائق(١١٠) أنه عندما حدث تمرد فى صقلية سنة ٢٨١ هـ/ ٩٨٤ م ضد حكم الأغالبة ، أرسل الأمير الثانى الأغلبى (٢٦١ / ٨٧٥ - ٢٨٩هـ/ ٩٠٢ م) اثنين من القضاة الأحناف إلى بلرم ، وهما هيثم بن سليمان ، وقاسم بن أبى المنهال ، وبالفعل نجحا فى مهمتهما وإعادة الأمن إلى الجزيرة .

ومن المرجح أن صقلية لم تكن كلها من أتباع مالك قبيل دخولها فى طاعة الفاطميين .

ظلت صقلية مرتبطة فى ثقافتها بالقيروان بؤرة الاشعاع الحضارى ليس فى إفريقية فحسب ، بل فى سائر بلاد المغرب ، ولم يتكون لصقلية مدرسة فقهية من أبنائها إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى (١١١)، نذكر من أعلام هذه المدرسة أبا بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمى المازرى (ت ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م) تناول ابن يونس المدونة ، وأضاف إليها غيرها من الأمهات ، وانتشر كتابه " المعلم بفوائد أبى مسلم " ، وذاع صيته خارج حدود صقلية ، ولا تزال أقواله معمولا بها عند المغاربة (١١٢)، كذلك عبد الله بن أبى الفرج المازرى ، الذى يكنى بالضحاك (٤٢٧ / ١٠٣٥ - ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م) ، درس الفقه على ابن يونس فى جامع بلرم ، وكان المازرى من كبار فقهاء المالكية فى بلرم (١١٣)، ومن بين فقهاء بلرم نذكر خلف بن أبى القاسم الازدى البرادعى (ت فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) وفى بلرم ألف البرادعى كتبه مثل كتاب التهذيب فى اختصار المدونة (١١٤)، وغيره ، حتى لقد قيل أن مناظرة فى جميع بلدان صقلية كانت بكتابه المسمى بالتهذيب (١١٥)، ومن بين فقهاء بلرم نذكر أيضا أبا محمد عبد الحق بن هارون (ت ٤٦٦هـ/ ١٠٢٧ م) ولد فى صقلية ودرس الفقه على ابن يونس ، ثم ذهب إلى القيروان حيث التقى بفقهاء المالكية (١١٦)، وعاد إلى بلرم يتناول المدونة ، ويؤلف الكتب حولها ، فألف كتاب النكت والفروق

لمسائل المدونة (١١٧)، ومع ذلك فإن عبد الحق يعتبر أكبر فقهاء صقلية ، فقد أحرز شهرة فى وطنه وفى الخارج ، حتى أنه حج حجته الثانية سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٢١ م ، كان اسمه معروفا فى العالم الاسلامى ، وكانت صقلية تحت حكم النورمان ، ففضل البقاء فى المشرق ، وتوفى فى الاسكندرية سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٣٧ م (١١٨).

حفت بالفقه علوم القرآن والحديث ، وكان العلماء والطلاب الصقليون الذين اهتموا بهذه الدراسات كثيرين جدا ، نذكر منهم عبد الرحمن بن عتيق بن خلف الذى عرف بابن الفحام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠ - ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م) ولد فى سير اكوزه ، ثم رحل إلى مصر فى طلب العلم ، وهو فى سن السادسة عشرة ، وتحقق بعلم القراءات ، حتى انتهت إليه رياسة الاقراء بالاسكندرية علوا ومعرفة ، وأصبح يطلق عليه شيخ الاسكندرية ، قال عنه سليمان بن عبد العزيز الأندلسى : " .. ما رأيت أحدا أعلم بالقراءات منه لا بالمشرق ولا بالمغرب(١١٩) " ، وهو صاحب كتاب التجويد فى القراءات (١٢٠).

أما إسماعيل بن خلف بن سعد بن عمران المعروف بأبى طاهر (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م)، فقد تألق نجمه وأصبح من أعلام مدرسة بلرم وجلة فقهائها ، كان يقرئ القرآن بالسبعة ويجودها ، تصدر للاقراء فى جامع بلرم ، وهو صاحب تصنيف ضخم فى إعراب القرآن (١٢١)، تناقلته أيدى أجيال كثيرة فى المغرب والمشرق ، وظل يحمل اسمه ويعمل به فى القراءات حتى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى (١٢٢)، رحل هذا العالم إلى الأندلس ، عندما داست أقدام النورمان تراب جزيرته ، وتوفى فى الأندلس سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ (١٢٣).

وأما عثمان ابن على بن عمر السرقوسى الصقلى ، يروى ياقوت(١٢٤) عن الحافظ السلفى : " .. أنه كان من العلم بمكان نحوا ولغة ، وقرأ القرآن على ابن الفحام وغيره ، وله تواليف فى القرآن والنحو والعروض ، وصارت له فى جميع مصر حلقة للاقراء " .

ومن المرجح أن قراءة نافع هى التى كانت شائعة فى بلرم ، إذا اتخذنا القيروان مثالا لصقلية .

نشطت رواية الحديث فى بلرم ، كما كان عليه الأمر فى الحواضر الاسلامية ، وكثرت الرحلة فى طلبه ، ومن علماء الحديث الصقليين فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى نذكر أبا بكر محمد بن ابراهيم بن موسى التميمى الصقلى ، سافر فى طلب الحديث

إلى العراق ، ثم عاد إلى صقلية ، وتصدر للتدريس فى جامع بلرم (١٢٥)، وثمة عالم صقلى آخر فى الحديث هو محمد بن خراسان (ت ٣٨٦هـ/ ٩٦٦ م) ، بدأ دراسة الحديث فى صقلية ، ثم رحل إلى مصر فى طلب العلم ، وهناك درس القرآن (١٢٦)، وبعد عودته إلى صقلية تصدر لتدريس الحديث فى جامع بلرم حتى وفاته (١٢٧).

أما عتيق السمنطارى، المولود فى قرية سمنطار (Samanteria) فيعتبر بحق من أشهر المحدثين الصقليين ، تلقى تعليمه فى بلرم على أبى بكر الفرضى والحصائرى (١٢٨)، وسكن بلرم وانصرف إلى تدريس الحديث ، وكانت له رحله زار فيها الحجاز ، فحج وساح فى البلدان من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان ، ولقى بها من أصحاب الحديث ، فكتب عنهم جميع ما سمع ، وصنف كل ما جمع ، وتوفى سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م (١٢٩)، وثمة كوكبة أخرى من علماء الحديث لم تصلنا سوى أسمائهم ، ومن بين هؤلاء العلماء ابن الفراء وموسى بن الحسن الذى هاجر إلى مصر ، والحسن على الصقلى الذى توفى بمكه سنة ٢٩٣ هـ/ ١٠٧٢ م (١٣٠)، وأبو عمار الكلبى الذى كان عالما شهيرا من علماء الحديث فى بلرم (١٣١).

ومما يجدر ذكره أنه فى غضون هذه الفترة – موضوع الدراسة – اعتنق كثير من المالكية مذهب الأشاعرة فى تأييد السنة ، فكانوا حربا على الاعتزال ، كما كانوا متشددين فى التمسك بحرفية مذهب أبى الحسن ، يقول السبكى(١٣٢) : " .. والأشاعرة ولاسيما المغاربة منهم كانوا يستصعبون الخروج عن حرفية ما رسمه الأشعرى ، ولا يرون مخالفة أبى الحسن فى نقير ولا قطمير .." بيد أن هذا لا يعنى أن بلرم خلت من الاعتزال والتشيع ومذهب الخوارج ، وغير هذا من مذاهب(١٣٣) ، وكيف تخلو وسكانها أصلهم من إفريقية ، وقد كانت هذه المذاهب فى إفريقية متنوعة ، فالتشيع فى كتامة ، ومذهبا الأباضية والراسبية منتشران فى قسطيلية وقفصة والحامة ، والاعتزال فى مزاته وزناته من قبائل البربر على مذهب واصل بن عطاء ، وفى السوس شيعة ومالكية ، وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة(١٣٤) .

ونستطيع من خلال ما أسلفناه ، أن نلمس أثر مصر فى توجيه العلوم الدينية فى بلرم ، فقد كان الصقلى يتلقى علومه الأولى فى حلقات الشيوخ فى مساجد بلرم ، ثم يغادرها إلى المشرق للحصول على اجازات فى هذه العلوم من علماء مشهورين ، وكانت مصر على طريق

الرحلة ، ومهبط الكثير من الراحلين فى طلب العلم ، لعلاقتها بصقلية ، هذا فضلا عن تبوء مصر الذروة الفكرية والعلمية فى العصر الفاطمى .

عرف التصوف طريقه إلى بلرم ، منذ وطأت أقدام المسلمين أرض صقلية ، فقد كان جيش أسد بن الفرات يضم الكثير من الصالحين والزهاد ، ولم يمض وقت غير طويل حتى غدت الجزيرة رباطا يستدعي اليقظة فى الهجوم والدفاع ، ثم تبع ذلك إنشاء العديد من الأربطة ، وأصبحت مكانا يلجأ إليه الزهاد والصالحون للمرابطة والعبادة ، وتفسير الرباط عند الصوفية : " أنهم ربطوا أنفسهم على طاعة الله تعالى ، وانقطعوا إلى الله .. " (١٣٥)، ومما يجدر ذكره أن قضاة بلرم وفقهائها ضربوا المثل الأعلى لذلك ، نذكر منهم على سبيل المثال ابن محرز وأبا الحسن الصقلي الحريرى ، الذى قضى عمره صامتا لا ينطق إلا بذكر الله (١٣٦)، وكذلك أبا بكر محمد بن ابراهيم التميمى الصوفى (المتوفى فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) الذى سافر إلى العراق فى طلب الحديث ، حتى يقال أنه كان يحضر الحلقة الصوفية التى أقامها الصوفى الكبير الجنيد (١٣٧)، وعاد اخر الأمر إلى بلرم (١٣٨)، بيد أن خير من يمثل التصوف الصقلي الشيخ العارف المحقق أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلي (١٣٩)، تلقى تعليمه فى القيروان ، ثم ذهب فى رحلة إلى المشرق فحج وسمع بمكة سنة ٣٥٠ هـ/ ١٠٢٩ م ، وكان إلى جانب تصوفه محدثا فقيها أصوليا (١٤٠)، ولــه العديد من المؤلفات فى التصوف ، لعل أهمها كتاب الأنوار في علم الأسرار ، ومقامات الأبرار ، ويسمى عادة أنوار الصقلي (١٤١)، وقد بنى قواعد التصوف فيه على الكتاب والسنة ، ولما كان عليه السلف الصالح وترك الآراء والاستحسان(١٤٢) .

وثمة صقلي أخر من رجالات التصوف في بلرم ، وهو سعيد بن عبد السلام الجرجنتى (ت ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م) ، ذاع صيتـه فى الآفـاق ، جاب هذا التـصوف الكبير بلدان المشرق الاسلامى ، داعيا الناس إلى ترك الدنيا ، وطلب القربى ، وتوفى فى نيسابور (١٤٣).

أما عتيق السمنطارى (ت ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢م) ، فيعد بحق من أقطاب التصوف فى صقلية ، كانت له رحلة إلى المشرق ، فحج وجاس خلال الديار ، حيث سافر إلى بلاد فارس والشام واليمن ومصر ، والتقى بأقطاب التصوف فى المشرق ، كان السمنطارى يبشر بوصال

لا بعده من فراق ، وألف فى التصوف كتابا ضخما عنوانه " دليل القاصدين " يقع هذا السفر فى عشرة أجزاء (١٤٤).

ومن بين رجال التصوف فى بلرم نذكر أيضا : موسى بن اصبغ المرادى الأندلسى (المتوفى فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) هاجر من قرطبة ، واستقر فى زاوية من زوايا بلرم وكان معروفا بكتابة الشعر الدينى (الرقائق) (١٤٥).

على أن التصوف فى بلرم ، كان له طابع خاص ، اختلف فيه عن المشرق ، فحين حاول الصقليون أن يفلسفوا الزهد ، أقاموا التصوف على الحياة الواقعية ، وعلى السلامة الفقهية المذهبية ، وعلى اللياذ بعالم الكرامات ، ومن هنا اجتمع فى التصوف زهد القاضى المتعفف ، وصبر المجاهد ، وكرامات العابد ، وقد خضع هذا التصوف فى نشأته المؤثرين ، أضعفهما الاتصال بالمشرق عن طريق الحج إلى مكة ، ومشاهدة الصقليين للعباد المنقطعين حول البيت ، أما المؤثر القوى ، فهو الحياة الاجتماعية نفسها ، أضف إلى ذلك أنه لازم نشأة التصوف فى صقلية الشعور بتغير الأحوال ، وسيرها من سيئ إلى الأسواء ، والاستدلال بفساد الظاهر على فساد الباطن ، وطلب بعض الناس للدنيا بطريق الزهادة والنسك (١٤٦)، ولا غرو فى ذلك فإن التصوف فى بلرم كان فى واقعه ثورة نفسية على سوء الحال ، ومحاولة لاصلاح الباطن فى الفرد من أجل أن تصلح الجماعة (١٤٧)، ومن نافلة القول أن موقع صقلية البحرى ، وتعاقب الحضارات على أرضها كان له انعكاساته البارزة على التصوف (١٤٨)، فإذا كان التصوف المشرقى هو رد على سطحية الفقهاء ، فإن التصوف فى صقلية اقترن بالفقه ، ولم ينفصل عنه ، وكما مر بنا آنفا فإن رجال التصوف فى صقلية كانوا فقهاء ومحدثين ، بنوا آرائهم فى التصوف على أصول فقهية وأشبهوا الوعاظ .

ويبدو أن التصوف فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كثر فيه الدخلاء ، وأصبح المتصوفة يتظاهرون بالزهد تظاهرا ، ويتواجدون ويبكون عند الغناء ويرقصون ويتغاشون ، وقد عبر عن هذه الحال أبو عبد الله بن الطوبى فى قصيدة له (١٤٩)، وانتقد تلك التصرفات بقوله :

بل التصوف أن تصفو بلا كدر   وتتبع الحق والقرآن والدينا

فهو يعبر عن التصوف كما يفهمه الصقلى العادى فى أيامه ، ولا يبعد كثيرا عن قول الجنيد (١٥٠): " التصوف استعمال كل خلق سنى ، وترك كل خلق دنى " .

وعن شيوع الموسيقى والغناء فى متصوفة بلرم ، يعلل بعض الباحثين(١٥١) أن هذه الظاهرة ، كانت متأصلة بين البربر ، ومن ثم نقلوها معهم إلى صقلية ، وإن كان من الصعب معرفة السبب وراء شيوع هذه الظاهرة ، إلا أنه من المحتمل أن بعض الطقوس القديمة عند الاغريق والرومان والمسيحية ، نفذت خلال التصوف فى صقلية ، ومن ثم شاعت ظاهرة الموسيقى والغناء عند المتصوفة بلرم (١٥٢).

وإذا انتقلنا إلى مجال علوم اللغة العربية ، فالمعروف أن الهجرات العربية المتلاحقة فى عصر الأغالبة ، والتى يممت وجهها صوب مدينة بلرم ، كانت تمثل المرحلة التمهيدية فى التأثير عربيا فى صقلية ، بحكم أن بلرم قصبة الجزيرة وحاضرتها ، ولم تكن المدينة الصغيرة التى نعرفها الآن (١٥٣)، وعلى الرغم من انتشار اللغة العربية فى الجزء الغربى من الجزيرة حيث تجمعات المسلمين وتمركزهم ، إلا أنها استطاعت أن تجوس خلال المنطقة الشرقية ، وتفرض نفسها على اللغة اليونانية التى يتحدثها النصارى الصقليون ، وتصبح لغة الحديث ، وأكثر من ذلك أصبحت اللغة العامية التى يتحدثها سكان إفريقية ، منتشرة أيضا وسط تجمعات السكان ، ليس فى بلرم فحسب بل فى سائر أنحاء صقلية (١٥٤).

على أن بلرم كما كان لها خصوصية ، كان لها نفس الخصوصية فى اللغة العربية ، وانفردت بلهجة ميزتها عن المشرق والأندلس(١٥٥) ، ويتضح ذلك بجلاء من كتاب " تثقيف اللسان وتلقين الجنان " وصاحبه عمر بن خلف بن مكى ، أحد أبناء بلرم ، عرض فى كتابه للتأثيرات التى أثرت على اللغة العربية فى صقلية ، مما جعلها تنفرد بلهجة تميزها عن غيرها من البلدان الاسلامية (١٥٦)، ولعل هذا الكتاب أصدق انتاج لبلرم بعامة ، ولمدرستها اللغوية بخاصة ، وخير أثر صقلى قاوم الفناء .

وإذا ذهبنا نبحث عن جهود بلرم فى علوم اللغة العربية ، وجدنا نهضتها اللغوية تعاصر نهضتها فى الفقه والحديث ، فقد أسس محمد بن على بن البر التميمى الغوثى ، المولود فى صقلية فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، مدرسة بلرم ، بعد أن تلقى العلم فى المشرق وفى الاسكندرية ، وكان ابن البر من أساطين اللغة ، وساهم فى بقاء التقليد المتنبى ، وفى مدرسته هذه تخرج ابن القطاع ، وأبو العرب وعمر بن خلف بن مكى (١٥٧)، ومن ثم كانت المدرسة واضحة المعالم ، لأننا نعرف أصحابها بأعيانهم ، وببعض آثارهم ، ونستطيع أن نتصور مبلغ نشاطهم ، وخطوط اتجاهاتهم (١٥٨)، ولا غرو فقد فقد اشتهر فى

بلرم علماء أعلام امتدت شهرتهم خارج وطنهم ، كما اجتذبت إليها فريقا من مشاهير اللغويين درسوا فيها وأفادوا نذكر من هؤلاء صاعد اللغوى الذى خرج إلى صقلية سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٠م ، وتوفى ببلرم فى سنة ٤١٠ هـ/ ٢٠١٧ م ، ومن اتصاله بصاحب صقلية نعرف أنه أقام بمدينة بلرم (١٥٩)، وثمة عالم لغوى آخر هو سعيد بن فتحون ، الذى وفد إلى بلرم فى مطلع القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (١٦٠).

لم تصلنا إلا شذرات من أعمال مشاهير اللغة في بلرم ، ولعل أشهرها كتاب الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة ، لمؤلفه على بن جعفر بن على السعدى المعروف بابن القطاع ، الذى رحل إلى مصر فى حدود سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م ، وخصه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بالرعاية ، وجعله مؤدبا لولده فى العلوم العربية وفنون الأدب (١٦١)، وأقام حياته فى التأليف والبحث ، ومن مؤلفاته هذا السفر الذى اشتمل على مائة وسبعين شاعرا ، وتوفى ابن القطاع بالقاهرة سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢٧ م (١٦٢)، ومن أعمال ابن القطاع الأخرى " كتاب تاريخ صقلية " وللأسف ضاع هذا الكتاب ، ويحدونا الأمل أن يأتى اليوم الذى نجد فيه هذا التار يخ المفقود(١٦٣) .

وأما الشعر فقد زها سوقه فى بلرم ، وبلغ فى فترة البحث مبلغا عظيما من الرقى والازدهار ، بفضل تشجيع الأمراء الكلبيين للشعراء ، وإغداقهم الهبات والعطايا عليهم ، هذا فضلا عن أن هؤلاء الأمراء كانوا يتقنون الشعر ، ومن هنا كان البلاط عاملا مهما فى تطور ملامح الشعر فى صقلية ، والتى ظلت باقية خلال حكم النورمان (١٦٤)، وللأسف لم يصلنا سوى شذرات مبعثرة من أعمال الشعراء فى صقلية ، حفظتها لنا كتب المجموعات عن طريق ابن القطاع ، والكاتب الأصفهانى ، وابن سعيد المغربى(١٦٥) .

ولعل أعظم شعراء صقلية عبد الجبار بن محمد بن حمديس الازدى السرقوسى ، تلقى تعليمه ، في بلرم ، وعاش طفولته وشبابه فى صقلية ، ثم مالبث أن رحل عنها إلى الأندلس فى سنة ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م بعد دخول النورمان صقلية ، وفى الأندلس التحق ببلاط ابن عباد فى اشبيليه ، بيد أنه لم ينعم طويلا فيها ، فتركها بعد استيلاء المرابطين على المدينة ، وقضى ما تبقى من عمره فى الترحال حتى وفاته سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م (١٦٦)، ومعظم شعر ابن حمد يس فى الحنين إلى الوطن (١٦٧)، وثمة شاعر صقلى آخر من أبناء بلرم وهو أبو عبد الله محمد بن سادوس ، وكذلك محمد بن على الصباغ ، الذى يعتبر من كبار شعراء البلاط

فى بلرم (١٦٨)، ومن شعراء البلاط نذكر ابن الخياط الذى قضى زهاء خمسين عاما مع الأمراء الصقليين فى بلرم ، وانعكس ذلك على شعره فى مديح الكلبيين (١٦٩).

ومن الشعراء المهاجرين إلى بلرم ، نذكر أبا على الحسن بن رشيق القيروانى (٣٩١ / ١٠٠٠ - ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠م) ، فقد كان إمام البلغاء والشعراء فى البلاط الزيرى فى القيروان (١٧٠)، هاجر ابن رشيق إلى صقلية بعد خراب القيروان على أثر غزوة بنى هلال(١٧١)، وعرف بكثرة مؤلفاته نذكر منها : كتاب العمدة الذى صنفه فى بلاط الأمير الزيرى المعز بن باديس ، والف فى بلرم كتاب الأنموذج وكتاب قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب ، هذه الكتب التى تعد بحق ثروة عظيمة فى ميادين اللغة والنقد والأدب(١٧٢) .

أما الغناء فكان يشكل مساحة كبيرة من الثقافة فى بلرم ، وبرع الصقليون فى الغناء والتلحين ، والتوقيع على العود والرباب (١٧٣)، ولعل الغناء فى بلرم يكشف لنا عن وجود صلة وثيقة بين الأندلس وصقلية وافريقية ، حتى كادت بلرم أن تكون ولاية أدبية أندلسية خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادى عشر الميلادى (١٧٤).

ومن الطبيعى أن يكون للمدرسة التاريخية مكانا فى النهضة الفكرية فى بلرم ، وكان يمثلها ابن القطاع وأبو زيد الغمارى ، الذى كتب تاريخا كاملا لصقلية أسماه " أخبار صقلية " ... ، وللأسف ضاع هذا الكتاب ، كغيره من الكتب الأخرى فى خضم الأحداث السياسية فى صقلية (١٧٥).

أما العلوم العقلية فمن المؤكد أنها لم تكن مفقودة فى بلرم ، ودليلنا على ذلك العالم الجغرافى الشريف الادريسى ، الذى التحق ببلاط الملك روجار الثانى النورماندى ، وفى بلرم كتب كتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " ، هذا العمل الموسوعى الذى استغرق خمسا وعشرين سنة من البحث والسفر (١٧٦)، وتوفى الادريسى سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٥٤ م ، ودفن فى مدينة بلرم (١٧٧)، وأما الطب فالمعروف أن أحد التراجمة الذ ين ساهموا فى نقل كتاب العقاقير لديسقوريدس فى قرطبة فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) ، كان صقليا يحسن اليونانية والعربية والصيدلة (١٧٨)، كذلك الطبيب أبو بكر الصقلى ، الذى كان من الأطباء المشهورين (١٧٩)، وأما الفلك فنذكر محمد بن عيسى بن عبد المؤمن الذى كان عالما بالفلك والهندسة (١٨٠).

وهكذا انتجت بلرم انتاجا فكريا متنوعا فى فترة قصيرة ، ولم يكن ما قدمته قليلا ، وإن كان نباتها العلمى قد نما فيها ، فإنه أثمر فى الخارج ، ولم تكن بلرم بمثابة معبر للاتصال الفكرى فحسب ، بل لم تقم فى أى مكان آخر عليها الحضارات اللاتينية واليونانية والعربية جنبا إلى جنب فى سلم وتسامح ، الأمر الذى جعلها تنتج إنتاجا متنوعا ذات طابع خاص تعكس فيه هويتها وتاريخها وحياتها الاجتماعية ، وإن كانت سقطت بلرم فى سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م كمدينة عربية إسلامية ، فإن حياتها الفكرية ظلت باقية طوال حكم النورمان ، لأن العرب عندما فتحوا صقلية ، اختلطوا بأهلها ، وامتزجوا امتزاجا عميقا ، وتحولوا إلى خلايا حية فى كيان المجتمع الصقلى ، مما جعل آثارهم ومفرداتهم ماثلة إلينا حتى الآن .

الهوامـــش

(١) سوسة مدينة على ساحل البحر من بلاد افريقية ، وهى مدينة عامرة بالناس ، كثيرة المتاجر ، مخصوصة بكثرة الأمتعة ، وجودة حوك الثياب القرقاق وقصارتها ، (الادريسى ، أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالشريف الادريسى (ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٦ م): كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤ م ، جـ١ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦ هـ/ ١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د / احسان عباس ، (بيروت ١٩٨٠ ، ص ٣٣٦) .

(٢) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٣ ، جـ ٥ ، ص ١٨٦ ، النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق د/ حسين نصار ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٢٤ ، ص ٢٥٦ وكذلك : ابن عذارى المراكشى ، أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشى (كان حيا سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢م) : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، بيروت (د. ت) جـ١ ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ ، وقارن ابن عذارى حيث يذكر أن فتح بلرم كان فى سنة ٢٢٠ هـ ، (البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣٢) وكذلك ابن خلدون حيث يجعل فتح بلرم فى سنة ٢١٧ هـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر) بولاق ، ١٢٨٤ هـ ، جـ ٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، وراجع أيضا :

- Smith, D. Mack : A History of Sicily "Medieval Sicily " (800-1713) - New York Press, 1968, V. I. PP. 3-4.

(٤) مارتينو ماريو مروينو : المسلمون فى صقلية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١١

- Ibid, P. 5

(٥)الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ٢ ، ص ٥٩٧ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢١٧ – ٢١٨ .

(٦) مارتينو ماريو مروينو : المسلمون فى صقلية ، ص١

- Finley, M.I: Ancient Sicily to the Arab Conquest, New York Press, 1968 pp. 5 - 24 .

- Freeman, Edward, A : " The Normans at Palermo" in Historical Essays (Third Series) New York, 1892, p. 449

(٧) - Ibid, P. 449

(٨) - The Sicilian Channel : Sicily, Malta & Tunsia, (Palermo)

(٩) - Freeman : The Normans at Palermo, pp. 449-450

(١٠) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ٢ ، ص ٥٩١ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٢٦١

(١١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢١٢ ، حسين مؤنس (الدكتور) : تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٦٩

(١٢) - Smith : A History of Sicily, V.I. P. 7

(١٣) ابن حوقل : أبو القسم النصيبى (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) كتاب صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، ليدن بريل ١٩٣٨ ص ١١٨

(١٤) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٩٠

(١٥) الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٠١

(١٦) ابن أبى دينار ، محمد بن أبى القاسم القيروانى (ت ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨,) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٩٣ ، ص ١١٠

(١٧) - Smith : A History of Sicily, V.I. P. 7

(١٨) - Freeman : The Normans at Palermo,p. 445

(١٩) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢٢ ، وراجع المكتبة العربية الصقلية ، نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ، ليبسك ١٨٥٧ م ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .

(٢٠) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٩١ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٠٢

(٢١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٣ ، ١١٦

(٢٢) ابن جبير ، محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م) : رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت (د. ت) ص ٢٣٠

(٢٣) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٩١

(٢٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٦

(٢٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٥

(٢٦) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٨ ، أمارى : المكتبة الصقلية جـ١ ، ص ١٠٦

(٢٧) محمد عبد الستار عثمان (الدكتور) المدينة الاسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٢٨ ، الكويت ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م ، ص ١٤٢

(٢٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢٣

(٢٩) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٩١

(٣٠) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٩٢

(٣١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٠

(٣٢) الادريسي : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٩٢

(٣٣) أماري : المكتبة الصقلية ، جـ ٢ ، ص ٥٣-٥٤ ، مارتينو ماريو مورينو : المسلمون في صقلية ص ٢٩

-Freeman : The Norman at Palermo, p. 445

(٣٤) عزيز أحمد (الدكتور) : تاريخ صقلية الإسلامية ، تعريب الدكتور أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ١٩٨٠ ، ص ٢٩

- Gabriele. F., : Arab Di Sicilia E Arab Di Spagna, A1-ANDALUS, V. XV, Madrid, 1950, P. 29

(٣٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٦ ، ص ١٢٣ ، أماري : المكتبة الصقلية ، جـ٢ ، ص ١٦٧ ، وراجع : عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ٣٢ ، وكذلك :

Enc., Of Islam, art. (Aghlabides)

(٣٦) - Chiarell, Leonard Charles : Sicily during The Fatimid Age, A disseration Submitted to the Faculty of the University Of UTAH, 1986, PP. 18-20

×× إطلعت على هذه الرسالة القيمة وعلى غيرها من المراجع الأجنبية التي نيلت بها هذه الدراسة في مكتبة جامعة بتسبرج بالولايات المتحدة الأمريكية .

(٣٧) النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص ٣٦٥

(٣٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٤٢ ، النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص ٣٦٦

(٣٩) عزيز أحمد : تاريخ صقلية ص ٣٢ وراجع :

" Hrbk, I. : " The Emergence of the Fatimids", General History of Africa, III, Africa from the seventh to the eleventh Century, California, 1981, p. 325"

(٤٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ١٦٨ ، النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص ٣٦٧

(٤١) النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص ٣٦٧ ، وراجع : أماري : المكتبة الصقلية ، جـ٢ ، ص ١٧٥-١٨٣ ، وكذلك : - Chiarell : Sicily During The Fatimid, p.20

(٤٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ١٦٨ ، وقارن بن خلدون (العبر ، جـ٤ ، ص ٢٠٧) ، حيث يذكر أن الذي ولاه هو المهدي ، وهذا يتنافى مع السياق التاريخي وما أجمعت عليه المصادر .

(٤٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٤٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ١٦٨

٤٤- عزيز أحمد : تاريخ صقلية ص ٣٢ ، وراجع : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، جـ٣ ، ص ١٤٧-١٤٩ وكذلك :
- Smith : A History of Sicily, V. I., p.9

- Hrbk : The emergence of the Fatimid, p. 326

٤٥- جرجنت (Girgenti) أو كركنت : مدينة بجزيرة صقلية ، عامرة بالوارد والصادر ، وبها حدائق وجنات وغلات ، والبحر منها على ثلاثة أميال . الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ٢ ، ص ٥٩٩-٦٠٠ ، الحميرى : الروض ، ص ٤٩٣)

٤٦-النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٣٦٧ ، وراجع : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٦ ، ص ١٤٢

٤٧- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ١٧٤ ، وقارن النويرى حيث بعض الاختلافات فى الرواية ، يذكر أن اعدام ابن قرهب فى سنة ٣٠٠ هـ (نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص ٣٦٧) وراجع :

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, pp. 24-25

٤٨- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٦ ، ص ١٤٢

٤٩- نفس المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٤٢ - ١٤٣

٥٠- ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص ١٧٤

٥١- مارتينو ماريو مورينو : المسلمون فى صقلية ، ص ١٥

- Hrbek : The emergence of the Fatimid, pp. 326-32

٥٢- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ١٣٦-١٤٢ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ١٧٠-١٧٤

٥٣- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢٠-١٢١

٥٤- - Talbi, M., : " Law and Economy in Ifriqiya in the third Islamic Century", in the Middle

East Studies Economic and Social History, Princeton, 1981, pp. 209-214

- Freeman : The Normans at Palermo, pp. 450-451

٥٥- محمود اسماعيل عبد الرازق (الدكتور) : المالكية والشيعة بافريقية إبان قيام الدولة الفاطمية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثالث والعشرين ، ١٩٧٦ ، ص ٨٢-٨٣ .

٥٦- - Talbi : Law and Economy, p. 212

٥٧- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٦ ، ص ١٤٣ ، أمارى : المكتبة الصقلية ، جـ١ ، ص ٢٧

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, pp. 25-27

٥٨- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٦ ، ص ١٤٣ ، وقارن النويرى حيث يذكر أن ولاية سالم بن راشد الكنانى كانت فى سنة ٣٠٥ هـ (نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص٣٦٨) .

٥٩- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٦ ، ص ١٤٣-١٤٤

٦٠- نفس المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٦١

٦١- أمارى : المكتبة الصقلية ، جـ ١ ، ص ١٧١ ، وراجع : - Chiarell : Sicily., p.30

٦٢- أمارى : المكتبة الصقلية ، جـ ١ ، ص ١٧١ ، وعن هذه الكوارث التى تعرضت لها إفريقية وصقلية راجع: - Talbi : Law and Economy in Ifriqiya, pp. 219-221

٦٣- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٦١

٦٤- ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ص ١١٠ ، وراجع :

- Freeman : The Norman at Palermo, pp. 450-451

٥٦- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، الاسكندرية (د . ت) ، ص ٢٤٥

٦٦- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٨ ، والعبر جـ١ ، ص ٢١٢ ، وعن مدينة الخالصة راجع :

- Freeman : The Norman at Palermo, pp. 450-455

٦٧- الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ، ص ٥٩١ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٠٢

٦٨- نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٥٩٢

٦٩- محمد عبد الستار عثمان ، المدينة الاسلامية ، ص ١٧٥

٧٠- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٩ ، وراجع : عبد العزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ص٤٧

- Freeman : OP. Cit., P. 450

-Chiarell : Sicily, p. 30

٧١- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٨ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٠٢

٧٢- نفس المصدر السابق ، ص ١٢٠

٧٣- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٠

٧٤- الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ٢ ، ص ٥٩٢ ، ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٨

٧٥- نفس المصدر : جـ٢ ، ص ٥٩٢ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٠٢

٧٦- حامد زيان غانم (الدكتور) : تاريخ الحضارة الاسلامية فى صقلية وأثرها على أوربا ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٤

(٧٧) - Smith : A History o f Sicily, V.I, p. 11

(٧٨) مارتينو ماريو مورينو : المسلمون فى صقلية ، ص ٢٩

(٧٩) - Freeman : The Normans at Palermo, p. 447

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, pp. 180-182

(٨٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٥٤

(٨١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٤

(٨٢) عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ص ٤٩ ، أمارى : المكتبة الصقلية ، جـ١ ، ص ١٥٢- ١٥٧ ، وراجع :

- Chiarell : OP. Cit., p. 180

(٨٣) الأنصارى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد أبى طالب : كتاب نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، المكتبة الصقلية ، ص ١٤٣

(٨٤) احسان عباس (الدكتور) : العرب فى صقلية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٨٦

(٨٥) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ٢ ، ص ٨٨

(٨٦) احسان عباس : العرب في صقلية ، ص حذف ٨٦

(٨٧) الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٣٦

(٨٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢٠

(٨٩) نفس المصدر ، ص ١٢٠

(٩٠) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٣٠

(٩١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢١

(٩٢) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ص ١١٠

(٩٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢٦

(٩٤) نفس المصدر ، ص ١٢٦

(٩٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢١

(٩٦) نفس المصدر ، ص ١٣٤

(٩٧) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص ٢٧٥

(٩٨) أمارى : المكتبة الصقلية جـ١ ، ص ١٥٢ ، عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ٤٩ راجع :

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, pp. 57-60

(٩٩) راجع التفاصيل فى بحث الدكتور محمود على مكى : " التشيع فى الأندلس " ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٤ ، وكذلك راجع : الدكتور أحمد مختار العبادى : " سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس " ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، العدد الأول والثانى ١٩٥٧ ، ص ٢٠٤-٢٠٥

(١٠٠) الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى (ت ٦٩٦ هـ) : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد ماضور ، تونس ١٩٧٨ ، ص ٨٥-١٢٠ ، وراجع اسماعيل عبد الرازق : المالكية والشيعة بإفريقية ، ص ٨٢-٨٦ ، وكذلك :

- Talbi : " Law and Economy in Ifriqiya. pp. 212-223

(١٠١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢٧

(١٠٢) نفس المصدر ، ص ١٢٧

(١٠٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤١

(١٠٤) ابن رشيد السبتى ، محمد بن عمر (ت ٧٣١ هـ/ ١٣٢١ م) : رحلة اب رشيد المعروفة " ملء العيبة فى ما جمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة " ، تحقيق نجاح صلاح الدين القابسى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب عين شمس ١٩٧٨ ، ص ١٤٤-١٤٩

(١٠٥) المقرى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م) : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، جـ٢ ، ص٥

(١٠٦) احسان عباس : العرب فى صقلية ، ص ٩٥

- Umberto Rizzitano : " La Cultura Araba Nella Sicilia Normanna " in Atti del Congresso Internazionale Di Studi Sulla Sicilia Normanna, Palermo, Istituto Di Storia Medievale, 1983, p. 280

(١٠٧) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ٥١ ، وراجع :

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 181

(١٠٨) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ٥١ ، وراجع :

- Rizzitano : " La Cultura Araba Nella Sicilia " PP. 280-281

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 182

(١٠٩) الاصطخرى ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى (توفى خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري) : المسالك والممالك ، بريل – ليدن ١٩٢٧ ، ص ٦٠

(١١٠) المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ٢٣٨

(١١١) مؤلف مجهول : كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، تحقيق عمر السعيدي ، المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٧٤ ، ص ٤٨

(١١٢) احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ٩٨

- Chiarelli : OP. Cit., p. 183

(١١٣) ابن فرحون ، ابراهيم بن علي بن محمد (ت ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦ م) : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٧٥ ، جـ١ ، ص ٢٧٤

(١١٤) الدباغ : معالم الايمان ، جـ٣ ، ص ٢٥١ ، السيوطي ، عبد الرحمن بن زبي بكر جلال (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ ، جـ١ ، ص ٢١٠ .

(١١٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص ٢٧٤

(١١٦) احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ٩٧ ، عزيز أحمد : تاريخ صقلية ، ص ٥١

(١١٧) القاضي عياض : عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بيروت ١٩٦٥ ، جـ ٣ ، ص ٧٧٤ ، ابن بشكوال : كتاب الصلة ، جـ١ ص ١٧٤ ، ٢٠٥

(١١٨) ابن فرحون ، الديباج ، جـ٣ ، ص ٢٧٤

(١١٩) القاضي عياض : ترتيب المدارك ، جـ٣ ، ص ٧٧٥

(١٢٠) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٦١١ – ٦١٢

(١٢١) أماري : المكتبة الصقلية جـ٢ ، ص ٥٣٥ ، راجع ذلك :

- Rizzitano : Storia & Cultura nella Sicilia Saracena, Palermo 1975,, pp. 189-193

(١٢٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ١٠٥ ، الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) : تذكرة الحفاظ ، حيدر أباد الدكن – الهند ١٣٣٣ هـ ، جـ١ ، ص ٢٢٥ .

(١٢٣) - Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 189

(١٢٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ١٠٥

(١٢٥) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٢ ، ص ١٣٠

(١٢٦) المقريزي : كتاب المقفى في المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٣

(١٢٧) السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٩٩

(١٢٨) ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢) : وفيات الأعيان ، بيروت ١٩٧٢ ، جـ ١ ، ص ٥٠

(١٢٩) احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ١٠١ ، وراجع :

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 191

(١٣٠) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤

(١٣١) أمارى : المكتبة الصقلية ، جـ٢ ، ص ٥٧٨

(١٣٢) أمارى : المكتبة الصقلية ، جـ٢ ، ص ٥٤٣ ، وراجع : عزيز أحمد : تاريخ صقلية ، ص ٥٠

(١٣٣) السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ) : طبقات الشافعية ، القاهرة (د . ت) ، جـ٤ ، ص ١٢٤

(١٣٤) احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ١٠٢

(١٣٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٢٧

(١٣٦) السهروردى ، أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد القرشي الملقب بشهاب الدين (٥٣٩هـ – ٦٣٢ هـ) : كتاب عوارف المعارف ، القاهرة (د . ت) ، ص ٧٥

(١٣٧) المقريزى : المقفى في المكتبة الصقلية ، ص ٥٠ ، وراجع السلمى ، أبو عبد الرحمن محمد بن أبى الحسين : كتاب طبقات الصوفية ، تحقيق بدرس (Pedresen) ليدن – بريل ١٩٦٠ ، ص٥١

(١٣٨) أبو القاسم الجنيد بن محمد ، سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ، ومنشؤه ومولده بالعراق ، كان فقيها على مذهب أبى الثور ، وكان يفتى بحلقته ، وهو ابن عشرين سنة (القشيرى ، أبو القاسم عبد الكريم) (٣٧٦-٤٦٥ هـ/ ٩٨٦-١٠٧٣ م) : الرسالة القشيرية ، جـ٢ ، تحقيق د. عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، القاهرة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ جـ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣٩) المقريزى : المقفى في المكتبة الصقلية ، ص ٥٠ ، المالكي : رياض النفوس في المكتبة الصقلية ، ص٩٤

(١٤٠) الدباغ : معالم الايمان ، جـ٣ ، ص ١٨١

(١٤١) إحسان عباس : العرب في صقلية ، ص ١١٥

(١٤٢) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى : كتاب الأنوار في علم الأسرار ، ومقامات الأبرار ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ (غير مرقم) ، وراجع : احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ١١٥

(١٤٣) احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ١١٥

(١٤٤) الشعراني ، عبد الوهاب : الطبقات الكبرى ، القاهرة ، مكتبة محمد على صبيح (د.ت) ، ص ١٠٤-١٠٥ ، وراجع : القشيري : الرسالة القشيرية ، ص ١٨٤ – ١٨٥ وكذلك :

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 190

(١٤٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٢٥٣ -٢٥٤

(١٤٦) الفرضي ، عبد الله بن محمد : تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ، ص ١٤٩ ، الحميدي : جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ ، ص٢١٦

(١٤٧) احسان عباس : العرب فى صقلية ، ص ١١٤

(١٤٨) السهروردي : عوارف المعارف ، ص ٧٥ – ٧٧ ، وكذلك : السلمي : طبقات الصوفية ، ص ١٤-١٩

(١٤٩) - J. Spencer Trimingham : The Sufi Orders in Islam, Oxford Clarendon Press 1971, pp. 83-84

(١٥٠) الأصفهاني : خريدة القصر ، جـ١ ، ص ٧٢ ، وراجع : احسان عباس : العرب فى صقلية ، ص١١٩

(١٥١) السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ) معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد على النجار ، القاهرة ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ ، ص١١٩ ، وكذلك السهروردي : عوارف المعارف ، ص ٧٦

(١٥٢) - Trimingham : The Sufi Orders in Islam, p. 84

- Dermenghem, E., : Le Culte des Saints dans L'Islam maghrebin (Paris 1954) PP. 218-220

(١٥٣) - Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 192

(١٥٤) - Rizzitano : " Vicende della Lingue araba in Sicilia" Archivio Storico per la Sicilia (1953) pp. 84-87

(١٥٥) - Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 193

(١٥٦) احسان عباس : العرب فى صقلية ، ص ١٠٦ وكذلك :

- Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 193

(١٥٧) ابن مكي ، عمر بن خلف (كان حيا فى سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٥٠ م) : تثقيف اللسان وتلقين الجنان ، تحقيق عبد العزيز مطر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٤٦

(١٥٨) - Rizzitano : " Un Compendio dell Antologia di Poeti Arabo Siciliani Scienze Morali, III, pp. 738-739

(١٥٩) احسان عباس : العرب فى صقلية ، ص ١٠٨ ، عزيز أحمد : تاريخ صقلية ، ص ٥٢-٥٣

(١٦٠) ابن بسام ،أبو الحسن على الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٦ م) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٧٩ ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٣٨-٣٩

(١٦١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٢٣٧

(١٦٢) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١٢ ، ص ٢٧٩-٢٨٠

(١٦٣) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، جـ١ ، ص ٥١

(١٦٤) - Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 195

(١٦٥) - Chiarell : OP. Cit., pp. 195 - 196

(١٦٦) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، جـ١ ، ص ١٠٢-١٠٥ ، جـ٢ ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٩ ، ص١٠٤ ، ص ١٩٩ ، ص ٢٢٠ ، ص ٢٦٠

(١٦٧) ابن حمد يس ، عبد الجبار بن حمد يس (ت ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م) : ديوان ابن حمد يس ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٠ ص ٤٥ ، ص ١٠٩ ، ص ١٦٦ ، ص ٢٢٢ وللمزيد راجع أيضا :

- Andrea Borruse : " La Nostalgia della Sicilia, nel Diwan di Ibn Hamdis" Bollettino del Centro di Studi Filologici & Linguistici Siciliani, 12 (1973) 41-54

(١٦٨) - Borruse : " La Nostalgia della Sicilia, nel Diwan di Ibn Hamdis" PP. 44-50

(١٦٩) الأصفهاني : خريدة القصر ، جـ ١ ، ص ٨٣-٨٥

(١٧٠) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ٨٥

(١٧١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٥٩٧ - ٥٩٩

(١٧٢) نفس المصدر ، ص ٥٩٩

(١٧٣) ابن رشيق : كتاب العمدة ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ١ ، ص ١٠-١٤ ، كذلك : كتاب الأنموذج ، تحقيق محمد المطوى ، وبشير البكوش ، تونس ١٩٨٦ ، ص ٤٠٩-٤٣٠

(١٧٤) - Chiarell : Sicily during The Fatimid Age, p. 201

(١٧٥) عزيز أحمد : تاريخ صقلية ، ص ٥٥

(١٧٦) - Ibid., pp. 203 - 204

(١٧٧) الادريسي : نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٣-٥

(١٧٨) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، ص ١٦٩

(١٧٩) مارتينو ماريو مورينو : المسلمون في صقلية ، ص ٤٢

(١٨٠) احسان عباس : العرب فى صقلية ، ص ١٢٢

(١٨١) أمارى : المكتبة الصقلية ، جـ٢ ، ص ٦١٩

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية

١- مصادر مخطوطة :

- أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى (كان حيا فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) : كتاب الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم (٢٣) .

ب- مصادر مطبوعة :

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤ م)الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٣ .

- الادريسى ، الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤ م) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤ .

- الاصفهانى ، أبو عبد الله محمد بن صفى الدين (ت ٥٩٧ هـ/ ١٤٦٧ م) : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد المرزوقى ، الدار التونسية للنشر ، تونس (١٩٦٦ - ١٩٧١ م) .

- الاصطخرى ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) المسالك والممالك ، بريل - ليدن ١٩٢٧ .

- الأنصارى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب : كتاب نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، المكتبة الصقلية ، ليبسك ١٨٥٧ م .

- ابن بسام ، أبو الحسن على الشنترينى (ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٦ م) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول والثانى ، تحقيق د. إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب -ليبيا- تونس ١٩٧٩ .

- ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٣ م) : كتاب الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ م .

- ابن جبير ، محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤ هـ/ ١٢٧١ م) : رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبنانى بيروت (د.ت) .

- ابن حمد يس ، عبد الجبار بن حمد يس (ت ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م) : ديوان ابن حمد يس تحقيق د.

احسان عباس ، بيروت ١٩٦٠ .

- الحميدى ، أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الأزدى (ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م) جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥١ .

- الحميرى ، أبو عبد الله بن عبد المنعم (ت ٨٦٦ هـ/ ١٤٦١ م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ .

- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م) صورة الأرض ، بيروت (د.ت) .

- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ .

- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدان ، الاسكندرية (د.ت) .

- ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨١ م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٢ .

- الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م) : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد ماضور ، تونس ١٩٧٨ .

- ابن أبى دينار ، أبو عبد الله محمد أبى القاسم الرعينى القيروانى (ت ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨ م) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تونس ١٢٨٦ م .

- الذهبى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) : تذكرة الحفاظ ، جـ٢ حيدر أباد الدكن - الهند ١٣٣٣ هـ .

- ابن رشيد السبتى ، محمد بن عمر (ت ٧٣١ هـ/ ١٣٢١ م) : رحلة ابن رشيد ، تحقيق نجاح صلاح الدين القابس ، رسالة دكتوراه غير منشورة آداب عين شمس ١٩٧٨ .

- ابن رشيق ، أبو على الحسن بن رشيق القيروانى (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م) العمدة ، جـ١ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ .

- ابن رشيق : الأنموذج ، تحقيق محمد المطوى وبشير البكوش ، تونس ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م .

- السبكى ، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ) : معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد على

النجار وآخرون ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٣٦٧ هـ ، ١٩٤٨ .

- السبكى : طبقات الشافعية ، القاهرة (د.ت) .

- السلمى ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى : كتاب طبقات ، الصوفية ، تحقيق (Jolls Pedersen) باريس ١٩٣٨ .

- السهروردى ، أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله القرشى الملقب بشهاب الدين (ت ٦٣٢ هـ) : كتاب عوارف المعارف ، القاهرة (د.ت) .

- السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، جـ٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة (١٩٦٤ - ١٩٦٥) .

- الشعرانى ، عبد الوهاب : الطبقات الكبرى ، القاهرة ، مكتبة محمد على صبيح (د.ت) .

- ابن عذارى المراكشى ، أبو عبد الله محمد بن محمد (كان حيا سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م) : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، بيروت ١٩٦٧ .

- ابن فرحون ، ابراهيم بن على بن محمد (ت ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦م) : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٧٥ .

- ابن الفرضى ،عبد الله بن يوسف بن نصر الأزدى (ت ٤٠٣ هـ) تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ١٩٦٦ .

- القاضى عياض ، عياض بن موسى اليحصبى (ت ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، جـ ١ ، تحقيق أحمد بكير محمود ، بيروت ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥م .

- القشيرى ، أبو القاسم عبد الكريم (٣٧٦-٤٦٥ هـ/ ٩٨٦ - ١٠٧٣ م) : الرسالة القشيرية ، جـ٢ تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ،القاهرة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م .

- المالكى ، أبو عبد الله بن محمد (ت فى القرن الخامس الهجرى) : كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ، موجود فى المكتبة الصقلية ليبسك ١٩٥٧ .

- المقدسى ، شمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالبشارى (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ .

- المقرى ، شهاب الدين أبو عباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١م) : نفح الطيب

في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ م .

- ابن مالكي ، عمد بن خلف (كان حيا في سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٥٠ م) : تثقيف اللسان وتلقين الجنان ، تحقيق عبد العزيز مطر ، القاهرة ١٩٦٦ .

- مؤلف مجهول : كتاب العيون والحدائق في أخبار الخلائق ، تحقيق عمر السعدى ، المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٧٤ م .

- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣١م) : نهاية الأرب في فنون الأدب جـ٢٤ ، تحقيق د. حسين نصار ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٣ .

- ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) : معجم الأدباء ، القاهرة ١٩٣٨ .

- ياقوت : معجم البلدان ، ١٠ أجزاء ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤ .

جـ - المراجع العربية :

- احسان عباس (الدكتور) : العرب في صقلية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ .

- أحمد مختار العبادى (الدكتور) : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ، العدد الأول والثانى ١٩٥٧ .

- أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى القاهرة ١٩٦٠ .

- حامد زيان غانم (الدكتور) : تاريخ الحضارة الاسلامية في صقلية وأثرها على أوربا ، القاهرة ١٩٧٧

- حسين مؤنس (الدكتور) : تاريخ المسلمين في البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٩١ .

تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ .

- سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) : تاريخ المغرب العربي ، جـ٣ ، الاسكندرية ١٩٩٠ .

- عزيز أحمد (الدكتور) : تاريخ صقلية الاسلامية ، تعريب الدكتور أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ١٩٨٠ .

- مارتينو ماريو مروينو : المسلمون في صقلية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ١٩٧٥ .

- محمد عبد الستار عثمان (الدكتور) : المدينة الاسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٢٨ ، الكويت

١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م .

– محمود اسماعيل عبد الرازق (الدكتور) : المالكية والشيعية بافريقية إبان قيام الدولة الفاطمية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثالث والعشرين ١٩٧٦ .

– محمود على مكى (الدكتور) : التشيع فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثالث ١٩٥٤ .

– ميشيل أمارى : المكتبة العربية الصقلية ، نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ، ليبسك ١٨٥٧ م .

د – المراجع الأوروبية :

- Borruso, Andrea : " La Nostalgia della Sicilia nel Diwan di Ibk Hamdis" Bolletino del Centro di studi Filologia & Linguistici Siciliani 12 (1978) 38 - 45.

- Chiarelli, Leonard Charles : Sicily During The Fatimid Age, (PH.D) University of Utah 1986.

- Encyclopaedia Of Islam.

- Fineley, Moses I., Ancient Sicily to the Arab conquest, New York press. 1968.

- Freeman, Edward, A., " The Normans at Palermo" in Historical Essays (Third Series) New York. 1892.

- Gabriele, F. : Arabi di Sicilia E Arabi di Spagno, Al ANDALUS; V., XV, Madrid, 1950.

- Herbk, I., " The emergence of the Fatimids" general History of Africa, Africa from the seventh to the eleventh century, California press 1981.

- Smith, D. Mack: Ahistory of Sicily " Medieval Sicily " (800-1713) New York press 1968.

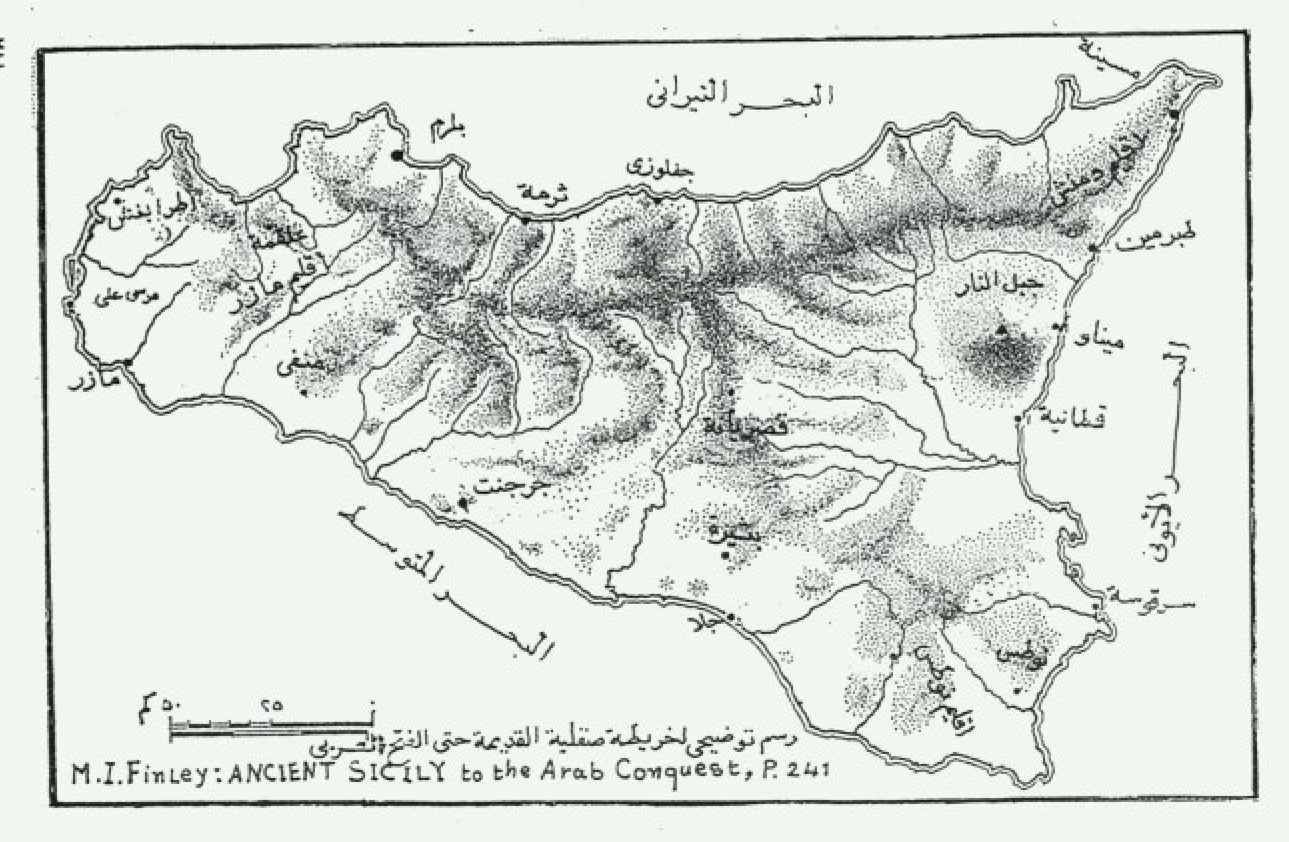
- Rizzitano, Umberto: Storia e Cultura nella Sicilia Saracena, Palermo S,F Flaccovio. 1975.

- Rizzitano: " La Cultura Araba nella in Atti del congresso internazionale distudi sulla Sicilia ,Normanna, Palerm, Istituto Di storia medievale, 1983

- Talbi, M. : " Law and Economy in Ifriqiya in the third Islamic century" in the middle east studies economic and social History, Princenton 1981.

- The Sicilian Channel: Sicily, Malta & Tunsia (Palermo).

- Trimingham, I. Spencer: The Sufi orders in Islam, Oxford Clarendon Press, 1971.



رسم توضيحي لخريطة صقلية القديمة حتى الفتح العربي

M.I. Finley: ANCIENT SICILY to the Arab Conquest, P. 241

د. على بن إبراهيم غبان (*)

نقش تذكارى لأحد أمراء بنى الجراح
مؤرخ بسنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ - ١٠٨٨م
(دراسة تحليلية)

تقديم :

يتناول هذا البحث بالدراسة التحليلية نقشا تذكاريا ، من نوع النقوش التى يتركها المسافرون والحجاج على الطرقات تذكارا لمرورهم بها ، أو نزولهم فى أحد منازلها . ويتضمن إشارة إلى حضور الأمير هلال الدولة ثابت بن ربيعة بن حازم أحد أمراء بنى الجراح فى موقع الأقرع سنة ٤٨٠ هجرية (١٠٨٧ - ١٠٨٨م) ، وهو فى طريقه لحج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه محمد عليه السلام . ويعتبر هذا النقش أحد النقوش المهمة على طريق الحج الشامى[١] .

وتغطى الدراسة التحليلية لهذا النقش : موقعه ، وعلاقته بمسار طريق الحج الشامى ، وصيغته ، ومضمون نصه ، والشخصيات والألقاب والمصطلحات الواردة فيه ، أهميته بالنسبة لتاريخ بنى الجراح ، وتاريخ المنطقة ، بالإضافة إلى دراسة خطه .

---

* المملكة العربية السعودية ، جامعة الملك سعود، قسم الآثار والمتاحف ، الرياض ، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١م

موقع النقش (اللوحتان ١ ، ٢)

يقع هذا النقش فى موقع الأقرع على بعد ٥٥ كم إلى الشمال من الحجر (مدائن صالح) ، وعلى بعد ٢١٠ كم جنوب مدينة تبوك ، والأقرع منزل من منازل طريق الحج الشامى ذكره عدد من الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين عددوا مراحل الطريق ، مثل ابن خرداذبة ، والحربي ، وقدامة بن جعفر ، وابن رسته (٢). ويجعل هؤلاء الجغرافيون الأقرع ثانى منازل الطريق بعد الحجر للمتجه شمالا ، ويقدرون المسافة بينه وبين الحجر بمرحلتين : الأولى من الحجر إلى الجنينه - وهى جوبة الحجر حيث موقع محطة المزحم على سكة حديد الحجاز - ومسافتها خمسة وعشرون كيلو مترا (٣).

ويرد ذكر الأقرع فى المصادر كمنزل على طريق الحج الشامى ابتداء من القرن الثالث الهجرى / ٩ م ، إلا أن الموقع توجد به نقوش تذكارية مؤرخة وغير مؤرخة من القرن الأول الهجرى نقشها الحجاج على صخوره المتناثرة ، مما يؤكد أنه أحد منازل الطريق خلال القرن الأول الهجرى . وأهم النقوش المبكرة والمؤرخة بموقع الأقرع : نقش عفير بن المضارب المؤرخ بسنة ٨٣ هـ (٤).

ويستمر ذكر الأقرع محطة للطريق فى العصور الاسلامية الوسيطة والمتأخرة ، حيث أشار إليه ابن شجاع الدمشقى الذى حج فى العصر الأيوبى سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦م ، وابن طولون الذى حج فى العصر العثمانى سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٥ م ، غير أن الموقع سمى الأقارع عند ابن شجاع الدمشقى ، والقارع عند ابن طولون (٥).

ويبدو أن اسم هذا المكان اشتق من طبيعة تضاريسه ، فكلمة الأقرع تعنى ، من بين معانيها المجازية : المكان الذى بلا كلأ : يقال رياض قرع (بالضم) أى بلا كلأ (٦)، وموقع الأقرع يتميز بوجود طبقة صخرية من الحجر الرملى تبرز فى مساحات كبيرة على سطح الأرض لا تغطيها الرمال ولا ينبت عليها الكلأ (لوحة ٢) ، غير أن بها تجاويف تستقر فيها مياه الأمطار ، فتشكل مماسك طبيعية للمياه تنهل منها قوافل الحجاج عند نزولها بهذا المنزل .

ويتميز الأقرع أيضا بوجود تكوينات جبلية صغيرة ومتناثرة من الحجر الرملى تركت عليها عوامل التعرية آثارا واضحة ، وفى بعض هذه التكوينات الجبلية توجد واجهات صخرية مستوية صالحة للكتابة والرسم ، نقش عليها بعض الذين نزلوا بهذا المكان رسوما صخرية لأبقار ووعول ، ونقوشا بالأقلام اللحيانية ، والثمودية ، والنبطية ، ونقوشا عربية من مختلف

العصور الاسلامية . ولا توجد هذه الكتابات فى مكان واحد ، وإنما متفرقة فى التكوينات الجبلية على مسافة تمتد على مسار الطريق بطول خمسة كيلومترات وبعرض كيلومترين.

وفى نقطة متوسطة بموقع الأقرع ، على يمين السكة للمتجه جنوبا ، يوجد النقش موضوع هذا البحث . ويشغل مع نقوش أخرى واجهة شمالية لأحد الجبال المتوسطة الارتفاع . ويرتفع مكان النقش مترا ونصف المتر تقريبا عن مستوى الصخور المحيطة بموقعه . بقى أن يشير الباحث إلى أن الموقع توجد به محطة لسكة حديد الحجاز ، بعيدة عن موقع النقش ، تعرف باسم المطلع ، ولذلك لا يظهر اسم الاقرع فى جدول محطات سكة الحديد (٧).

وصف النقش وما حوله من نقوش مرتبطة به (اللوحات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧)

نفذ هذا النقش فوق مستوى رسوم الوعول الموجودة سابقا على الواجهة الصخرية ، وقد اختير لتنفيذه مكان خال من الكتابة والرسم ، فجائت مساحته المكتوبة على شكل شريط كتابى طويل نسبيا أبعاده : ١٥٠ × ٣٠ سم . ويتكون من أربعة أسطر .

والنقش منفذ بطريقة الحز الغائر ، ويبلغ متوسط طول ألفاته ولاماته ٦ سم وخط النقش من نوع الكوفى البسيط الخالى من الزخرفة .

وبجوار نقش الأمير ثابت توجد على الواجهة الصخرية ثلاثة نقوش أخرى تذكر أسماء أشخاص كانوا برفقة الأمير ثابت ، وستأخذ هذه النقوش أرقام : ٢ ، ٣ ، ٤ على اعتبار أن نقش الأمير ثابت ، هو النقش رقم ١ . وسيكتفى الباحث بوصف هذه النقوش وذكر نصوصها على اعتبار أنها نقوش ثانوية ملحقة بالنقش الرئيسى موضوع هذا البحث .

نقش رقم ٢ (لوحة ٥)

يقع على يسار النقش ر قم ١ ، وملاصقا له ، وهو يشير إلى حضور سيف الدولة حميد مولى الأمير . ويشغل مساحة مكتوبة أبعادها : ٥٠ × ٢٠ سم ، ويبلغ متوسط طول ألفاته ولاماته ٩ سم . ويتكون نصه من ست كلمات كتبت فى سطرين قصيرين بخط مماثل لخط نقش الأمير ثابت ، بحيث يمكن القول بأن شخصا واحدا قام بتنفيذ النقشين ، ونص النقش :

١- حضر سيف الدولة .

٢- حميد مولا (كذا) الأمير.

ويلاحظ أنه كتب كلمة مولى بلام ألف بدلا من الألف المقصورة . وهذا المولى قد يكون من قرابة الأمير ثابت ، أي من بنى الجراح ، خاصة وأن اسم حميد من الأسماء المستخدمة فى أسرة بنى الجراح ، ولكونه يحمل لقب سيف الدولة ، وقد يكون من عتقائه وأتباعه ، حيث كثر فى تلك الفترة تعيين الموالى فى مناصب قيادية فى الدولتين العباسية والفاطمية ، وكذا الدويلات والإمارات الصغيرة التابعة لهما . ومصطلح المولى يحتمل كل هذه المعانى (٨).

نقش رقم ٣ (لوحة ٦)

يقع على يسار النقشين السابقين فى مستوى منخفض من الواجهة الصخرية ، ويتكون من سطرين نفذا على مساحة مكتوبة أبعادها : ٦٠ × ٢٠ سم ، ويبلغ متوسط طول ألفاته ولاماته ٥ سم ، وعرض الحز فى حروفه ٥ مم ، وقد كتب بخط أقل من خط النقشين السابقين ، إلا أن مضمونه يؤكد علاقته بهما ، فهو يسجل حضور عبد الأمير ثابت ، ونصه :

١- حضر دبع بن مسلم عبد

٢- الأمير ثابت .

ويلاحظ وجود حرفين قديمين على الصخرة بين كلمتى : " الأمير ثابت " ليسا من حروف النقش لأن لون حزهما مختلف ، كما يلاحظ وجود نقطة تحت حرف الباء فى كلمة " دبع " وهو الحرف المنقوط فى هذا النقش وفى النقوش الأربعة الأخرى ، ولعل منفذ النقش نقط هذا الاسم بالذات حرصا على أن يقرأ بصورة صحيحة ، ولكونه اسم غير شائع الاستخدام .

نقش رقم ٤ (لوحة ٧)

يقع فى مكان متوسط بين النقشين رقمى ٢ ، و ٣ ، وتحت صور الوعول التى تشغل الجزء الأوسط من الواجهة الصخرية . ويتكون من أربع كلمات كتبت فى سطرين يشغلان مساحة مكتوبة أبعادها : ٦٠ × ٣٠ سم ، ويبلغ متوسط ألفاته ٥ سم وعرض الحز فى حروفه ٥ مم ، أما نصه فهو :

١- حضر ديبان بن

٢- مصعب .

وحروف هذا النقش تشبه من حيث شكلها حروف النقش موضوع البحث ، ولكن خطها أقل جودة (انظر حروف : الباء ، والحاء ، والراء ، والنون ، الصاد ، والضاد ، والعين ، والنون) ، وهذا التشابه يبرر الحاق هذا النقش بالنقوش السابقة بالإضافة إلى اسم الشخص الوارد فيه

"دبيان" اسم تتسمى به الأعراب ، فقد يكون لفرد من حاشية الأمير ثابت [٩].

قراءة النقش موضوع البحث :

١- حضر الأمير هلال الدولة ثابت بن ربيعة بن حازم الله وليه وناصره .

٢- سنة ثمانين وإربعمائة وهو متوجه نحو بيت الله الحرام

٣- وزيارة قبر نبيه محمد عليه السلام كتب الله

٤- سلامته

أهمية دراسة النقش :

تتضح أهمية دراسة هذا النقش من خلال النقاط التالية :

١- كونه النقش التذكاري الثاني المؤرخ من فترة القرن الخامس الهجري / ١١ م الذى يتم العثور عليه حتى الآن على مسار طريق الحج الشامي على حد علم الباحث . وكان إينو ليتمان قد استنسخ في عام ١٩٠٤ - ١٩٠٥ م نقشا تذكاريا مؤرخا بعام ٤٦٣ هـ عثر عليه في بصرى على أحد حوائط بركة الحاج ، ونصه : حضر في هذا الموضع سيار بن هرماس / في سنة ثلاث وستين وأربع مائة / رحمه الله ورحم والديه (لوحة ١١) . وهذا النقش ، وهو لأحد الأعراب كما يتضح من الاسم ، أحد نقوش طريق الحج الشامي إذ أن بصرى تقع على مسار الطريق [١٠]. ويلاحظ أن عادة تنفيذ الكتابات التذكارية على مسارات الطرق وفي محطتها قلت وبشكل كبير بعد القرن الثالث الهجري / ٩ م ، ولعل من أسباب ذلك انعدام الأمن على الطرقات بعد القرن الثالث ، وتنظيم سفر الحجاج في قوافل رسمية يقودها مسؤول معين من الدولة لا يسمح لها بالتوقف إلا في أماكن محددة ، حرصا على سلامة الحجاج [١١]، فضلا عن تراجع اهتمام الحجاج والمسافرين بعد القرن الثالث بتنفيذ الكتابات التذكارية التي توثق رحلتهم إلى الحج وسفرهم على الطرقات .

٢- أن هذا النقش يتحدث عن رحلة الأمير هلال الدولة ثابت بن ربيعة بن حازم إلى الحج ، وهو أحد أمراء بني الجراح الطائيين ، الذين كانوا يسيطرون في فترة القرنين الرابع والخامس للهجرة (١٠ ، ١١م) على بادية الشام ، وشمال الجزيرة العربية ، وشمالها الغربي ، وأجزاء من فلسطين والأردن ، وكامل الأراضي التي توجد فيها قبيلة طيئ بفروعها المختلفة . وكانت لهم دولة عاصمتها الرملة بفلسطين ، تدين بالولاء للخليفة الفاطمي في معظم أوقاتها .

٣- أن المعلومات المتوفرة عن بنى الجراح وأمرائها فى المصادر التاريخية قليلة جدا . بحيث لا يرد ذكرهم إلا فى ثنايا الأحداث وأخبار الصراعات السياسية التى كانت تحدث فى بلاد الشام ومصر والعراق والصحراء العربية ، خلال الفترة الممتدة من قيام الدولة الفاطمية وحتى وصول الصليبيين إلى بلاد الشام (ق ٤-٥ هـ/ ١٠-١١م) .

٤- أن المعلومات المتوفرة عن بنى الجراح من المصادر الأثرية نادرة جدا ، فلا يعرف سوى أثر واحد حتى الآن ، على حد علم الباحث ، ذو علاقة ببنى الجراح ، عبارة عن عملة ذهبية نادرة تحمل اسم الخليفة الراشد بالله ، وهو الشريف أبو الفتوح والى مكة ، الذى خرج على طاعة الخليفة الفاطمى ونزل عند بنى الجراح فى فلسطين ، وأعلن نفسه خليفة ، وتلقب بالراشد ، وسك عملة باسمه . وعلى هذه العملة يظهر بالإضافة إلى اسم الخليفة الراشد بالله ، اسم ناصر الاسلام مفرج ، واسم ابنه شمس الدولة حسان ومكان الضرب فلسطين ، وتاريخ الضرب اثنتين وأربعمائة (لوحة ٨) ، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه العملة سكها بنو الجراح فى فلسطين باسم الخليفة الجديد " الراشد بالله " عندما اعترفوا به ، وقبل أن يتراجع الأخير عن اعلان نفسه خليفة ، ويعود إلى مكه ، ويطلب الصفح من الحاكم بأمر الله الفاطمى بعد أن أدرك عدم جدية مفرج بن الجراح وأبنائه فى نصرته [١٢].

٥- أن النقش موضوع هذا البحث ، قد يكون الأثر الثانى ذو العلاقة ببنى الجراح الذى يتم اكتشافه حتى الآن ، والنقش التذكارى الأول لأحد أمرائهم على حد علم الباحث .

٦- أن الأمير المذكور فى النقش " ثابت بن ربيعة " وردت عنه إشارة بسيطة فى المصادر كأحد أبناء ربيعة بن حازم [١٣]، كما سيُوضَّح ذلك لاحقا ، وهو أقل أمراء بنى الجراح ذكرا ، ولذلك فإن النقش يضيف معلومات جديدة عن شخصيته ، ويذكر لقبه " هلال الدولة " الذى لم تذكره المصادر .

تحليل صيغة النقش :

يبدأ النقش بعبارة : حضر الأمير هلال الدولة ، ولذلك فهو من نوع النقوش التذكارية التى يقصد بها تسجيل الحضور . وصيغة تسجيل الحضور ترد فى النقوش الاسلامية للدلالة على معنيين :

– أولهما وهو الأقدم : تسجيل المرور بمكان على الطريق .

– والثانى : تسجيل الحضور فى مكان بعينه بهدف القيام بمهمة محددة فيه ، مدنية أو عسكرية ، كإنشاء بناء أو ضبط الأمن ، أو خلاف ذلك .

ومن أمثلة المعنى الأول نقش رقم (٤٧) ، من موقع قارة بمنطقة الجوف ونصه : حضر فى هذا المكان / عبد السلام بن أحمد / ابن يوسف بن الشيخ أبو القاسم / سنة أربعة وأربعين / وستماية / من شهر جمادى الآخر رحم الله من / قرأه ودعا لكاتبه / بالتوبة ولجميع المسلمين[١٤].

أن صيغة تسجيل الحضور فى منازل الطرقات ترد فى نقوش الفترة الممتدة من القرن الأول إلى الثالث للهجرة بعبارة : مر فلان ، أو نزل فى هذا المنزل فلان [١٥]. ومن أمثلة ذلك : نقش رقم (١٥٢) من بدا ونصه : مر موسى بن عيسى [١٦]، والنقش رقم (١) من نقوش الصويدرة ونصه : اللهم اغفر لشعيب بن «أ» لفضل السلمى مر فى سنة خمس / وتسعين ومئه [١٧]، والنقش رقم (٢) من نقوش الصويدرة ، ونصه : اللهم صلى (كذا) على محمد / مر أحمد بن أيوب / الأهوازى ومعه ولد / الفضيل بن «أ» براهيم سنة/ خمس ومائتين [١٨].

وأما المعنى الثانى لصيغة الحضور ، وهو تسجيل الحضور فى مكان بعينه بهدف القيام بمهمة رسمية ، يستخدم فى النقوش التأسيسية التى تنقش على ألواح من الرخام أو الحجر وتثبت فى الأماكن أو على المبانى ذات العلاقة ، ومن أمثلة ذلك على طرق الحج فى شمال غرب المملكة : نقش من العصر المملوكى فى قلعة الأزنم . إحدى قلاع طريق الحج المصرى ، ونصه : حضر فى هذا المكان الأمير الأشرف / الأجل الأمير خشقدم الخازن لـ/ معمار السلطان سنة سطعشر وتسع مايه [١٩]. ونقش من قلعة الأخضر ، إحدى قلاع طريق الحج الشامى ، وهو من العصر العثمانى ، ونصه : حضر فى هذه القلعة المنصور / مصطفى صوباشى ومعه ميه بكجرى / سنة ثمان وثلاثين وتسع مايه وبو تاريخ / أو قرينة دعا أيدينة الله رحمت إليه[٢٠].

وتجدر الاشارة إلى أن الكتابات التذكارية فى القرون الأربعة الأولى للهجرة يكثر فيها استخدام صيغ دعائية من قبيل : اللهم اغفر لفلان ، أو الله ثقة فلان ، أو الله ولى فلان ...إلخ ، وهى صيغ توثق تذكار صاحبها وحضوره فى المكان ، وتهتم فى الوقت نفسه ،

بإظهار الايمان بالله والولاء له ، وطلب المغفرة منه ، وطلب الدعاء من المسلمين ، أو حثهم على طاعة الله ، وغير ذلك من أساليب تظهر فيها قوة الوازع الدينى لصاحب النقش ، وعاطفته الدينية الجياشة ، فى حين أن الصيغ التذكارية بعد القرن الرابع الهجرى وطوال العصور الاسلامية الوسيطة والمتأخرة أصبحت تقتصر على تسجيل الحضور فى المكان بعبارة مباشرة هى : (حضر فلان) دون الاهتمام إلا فيما ندر بالعبارات التى تظهر العاطفة الدينية .

مضمون نص النقش :

يتكون نص، النقش من خمس جمل هى على الترتيب :

١- جملة تسجيل الحضور ، وهى بمثابة افتتاحية النقش ، وقد تكونت من الفعل (حضر) متبوعا بألقاب : "الأمير هلال الدولة" ، ثم باسمه الثلاثى : " ثابت بن ربيعة بن حازم" .

٢- جملة : (الله وليه وناصره) وهى جملة دعائية توضح ولاء الأمير لله واعتماده عليه.

٣- جملة التاريخ (سنة ثمانين وأربعمائة) وقد اقتصرت على ذكر السنين ولم تحدد الشهر واليوم . وإذا كان الأمير متوجه لأداء فريضة الحج فإن حضوره بالمكان يكون فى الغالب فى أحد الأشهر الأخيرة من العام المذكور .

٤- جملة توضح سبب الحضور إلى هذا المكان ، وهى جملة طويلة ونصها: (وهو متوجه نحو بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه محمد عليه السلام) ، وعبارة " متوجه نحو بيت الله الحرام " تعنى متوجه لأداء فريضة الحج ، وقد تعنى متوجه لأداء العمرة ، إلا أن المعنى الأول هو الأرجح ، لأن المخاطرة بالارتحال والسفر إلى مكة المكرمة لأداء العمرة فقط ، وهى ليست واجبة وجوب الحج ، لم يكن شائعا فى ذلك الزمان الذى عم فيه انعدام الأمن وأصبح فيه السفر لأداء الحج وإكمال الركن الخامس من أركان الاسلام مخاطرة بالحياة .

٥- خاتمة النص وهى أيضا جملة دعائية : (كتب الله سلامته) ، تمنى فيها الكاتب السلامة للأمير من أخطار هذه الرحلة .

ويلاحظ أن النقش يخلو من البسملة فى بدايته ، حيث أن مثل هذه الصيغ التذكارية التى تبدأ بفعل حضر ، ويقصد بها تسجيل المرور بمكان معين على الطرقات ، قليلا ما تبدأ بالبسملة .

الشخصيات الواردة فى النقش :

ترد فى هذا النقش أسماء لثلاث شخصيات هى على التوالى :

الأمير ثابت ووالده ربيعة ، وجده حازم . وفيما يلى ترجمة لكل شخصية وفقا لما يتوفر عنها من معلومات فى المصادر التى تمكن الباحث من الاطلاع عليها ، وما يمكن استخلاصه من معلومات من نص النقش .

١- الأمير ثابت :

هو ثابت بن ربيعة بن حازم بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح . ذكر القلقشندى أن ربيعة له من الأولاد أربعة وهم : " فضل ، ومرا ، وثابت ، ودغفل " (٢١). وإلى هذا الأمير ينتسب آل ثابت أحد فروع طيئ التى حضرت الاجتماع الذى عقده الملك الأشرف بن الملك العادل الأيوبى فى غوطة دمشق للقبائل الطائية ، وإليه ينتسب أيضا محمود بن عرام أحد بنى ثابت بن ربيعة الذى نقل عنه ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار ما دونه عن فروع آل ربيعة (٢٢). ولا يرد فى المصادر التى تمكن الباحث من الاطلاع عليها ذكرا آخرا لهذا الأمير أو لأبنائه أو لآل ثابت بينما يكثر الحديث عن أبيه ربيعة ، وأخويه : مرا والفضل ، وآل مرا ، وآل الفضل ، الذين لعبوا أدوارا خطيرة فى زعامة آل ربيعة الطائيين وقبيلة طيئ عموما خلال العصرين الأيوبى والمملوكى (٢٣). ويبدو أن الأمير ثابت كان يشارك فى الحكم إبان زعامة أبيه ربيعة ، لأن زعامة بنى الجراح انتقلت بعد ربيعة إلى ابنيه مرا ثم الفضل ، ثم استمرت فى آل الفضل (٢٤)، وربما كان ثابت الابن الثالث فى الترتيب أو الرابع لربيعة . ويؤكد هذا النقش أنه كان على قيد الحياة سنة ٤٨٠ هجرية ولا تُعْرَفْ على وجه التحديد سنة وفاته.

٢- الأمير ربيعة :

هو ربيعة بن حا زم بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح إليه ينتسب آل ربيعة الطائيون ، وهو والد ثابت صاحب هذا النقش ، وقد صارت إليه زعامة بنى الجراح بعد أخيه بدر بن حازم (صاحب عمان البلقا) الذى كان حليفا لبدر الجمالى وزير المستنصر بالله الفاطمى (٢٥). أما ربيعة فقد كان خليفة لطغتكين أحد القادة فى جيش السلطان تتش السلجوقى ، والذى عين فى سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م أتابكا للأمير دقاق بن تتش أمير دمشق ، وسرعان ما سلب

السلطة منه وأسس دولة البوريين (٢٦)، وكان ربيعة بن حازم إلى جانب طغتكين وكسب وده وثقته ، وتمكن من إحكام سيطرته على قبيلة طيئ وأحلافها ، وأعاد لها عزها الذى كان على زمن المفرج وابنه حسان الثانى ، بعد فترة من تصارع أبناء حسان وأحفاده على الزعامة أضعفت إمارة بنى الجراح وقسمت قبيلة طيئ (٢٧). ولا تعرف على وجه التحديد السنة التى تولى فيها ربيعة زعامة بنى الجراح ، غير أن أخيه بدر الذى سبقه فى الحكم فى أوج قوته سنة ٤٦٩ هـ ، فقد ساعد بدر الجمالى قائد الجيش الفاطمى فى التصدى لحملة الزعيم التركمانى أطسز ، حين سار من الشام لفتح مصر فتصدى له قائد الجيش الفاطمى يساعده بدر بن حازم الذى تولى بجموع طيئ كسر أطسز وهزيمته (٢٨). أما ابنه مرا بن ربيعة بن حازم الذى حكم من بعده ، فقد حقق انتصارا عظيما علي الفرنجة سنة ٥١٣ هـ ، وكان يقودهم جوسلين أمير الرها وقتل منهم وأسر خلقا كثيرا (٢٩). وأما ابنه الآخر فضل بن ربيعة بن حازم فقد توفى سنة ٥٣٠ هـ (٣٠).

ويبدو أن الأمير ربيعة توفى قبل نهاية القرن الخامس ، إذ أن طغتكين حاكم دمشق طرد فى نهاية عهده الفضل بن ربيعة من الشام لأنه كان تارة مع الافرنج وتارة مع خلفاء مصر ، فنكره لذلك ، وطرده من الشام ، فنزل على صدقة بن مزيد أمير بنى كلب فى الحلة بالعراق ، وحالفه وأقام عنده ، فلما خرج الأمير صدقة بن مزيد على طاعة السلطان السلجوقى محمد بن ملك شاه سنة ٥٠٠ هـ وما بعدها سار الفضل بن ربيعة فى طلائع جيش الأمير صدقة ، ثم خذله وهرب إلى السلطان فأكرمه وخلع عليه ، وأنزله بدار صدقة فى بغداد . ولما سار السلطان لقتال صدقة استأذنه الفضل بن ربيعة فى الخروج إلى الصحراء ليتولى حجز صدقة واعتراضه إذا التجأ إليها فأذن له السلطان ، وعبر إلى الأنبار ولم يرجع للسلطان بعدها (٣١).

وقصة الفضل هذه مع طغتكين وصدقة بن مزيد والسلطان محمد بن محمد شاه تفيد أن طغتكين أصبح ذو سلطة مباشرة على أمراء بنى الجراح مما يعنى زوال استقلالهم فى عهد الفضل بن ربيعة ، وأن ربيعة بن حازم والد الفضل وحليف طغتكين لم يكن موجودا على قيد الحياة فى نهاية عهد طغتكين . وقد توفى طغتكين سنة ٥٢٢ هـ (٣٢). ولذلك فإن وفاة الأمير ربيعة بن حازم تقع بين سنة ٤٨٠ هـ وهو تاريخ نقش ابنه ثابت الذى يرجح الباحث أنه كتبه فى عهد حكم أبيه ، وسنة ٥٢٢ هـ تاريخ طغتكين الذى توفى بعد وفاة الأمير ربيعة .

٢- الأمير حازم :

هو حازم بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح ، جد الأمير ثابت صاحب هذا النقش ، ووالد الأميرين ربيعة وبدر . كان مسجونا لمدة طويلة هو وابن عمه حميد بن محمود بن الجراح فى مصر لأنهما ناصرا حسان بن المفرج الذى خرج على طاعة الخليفة الفاطمى ، واتفق مع أمراء قبائل الشام كلب وكلاب على تقسيم بلاد الشام بينهم وأن يستقل هو بفلسطين ، لكن قائد الخليفة الفاطمى أنوشتكين الدزبرى هزمهم فى معركة الأقحوانة سنة ٤٢٠ هـ وقتل صالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وهرب حسان بن المفرج إلى البادية ثم إلى بلاد الروم وضل بها إلى سنة ٤٣٣ هـ إلى ما بعد موت القائد الدزبرى الذى حكم الشام كله ثلاثة عشر سنة متتالية. وبعد عودته استعاد حسان الرمله من الفاطميين وظل بها حتى وفاته (٣٣).

أما أبناء أخويه حازم بن على وحميد بن محمود ، فقد قبض عليهما وأرسلا إلى مصر وسجنا فى خزانة البنود مدة طويلة ، ولذلك قصة ملخصها : أن بنى الجراح دخلوا بعد وفاة حسان فى مرحلة من الصراع على السلطة ، ولم يستطع الأمير علان بن حسان مسك زمام الأمور ، فنافسه عماه على ومحمود حتى آل الأمر فى نهاية المطاف إلى الأمير بدر بن حازم الذى ترك الرمله إلى عمان البلقاء ، وكان على علاقة حسنة مع قائد الجيوش الفاطمية بدر الجمالى (٣٤). ولما تولى حكم دمشق الشريف أبو طاهر حيدرة بن ابراهيم بن أبى الجن العلوى وكان على خلاف مع بدر الجمالى سعى إلى الخليفة الفاطمى المستنصر لإطلاق سراح الأمير حازم بن على وابن عمه حميد بن محمود ابنى الجراح رغبة فى افساد الأمر بالشام على بدر الجمالى ونجح فى إخراجهما من السجن سنة ٤٥٩ هـ، لكن الأمور سارت على غير ما خطط لها الشريف ابن أبى الجن إذ دخلت عسكر بدر الجمالى دمشق فهرب منها الشريف إلى مصر وأشير عليه بأن لا يظهر بعمان لأن بها بدر بن حازم حليف بدر الجمالى وأن يسير فى الليل ، إلا أنه ظهر بعمان فغدر به بدر بن حازم وسلمه إلى بدر الجمالى الذى قتله أقبح قتله (٣٥). وعندما وصل بدر الجمالى إلى دمشق قبض على خليفة الشريف ابن أبى الجن العلوى وعلى جماعته وأخذ منهم عشرة آلاف دينار ووهبها لحازم بن على بن الجراح المفرج عنه من مصر وكان قد إلتجأ إليه فأعطاه المال استكفافا له عن تنفيذ ما اتفق عليه مع الشريف (٣٦).

الألقاب الواردة فى النقش :

الأمير

الأمير لغة ذو الأمر والتسلط ، وقد استخدم لقبا وظيفيا بمعنى الوالى فى صدر الاسلام ، وأطلق أيضا على صاحب الولاية العامة ، وولاة الأمصار ، والمتولين على الجيش ، ثم استخدم بعد ذلك لقبا فخريا منذ العصر الأموى ، وأطلق على أولياء العهد بالخلافة ، واستمر كذلك فى العصر العباسى (٣٧). وفى العصر الفاطمى عم إطلاق لقب الأمير على أبناء الخلفاء ، كما أطلق على بعض رجال الدولة ، وأصبح أيضا رتبة يترقى إليها بعض مماليك الخليفة (٣٨). وفى العصر الأيوبى أطلق هذا اللقب على أفراد الأسرة الأيوبية (٣٩). ولقب الأمير فى هذا النقش استخدم لقبا فخريا لأحد أفراد أسرة آل الجراح شيوخ طيئ .

هلال الدولة

لقب فخرى من الألقاب المركبة المضافة إلى الدولة ، وقد شاع استخدام هذه الألقاب المضافة إلى الدولة بدءا من العصر العباسى ، ومن أمثلة ذلك : ولى الدولة أبو الحسين قاسم بن عبيد الله وزير المعتضد والمكتفى (٤٠)، كما استخدمت هذه الألقاب عند الفاطميين ، وأطلقها الخلفاء على بعض أمرائهم وقوادهم ، ومن أمثلة ذلك : سيف الدولة الذى أطلقه المعز على قائده بلكين ، وكان الأول من نوعه استعمالا فى مصر ، ثم تلاه أمين الدولة الذى أطلق على ابن عمار الكتامى فى عصر الحاكم (٤١). كما استخدم هذه الألقاب حكام بعض الدول المستقلة ، لعل من أشهر هؤلاء سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب . والألقاب الفخرية المضافة إلى الدولة تحمل فى معناها التميز والقوة وهى كثيرة ومنها : معز الدولة ، ناصر الدولة ، سيف الدولة ، ركن الدولة ، عضد الدولة ، شرف الدولة ، صمصام الدولة ، سعد الدولة ، فخر الدولة ، هلال الدولة (٤٢). ويبدو أن استعمال هذا اللقب الأخير كان قليلا مقارنة بالألقاب الأخرى المضافة إلى الدولة ، فهو لا يرد إلا قليلا فى المصادر التاريخية ، وممن تلقب به من غير الأمراء : هلال الدولة عمر بن منير الحارثى الدمشقى (٤٣)، والقاضى هلال الدولة أبو سعد بن أبى حصين (٤٤). كما أن لقب هلال الدولة لا يظهر فى النقوش المنشورة التى تمكن الباحث من الاطلاع عليها ، وربما كان النقش موضوع هذا البحث الأول الذى يظهر فيه اللقب .

وكلمة هلال المضافة إلى الدولة فى هذا اللقب تعنى عزة القمر ، ويسمى القمر هلالا لليلتين من الشهر وقبل ثلاث ليال ، وقيل يسمى هلالا إلى أن يبهر ضوءه سواد الليل ، وهذا لا

يكون إلا فى الليلة السابعة ، والأكثر أنه يسمى هلالا لليلتين من أول الشهر ولليلتين من آخر الشهر : ست وعشرين وسبع وعشرين ، ويسمى ما بين ذلك قمرا [٤٥]. وسمى الهلال هلالا لأن الناس يرفعون أصواتهم بالأخبار عنه . وفى حديث عمر رضى الله عنه ، أن أناسا قالوا له : (إنا بين الجبال لا نهل هلالا إذا أهله الناس) أى لا نبصره إذا أبصره الناس لأجل الجبال [٤٦]. وهلال الدولة لقب يحمل فى معناه التميز والأهمية كالهلال الذى يتحرى الناس ظهوره فى بداية كل شهر ، ويرفعون أصواتهم عندما يبصرونه .

ولقب هلال الدولة الوارد فى هذا النقش يعتبر اللقب الثالث الذى وصلنا من ألقاب أمراء دولة بنى الجراح واللقبان الآخران هما :

- ناصر الاسلام وقد أطلق على مفرج بن دغفل بن الجراح .
- وشمس الدولة وقد أطلق على حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح .

وكلا اللقبين وردا على عملة الخليفة الراشد بالله أبو الفتوح التى سكت فى فلسطين سنة ٤٠٢ هـ (لوحة ٨) . ويمكن أن يضاف إلى الألقاب الثلاثة لقب رابع ورد فى النقش رقم (٢) وهو لقب سيف الدولة حميد مولى الأمير (لوحة ٥) .

ويلاحظ أن لقب الأمير مفرج (ناصر الاسلام) الذى ظهر على العملة : أضيف إلى الاسلام ، وكان مفرج هو الحاكم الأول فى إمارة بنى الجراح ، فى حين أن ابنه حسان أضيف لقبه إلى الدولة : (شمس الدولة) ، وهو فى ذلك الوقت متنفذ وصاحب سلطة قوية ولكنه لم يصبح بعد شيخ قبيلة طيئ ، لوجود والده على قيد الحياة ، ولذلك فإن الباحث يعتقد أن الأمير هلال الدولة ثابت كان يحمل هذا اللقب المضاف إلى الدولة فى ظل حكم والده ربيعة كما ذكر سابقا . ويبدو أن الألقاب الفخرية المضافة إلى الاسلام كانت لديهم أقوى وأعلى مرتبة من تلك المضافة إلى الدولة [٤٧]. وهنا يشار أيضا إلى أن الأمراء من آل فضل بن ربيعة بن حازم ، الذين تولوا إمرة العرب فى بادية الشام وشمال الجزيرة العربية وزعامة قبيلة طيئ خلال العصرين الأيوبى والمملوكى حملوا ألقابا مضافة إلى الدين ، كما سيوضح أدناه ، ولعل فى ذلك ما يدعم رأى الباحث .

ومن جانب آخر يلاحظ أن مصادر التاريخ الفاطمى ومصادر التاريخ الإسلامى العام لا تذكر الألقاب الفخرية لأمراء بنى الجراح عند الحديث عنهم بدءا من دغفل بن الجراح وابنه حسان الأول ، وحتى الفضل بن ربيعة بن حازم الذى انتهت فى عصره إمارة بنى الجراح ،

وتكتفى بذكر أسمائهم أو لقب : أمير بنى الجراح مع أسمائهم أو تنسبهم إلى قبيلتهم طيئ[٤٨]، فى حين أن بعض مصادر العصر المملوكى تذكر ألقاب أمراء العرب من آل فضل بن ربيعة بن حازم بن الجراح بعد أن أصبحت سلطتهم زعامة قبيلة رسمية على كل العرب فى بادية الشام وشمال الجزيرة من طيئ وغيرهم من الأحلاف الذين كانوا تحت طاعة السلاطين الأيوبيين ثم المماليك من بعدهم ، ومن أمثلة هؤلاء حسام الدين مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة بن حازم (توفى سنة ٦٣٠ هـ) ، وكان أبوه حديثة أول من تولى إمرة العرب الرسمية بتقليد من الملك العادل بن أيوب [٤٩]، والأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع ابن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة بن حازم (المتوفى سنة ٦٨٣ هـ) ، والذى ولاه السلطان المملوكى الظاهر بيبرس إمارة العرب [٥٠]، والأمير شجاع الدين فضل بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة بن حازم الذى أمر سنة ٧١٦ هـ من قبل السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون [٥١]، والأمير سيف الدين سيف بن فضل بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة بن حازم الطائى ، الذى ولى إمرة العرب عدة مرات إولها سنة ٧٤٤ هـ [٥٢].

المصطلحات الواردة فى النقش :

الدولة

ورد فى لقب الأمير ثابت مصطلح الدولة مضافا إلى كلمة هلال : (هلال الدولة) ، كما ورد مصطلح الدولة أيضا فى لقب الأمير حسان بن المفرج بن الجراح (شمس الدولة) الذى وصلنا على عملة الخليفة الراشد بالله أبو الفتوح ، وفى لقب سيف الدولة حميد مولى الأمير الوارد فى النقش رقم (٢) .

ومصطلح الدولة الوارد فى هذه الألقاب الثلاثة قد يشير إلى دولة بنى الجراح ، والسؤال الذى يطرح الآن هو : هل كانت لبنى الجراح دولة حقيقية لها عاصمة وتنظيمات إدارية ومدنية وعسكرية ، وكيان مستقل مشمولا بسلطة الخليفة الفاطمى ، أم أنها كانت مجرد زعامة قبلية وأن مصطلح دولة المذكور يشير إلى الدولة الفاطمية التى يدين بها بنو الجراح بالولاء والتبعية ؟ الواقع أن المؤرخين المعاصرين لبنى الجراح والمؤرخين الذين نقلوا عنهم لا يستخدمون مصطلح دولة عند الحديث عن بنى الجراح وإنما يشيرون إلى زعيمهم وأميرهم على أنه صاحب الرملة أو أمير طيئ أو بن الجراح ، أو أصحاب البلقاء والبيت المقدس [٥٣]، وهم يتكلمون فى الغالب

عن إمارة ، دون تفصيل حول ماهية هذه الإمارة وحجم سلطاتها ، غير أن مضمون النصوص التاريخية ذات العلاقة ببنى الجراح وأمرائهم ، والتى يعود تاريخها للفترة الممتدة من ٣٥٨ - ٥٣٠ هجرية يمكن أن يستنتج منها أن إمارة بنى الجراح خلال الفترة المذكورة كانت دولة عاصمتها الرملة ، وتشمل حدود سلطتها أراضى فلسطين ، والأردن ، والبادية السورية ، وشمال المملكة العربية السعودية حتى حائل حيث جبلا طيئ أجا وسلمى ، مرورا ببلاد حوران ، ووادى السرحان ودومة الجندل (٥٤)، وهذا ما تؤكده الألقاب الرسمية لأمراء بنى الجراح الواردة فى عملة أبى الفتوح ونقش الأمير ثابت ونقش المولى حميد ، حيث أن العملة والنقشين وثائق تاريخية من الفترة نفسها وهى تطلق مسمى الدولة على هذه الإمارة .

وتعود نشأة إمارة بنى الجراح إلى زمن استيلاء القرامطة على بلاد الشام ، فقد كان آل الجراح وقبيلتهم طيئ يشكلون الجزء الأهم من جيش القرامطة وكان عليهم اعتمادهم فى سيطرتهم على بلاد الشام ، حيث أن طيئ هم أغلبية سكان بادية الشام فى تلك الفترة ، ولذلك فإن القرامطة عندما استولوا على الرملة عينوا عليها قائدا منهم ومعه دغفل بن الجراح الطائى (٥٥)، ومن هنا تبدأ علاقة آل الجراح بالرملة فهذه المشاركة فى حكم الرملة هى التى أوجدت لبنى الجراح حقا وإمارة فى الرملة مع تطور الأحداث . ذلك أن حسان بن دغفل الذى خلف والده انضم إلى القرامطة فى حصارهم لمصر سنة ٣٦٣ هـ ثم قبل بعرض الخليفة الفاطمى المعز الذى عرض عليه التخلى عنهم إذا توافق العسكران مقابل مائة ألف دينار مما أدى إلى هزيمة القرامطة (٥٦). وفى تاريخ لاحق تعاون المفرج بن حسان بن دغفل بن الجراح مع الخليفة الفاطمى العزيز للقضاء على أبى تغلب الغضنفر بن حمدان الذى خرج إلى حوران وقصد دمشق ونزل عليها وطمع فى الاستيلاء على الرملة وكان العزيز قد أوصل إلى ابن الجراح سجلا واعترافا بولاية الرملة مقابل مساعدته فى القضاء على أبى تغلب ، وقد تمكن الفاطميون وابن الجراح من هزيمة أبى تغلب ومن التف حوله من بنى عقيل وأقتيد إلى الرملة فى صفر سنة ٣٦٩ هـ ثم قتل بها(٥٧).

وقد اعتمد بقاء نفوذ بنى الجراح على دور التوازن الذى كانوا يلعبونه بين القوتين المتنافستين في المنطقة : الفاطميين ، فى مصر جنوبا والعباسيين فى العراق شمالا وكانت بلاد الشام أحد ميادين التنافس بين هاتين القوتين ، وكانت طيئ والقبائل العربية المتحالفة معها القوة المرجحة فى هذا الصراع فمن كانت إلى جانبه يكسب دوما هذا التنافس فى الشام

وشمال الجزيرة العربية ، وقد أجادشيوخ طيئ وخصوصا المفرج وابنه حسان الثانى لعب هذا الدور أيما إجادة ، ولم تكن علاقة آل الجراح بالفاطميين علاقة ود وتفاهم دائمين ، فقد شكل نشاطهم فى فلسطين وتقلب ولاؤهم خطرا على الفاطميين مرات عدة ، وقد حاولوا مرارا التخلص من نفوذهم دون جدوى ، ويمكن ملاحظة حقيقة مشاعر الفاطميين تجاه آل الجراح من وصية الوزير يعقوب بن كلس للخليفة العزيز عندما زاره فى مرض موته ، حيث قال له : " سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة، ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة " (٥٨).

بنو الجراح ومسؤولية ضبط الأمن على طريق الحج الشامى :

نظرا لوجود بنى الجراح فى فلسطين والأردن وامتداد نفوذهم فى مناطق حوران والبلقاء فقد اعتمدت عليهم الدولة الفاطمية اعتمادا كليا فى ضبط الأمن على طريق الحج الشامى وخصوصا فى الجزء الواقع بين دمشق ووادى القرى ، وحققت فى هذا المجال نجاحات كبيرة أحرجت بها العباسيين الذين كانوا يعانون من عدم السيطرة على القبائل الساكنة على أجزاء الطريق العراقى الواقعة فى الجزيرة العربية ، وما ينتج عن ذلك من اضطراب دائم للأمن على الطريق إلى الحد الذى اضطر فيه أمير الحج العراقى أبو الحسن محمد الأقساسى العلوى العودة سنة ٤١٥ هـ إلى بغداد على طريق الشام ، فسار وحجاج العراق وخراسان إلى الرملة عاصمة بنى الجراح فى ستين ألف جمل ومئتى ألف إنسان ، وكتب إلى الخليفة الظاهر يستأذنه فى عبور الشام إلى بغداد فأذن له ، وأمر ولاة الشام بملاقاتهم وإكرامهم ، فساروا من الرملة موقرين شاكرين حتى وصلوا بغداد ، واشتد ما فعله الخليفة الفاطمى الظاهر على الخليفة العباسى القادر بالله فوبخ أمير الحج العراقى (٥٩).

وكانت فخوذ طيئ تسيطر على معظم الطرق المؤدية من الحجاز إلى الشام عن طريق تواجدهم كحكام لمنطقة وادى القرى(٦٠) ووجودهم فى واحة تيماء (٦١)وسيطرتهم أيضا على طريق بطن السر الذى يصل وادى السرحان ودومة الجندل بواحة تيماء ، ووجودهم فى بلاد الجبلين (أجا وسلمى) وهى ديارهم الأصلية . وسمح لهم وجودهم فى هذا الموقع الأخير بالسيطرة على أجزاء مهمة من مسار طريق الحج العراقى ، وقد استغل الفاطميون هذا الوضع ودفعوهم فى بعض السنوات لاعتراض قوافل حجاج العراق بهدف احراج العباسيين ، وقد تكرر ذلك فى فترة حكم المفرج بن دغفل بن الجراح : ففى سنة ٣٧٢ هـ اعترض حجاج العراق فى

طريق عودتهم من مكة عند عقبة واقصة وحاصرهم حتى صالحوه على مال أخذه منهم (٦٢) ، وفى سنة ٣٧٩ هـ خرج ابن الجراح على حجاج العراق فى عودتهم بين سميرا وفيد ونازلهم فصالحوه على ثلاث مئة ألف درهم وشئ من الثياب فأخذها وانصرف (٦٣)، وفى سنة ٣٨٦ هـ طلب الخليفة الفاطمى الحاكم من ابن الجراح اعتراض القائمين على ركب الحجاج العراقى فاعترضهم (٦٤)، وهذه الحادثة الأخيرة تؤكد استخدام الفاطميين لبنى الجراح فى إخلال الأمن على طريق الحج العراقى للضغط على العباسيين وإحراجهم فى الوقت الذى ينعم فيه طريق الحج الشامى بأمن نسبى بفضل علاقة المصالح المشتركة القائمة بين الفاطميين وبنى الجراح.

ولا تتوافر معلومات عن الآلية التى عمل بها بنو الجراح لضبط الأمن على طريق الحج الشامى ، وغالب الظن أنهم كانوا يتقاضون مقابلا ماديا من الفاطميين لقاء درك الطريق ، ويوزعون جانبا منه على جماعاتهم الساكنة على الطريق أو بالقرب منه ، إذ هى الطريقة التي كانت متبعة من قبلهم ومن بعدهم فى هذا الشأن . والسؤال الذى يطرح هنا هل كان الأمير ثابت بن ربيعة صاحب النقش موضوع البحث فى مهمة حماية لقافلة الحج الشامية أم هو فى رحلة حج خاصة ؟ إن نص النقش لا يشير إلى أنه كان فى مهمة رسمية ، ومع ذلك فهذا الاحتمال لا يستبعد أيضا .

أمراء بنى الجراح وموقع الأمير ثابت منهم :

توضح الجداول التالية تسلسل أمراء بنى الجراح ، وفقا لما ورد فى المصادر التاريخية والأدلة الأثرية المتوفرة بين يدى الباحث . وتجدر الإشارة إلى أن أول محاولة لترتيب تسلسل هؤلاء الأمراء نشرها المستشرق زامباور فى معجمه للأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى (٦٥)، غير أن جدول زامباور به بعض النقص (لوحة ٩) ولا تظهر فيه أسماء عدد من الأمراء الذين تولوا زعامة قبيلة طيئ مثل الأميرين بدر بن حازم ، وربيعة بن حازم ، فضلا عن الأمير ثابت صاحب النقش موضوع هذا البحث . كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن بعض المصادر التاريخية تخلط فى ترتيب أسماء هؤلاء الأمراء ، وترتيب سلسلة نسب كل منهم ، وخصوصا بعد فترة حسان الثانى . ومن بين المصادر التى فيها الخلط تاريخ ابن خلدون ، وكتابا القلقشندى نهاية الأرب ، وصبح الأعشى (٦٦).

تسلسل الحكام من بنى الجراح :

دغفل بن الجراح الطائى (حليف القرامطة فى ٣٥٨ هـ)

↓

حسان بن دغفل بن الجراح الطائى (حالف القرامطة فى ٣٥٣ هـ ثم انحاز إلى الفاطميين تحت إغراء المال)

↓

ناصر الإسلام المفرج بن دغفل بن الجراح (صاحب الرملة في ٣٦٩ هـ ، توفى سنة ٤٠٤ هـ)

↓

حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح الطائى (من ٤٠٤ إلى ما بعد ٤٣٣ هـ)

↓

علان بن حسان بن المفرج (نافسه عماه على ومحمود)

↓

بدر بن حازم بن على بن المفرج (صاحب عمان البلقاء ، كان فى أوج قوته سنة ٤٦٩ هـ)

↓

ربيعة بن حازم بن على بن المفرج (جد آل ربيعة)

↓

مرا بن ربيعة بن حازم بن على المفرج (هزم الصليبيين سنة ٥١٣ هـ)

الفضل بن ربيعة بن حازم بن على بن المفرج (توفى سنة ٥٣٠ هـ)

وبعد ربيعة انتهت دولة بنى الجراح واحتل الصليبيون معظم فلسطين ، وبدأت زعامة آل ربيعة وهى زعامة قبلية يعين أمراؤها بقرار من حاكم مصر الأيوبى ثم المملوكى .

مشجر أسرة آل الجراح الطائيين الوارد ذكرهم فى المصادر

دغفل بن الجراح الطائى ٣٥٨ هـ

حسان بن دغفل ٣٦٠ هـ

المفرج بن دغفل توفى ٤٠٤ هـ
وهو أشهر زعماء بنى الجراح وأعظمهم حنكة ، عجزت
عنه كل حيل الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس

حسان الثانى توفى بعد ٤٣٣ هـ
مدحه الشاعر التهامى
علان

على
حازم
أطلق من سجنه فى مصر سنة ٤٥٩ هـ

محمود
حميد
أطلق من سجنه فى مصر سنة ٤٥٩ هـ

جرار

بدر
توفى بعد ٤٦٩ هـ

ربيعة
(ناصر طغتكين قبل استقلاله بولاية دمشق سنة ٤٨٨هـ)

بدر
(ربما يخلط بينه وبين بدر بن
حازم وانفرد بذكره ابن خلدون)

فضل
(توفى سنة ٥٣٠ هـ)
طرده طغتكين
آل فضل

ثابت
(صاحب النقش ٤٨٠ هـ)
آل ثابت

مرا
(هزم الصليبيين سنة ٤٨٠ هـ)
آل مرا

دغفل

هنا تنتهى الدولة وتبدأ الزعامة القبلية التى يعين أمراؤها
بقرار من حاكم مصر الأيوبى ثم المملوكى .

عمران
(به كان يكنى الفضل)

عقبة
حديثة
(أول أمير للعرب يعين بقرار من الملك العادل أبو بكر بن أيوب)

غنام
آل غنام

مانع
مهنا الأول (إليه ينتسب آل مهنا)
عيسى
مهنا الثانى
يلقبه المؤرخون بملك العرب وهو محب للشيخ ابن تيميه، وفى عهده دخل مذهب الإمام ابن تيميه إلى مناطق آل
فضل فى بادية الشام ، ونجد (٦٧)

على
آل على

الدراسة الفنية لخط النقش (لوحة ١٠) :

نفذ هذا النقش بالخط الكوفى البسيط الخالى من الزخرفة ، ويبدو أن منفذه على علم ودراية بقواعد الخط ، فقد أجاد فى رسم الحروف ونقشها على الحجر فبدا النقش إجمالا على نحو من الحسن والتناسق ، وقد يكون كاتبا لدى الأمير مرافقا له فى هذه الرحلة ، حيث يرجح أن الأمير لم ينفذ النقش بنفسه وإنما نقشه له أحد مرافقيه .

وأهم الخصائص الخطية الملاحظة فى كتابة النقش ما يلى :

١- إهمال التنقيط - إعجام الحروف .

٢- إثبات الألفات الوسطى فى الكتابة سواء وردت فى أسماء الأعلام أو فى غيرها كما فى كلمات : ثابت ، حازم ، ناصره ، ثمانية ، أربعمائة ، الحرام ، زيارة .

٣- تناسب الحروف وجريان معظمها على معدل ثابت من حيث الحجم مع وجود حالات قليلة تخرج عن هذه القاعدة كحرف الدال فى كلمة محمد .

٤- وجود بعض اللين فى رسم معظم الحروف .

٥- غياب الاستمداد (مط الحروف القابلة للسحب) .

٦- عدم تعريض نهايات الألفات واللامات .

٧- انفاذ الباء والتاء النهائية والصاد ، والضاد ، والكاف الابتدائية على هيئة فيها تزوية وبروز واضح (تشبه رسمها فى الكوفى المبكر) ، ثابت ، بيت ، كتب . وحضر وناصره .

٨- تلويز الحاء والجيم .

٩- بتر العراقات فى بعض أمثلة حرفى الراء والواو كما فى كلمات أربعمائة ، متوجه ، نحو .

١٠- تساوى أسنان السين .

١١- زيادة حجم حرف العين الوسطى زيادة واضحة ، ورسمها على شكل مثلث مرتكز على رأسه كما فى كلمات : ربيعة ، أربعمائة .

١٢- تدوير الميم النهائية وإرسال عراقتها كما فى كلمات : حازم ، الحرام ، السلام .

١٣- إرسال عراقات حرف النون كما فى كلمتى : بن ، ثمانين .

١٤- تنفيذ الهاء الابتدائية على شكل عين الهر المفتوحة (غير المجموعة) كما فى كلمتي : هلال ، هو .

١٥- تدوير قاعدة اللام ألف وإنهاء قوائمها دون تحريف أو تعريض .

١٦- يلاحظ أن العناية تقل بكلمات النصف الأول من السطر الثالث .

وتاريخ هذا النقش يقع فى نهاية حكم الخليفة الفاطمى المستنصر (أواخر القرن الخامس الهجرى / ١١م) ، حيث نال الخط نوعا من العناية الفنية نتيجة لبعض اللين الذى دخل على الكتابة الكوفية ، وما تبع ذلك فيما بعد من ظهور الخط اللين بصوره الأولى فى النقوش التذكارية والتأسيسية (٦٨)، وتظهر على هذا النقش بوضوح تقاليد الكتابة السائدة فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وهو يشبه على وجه الإجمال من حيث الشكل العام لرسم الحروف نقوش مصر الفاطمية وغيرها من البلاد المجاورة ، وبخاصة المؤرخة بنهاية القرن الخامس ، والتى من أبرزها بعض كتابات أسوان الشاهدية : كالشاهدين المؤرخين بعامى ٤٨٤ هـ ، ٤٩٥ هـ (٦٩)، وبعض نقوش دهلك (شاهد رقم ١٩٤ المؤرخ بعام ٤٨٠ هـ) (٧٠)، مع فارق مهم وهو وجود الزخرفة فى حروف تلك النقوش ، وخلوها من حروف النقش موضوع البحث (٧١).

وأكثر النقوش شبها بهذا النقش بصرى الذى نشر تفريغا له إينو ليتمان . وعلى الرغم من عدم جودة هذا التفريغ يلاحظ التشابه الواضح بين عدد كبير من حروف النقشين مثل حرف الهاء الابتدائية في كلمة هلال فى نقش ثابت وكلمة هرماس من نقش بصرى ، وحروف التاء النهائية المفتوحة والمربوطة والدال والراء والسين والنون والميم النهائية والواو (لوحة ١١).

الخاتمة

يؤكد هذا النقش مرة أخرى أهمية النقوش كمصدر من مصادر المعلومات التاريخية ، فمن خلال العثور على هذا النقش أمكن تحديد أثر مادى يمكن نسبته إلى إمارة بنى الجراح ، وهى وإمارة لا توجد لها على حد علم الباحث آثار مادية معروفة سوى عملة وردت عليها أسماء وألقاب أميرين من أمرائها . ومن جانب آخر يلقى مضمون هذا النقش مزيدا من الأضواء على تاريخ أحد أمراء بنى الجراح وهو ثابت بن ربيعة بن حازم الذى لا ترد عنه فى المصادر التاريخية إلا إشارة عابرة فى معرض تعداد أبناء الأمير ربيعة بن حازم الأربعة الذى هو أحدهم .

ومن الناحية الفنية ، يُعد هذا النقش المؤرخ وثيقة مهمة تتضح من خلالها التطورات التى طرأت على الخط الكوفى فى نهاية القرن الخامس الهجرى نتيجة للين الذى دخل على رسم حروفه .

الهوامـــــش

١- قام الباحث بمسح مسارات طريقى الحج الشامى والمصرى بشمال غرب المملكة ودراسة آثارهما ونال بذلك درجة دكتوراه الدولة من جامعة بروناقس بفرنسا فى إبريل ١٩٨٨ م وعنوان الأطروحة :

" Introduction al etude archeologique des deux routes syrienne et egyptienne aux Nord-Ouest de l arabie Saoudite".

كما قام بعد حصوله على الدكتوراه بزيارات ميدانية لمسارات الطريقين داخل المملكة العربية السعودية وخارجها واكتشف آثارا ونقوشا أخرى لم يضمنها أطروحة الدكتوراه ، نشر بعضها فى دراسات مستقلة ، وبعضها الآخر لم ينشر بعد . ومن بين هذه النقوش : النقش موضوع هذا البحث ، وقد اكتشف الباحث وجوده على الطريق عام ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م خلال رحلة برفقة الأستاذ عبد الكريم بن إبراهيم غبان ، ثم وقف عليه مرة ثانية عام ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م خلال رحلة أخرى برفقة الدكتور إبراهيم بن يوسف المغيربى عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، هدفت إلى جمع معلومات إضافية عن النقش وموقعه .

٢- ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبد الله (توفى بعد ٢٧٢ هـ/ ٨٨٥ م) ، المسالك والممالك ، طبعة دار أحياء التراث العربى ، بيروت : ١٩٨٨ م ص ١٢٨ ، الحربى ، أبو اسحاق (توفى بعد ٢٨٥ هـ/ ٨٩٨ م) المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض : ١٣٨٩ هـ ص ٦٥٣ ، ابن جعفر ، قدامة (ت ٣٢٠) ، كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت : ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م ، ص ١٧ ، ابن رسته ، إبو على أحمد بن عمر (توفى قبل ٣٩٠ هـ/ ٩٧٠ م) ، الأعلاق النفيسة ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٩٨٨ م ، ص ١٦

٣- استخدم الجغرافيون المسلمون الوحدات التالية لقياس المسافة على الطرقات وهى : المرحلة ، والفرسخ ، والبريد ، والميل ، وتعادل المرحلة عشرة فراسخ ، ويعادل البريد أربعة فراسخ بينما يعادل الفرسخ ثلاثة أميال ، ولمزيد من المعلومات أنظر : الراشد ، سعد بن عبد العزيز ، درب زبيدة ، طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة " دراسة تاريخية وحضارية أثرية " ، دار الوطن للنشر والإعلام ، الرياض : ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ ، ص ٣٤٢ ، ص ٣٤٣ ، .يلاحظ أن قياس الجغرافيين المسلمين لمسافات طريق الحج الشامى تقديرية ، وليست دقيقة .

٤- غبان ، على ، شمال غرب المملكة العربية السعودية " الكتاب الثانى " الآثار الإسلامية فى شمال غرب المملكة – مدخل عام ، مطبعة سفير ، الرياض : ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م ، ص ١٤٣ .

٥- الجاسر حمد " كتاب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب " مجلة العرب ج ٦ ، ٥ ، س١٢ ، ذو القعدة والحجة ، ١٣٩٧ هـ، ص ٣٣٧ ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، شمال المملكة ، القسم الثالث ، دار اليمامة ، الرياض ، بدون تاريخ ، ص ١٢٤٠ .

ابن طولون ، محمد بن علي ، البرق السامي في تعداد منازل الحج الشامي ، مخطوطة رقم ١٤ في المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية ، نشرها حمد الجاسر في مجلة العرب ، السنة العاشرة ١٣٩٦ هـ، ص ٨٧٣-٨٨٢ .

٦- الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس طبعة مصورة عن الطبعة الأميرية ، دار الفكر ، بدون تاريخ ومكان نشر ، ج ٥ ، رص ٤٦٣ .

٧- انظر جدول محطات سكة حديد الحجاز لدى : البتنوني ، محمد لبيب الرحلة الحجازية ، مكتبة المعارف ، الطائف ، بدون تاريخ ، ص ٣٠٤ ، غبان ، علي ، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة ، ص ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .

٨- المولى لقب يطلق على مدلولات كثيرة منها المعتق والحليف وابن العم وانظر للمزيد : ابن منظور ، (ت٧١١هـ) لسان العرب ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨٨م ، ج ١٥ ص ص ٢٠١-٢٠٣ .

٩- ويمكن أن يقرأ هذا الاسم ديهان أو ذبيان ، والأخير اسم عربي قديم وممن تسمى به ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان وإليه ينتسب بنو ذبيان من غطفان من العدنانية ، القلقشندي ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ط ٢ ، دار الكتب المصري ، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٢٥٤ .

١٠- Littmann,Enno " Publications of the Princeton (10)University Archaological Expedition to Sryia in 1904-5 and 1909- Division IV Semitic Inscriptions Section D- Arabic Inscritions" Syria Lyeden .J. Brill 1949, p. 59.

١١- ولمزيد من المعلومات عن تنظيم سفر قوافل الحجاج على الطرقات في العصور الإسلامية الوسيطة والمتأخرة انظر : الجزيري ، عبد القادر بن محمد الأنصاري (ت ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٩م) ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، تحقيق الشيخ حمد الجاسر ، الطبعة الأولى ،الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م ، جـ ٢ ، الباب الخامس ، الفصل الثاني ، ص ١٢٤٤ وما بعدها ، بكر ، سيد عبد المجيد ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، دار تهامة ، جدة : ١٤٠١ هـ ، ص ٨ .

١٢- عن قصة أبو الفتوح مع آل الجراح انظر : المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م) اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، لجنة أحياء التراث ، القاهرة : ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ . ، ج٢ ، ص ٩٥ ، حوادث سنة ٤٠٣ ، جودة ، أحمد صادق داود ، مدينة الرملة

منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م ص ص ١٣٤-١٤٩ ، عن عملة أبي الفتوح انظر : شما ، سمير ، " نقود الراشد بالله خليفة بلاد الشام " مجلة اليرموك للمسكوكات ، السنة الثانية ، العدد الأول كانون الثاني ، ١٩٩٠ م ، ص ص ٥٩ ، ٦٣ ، عملة رقم ٧ .

١٣- ذكر القلقشندي نقلا عن الحمداني (ابن سيف الدولة المهمندار الحمداني المتوفى سنة ٧٠٠ هـ) : " وكان مبدأ ربيعة أنه نشأ في أيام الأتابك زنكي صاحب الموصل ، وكان أمير عرب الشام أيام طغتكين السلجوقي صاحب دمشق ، ووفد على السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فأكرمه وشاد بذكره ، قال : وكان له أربعة أولاد وهم فضل ومرا وثابت ودغفل ، ووقع في كلام المسبحي (توفي ٤٢٠ هـ) أنه كان له ولد اسمه بدر " ، القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م ، ج٤ ، ص ٢١٠ .

١٤- المعيقل ، خليل بن إبراهيم ، دراسة لآثار منطقة الجوف ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م / ص ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

١٥- غبان ، علي ، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة ، ص ١٢٤ .

١٦- الكلابي ، حياة عبد الله ، الآثار الإسلامية ببلدة بدا - محافظة الوجه - شمال غرب المملكة العربية السعودية ، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود ، ١٤١٦ هـ ، ٢١٦ .

١٧- الراشد ، سعد بن عبد العزيز ، نقوش إسلامية مؤرخة م الصويدرة ، المملكة العربية السعودية ، الدارة ، العدد الرابع ، السنة ١٧ ، شعبان ، رمضان ، ١٤١٢ هـ ، ص ٤٥ .

١٨- المرجع السابق ، ص ٤٧ .

١٩- غبان ، علي ، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة ، ص ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

٢٠- المرجع السابق ، ص ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

٢١- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢١٠ .

٢٢- العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين ، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافرلسكي ، ط١ المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ١٩٨٥ م ، ص ١١٤ .

القلقشندي ، صبح الأعشى ، ص ٢١٢ ، سعيد ، فرحان أحمد ، آل ربيعة الطائيون ، الدار العربية للموسوعات ، ط ١ ، بيروت: ١٩٨٣ ، ص ١١٣ .

٢٣- وعن أخبارهم في تلك الفترة انظر ، العمري ، ابن فضل الله ، مسالك الأبصار ، ص ص ١١٤ - ١٣٧

، ١٢٤ - ١٤٣ ، ص ٢٧ ، التعريف بالمصطلح الشريف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ص ١١٢ ، ١١١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ص ٢١١ - ٢١٧ .

٢٤- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) تاريخ ابن خلدون - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، نسخة مصورة ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، ج٥ ، ص ٤٣٦ ، ج٦ ، ص ٨ ، سعيد فرحان أحمد ، آل ربيعة الطائيون ، ص ص ٤٠ ، ٤١ ، ١١١ ، ١١٢ .

٢٥- القلقشندى ، نهاية الأرب ، ص ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ابن القلانسى ، أبى يعلى حمزة (٤٧٠ - ٥٥٥هـ) تاريخ أبى يعلى ، المعروف بذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١١٠ .

٢٦- ابن القلانسى ، ذيل التاريخ دمشق ، ص ص ١٣٠ ، ١٣١ .

٢٧- سعيد ، فرحان أحمد ، آل ربيعة الطائيون ، ص ٤٠ .

٢٨- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٠ .

٢٩- ابن الوردى ، زين الدين عمر ، تاريخ ابن الوردى ، المطبعة الحيدرية بالنجف : ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م ج٢ ، ص ٣٦ .

٣٠- الزركلى ، خير الدين ، الأعلام ، ط ٥ ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠ م ، ج٥ ، ص ١٤٨ .

٣١- ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين على بن محمد (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م) الكامل فى التاريخ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت : بدون تاريخ ، ج٨ ، ص ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٥ ، ص ٤٣٧ .

٣٢- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ، ج٨ ، ص ٤٢٧ .

٣٣- ابن القلانسى ، ذيل التاريخ دمشق ، ص ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٧٢ ، ٧٤، أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢ هـ) المختصر فى أخبار البشر ، ط ١ ، المطبعة الحسنية المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج٢ ص ص ١٥٨ ، ١٦٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ص ١٧٦ - ١٧٨ .

٣٤- سعيد ، فرحان أحمد ، آل ربيعة الطائيون ، ص ٣٤ .

٣٥- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ص ٩٣ ، ٩٤ .

٣٦- المصدر السابق ، ص ٩٦ .

٣٧- الباشا ، حسن ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م ج١ ، ص ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٦ ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة : ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م ، ص ص ١٧٩ - ١٨٤ .

٢٨- الباشا ، حسن ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج١ ، ص ١٤٦ .

٣٩- المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

٤٠- الباشا ، حسن ، الألقاب ، ص ٥٤٢ .

٤١- المرجع السابق ، ص ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

٤٢- انظر بعض الشخصيات التى حملت هذه الألقاب فى تلك الفترة لدى : أبو الفدا المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ص ١٠٤ ، ٩٨ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٧ .

٤٣- الحسينى أبو المحاسن محمد بن الحسن بن حمزة (٧١٥ - ٧٦٥) ، ذيل تذكرة الحفاظ ، تحقيق حسام الدين القدسى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج١ ، ص ٩٧ .

٤٤- ابن أبى جرادة ، كمال الدين عمر بن أحمد ، بغية الطلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، بيروت : ١٩٨٨ ، ج١٠ ، ص ٤٤٦١ .

٤٥- ابن منظور (ت ٧١١ هـ) لسان العرب ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت : ١٩٨٨ ، ج١٥ ، ص ١٢١ .

٤٦- المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

٤٧- اللقب المضاف إلى الإسلام أو الدين يعطى حامله شرعية دينية بالإضافة إلى الشرعية السياسية .

٤٨- انظر على سبيل المثال ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ص ٢٢ ، ٢٣ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٧ ، ص ص ٥٤ ، ٢٦١ ، ج٨ ، ص ٢٤٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص ٣٥- ، ج٢ ، ص ٨٧ ، الجزيرى ،الدرر ، ج١ ، ص ص ٥٢٩ ، ٥٣١ .

٤٩- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٥ ، ص ٤٣٨ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

٥٠- الزركلى ، الأعلام ، ج٥ ، ص ١٠٩ .

٥١- العسقلانى ، ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٣١ .

٥٢- المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٨٣ ، الزركلى ، الأعلام ، ج٣ ، ص ١٥٠ .

٥٣- انظر مثلا : ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٧ ، ص ص ٥٤ ، ٩٨ ، ٢٦١ ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٧ .

٥٤- المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها .

٥٥- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢ .

٥٦- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٧ ، ص ٥٤ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص ٢٠٥ .

٥٧- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ص ٢٢ ، ٣٢ ، أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٢٠ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٧ ، ص ٩٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص ٢٥١ .

٥٨- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ . ولمزيد من المعلومات عن دولة بنى الجراح انظر :جودة ، صادق أحمد ، مدينة الرملة ، ص ص ١٢٠ - ١٦٤ .

٥٩- الجزيري ، الدرر ، ج١ ، ص ص ٥٤٢ - ٥٤٤ .

٦٠- كانت طيئ تسيطر فى تلك الفترة علي وادي القري ، وقد اشتهر منهم أبى حازم صاحب حصن وادى القرى الذى خرج علي الفاطميين سنة ٣٧٨ هـ ، فأرسل له الخليفة جيشا قاتله وقضى على ثورته ، وقد عثر علي شاهد قبره فى موقع المابيات بمنطقة العلا ، الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله ، كنز الدرر ، تحقيق صلاح المنجد ، ج٦ ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص ٢١٩ ، الزيلعى ، أحمد بن عمر ، مكة وعلاقتها الخارجية ٣٠١ - ٤٨٧ هـ، جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨١ م ، ص ٤٦ ، نصيف ، عبد الله بن آدم صالح ، العلا دراسة فى التراث الحضاري والاجتماعى ، ط ١ ، الرياض ١٤١٦ هـ، ص ٣١ .

٦١- كانت بنو صخر وهم فخذ من طيئ تسلك جهة تيماء بين الشام وخيبر ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٧ .

٦٢- الجزيرى ، الدرر ، ج١ ، ص ٥٢٩ .

٦٣- المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

٦٤- المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣١ .

٦٥- زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرون ، مطبعة جامعة فؤاد الأول القاهرة : ١٩٥١ م ، ص ١٦٠ .

٦٦- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٥ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ج٦ ، ص ص ٦-٨ ، القلقشندى ، نهاية الأرب ، ص ص ١٠٠ ، ١٠١ ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢١٠ .

٦٧- ابن كثير ، أبو الفدا الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، دار الكتب العلمية ط٣ ، بيروت : ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ ، ج١٤ ، ص ١٨٢ .

٦٨- جمعة إبراهيم ، دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الأحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٤٠ .

٦٩- المرجع السابق ، ص ص ٢٤٨ ، ٢٥١ .

٧٠- Schneide, Madeleine, Steles Funeraires Muslumanes des Iles Dahlak (Mer Rouge,

Tome II, I.F.A.O, le Caire 1983 , PL. CXIII.

٧١- كتابة أثرية من صلخد باسم مقدم العرب محمد بن محمد بن جهير الذى وزر لمعز الدولة المرداسى وللخليفة القائم خلال سنوات ٤٥٠ - ٤٥٣ هـ، ٤٥٤ - ٤٦٠ هـ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ هـ، (Repertoire, VII, 191, No 2604) .

- كتابة أثرية باسم الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش :

(Repertoire, VIIp., No 2756) .

- كتابة أثرية باسم أنوشتكين دزبرى ، أثناء ولايته على الشام من قبل الفاطميين :

(Wiet,CIA, Egypte, II, 191, P. 136) .

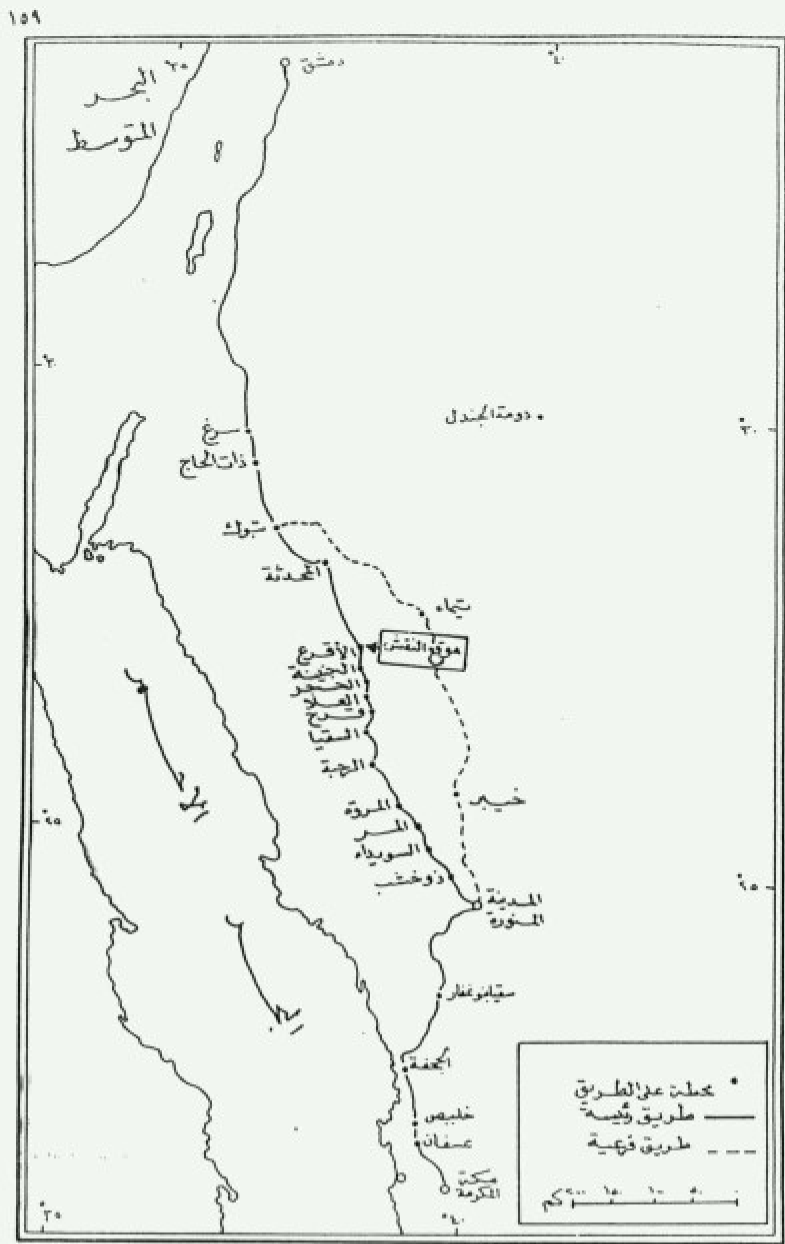
- كتابة أثرية بنص إنشاء مؤرخ بعام ٤٨٠ هـ على قلعة حلب من فترة الأمير أبو شجاع ألب أقسنقر ، (Repertoire, VII, p. 240, No 2764) .

- كتابة أثرية بنص إنشاء فى المسجد الجامع بحلب مؤرخ بعام ٤٨٣ هـ :

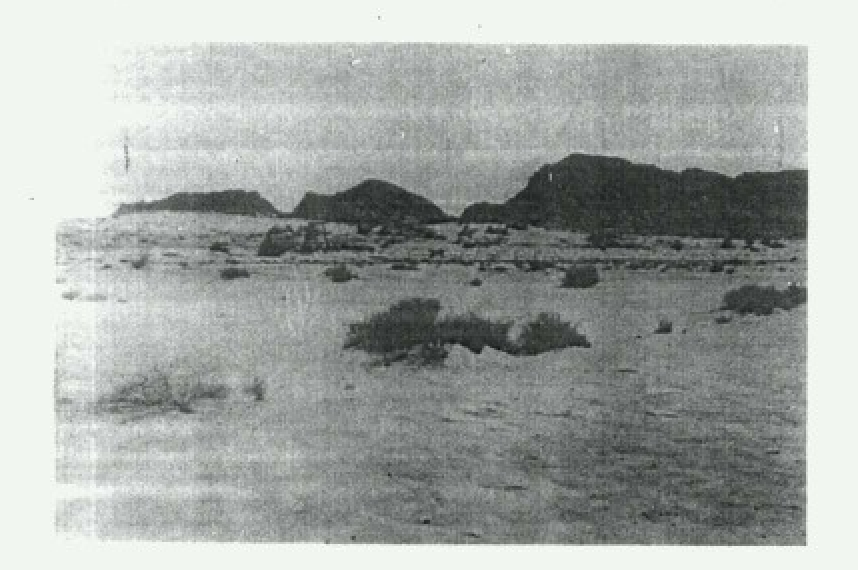
(Repertoire, VII, p. 254, No 2782) .

- نص جنائزى مؤرخ فى ١١ صفر ٥١٤ هـ باسم الأمير أبو منصور التنتاش من جبانة الباب الصغير بدمشق : (Repertoire, VIII, p. 125, No 2980) .

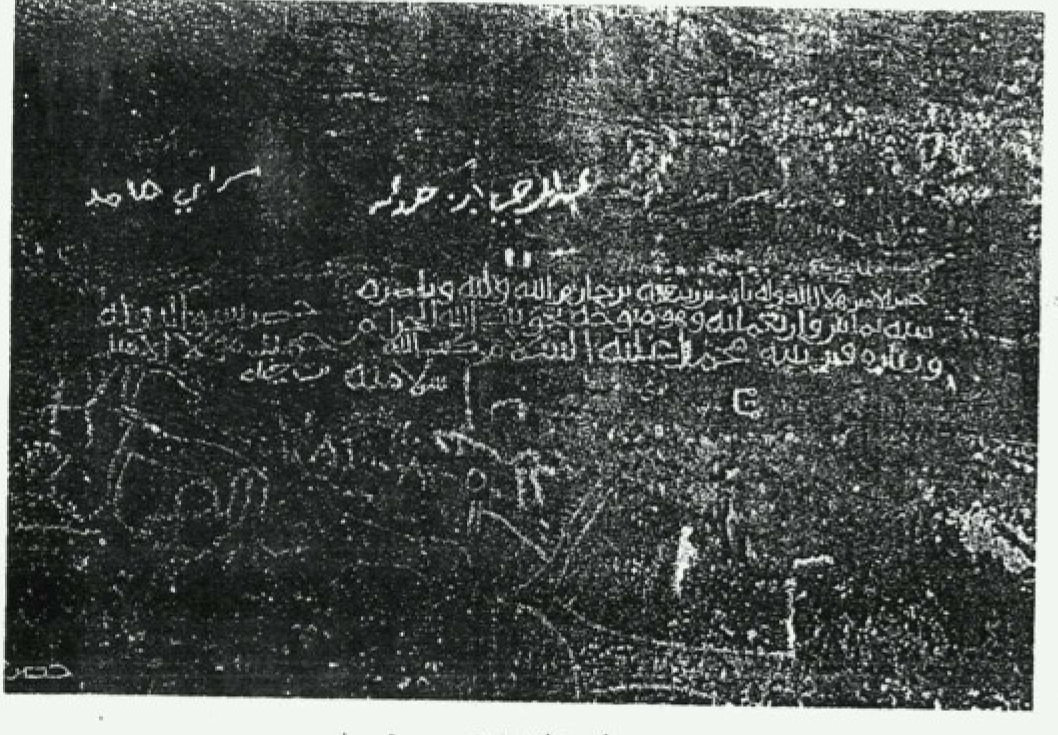
قائمة باللوحات المرفقة بالبحث



لوحة ١ : خريطة تبين موقع الأقرع على طريق الحج الشامي



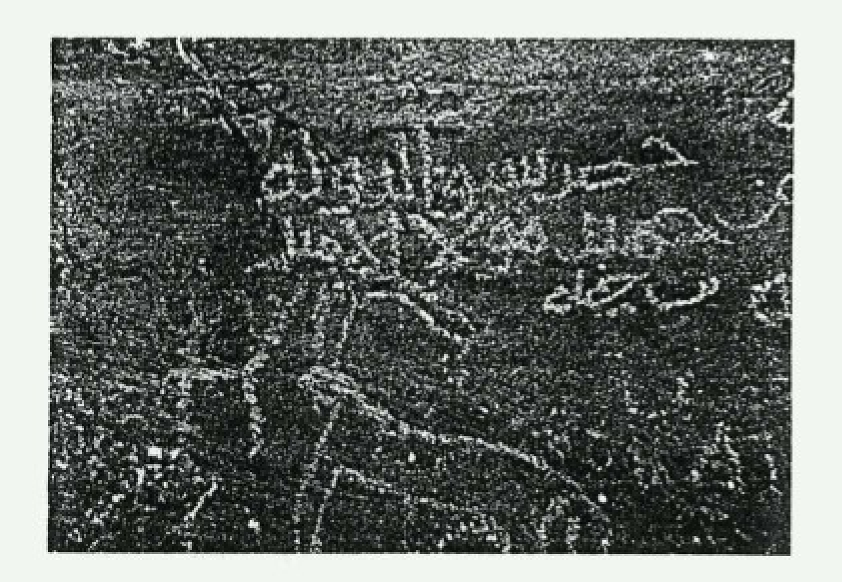
لوحة ٢ : صورة عامة لموقع الأقرع



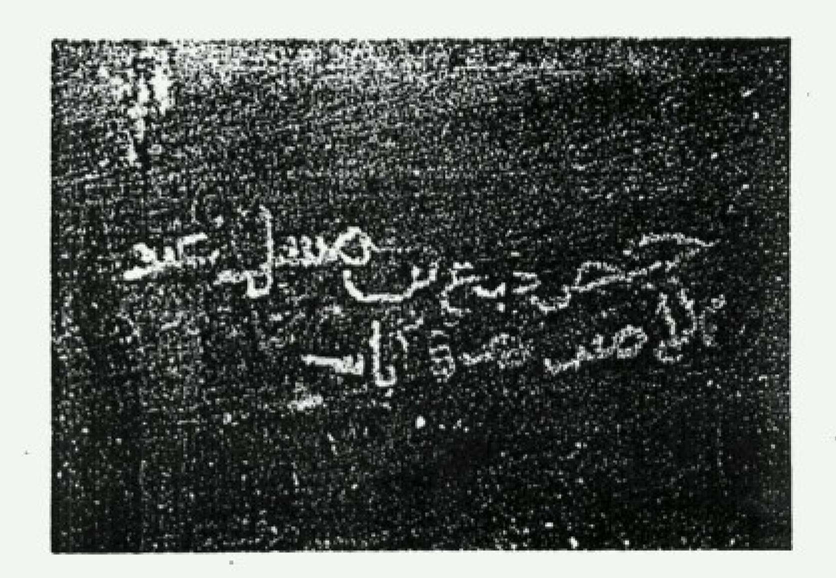
لوحة ٣ : نقش الأمير هلال الدولة ثابت بن ربيعة بن حازم



لوحة ٤ : تفريغ لنقش الأمير هلال الدولة ثابت بن ربيعة

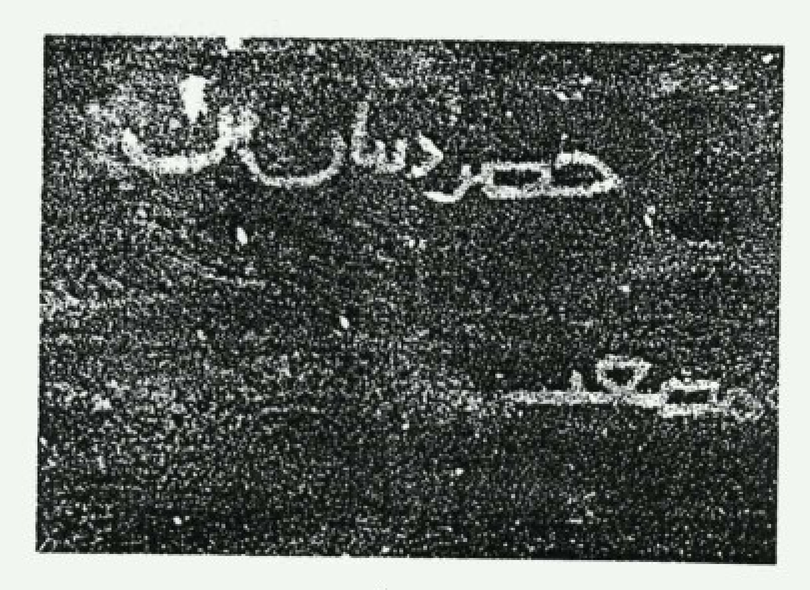


لوحة ٥ : صورة وتفريغ لنقش سيف الدولة حميد مولى الأمير ثابت (نقش رقم ٢)



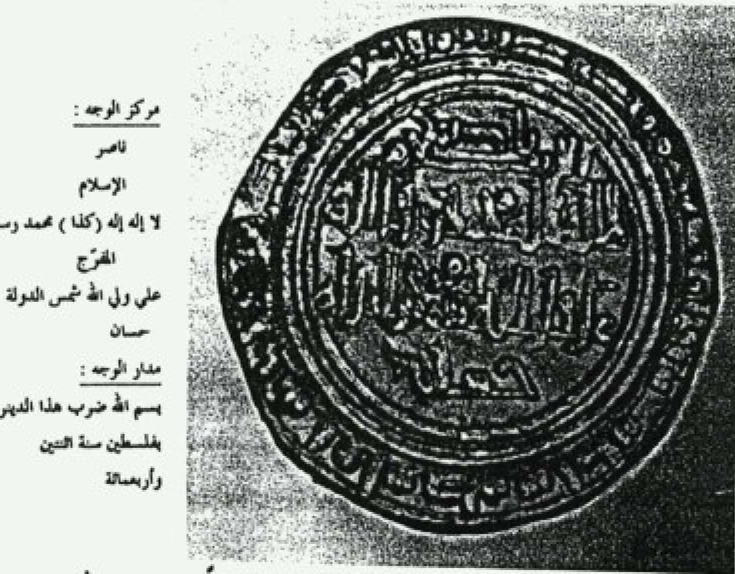


لوحة ٦ : صورة وتفريغ لنقش دبع بن مسلم عبد الأمير ثابت (نقش رقم ٣).





لوحة ٧ : صورة وتفريغ لنقش ذبيان بن مصعب (نقش رقم٤).



مركز الوجه :

ناصر

الإسلام

لا إله إلا الله (كذا) محمد رسول الله

المفرّج

علي ولي الله شمس الدولة

حسان

مدار الوجه :

بسم الله ضرب هذا الدينر

بفلسطين سنة اثنين

وأربعمائة

لوحة ٨: عملة الخليفة الراشد أبي الفتوح ، نقلاً عن : سمير شما .

٧٧ – بنو جراح

(شيوخ طي)

الأمير			
١ – حسان بن الجراح ، (حليف القرامطة)			سنة ٣٥٨ هـ
٢ – دغفل المفرج بن الجراح			٣٦٧
صاحب الرملة ، (توفي سنة ٤٠٤)	٣٦٩		
٣ – حسان بن دغفل بن الجراح			٤٠٠
الاستيلاء على عسقلان	٤١٤		
الاستيلاء على الحبة	٤٢٢		
ذكره الروايات لآخر مرة	٤٣٣		
٤ – علي بن حسان بن دغفل ، (ذكر سنة ٤٦٢)			—
٥ – محمود بن حسان بن دغفل			—
٦ – أبو عمران الفضل بن ربيعة بن حازم بن الجراح		حول	٥٠٠

لوحة ٩ : جدول زامباور لأمراء بني الجراح .

لوحة ١٠ : جدول يوضح أشكال الحروف فى نقش الأمير ثابت مقارنة مع نقوش أخرى من فترته

الحرف	بركة بصرى ٤٦٣هـ		الأمير ثابت ٤٨٠هـ		شاهد دحلك ٤٨٠هـ	
	مفرد	مركب	مفرد	مركب	مفرد	مركب
أ						
ب ت ث						
ج ح						
د						
ر ز						
س						
ص ض						
ع						

تابع لوحة ١٠ : جدول يوضح أشكال الحروف في نقش الأمير ثابت مقارنة مع نقوش أخرى من فترته

الحرف	بركة بصرى ٤٦٣هـ		الأمير ثابت ٤٨٠هـ		شاهد دحلك ٤٨٠هـ	
	مفرد	مركب	مفرد	مركب	مفرد	مركب
ق						
ك						
ل						
م						
ن						
هـ						
و						
لا						
ي						

1 حضر فى هذا الموضع سيار بن هرملس
2 فى سنة ثلث وستين وأربع مائة
3 رحمه [الله] ورحم والديه

لوحة ١١ : تفريغ لنقش بركة الحاج ببصرى ، نقلا عن إينو ليتمان (Syria: 1949)



د. منى سعد محمد الشاعر (*)

خاتونات البيت الايوبى ودور هن فى الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية فى العصر الايوبى

مقدمة

لا شك أن المرأة تمثل عنصرا فى الحياة السياسية والحضارية ، ولقد استطاعت المرأة المسلمة على مر العصور أن تثبت جدارتها فى جميع الميادين سواء الميدان السياسى أو الاجتماعى أو العلمى والثقافى حتى الميدان الحربى ، فضلا عن أن المرأة هى التى تخرج لنا القادة العظام فى جميع المجالات ، ويتضمن هذا البحث دراسة عن فئة خاصة من النساء وهن خاتونات (١) البيت الأيوبى ودورهن فى العصر الأيوبى ، حيث أسهمن بدور كبير فى الحياة العلمية والاجتماعية والثقافية ، وبعضهن أسهمن بدور بارز ملموس فى الحياة السياسية .

الحقيقة أن هذا الدور السياسى الكبير والذى قام به بعضهن هو الذى دفعنى إلى هذه الدراسة ، خاصة دور السيدة ضيفة خاتون ابنة السلطان العادل سيف الدين أبو بكر ، والتى حكمت فى حلب حتى أطلقت عليها المصادر " الملكة الخاتون صاحبة حلب " ، لذا فقد

---

* مدرس التاريخ الإسلامى بقسم التاريخ ، كلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ، القاهرة .

بدأت أبحث عن بقية هؤلاء الخاتونات ، وماذا كان دورهن فى عصر الدولة الأيوبية ، وهو عصر انشغلت فيه الأقلام والعقول حول الخطر الصليبى وموقف ملوك الأيوبيين فى مصر والشام من هذا الخطر ، خاصة وأنه قد دهم الشرق فى ذاك العصر العديد من الحملات الصليبية بدءا من الحملة الصليبية الثالثة فى عهد السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى وحتى الحملة الصليبية السابعة فى عهد السلطان الصالح أيوب ، وسأتناول دراسة هؤلاء الخاتونات بدءا بأخوات السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى ست الشام وربيعة خاتون وابنته الوحيدة مؤنسة مرورا ببقية خاتونات البيت الأيوبى حتى اللاتى عاش منهن فى العصر المملوكى .

فقد أسهم الخاتون ست الشام بدور بارز وملموس فى الحياة الاجتماعية ، كما أسهمت بدور كبير فى الحياة العلمية والثقافية ، وكانت دارها قبلة للعلم والعلماء ، فضلا عن أنها أنشأت مدرستين وعدد من الخوانق والربط ، أما السيدة خاتون التى تزوجت من سعد الدين بن معين الدين أنر ، ومن بعده مظفر الدين كوكبورى وهما شخصيتين سياسيتين بارزتين فى تلك الأونة ، فقد انتقلت بعد وفاة زوجها مظفر الدين كوكبورى إلى دمشق ، حيث اهتمت منذ انتقالها بالعلماء والدارسين وصاحبة العالمة الفاضلة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلى وقدمت لها الكثير من الأموال من أجل الانفاق على مؤلفاتها وتصانيفها ،فضلا عن أنها أنشأت مدرسة أوقفتها على الحنابلة ، أما ابنة السلطان صلاح الدين الأيوبى الوحيدة وهى مؤنسة خاتون فلم تذكر المصادر عنها سوى زواجها من ابن عمها الملك الكامل محمد بن السلطان العادل الأيوبى

أما بنات السلطان العادل الأيوبى وهن السيدة غازية خاتون وضيفة خاتون ومؤنسة خاتون وزهرة خاتون ، وتأتى على رأسهن السيدة ضيفة خاتون التى ساسة الأمور فى حلب خير سياسة بعد وفاة ابنها الملك العزيز ، وتصدت بحكمة وحنكة سياسية للأخطار الداخلية والخارجية التى واجهت حلب آنذاك ، كما دخلت فى علاقات دبلوماسية مع سلاجقة الروم ليكونوا ردءا لها ضد تلك الأخطار ، وقربت إليها أهل العلم والدين وبذلت لهم الكثير من الأموال وأنشأت مدرسة بظاهر دمشق أوقفتها على الشافعية ، ثم يأتى بعد ذلك دور بقية خاتونات البيت الأيوبى الذى لعبته كل منهن فى هذا العصر .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا البحث اتقصر على الخاتونات بنات السلاطين والملوك الأيوبيين وأخواتهن اللاتى ينتسبن إلى الأصول الأيوبية ، ويخرج من هؤلاء زوجات السلاطين والملوك اللاتى ينتهى نسبهن إلى بيوت أخرى مثل عصمة الدين بنت معين الدين أنر زوج السلطان صلاح الدين ، وشجر الدر زوج الصالح أيوب وأمثالهن .

أولا : دور خاتونات البيت الأيوبى فى الحياة السياسية :

شهد العصر الأيوبى الكثير من الأحداث أسهم فيها ملوك وأمراء البيت الأيوبى والتى نالت الكثير من الدراسات الحديثة ، وخاصة وأن العصر الأيوبى شهد أهم خطرين هدد العالم الإسلامى فى تلك الفترة وهما الخطر الصليبى سواء فى الغرب أو الشرق ، والخطر المغولى ، وحرى فى هذا البحث أن نضع إلى جانب هؤلاء الرجال الذين أسهموا بدور بارز فى أحداث العصر الدور السياسى لخاتونات البيت الأيوبى ، حيث كان لبعضهن دور بارز ملموس فى أحداث العصر والذى لا يقل شأنا عن الدور الذى لعبه القادة العظام فى ذلك العصر .

ومن أهم خاتونات البيت الأيوبى اللاتى لعبن دورا هاما فى تلك الفترة تأتى على رأسهن السيدة ضيفة خاتون [٢] ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وزوجة الملك الظاهر صاحب حلب .

قيام السيدة ضيفة خاتون على حكم حلب :

ظل الملك الظاهر يحكم حلب حتى وفاته فى عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ، وقام بعده على حكم حلب أبوه الملك العزيز محمد ، ونظرا لصغر سنه فقد قام الأمير شهاب الدين طغرل[٣] على أتابكيته حتى استقل الملك العزيز فى حكم حلب عام ٦٢٩ هـ/ ١٢٣٢ م ، حيث يقول ابن العديم فى حوادث عام ٣٢٩ هـ/ ١٢٣٢ م " واستقل الملك العزيز بملكه فى هذه السنة وتسلم خزائنه من أتابك شهاب الدين ورتب الولاة فى القلاع واستحلف الأجناد لنفسه " [٤].

ظل الملك العزيز يحكم فى حلب حتى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م ، ففى أواخر شهر صفر من نفس العام لحق به المرض واشتد حتى مات فى شهر ربيع الأول من عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م[٥] ، ولما مات الملك العزيز استقر فى حكم حلب بعده ابنه الملك ناصر يوسف ، وكان لا يتجاوز السابعة من عمره حيث كان مولده فى عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م ، ونظرا لصغر سنه فقد قام على تدبير مملكته فى حلب عدة أمراء على رأسهم الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمينى ، والأمير شمس الدين عمر بن محلى ، ووزير الدولة القاضى جمال الدين القفطى ، والأمير جمال الدولة إقبال الخاتونى ، والأمر كله راجع إلى الصاحبة ضيفة خاتون جدة الملك الناصر ، "حيث كانت العلامات على التواقيع والمكاتبات إليها فكانت الأمور كلها منوطة بها " [٦].

ويتضح من هذا أن السيدة ضيفة خاتون كانت تباشر الحكم بنفسها حيث كانت تسوس حلب في تلك الفترة ، فكان لا يقرر أمر ولا يبرم إلا بعد موافقتها ، وكان الأمير جمال الدولة اقبال الخاتوني هو الواسطة بينها وبين القائمين على تدبير مملكة الملك الناصر (٧).

الحقيقة أن الصاحبة ضيفة خاتون حكمت حلب في فترة كانت الأحداث فيها متشابكة في الدولة الأيوبية ، فقد كان سلطان البلاد في ذلك الوقت أخوها وشقيقها الملك الكامل محمد الذي كان مقيما في مصر ، وفي الوقت التي قامت فيه ضيفة خاتون على حكم حلب كان النزاع والخلاف على أشده بين أبناء البيت الأيوبي خاصة بين السلطان الكامل في مصر وأخيه الملك الأشرف موسى بدمشق ، وكان السبب في هذا النزاع ما نمى إلى مسامع الملك الأشرف موسى من أن أخاه السلطان الكامل يريد أن يستولي على أملاك الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة ويعوضهم عنها بمملكة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى (٨)، بعد استيلائه عليها ، من أجل ذلك اجتمع ملوك الأيوبيين في الشام والجزيرة تحت قيادة الملك الأشرف موسى لمواجهة السلطان الكامل (٩)، فضلا عن هذا ، فقد تحالفوا مع سلطان سلاجقة الروم ضد السلطان الكامل (١٠).

أما عن السيدة ضيفة خاتون صاحبة حلب وموقفها من هذا النزاع فنجد أنها انضمت إلى الحلف الأيوبي في الشام ضد أخيها السلطان الكامل ، وترجع المصادر ذلك إلى أن السيدة ضيفة خاتون حدث بينها وبين أخيها السلطان الكامل وحشة بسبب أنه لما أرسلت إليه رسولين لتخبره بوفاة ابنها الملك العزيز وقيام الملك الناصر ابنه على حكم حلب على أن تكون الأمور كلها راجعة إليها ، إلا أن السلطان الكامل لم يحسن استقبال رسلها ، فضلا عن أنه أشار على الرسولين بضرورة قيام الملك الصالح بن الملك الظاهر(١١) صاحب عينتاب(١٢) على قيادة العسكر ويكون له الوصاية على ابن أخيه الملك الناصر ، ولما أخبر الرسولان ضيفة خاتون بما أشار به السلطان الكامل لم ترحب به ولم تجب إليه ، حيث رأت أن هذا تدخلا مباشرا من السلطان الكامل في شؤون حلب ، مما آثار شكوكها في طمعه للاستيلاء على حلب ، لذا انضمت ضيفة خاتون إلى الحلف الذي كونه أخوها الأشرف موسى من ملوك الشام والجزيرة ضد السلطان الكامل (١٣).

الحقيقة أن هذا لم يكن هو السبب الوحيد الذى من أجله انضم الحلبيون إلى هذا الحلف ، فيبدو أن الحلبيين كانوا من أول الأمر وقبل أن تقوم ضيفة خاتون على حكم حلب نيابة عن ابن

ابنها الملك الناصر كانوا موالين للملك الأشرف موسى الأيوبى خاصة وأن الملك الأشرف كان فى فترة حكم الملك العزيز ابن ضيفة خاتون يمثل ردءا للحلبيين ضد القوى الخارجية والداخلية ، بل كانت معظم الأمور فى حلب مفوضة إليه ، وكان يخطب له فى حلب بعد الملك العزيز إلى أن استقل العزيز فى حكم حلب عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٣م (١٤). يضاف إلى هذا أن الملك الأشرف موسى بعد الوحشة التى حدثت بينه وبين أخيه الملك الكامل " راسل أخته الصاحبة بحلب والجماعة على أن تكون كلمتهم واحدة على الملك الكامل وأنهم يتفقون على منعه من النزول إلى الشام "(١٥).

مما تجدر الإشارة إليه أن بعض الأمراء فى حلب ومنهم شهاب الدين يوسف بن عز الدين مسعود بن سابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وكمال الدين بن العجمى أرسلا فى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م رسولا إلى الملك الأشرف موسى الأيوبى بطمعانه فى الاستيلاء على حلب ، بل وحاولا ايهامه بأنهما حولهما جماعة كبيرة من الحلبيين سوف يساعدونه على ذلك ، ولما وصل هذا الرسول إلى الملك الأشرف موسى بدمشق لم يستجب له ، بل قال لهم " بأنه لا يمكن أن يبدو منى غدر ولا قبيح فى حق أحد من ذرية الملك الظاهر " (١٦). و لما علمت الصاحبة ضيفة خاتون بذلك أرسلت من اعترض طريق هذا الرجل أثناء عودته من دمشق ، ولما وصل إلى حلب قبض عليه ، وما زالوا به حتى أخبر عمن أرسله ، وهما كمال الدين بن العجمى ، وشهاب الدين صاحب شيزر ، فأمرت باعتقالهما بالقلعة ومصادرة أموالهما (١٧). ولعل هذا يبين لنا مدى حزم هذه السيدة وقدرتها السياسية حتى أنها قضت على تلك الفتنة من بدايتها(١٨).

على أيه حال فقد توفى الملك الأشرف موسى الأيوبى فى المحرم من عام ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧م، وقام مكانه فى حكم دمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، وحاول الصالح إسماعيل أن يواصل جهود الأشرف موسى فى مواجهة أخيه السلطان الكامل ، فأرسل إلى ملوك الشام " ليحلفوا له ويتفقوا معه على القاعدة التى كانت مقررة بينهم وبين الملك الأشرف "(١٩). ووافق الحلبيون وعلى رأسهم الصاحبة ضيفة خاتون على ذلك ، وحلفوا له ، كذلك حلف له بقية ملوك الشام فيما عدا الملك المظفر صاحب حماه الذى أرسل إلى عمه الكامل فى مصر يعتذر إليه ، ويعلن انتماءه له ، لذلك وعده السلطان الكامل بأن يضيف إليه سلمية التابعة للملك المجاهد صاحب حمص ، مما أدى إلى حدوث فتنه بين صاحب حمص

وصاحب حماه ، وحاولت الصاحبة ضيفة خاتون الإصلاح بينهما ، فأرسلت إليهما الصاحب كمال الدين بن العديم فى هذا الأمر ، ولكنه لم يستطع أن يصلح بينهما ، بل نجد الملك المظفر صاحب حماه يرسل تهديدا إلى الملك المجاهد صاحب حمص بأنه سوف يكون سندا للسلطان الكامل إذا ما هاجم حمص ، ولما سأله ابن العديم عن موقفه من حلب قال له " وأما حلب فإنى أبذل مالى ونفسى دون الوصول إلى قرية من قراها ولا أرجع عن اليمين التى حلفت بها للستر العالى وللسلطان الملك الناصر "(١٩).

ويبدو أن الملك المظفر صاحب حماه أراد بموقفه هذا من حلب أن يستميل إليه الصاحبة ضيفة خاتون ، يؤكد ذلك أنه لما ذكر له ابن العديم أن القوات الحلبية ستكون فى نجدة صاحب حمص إذا ما قصده السلطان الكامل أو غيره لأنهم على حلف معه ، هنا نقد الملك المظفر كلامه وقال " أنا أقاتله " أى العسكر الحلبى " ومن قاتلنى قاتلته" (٢٠)، مما يؤكد أنه أراد بمقولته السابقة لابن العديم استمالة الصاحبة ضيفة خاتون إلى تحالفه مع السلطان الكامل.

على أيه حال ، نجد السلطان الكامل عندما علم بوفاة أخيه الأشرف موسى وقيام أخيه الصالح إسماعيل على حكم دمشق أسرع من فوره الخروج من مصر لاستردادها وتأديب الأيوبيين فى بلاد الشام ، ولما وصل دمشق حاصرها حصارا شديدا حتى تمكن من الاستيلاء عليها من الصالح إسماعيل فى جمادى الأولى ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ، وعوضه عنها ببعلبك والبقاع (٢١)، وبصرى (٢٢)والسواد (٢٣)، ثم أمر السلطان الكامل قواته بالتوجه إلى حمص لمحاصرتها ، كما طلب من الملك المظفر محمود بأن يسبقه إليها بالقوات الحموية ، وبالفعل تقدم الملك المظفر محمود حتى نزل على الرستن(٢٤) انتظارا لقدوم السلطان الكامل إليه (٢٥)، ولما رأى الملك المجاهد صاحب حمص ذلك أرسل إلى السلطان الكامل يعتذر إليه ويتضرع طالبا العفو عنه ، وكان رسوله إلى السلطان الكامل ابنه المنصور إبراهيم ، فعفا عنه السلطان الكامل على أن يحمل إليه فى كل سنة ألفى ألف درهم لذلك " شرع الكامل يتجهز لأخذ حلب " (٢٦)، ولعل هذه الرواية توضح موقف الصاحبة ضيفة خاتون من السلطان الكامل، فهى لم ترسل إليه للاعتذار والعفو كما فعل الملك المجاهد صاحب حمص ، ولكنها أخذت في الاستعداد للتصدى له ، فبدأت أولا بعد عودة القوات الحلبية التى كانت فى نجدة دمشق باستدعاء الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين لتجميع القوات الحلبية والأمراء لتحلفهم للملك الناصر " وللصاحبة ضيفة خاتون الملكة فحلفوا جميعا ثم حلف بعد ذلك أكابر البلد ورؤساؤهم ثم حلف الأجناد والعامة " (٢٧).

ولا شك أن هذه الخطوة التى اتخذتها الصاحبة ضيفة خاتون كانت لتأكيد ولاء الخاصة والعامة لها ولابن ابنها الملك الناصر ، وحتى تضمن وقوفهم بجانبها ضد السلطان الكامل ، أما الخطوة الثانية التى اتخذتها الصاحبة ضيفة خاتون فقد أمرت القوات الحلبية بالخروج والاستعداد للحصار الذى يفرضه السلطان الكامل على حلب ، فاعدوا الذخائر والأقوات والحطب وأحجار المناجيق التي تنصب حول أبواب البلد ، وكل ما يلزم فى فترة الحصار ، كذلك استعانت بقوات من الخوارزميين والتركمان لمساندتها ضد السلطان الكامل ، فضلا عن هذا فإن الصاحبة ضيفة خاتون أرسلت فى طلب النجدة من سلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو ، والذى لبى نداءها ، وأرسل إليها نجدة " من أجود عساكره وعرض عليهم أن يسير غيرها "(٢٨)، ولم يكتف سلطان سلاجقة الروم بإرسال النجدات ، بل أرسل إلى السلطان الكامل بمصر يطلب منه الامتناع عن قصد حلب ، ويبدو أن السلطان الكامل شعر بالتهديد من رسالة سلطان سلاجقة الروم إليه ، لذلك أمر من فوره " بالتبريز من دمشق لقصد حلب وأخرج الخيم والأعلام " (٢٩)، وبينما السلطان الكامل على استعداد لقصد حلب حتى لحق به المرض ومات فى قلعة دمشق فى ٢١ رجب ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م (٣٠).

مما تجدر الإشارة إليه أنه فى نفس الوقت الذى توفى فيه السلطان الكامل ، وأقيم له العزاء فى حلب يومين ، وصل رسول السلطان غياث الدين كيخسرو إلى " الخاتون الملكة " وطلب منها الزواج من ابنة الملك العزيز (غازية خاتون) ، وأن يزوج الملك الناصر من أخت السلطان غياث الدين كيخسرو ، ووافقت الصاحبة ضيفة خاتون على هذا الزواج السياسى ، وتم عقد السلطان غياث الدين كيخسرو على غازية خاتون ، كما عقد للملك الناصر صاحب حلب على ملكة خاتون(٣١) أخت السلطان غياث الدين كيخسرو ، وظلت زيجة الملك الناصر صاحب حلب من ملكة خاتون دون تنفيذ حتى عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ، وذلك عندما اتفق السلاجقة والحلبيون على المصاهرة فى عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ، كان عمر الملك الناصر لا يتجاوز العشر سنوات(٣٢) .

على أية حال فبعد هذا الزواج السياسى بين الحلبيين وسلاجقة الروم أرسل سلطان سلاجقة الروم إلى الصاحبة ضيفة خاتون فى نفس العام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م يطلب منها إقامة الخطبة له فى حلب وضرب السكة باسمه ، وجمعت الصاحبة ضيفة خاتون مستشاريها وعرضت عليهم هذا الأمر فأشاروا عليها بموافقتهم ، وبالفعل أقيمت الخطبة لسلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو بحلب فى عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ، وضربت السكة باسمه(٣٣).

ولعل ما سبق يوضح أن الصاحبة ضيفة خاتون أرادت أن يكون سلطان سلاجقة الروم ردءا لها ضد أي عدوان عليها سواء من مصر أو من الشام ، لذلك أعلنت الخطبة له في حلب ، وعلى الرغم أن السلطان العادل الثاني الذي اعتلى عرش السلطنة في مصر بعد وفاة أبيه السلطان الكامل أرسل إليها في طلب الصلح والموافقة بينهما ، وأن يخطب له في حلب وتضرب السكة باسمه ، ولكنها رفضت ذلك (٣٤).

أما موقف الصاحبة ضيفة خاتون من الملك المظفر صاحب حماه الذي كان على أهبة الاستعداد لمهاجمة حلب مع عمه السلطان الكامل فقد رفضت شفاعة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الكامل فيه " واعتذرت إليه بما بدا منه" (٣٥). وقد رأت الصاحبة ضيفة خاتون أن تتوجه القوات الحلبية من فورها على حماه وأعمالها لتأديب صاحبها الملك المظفر ، ورأت أن تبدأ القوات الحلبية أولا بالمعرة (٣٦). ثم الزحف على حماه ، ويشير ابن واصل إلى ذلك فيقول " ثم تقدمت الصاحبة إلى عسكر حلب بالتوجه إلى بلاد الملك المظفر وقصده وأن تقع البداية بأخذ قلعة المعرة وبلدها ، ثم بعد ذلك التقدم إلى حماه وحصارها وقدمت على العساكر الملك المعظم توران شاه "(٣٧).

يتضح من هذه الرواية أن الصاحبة ضيفة خاتون كانت تسوس كل الأمور في حلب حتى أمر الحرب ، فكما يبدو من رواية ابن واصل السابقة أنها كانت تتدخل في وضع خطط الحرب ، فهي التي أشارت عليهم بالبدء بالمعرة ثم حماه ، كما اسندت القيادة إلى الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين مما يؤكد قيادتها لكل الأمور في حلب .

وتقدمت القوات الحلبية بناء على الخطة التي وضعت ضيفة خاتون إلى المعرة في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها ، كما حاصرت قلعتها ونصبوا المجانيق حولها حتى اضطرت الحامية بها إلى الاستسلام وطلب الأمان " فملكوها ورتبوا أمرها "(٣٨). ثم تقدمت القوات الحلبية إلى حماه وحاصرتها ولكنهم لم يشددوا الحصار عليها ، فلم ينصبوا حولها مجانيق ولم تضايق حماه مضايقة شديدة ، حيث أن الصاحبة ضيفة خاتون أمرت القوات أن يحاصروا البلد ولا يجدو في القتال والزحف عليها " حيث لم يكن قصدها إزالة ملك ابن أخيها الملك المظفر وإنما أرادت أن تنتقم منه بأخذ المعرة ومحاصرة حماه وإشغال سره عقوبة له على ما فعل من انحيازه إلى الملك الكامل "(٣٩).

وعلى الرغم من عدم تشديد الحلبيين فى محاصرة حماه إلا أن فترة الحصار قد طالت عليها حتى العام التالى ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م، حيث أرادت الصاحبة ضيفة خاتون أن تضغط على الملك المظفر صاحب حماه ليتنازل لها عن المعرة ولا يحاول استردادها مرة أخرى ، ولما طالت فترة الحصار على حماه تعبت القوات الحلبية وضجرت من طول فترة الحصار أمرت الصاحبة ضيفة خاتون القوات برفع الحصار عن حماه والعودة إلى حلب وذلك بعد نجاحها فى الاحتفاظ بالمعرة تابعة لحلب (٤٠)، ولعل هذا يؤكد مدى إدراكها للأمور الحربية ومدى حنكتها السياسية حيث نجحت سياسة الضغط التى اتبعتها مع صاحب حماه فى أن تبقى المعرة فى أيدى الحلبيين .

أما عن موقف الصاحبة ضيفة خاتون من الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الكامل ، فقد كان السلطان الكامل قد عهد إلى ابنه الصالح أيوب ببلاد الجزيرة بدلا من مصر التى أعطاها لابنه العادل الصغير ، ولما مات السلطان الكامل كان الصالح أيوب محاصرا للرحبة التابعة لصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بناء على طلب من السلطان الكامل ، وبينما هو على حصارها ورد عليه الخبر بوفاة أبيه ، فاضطر إلى الرحيل عنها ، ولما علمت الجند الخوارزمية - الذين كان قد استخدمهم الملك الصالح أيوب فى حياة أبيه ودخلوا فى طاعته - بوفاة السلطان الكامل خرجوا عليه وبدأوا يهاجمون أملاكه فى بلاد الجزيرة حتى استولوا على معظمها (٤١)، كذلك طمع السلطان غياث الدين كيخسرو فى أملاك الملك الصالح أيوب فى الجزيرة ، لذلك لجأ إلى التحالف مع ملوك الأيوبيين فى الشام على اقتسام أملاكه فى الجزيرة بحيث يكون للملك المظفر شهاب الدين غازى(٤٢) ميافارقين وحران ، وغيرها من بلاد الخابور(٤٣)، والملك المنصور ناصر الدين الأرتقى صاحب ماردين نصيبين وسنجار ، من بلاد الملك الصالح الرها وسروج (٤٤).

وتجدر الإشارة هنا إلى موقف الصاحبة ضيفة خاتون من هذا الحلف ، الحقيقة أن ضيفة خاتون قد وقعت على هذا العرض من قبل سلطان سلاجقة الروم ، ولكنها فى نفس الوقت لم تقدم على الاستيلاء على تلك البلاد ولم تتعرض لشئ منها حيث أنها " لم تؤثر مضايقة ابن أخيها الملك الصالح فى البلاد " (٤٦)، ولما رأى الملك الصالح أيوب هذا الموقف من عمته ضيفة خاتون ، أرسل إليها يعرض عليها أخذ هذه البلاد وغيرها من بلاده وقال لها " البلاد كلها بحكمك وإن شئت إرسال نائب يتسلم هذه البلاد وغيرها فأرسليه لأسلم إليه ما تأمرين بتسليمه " ، فشكرته وطيبت قلبه (٤٧).

ولعل هذا يؤكد أن الصاحبة ضيفة خاتون أرادت أن تستمر العلاقة الحسنة بينها وبين سلطان سلاجقة الروم ليكون السلاجقة رد ما لها من أى خطر تواجهه ، وفى نفس الوقت فهى رغم توقيعها على الاتفاقية مع سلطان سلاجقة الروم على اقتسام أملاك الصالح أيوب فى الجزيرة إلا أنها لم تشرع فى الاستيلاء عليها وأبقتها فى أيدى ابن أخيها ، ولعلها أرادت أن تستقطبه إليها ليكون هو الآخر إلى جانبها ، ولاشك أن هذا يؤكد مدى حنكتها وقدرتها السياسية ، وقد أتت هذه السياسة ثمارها عندما اعتلى الصالح أيوب عرش السلطنة فى مصر عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م ، وكانت الصاحبة ضيفة خاتون قد أرسلت إلى مصر ابن العديم ليطلب من السلطان العادل الثانى احضار عماته بنات الملك العادل إليها ، وصادف ذلك الأمر اعتلاء الصالح أيوب عرش مصر وعزل أخيه العادل الثانى ، لذا لما استقر الأمر استدعى ابن العديم ليرى مطلبه ، ويقول ابن العديم فى هذا الصدد " استحضرنى الملك الصالح أيوب يوم الثلاثاء حادى عشر ذى الحجة وقال لى تقبل الأرض بين يدى الستر العالى وتعرفها أننى مملوكها وأنها عندى فى محل الملك الكامل وأنا أعرض نفسى لخدمتها وامتثال أمرها فيما تأمر به "(٤٨).

وتؤكد هذه الرواية أن موقف الصاحبة ضيفة خاتون من الصالح أيوب وقت تقسيم بلاده مع سلطان سلاجقة الروم وعدم إقدامها على الاستيلاء عليها جعله يحفظ لها هذا الجميل ويبجلها ، وإن كان الصالح أيوب هو الآخر يبغى من وراء ذلك ضمان ولاء الصاحبة ضيفة خاتون القائمة على أمر حلب له ، خاصة وأن حلب تمثل جزءا كبيرا من بلاد الشام فى الوقت الذى ما تزال أجزاء كبيرة من هذه البلاد مثل دمشق وحمص تقف ضده ، وتحاول عرقلته ، والتصدى له ، يؤكد ذلك ابن العديم عندما مر بدمشق بعد خروجه من مصر حيث وصل إليها فى ٤ من المحرم ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م التقى بالصالح إسماعيل ، وحمله رسالة إلى الصاحبة ضيفة خاتون يطلب منها مساندته ضد الصالح أيوب ، والجدير بالذكر أن ضيفة خاتون لم تجب الصالح إسماعيل ورفضت التحالف معه ضد الصالح أيوب فى تلك الآونة (٤٩)، مما يؤكد أن كلا الطرفين الصاحبة والصالح أيوب قد وضعا آماله كل على الآخر .

مما سبق يتضح أيضا أن الصاحبة ضيفة خاتون إن كانت لجأت إلى أسلوب الملاينة مع السلطان الصالح أيوب ، ومن قبل قد لجأت إلى أسلوب العلاقات السياسية والدبلوماسية مع سلطان سلاجقة الروم حتى أنها عقدت معه زيجات سياسية ، وأعلنت الخطبة والسكة باسمه فى حلب ، كل ذلك كان من أجل الحفاظ على عرش حلب لابن ابنها الملك الناصر والذى كان ما يزال صغيرا ، وقد نجحت فى ذلك إلى حد كبير ، ولم يجرؤ أحد طوال فترة حكمها على مهاجمة حلب أو التعرض لها بسوء .

موقف الصاحبة ضيفة خاتون من الأخطار الخارجية على حلب :

أما بالنسبة للأخطار الخارجية التى واجهت حلب على عهد الصاحبة ضيفة خاتون فلم تكن كثيرة ، وإن كان حدث القليل من الإغارات من قبل التركمان والصليبيين فى بداية عهدها استغلالا لوفاة الملك العزيز وظنا منهم أنه لم يكن فى حلب من يدافع عنها .

أولا : التركمان

ففى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م ، وهو نفس العام الذى مات فيه الملك العزيز صاحب حلب ، وقامت على أمر حلب الصاحبة ضيفة خاتون ، وهاجم جمع كبير من التركمان بقيادة رجل يدعى قنغر أطراف بلاد حلب ناحية قورس (٥٠)، وتكررت هذه الإغارات من قبل التركمان أكثر من مرة ، حيث كان قنغر هذا ومن معه يهاجم أطراف بلاد حلب ، ثم يدخل إلى بلاد سلاجقة الروم ، ولما علمت الصاحبة ضيفة خاتون بذلك أرسلت القوات الحلبية خلف هؤلاء التركمان ، وتمكنت القوات الحلبية من إنزال الهزيمة بهم، وظن مقدمو القوات الحلبية أن مهاجمة التركمان هذه كانت بإيعاز من سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ ، لذلك أرسلوا إليه يخبروه بأمر هؤلاء التركمان ، فأنكر معرفته بهذا، وأمر برد جميع ما أخذمن أعمال حلب ، بل أعلن نصرته ووقوفه مع السلطان الناصر صاحب حلب ضد أى عدوان عليه ، لذا كف التركمان أيديهم عن حلب (٥١).

ثانيا : الصليبيون

أما بالنسبة للصليبيين ، وهم العدو الدائم للمسلمين فى الشرق ، فقد انتهزوا فرصة وفاة الملك العزيز صاحب حلب ، وهاجم فرسان الداوية فى بغراس (٥٢)إقليم العمق التابع لحلب فى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م ، واستولوا على ما فيه ، ولما علمت الصاحبة ضيفة خاتون بذلك أمرت القوات الحلبية بنجدة العمق ، وخرج الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين مقدم القوات الحلبية على رأس جيش كبير إلى بغراس لمهاجمة الداوية ، ولما وصلت الحلبية إلى بغراس حاصروها وشددوا الحصار عليها حتى كادالحصن أن يسقط لولا تدخل بوهيمند الخامس صاحب أنطاكية وطرابلس (١٢٣٣-١٢٥١م) (٥٣)حيث شفع للداوية لدى الملك المعظم توران شاه ، وعرض عليه عقد هدنة معهم ، ووافق الملك المعظم على الهدنة ، ورحلوا عن بغراس بعد أن خربت البلد خرابا شديدا، ثم تحركت القوات الإسلامية ووصلت إلى دربساك(٥٤) ، في حين

رأي الداوية فى هذه الهدنة إذلالا لهم ، لذلك أسرعوا بنقضها بعد فترة قصيرة (٥٥)، وتمكنوا من إعداد حملة كبيرة بمساندة صاحب جبيل وغيره من الصليبيين ، وتحركوا لشن هجوم مفاجئ على دربساك .

مما تجدر الإشارة إليه أن الحامية الإسلامية الموجودة بدر بساك أدركت هجوم الصليبيين عليها ، واستعدت للتصدى لهم ، وعندما هاجمت القوات الصليبية در بساك قاومت الحامية الإسلامية مقاومة شديدة ، وتمكنت من حماية الربض ، وعندما وصل الخبر بذلك إلى القوات الحلبية القريبة منهم تحركت من فورها إلى در بساك لنجدتهم ، والتقت مع القوات الصليبية وتمكنت من إنزال هزيمة ساحقة بهم (٥٦)، وجدير بالذكر أن القوات الحلبية بعد تحقيق هذا الانتصار على الداوية لم تتعقبهم إلى بغراس ، ولم تحاول الاستيلاء عليها (٥٧)، مما أدى إلى استقرار السلام فى المنطقة بين الأيوبيين والصليبيين (٥٨).

ثالثا : الخوارزمية

الدولة الخوارزمية إحدى الدول الإسلامية التى ظهرت فى المشرق الإسلامى ، ويرجع تأسيس هذه الدولة إلى الأتراك السلاجقة الذين كانوا فى تلك المنطقة ، كما كانوا يبسطون نفوذهم على إقليم خوارزم منذ عهد السلطان السلجوقى طغرلبك ، وظلت فى أيدى السلاجقة من ورثته ، وفى عهد السلطان السلجوقى بركياروق ولى على إقليم خوارزم رجل يدعى أنوشتكين ، وإليه يرجع تأسيس الدولة الخوارزمية ، حيث أخذ هذا الرجل يترقى في مناصب الدولة حتى لمع نجمه ومنحه السلطان لقب خوارزم شاه ، وذلك فى عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م ، ومنذ ذلك الوقت ظهرت الدولة الخوارزمية على مسرح الأحداث وتوالي عليها السلاطين وأخذت تتوسع على حساب القوي المجاورة إلى أن تمكن المغول فى عام ٦١٧-٦١٨هـ/ ١٢٢٠-١٢٢١م من إنزال الهزيمة بهم ، وفر السلطان جلال الدين منكبرتى إلى الهند ، إلا أنه ما لبث أن أعاد تكوين جيشه مرة ثانية ، واستغل فرصة انشغال المغول بوفاة زعيمهم جنكيزخان ، واسترد معظم ممتلكاته ، وأقام الدولة الخوارزمية من جديد ، بل وقام بحركة توسعية كبيرة على حساب القوى الإسلامية المجاورة من سلاجقة وأيوبيين وبقايا الأتابكة والأراتقة ، إلى أن تمكن كل الأيوبيين والسلاجقة بعد إعداد حملة كبيرة مشتركة من إنزال الهزيمة بجلال الدين منكبرتى فى خلاط ، وعاد إلى أذربيجان مقر حكمه ولم يلبث فترة كبيرة حتى دهمه الخطر المغولى مرة أخرى ، وقتل جلال الدين منكبرتى فى عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م ، وبمقتله أسدل الستار على التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية (٥٩).

بعد سقوط الدولة الخوارزمية ، بقيت بعض شراذم الخوارزمية الذين انسحبوا فى أنحاء البلاد الإسلامية راغبين فى استعادة مجدهم البائد ، وقد خدم هؤلاء فى بلاد سلاجقة الروم طوال عهد السلطان السلجوقى كيقباذ ، وفترة فى عهد ابنه غياث الدين كيخسرو ، ولما أساء معاملتهم تركوا خدمته وظلوا فى آسيا الصغرى حتى استعان بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن استأذن والده السلطان الكامل فى ذلك فعملوا كجندمرتزقة لديه (٦٠)، ولكن ما لبث هؤلاء الجند الخوارزمية أن خرجوا عن طاعة الصالح أيوب عندما علموا بوفاة أبيه السلطان الكامل ، واجتاحوا أملاكه فى الجزيرة ، لعلهم يحققوا شيئا من ماضيهم البائد ، كما حاولوا القبض على الصالح أيوب نفسه لولا أنه اختفى فترة فى سنجار ، فى حين استولوا على خزائنه وأملاكه ، وسيطروا على معظم بلادة الجزيرة ، وأصبح وجودهم يشكل خطرا كبيرا على هذه المنطقة التى عاثوا فيها فسادا (٦١).

وامتدت أطماع الخوارزمية إلى بقية بلاد الجزيرة خاصة بعد اعتقال الصالح أيوب فى الكرك (٦٢)، فاستولوا على آشين التابعة للبيرة فى عام ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م ، وهاجموا أطراف البيرة (٦٣)، كما استولوا على قلعة حران ، وكثرت مهاجمتهم لأملاك الملك الحافظ أرسلان بن الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، فكرروا مهاجمتهم لقلعة جعبر ، وحاول الملك الحافظ مداراتهم وبذل لهم الكثير من الأموال ليكفوا عن مهاجمتهم إلا أنهم إزدادوا فى أطماعهم وعاودوا مهاجمة قلعة جعبر ، فاضطر الملك الحافظ إلى مراسلة أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب يعرض عليها التنازل عن قلعة جعبر وبالس مقابل ما يقوم مقامهما من أعمال حلب ، ووافقت ضيفة خاتون على ذلك خاصة وأن أخيها كان قد اشتد به المرض وأصبح غير قادر على الدفاع عن بلاد الجزيرة ، ويخشى أن يقوم ابنه بتسليمها إلى الخوارزمية .

وكان الحافظ أرسلان أراد من أخته ضيفة خاتون أن تجيره من خطر الخوارزمية ، واستجابت له الصاحبة ضيفة خاتون وأجارته ، وأرسلت نوابها إلى قلعة جعبر وبالس ، وتم تسليمهما إليهم فى صفر ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م ، فى حين سلمت إعزاز وعمل آخر من أعمال حلب إلى نواب الملك الحافظ ، أما الملك الحافظ نفسه فقد وصل إلى حلب ونزل فى الدار المعروفة بصاحب عينتاب تحت القلعة(٦٤) .

أما بالنسبة للخوارزمية فعلى الرغم من انتقال قلعة جعبر وبالس للحلبيين إلا أن هذا لم يردعهم عن مهاجمتهما ، حيث هاجموهما فى نفس العام (٦٣٨هـ/ ١٢٤١م) ، وأعملوا

فيهما السلب والنهب والتدمير ، ولم ينجو من أهلهما إلا من فر هاربا إلى حلب ومنبج ، ولما علمت الصاحبة ضيفة خاتون بذلك آمرت القوات الحلبية بالخروج إلى قلعة جعبر وبالس والتصدى للخوارزمية ، فخرجت القوات الحلبية وعلى رأسها الملك المعظم توران شاه ، ووصلت إلى منبج ولما علموا بعبور القوات الخوارزمية الفرات من جسر الرقة انتقلوا إلـــى وادى بزاغا (٦٥).

مما تجدر الإشارة إليه أن القوات الحلبية كانت لا تزيد عن ألف وخمسمائه فارس ، حيث كان معظمهم فى نجدة سلطان سلاجقة الروم من المغول ، والبعض الآخر فى قلعة جعبر لحفظها ، فى حين كانت أعداد الخوارزمية كثيرة خاصة بعد أن انضم إليهم بعض ملوك الأيوبيين الذين لم يستطيعوا الحفاظ على ملكهم مثل الملك الجواد يونس (٦٦)، والملك الصـالح بن الملك المجاهد أسد استجار بأخته ضيفة خاتون ، فضلا عن ذلك ، فقد انضم إليهم بعض عربان آل فضل وعلى رأسهم الأمير على بن حديثة أخو الأمير مانع بن حديثة (٦٧)، حيث كـان على عداء فى ذلك الوقت مع الأيوبيين فى الشام ، يضاف إلى ذلك النجدات التى قدمت إليهم من الأراتقة فى ماردين (٦٨).

والتقت القوتان الخوارزمية والحلبية على قرية البيرة فى يوم الخميس ١٤ من ربيع الآخر عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م ، وعلى الرغم من قلة القوات الحلبية بالنسبة لشراذم الخوارزمية إلا أنهم تمكنوا فى بداية المعركة من تحقيق النصر عليهم ، لكن كـان النصر فى النهاية للكثرة العددية ، حيث أحاطت القوات الخوارزمية بالقوات الحلبية من جميع الجهات وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، وقتلوا ونهبوا وسبوا ، ووقع فى أسرهم مقدم القوات الحلبية الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، كما قضوا على معظم الأمراء ومقدمى الجيش الحلبى حتى لم يسلم منهم إلا القليل ، ثم تقدمت القوات الخوارزمية إلى حيلان ، وعبروا منها إلى فافين من أعمال حلب ، وهاجمت القوات الحلبية فى فافين وقتلوا وأسروا وسبوا وعاثوا فى البلاد فسادا (٦٩).

لاشك أن الهزيمة الساحقة التى منيت بها القوات الحلبية أوقعت الاضطراب فى حلب ، لذا فقد " تقدمت الصاحبة ضيفة خاتون صاحبة حلب إلى مقدمى البلد بحفظ الأسوار والأبواب وجفل أهل الحاضر وكل من كان خارج السور ، ودخلوا المدينة ونقلوا ما قدروا على نقله من الأقمشة والأمتعة " (٧٠).

فكما يتضح من الرواية أن الصاحبة ضيفة خاتون لما علمت بهزيمة القوات الحلبية بدأت تأخذ احتياطها فى تحصين حلب ، فأمرت بتحصين الأسوار والأبواب خاصة وأن المدينة لم يكن بها من القوات إلا القليل (٧١).

أما الخوارزمية فقد تقدموا فى زحفهم إلى أعمال حلب ، فأغاروا فجأة على إعزاز ، وتل باشر وبرج الرصاص ، وجبل سمعان وطرف العمق ، ولم يستطع أهل هذه البلاد الهرب ، حيث باغتهم الخوارزمية " وأخذوا من الغنائم ومن المواشى والأمتعة والنساء والصبيان ما لا يعد ولا يحصر وفعلوا من ارتكاب الفواحش مع حرم المسلمين ما لا يفعله التتر ولا غيرهم من الكفار "(٧٢). ثم تقدموا إلى بزاغا والباب وعذبوا أهلهم واستولوا على أموالهم وكل ما وجدوه من أمتعة وما إلي ذلك ، ثم وصلوا إلى منبج وكان أهلها قد تحصنوا خلف السور ، ولكن ما زال الخوارزمية محاصرين للبلد حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها بحد السيف فى يوم الخميس ٢١ من ربيع الأول ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م ، واتبعوا نفس السياسة فى الهدم والتخريب ، ثم عادوا إلى بلادهم بعدما اجتاحوا أعمال حلب وأعملوا فيها التدمير والتخريب (٧٣).

لما علم الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بما أحدثه الخوارزمية فى أعمال حلب ، وكان فى ذلك الوقت مشغولا بالجهاد ضد الصليبيين فى الشام ، ترك ذلك وتوجه مباشرة إلى حلب لنجدتها ، واجتمع بالصاحبة ضيفة خاتون والملك الناصر ، وتم الاتفاق بينهم على أن يقود الملك المنصور إبراهيم القوات الحمصية والحلبية ضد الخوارزميين ، وفى نفس الوقت أرسلت الصاحبة ضيفة خاتون إلى أخيها الصالح إسماعيل فى دمشق الصاحب كمال الدين بن العديم ليحلف لها ولابنها الملك الناصر " وتقررت معه قاعدة الاتفاق والمعاضدة " كما طلبت منه نجدة أخرى غير الذين كانوا بصحبة الملك المنصور إبراهيم ، فاستجاب لها وأرسل نجدة إلى حلب(٧٤).

لم تكتف الصاحبة ضيفة خاتون بالتحالف مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق بعد أن كانت خذلته من قبل ورفضت أن تسانده ضد الصالح أيوب ، بل نجدها تلجأ إلى إطلاق أسارى صليبى الداوية الذين أسروا فى حلب وقت إغارتهم على إقليم العمق فى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م ، ولاشك أنها أقدمت على مثل هذه الخطوة حتي تضمن عدم مهاجمة الصليبيين لها وقت انشغالها مع الخوارزميين (٧٥). فضلا عن هذا فقد نجحت الصاحبة ضيفة خاتون فى استقطاب العربان من جيش الخوارزمية ، ففارقهم على بن حديثة ، وأمرت طاهر بن غنام من آل فضل على سائر العربان " وزوجته الصاحبة بعض جواريها وأقطعته إقطاعا يرضيه "(٧٦).

هكذا اتخذت الصاحبة ضيفة خاتون الإجراءات اللازمة لتأمين حلب وقت مهاجمة الخوارزمية بمحالفتها لأخيها الصالح إسماعيل ، وإطلاقها أسارى الصليبيين لتأمن جانبهم ،

والخطوة الكبرى أنها نجحت فى ضرب جيش الخوارزمية باستقطابها للعربان الذين كانوا يمثلون عنصر القوة فيه ، إن دل هذا على شئ فإنما يدل على مدى دراية هذه السيدة بأمور السياسة والحكم وقدرتها على تسيير دفة الأمور فى الأوقات الحرجة ، مما يدل على حنكتها السياسية .

أما الخوارزمية فلما علموا بقيام الصاحبة ضيفة خاتون بهذه الإجراءات ، واجتماع القوات الشامية مرة أخرى تحت قيادة المنصور إبراهيم فى حلب ، صاروا من فورهم إلى حران ومنها إلى الرقة ، وعبروا الفرات ، ولما علم بذلك المنصور إبراهيم خرج بالقوات الشامية إلى أرض النيرب شرقى حلب وضرب معسكره هناك ، فى حين وصل الخوارزمية إلى الفايا (٧٧)، ثم إلى دير حافر ، ثم إلى الجبول حتى وصلوا على أرض النقرة ، ثم وصلوا إلى تل عرن ، حين تقدم الملك المنصور إلى بوشلا، وأخذ العربان الذين استقطبتهم الصاحبة ضيفة خاتون فى مناوشة الخوارزمية ومحاربتهم ، ولكن ما زال الخوارزمية يعيثون فى الأرض فسادا فى كل ما يمرون عليه من بلاد، ثم رحل الخوارزمية إلى الصافية وسرمين (٧٨) مقر الدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام ، ونهبوا جميع ممتلكاتهم ، ثم توجهوا منها إلى المعرة وكفر طاب ودمروها ، ثم إلى شيزر فاعتصم أهل البلد بالربض الذى تحت القلعة ، فهاجمهم الخوارزمية ، وعندما تأكد الخوارزمية أن الملك المنصور إبراهيم قد استعد ليقطع عليهم الطريق إلى بلادهم ، توجهوا صوب حماه ، إلا أنهم لم يتعرضوا لها بأذى ؛ لأن صاحبها الملك المظفر محمود كان حليفا للسلطان الصالح أيوب الذى يعتبر سيدا لهم ، بل أنهم كانوا يبررون جميع أعمالهم هذه بأنها خدمة للصالح أيوب ، وأنهم أقدموا على ذلك لمعاداة الحلبيين وصاحب حمص وصاحب دمشق له (٧٩).

مما تجدر الإشارة إليه أن الملك المنصور إبراهيم كان ينقل معسكره وخميته خلف الخوارزمية من مكان إلى آخر محاولا قطع الطريق عليهم ، وانساح الخوارزمية من بلد إلى بلد من سلمية إلى الرصافة(٨٠) والرقة ، ثم وصلوا إلى الفرات فى مقابل الرقة فى حين حاول الملك المنصور إبراهيم أن يسبق الخوارزمية إلى صفين من أجل أن يتحكم فى مواقع المياه ويمنعوا الخوارزمية من العبور إلى ناحية الشرق ، لكن سبقه الخوارزمية إليها ، حيث وصل الملك المنصور بعد وصول الخوارزمية بساعة واحدة " فوجدوا الخوارزمية قد احتموا فى بستان البليل وأخذوا منها الأبواب وجعلوها ستائر وأداروا عليهم خندقا " (٨١).

وعلى الرغم من تحصن الخوارزمية داخل الخندق إلا أن الملك المنصور إبراهيم حاربهم إلى بعد العشاء حتى تمكن من إنزال الهزيمة بهم ، والاستيلاء على كثير من الغنائم ، ولكن لم تستطع القوات الحلبية مواصلة القتال لقلة العلوفة لدوابهم والزاد للجنود ، لذلك فقد تقهقروا إلى صفين ، في حين نامت بعض فرق الرجالة في البليل من شدة التعب ، فهاجمتهم الخوارزمية وهم نائمون ، وقتلوهم ، وعبروا الفرات إلى الرقة بعد هلاك دوابهم وفرسانهم ، لذلك ساروا إلى حران لإحضار دواب أخرى ، وفي نفس الوقت توجه الملك المنصور إلى البيرة ، وعبر الجسر ليصل إلى المنطقة التى تفصل سروج عن الرها ، وتعقب الخوارزميين إلى سروج وحران ، ولما وجد الخوارزميين أن الملك المنصور مازال يتعقبهم أجبروا أهل حران من العامة على الخروج معهم ليوهموا الملك المنصور بكثرتهم العددية ، كما أنهم لجأوا إلى خدعة أخرى ، حيث وضعوا على ظهور الجمال رايات من القصب حتي يشعر الملك المنصور والحلبيين بمدى كثرتهم العددية (٨٢) ، وفى أثناء تلك الأحداث وصلت نجدة من غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم إلى الملك المنصور إبراهيم لمساندته ضد الخوارزمية (٨٣) ، ويبدو أن الصاحبة ضيفة خاتون قد أرسلت إليه تطلب منه هذه النجدة وأنها كانت تعتبر سلاجقة الروم ردءا لها ضد أى عدوان عليها .

على أيه حال ، واصل الملك المنصور محاربته للخوارزمية ، ووقعت بينهم معركة فى رمضان عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م ، وتمكن من إنزال هزيمة ساحقة بهم ، واستبيح عسكرهم ، وتتبعت القوات الأيوبية أثارهم حتى دخل عليهم الليل ، فعادوا إلى أماكنهم فى حين وصل الخوارزمية إلى حران فأخذوا نسائهم وهربوا خوفا من تتبع الأيوبيين لهم ، فوصلوا إلى الخابور ولم يستطيعوا مواصلة سيرهم نظرا لهطول أمطار شديدة أدت إلى إغراق أعداد كبيرة منهم ، لذلك توجهوا إلى مدينة عانة التابعة للخليفة المستنصر العباسى (٦٢٣-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦-١٢٤٣م) ليبتعدوا عن أملاك الأيوبيين(٨٤) .

أما الملك المنصور إبراهيم فقد نجح فى استرداد حران بعد رحيل الخوارزمية عنها وسلمها إلى نواب الملك الناصر صاحب حلب ، كما اتسعت المملكة الحلبية على أثر رحيل الخوارزميين عن بلاد الجزيرة ، حيث سيطروا على حران والرها ورأس عين والرقة وسروج والموزر " وما يتبع ذلك من البلاد وصارت هذه المملكة مضافة إلى مملكة حلب "(٨٥) .

أما بالنسبة للخوارزمية فبعد أن قاموا فى عانة التابعة للخليفة العباسى ما يقرب من عام لإعادة ترتيب قواتهم ، بدأو ا التحرك مرة أخرى فى أواخر عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م ، فقصدوا

الموصل التابعة لبدر الدين لؤلؤ ، ولكنه حاول مسالمتهم وإرضائهم خوفا من بطشهم ، لذا سلم إليهم نصيبين ، وفى الوقت نفسه تحالف معهم الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل صاحب ميافارقين خوفا من مهاجمة السلطان غياث الدين كيخسرو لأراضيه ، خاصة وأنه قد أرسل إلى ضيفة خاتون يطلب منها مساندته ضد سلطان سلاجقة الروم إذا هاجم بلاده ، لكنها رفضت لأنها على حلف مع سلطان سلاجقة الروم ، لذلك لجأ مظفر الدين إلى التحالف مع الخوارزمية واتفقوا على أن يهاجموا آمد ، ولما علم بذلك الحلبيون خرجوا بقيادة الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين إلى آمد ، وتمكنوا من إبعاد الخوارزمية عنها ، ثم توجهوا صوب ميافارقين لمهاجمتها فى الوقت الذى اعتصمت فيه الخوارزمية خارج البلاد ، وحدثت عدة اشتباكات بين الطرفين ، وفى النهاية تم عقد هدنه بينهم كان من شروطها إقطاع غياث الدين كيخسرو للخوارزمية ما كان إقطاعا لهم فى بلاده ، وأن يقيموا فى أطراف بلاد الروم ، وأن تعطى الصاحبة ضيفة خاتون لأخيها الملك المظفر شهاب الدين غازى ما يختاره بدون شروط (٨٦) ، ولكن لم يعمل بهذه الهدنة ولم تخرج إلى حيز التنفيذ ، ،يقول ابن العديم فى هذا الصدد " ورجع العسكر الحلبى ولم ينتظم من الأمر شئ "(٨٧).

ولم تتوقف هجمات الخوارزمية والملك المظفر شهاب الدين غازى عن البلاد ، وأغاروا على الموصل ونهبوا رستاقها ، ثم توجهوا إلى الخابور ثم إلى رأس عين ، فى حين خرج الملك المنصور صاحب حمص والحلبيون وتوجهوا صوب حران ، ثم عبروا إلى رأس عين ، ولماعلم الخوارزميين والملك المظفر شهاب الدين غازى بذلك عادوا إلى ميافارقين ، فى حين توجه الملك المنصور والحلبيون إلى آمد وانضموا إلى من كان بها من عسكر الروم ، وأخذوا يستعدون لحصار ميافارقين ، وتحرك الخوارزمية والملك المظفر إلى دنيسر(٨٨) التابعة للملك السعيد صاحب ماردين الأرتقى ، في حين انتقل الملك المنصور بالقوات إلى خرتبرت(٨٩) لملاحقتهم ، فتحرك الخوارزميين والملك المظفر إلى الخابور ، ثم إلى المجدل(٩٠) ، فأسرع الملك المنصور والقوات الحلبية إلى المجدل ، والتقى الفريقان على المجدل فى يوم الخميس ٢٧ صفر ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م ، اقتتلوا قتالا شديدا ، وانهزم الخوارزميون والملك المظفر غازى وفروا هاربين من أمام قوات الملك المنصور (٩١)، وهاجم الملك المنصور خيمة الملك المظفر غازى واستولى على خزائنه وجميع ما كان في الخيمة ، كما حصل القوات على كثير من الغنائم من خيل ، وبغال ، وجمال وآلات.

وبعد تحقيق هذا النصر على الخوارزمية والملك المظفر غازى عاد الملك المنصور والقوات إلى حلب ، وخرج السلطان الناصر إلى قلعة جعبر لاستقبالهم ، ووصل الجميع إلى حلب فى مستهل جمادى الأول عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م (٩٢)، وفى نفس الوقت كان قد لحق بالصاحبة ضيفة خاتون المرض ، حيث حدث لها قرحة فى مراق (٩٣)البطن مما سبب لها حمى ، وازداد مرضها واشتد إلى أن توفيت فى ١١ جمادى الأولى عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م (٩٤).

هكذا توفيت الملكة ضيفة خاتون بنت السلطان الملك العادل " بعد أن قامت على سياسة الأمور فى حلب خير قيام فى الفترة من عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م حتى عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م ، ووقفت موقفا حازما من الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتها ، وحفظت على الملك لابن ابنها الملك الناصر ، ويشير إلى ذلك ابن واصل فيقول " وملك ولدها الملك العزيز ثم توفى وتصرفت تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام لصغر ابنها الملك الناصر ، وكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة وقامت بتدبير المملكة نحو ست سنين " (٩٥).

كانت الصاحبة ضيفة خاتون ملكة عادلة فى الرعية ، قدمت إليهم الكثير من الأموال ، ورفعت عن كاهلهم كافة الضرائب والمكوس والمظالم ، فضلا عن أنها كانت تؤثر الفقراء والزهاد ، كثيرة الاحسان والتحنن إليهم ، ولم تقتصر سياستها هذه فى الرعية على حلب بل امتدت إلى كل أعمالها ، " ولم تزل صدقاتها دارة وإحسانها واصلا إلى كل من يفد إلى بابها وما قصدها أحد إلا رجع مجبرا مجبورا "(٩٦).

ومن الخاتونات الأيوبيات اللاتى كان لهن دور سياسى ملحوظ فى العصر الأيوبى السيدة غازية خاتون ابنة السلطان الكامل الأيوبى وزوجة الملك المظفر محمود صاحب حماه ، تزوجها الملك المظفر محمود صاحب حماه الأيوبى ، حيث عقد له عليها السلطان الكامل حينما كان فى بلاد الشرق يقرر الأمور بها ، فقدم عليه الملك المظفر صاحب حماه فى معسكره فى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م فعقد له على غازية خاتون(٩٧)، " وكتب له التقليد بمملكة حماه " (٩٨).

وفى عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م ، خرج السلطان الكامل على رأس القوات المصرية إلى آمد للاستيلاء عليها من صاحب الملك المسعود (٩٩)، وخرج بصحبته " الستر العالى غازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماه " ، ووصلت " إلى حماه فى أحسن تجمل وزى وزينت حماه لقدومها "(١٠٠) فكان تمام العقد فى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م ، ومسيرها إلى حماه فى عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م .

ظلت الصاحبة غازية خاتون فى حماه طوال حياة زوجها الملك المظفر محمود ، وفى شعبان عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م لحق المرض بالملك المظفر محمود ، حيث أصيب " بسكته ثم انحلت بفالج (١٠١)عطب به جنبه الأيمن "(١٠٢)، وظل أياما لا يتكلم ولا يتحرك ، وعندما تحسن بعض الشئ كان قد ضعف ذهنه وأصبح كلامه غير مفصح ولا يفهم منه شئ ، وطال مرضه فى الفترة من عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م حتى عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٥م ، وفى خلال هذه الفترة كان لابد للمملكة الحموية إلى من يسوسها ، خاصة وأن الملك المنصور بن الملك المظفر محمود كان مازال صغيرا حيث يبلغ من العمر حوالى سبع سنين ، لذلك فقد قام بتدبير الأمور فى المملكة عدد من الأمراء منهم مملوكه وأستاذ داره(١٠٣) الأمير سيف الدين طغريل ، والشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى(١٠٤) ، والطواشى شجاع الدين مرشد ، ومرجع الأمور كلها إلى الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الكامل وأم الملك المنصور محمد (١٠٥).

ظل الملك المظفر مريضا ما يقرب من ثلاث سنوات ، ولما مات فى عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٥م تقلد الملك بعده ابنه الملك المنصور محمد والذى كان ما يزال صغيرا ، حيث كان عمره آنذاك عشر سنين تقريبا ، لذا استمر على تدبير المملكة سيف الدين طغريل ، وشرف الدين الأنصارى والطواشى شجاع الدين ، " والجميع يرجعون إلى ما تأمر به الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الكامل "(١٠٦).

ويتضح من هذه الرواية أن الصاحبة غازية خاتون هى التى قادت الأمور فى حماه بعد وفاة الملك المظفر محمد ، وقد استطاعت أن تحفظ الملك لابنها الملك المنصور حتى سلمته إليه قبل وفاتها ، ويقول أبو الفدا فى هذا الصدد " كانت الصاحبة غازية خاتون من أحسن النساء سيرة وزهدا وعبادة ، حفظت الملك لولدها الملك المنصور حتي كبر وسلمته إليه قبل وفاتها - رحمها الله تعالى " (١٠٧).

وقد توفيت غازية خاتون فى ذى القعدة عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، وكان لها من الملك المظفر صاحب حماه ثلاث بنات ، وهن ملكة خاتون وتوفيت فى حياة والدتها ، ودنيا خاتون والتى توفيت بعد وفاة أخيها الملك المنصور (١٠٨)، أما الابنة الثالثة فهى مؤنسة خاتون(١٠٩).

وهناك من الخاتونات من دخلت بطريق غير مباشر فى الأحداث السياسية حتى كان لها تأثير فيها ، ومن هؤلاء الخاتونات السيدة عاشوراء خاتون ابنة السلطان الكامل وهى التى

تزوجها الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى صاحب حصنى الكرك والشوبك ، والحقيقة أنه قبل هذا الزواج كان هناك خلاف كبيرا بين الملك الناصر داود وبين عمه الملك الكامل ، وقد انتهى هذا الخلاف باستيلاء السلطان الكامل على دمشق وتسليمها إلى أخيه الأشرف موسى ، ولما رأى الناصر داود عدم جدوى خلافه مع عمه السلطان الكامل والذى كان يطمع فى ملك الكرك والشوبك وتعويض الناصر داود عنهما ، لذلك حاول الناصر داود استرضاء عمه الكامل فتنازل له عن حصن الشوبك فى عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م ، وسار إليه السلطان الكامل وتسلمه فى نفس العام ، ثم سار إلى الكرك فاستقبله الناصر داود وأحسن استقباله حيث " رتب له الإقامات الكثيرة بالمنزلة التى هى شرقى الكرك المعروفة باللجون وهى منزلة الحجاج إذا توجهوا إلى الحجاز " ، وضرب له سماطا عظيما " واحتفل الملك الناصر بعمه الملك الكامل احتفالا عظيما لم يسمع بمثله وغرم فيه جملة جليلة "(١١٠).

وبات السلطان الكامل تلك الليلة عند الملك الناصر دواد ، وفى صبيحة اليوم التالى يقول ابن واصل وكان شاهد عيان لعقد لزواج عاشوراء خاتون من الملك الناصر داود " ولما كانت صبيحة الغد من ذلك اجتمعنا فى خيمة إلى جانب السلطان الكامل وحضر فيها القاضى الشريف شمس الدين قاضى العسكر المنصور الكاملى وكمال الدين بن شيخ الشيوخ ، ومن أصحاب الملك الناصر الشيخ شمس الدين الخسروشاهى شيخ الملك الناصر والشيخ شهاب الدين الكاشى معلمه والقاضى شمس الدين قاضى نابلس والقدس وما معهما من بلاد وكان متقدما عند الملك الناصر وأبيه الملك المعظم من قبل ومحترما عند ملوك البيت لكرمه ورياسته وعقد العقد للملك الناصر على ابنة عمه عاشوراء خاتون بنت السلطان الملك الكامل" (١١١)، وتولى العقد من جهة الملك الكامل كمال الدين بن شيخ الشيوخ ، وتولى القبول من جهة الملك الناصر الطواشى عزيز الدولة ريحان نائب الملك الناصر بالكرك ، وبعد تمام العقد " نثر النثار من الذهب والفضة وحصل الاتصال بين الملك الناصر بن الملك المعظم وبين عمه الملك الكامل ولو كان الملك الناصر التجأ إلى عمه الملك الكامل فى أول أمره لم تخرج بلاد أبيه من يده "(١١٢).

لا شك أن هذه الرواية تعطى نموذجا من نماذج عقد زواج الخاتونات فى البيت الأيوبى ، كما توضح أيضا أمرا هاما جدا وهو أن كثيرا من خاتونات البيت الأيوبى كان يتزوجن من أبناء عمومتهن مثل ضيفة خاتون وفاطمة خاتون وغازية خاتون وعاشوراء خاتون وغيرهن ، إلا أنه

من الملاحظ أن هذا الزواج كان زواجا سياسيا فى معظم الأحيان الغرض منه حفاظ هؤلاء الملوك على بلادهم وكيانهم السياسى فى ظل السلطنة الأيوبية وتحت طاعة سلطان مصر والشام الأيوبى ، ويؤكد هذا رواية ابن واصل السابقة التى يقول فيها " ولو كان الملك الناصر التجأ إلى عمه الملك الكامل فى أول أمره لم تخرج بلاد أبيه من يده ".

ومن الواضح أن سلاطين الأيوبيين كانوا يحاولون عن طريق هذه الزيجات لبناتهن من أبناء عمومتهن الحفاظ على كيان الدولة الأيوبية ووحدتها ، وأما إذا كانت حدثت بعض الزيجات مع سلاجقة الروم والتى سبق ذكرها فقد كانت أيضا هى الأخرى زيجات سياسية يحاول فيها كل من الأيوبيين والسلاجقة تأمين حدودهم وحماية ظهرهم ضد القوى المعادية ، خاصة وأن سلاجقة الروم لهم سابقة فى تقديم العون للصليبيين ضد الأيوبيين زمن الحملتين الصليبيتين الثالثة والخامسة (١١٣).

وبالرجوع مرة أخرى للحديث عن زواج عاشوراء خاتون ابنة السلطان الكامل من ابن عمها الملك الناصر داود نجد أن هذا الزواج لم يكتمل أيضا لغرض سياسى ، ذلك أن السلطان الكامل كان قد خرج فى عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م على رأس حملة إلى بلاد سلاجقة الروم وكان بصحبته معظم ملوك الشام والجزيرة الأيوبيين ، تلك الحملة التى خذله فيها ملوك البيت الأيوبى مما تسبب فى فشلها (١١٤)، وقد كان ضمن هؤلاء الذين خذلوا السلطان الكامل فى حملته على سلطان سلاجقة الروم الملك الناصر داود ، ولم يكن الناصر داود قد دخل بعد على زوجته عاشوراء خاتون ، لذا استوحش عمه السلطان الكامل وأرسل إليه بأن يطلق ابنته عاشوراء ، فطلقها فى عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م ، وأشهد عليه بذلك ، وأعرض عن التعامل معه كلية (١١٥).

وفى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م تكون حلف من ملوك البيت الأيوبى فى الشام بقيادة الملك الأشرف مرسى الأيوبى ضد أخيه السلطان الكامل فى مصر ، ونجح الملك الأشرف فى أن يضم فى هذا الحلف ملوك حماه وحلب وحمص وبلاد الجزيرة ، ثم أرسل إلى الملك الناصر داود بالكرك ليضمه إلى هذا الحلف ووعده بأن يزوجه من ابنته الوحيدة ، وأن يكون ولى عهده بدمشق ، ولما علم السلطان الكامل بمحاولة الملك الأشرف هذه أرسل هو الأخر إلى الملك الناصر داود يقول " أنت تعلم غدر الملك الأشرف وأنه لما مات أبوك الملك المعظم التجأت إليه وأعرضت عن جانبى فأدى ذلك إلى أن غدر بك وما لأ عليك وأخذ دمشق منك ولو كنت

التجأت إلى لم يذهب منك من ملك أبيك شئ ، والآن فقد بلغنى أنه وعدك أن يجعلك ولى عهده فى دمشق وأنت تعلم عدم وفائه ، وأنا ألتزم لك إن وافقتنى أن أخرج معك بعساكرى وانتزع دمشق منه وأسلمه إليك وترجع إليك مملكة والدك كلها "(١١٦).

ولما وردت هذه الرسالة إلى الملك الناصر داود أصبح فى حيرة من أمره واستشار والدته فى هذا الأمر فأشارت عليه بموافقة عمه السلطان الكامل ، وأخذ الناصر داود بمشورتها ، وسار إلى عمه السلطان الكامل بمصر ، واستقبله السلطان استقبالا حسنا ، وزينت القاهرة لمجيئه ، وأمر السلطان الكامل بتجديد عقده على ابنته عاشوراء خاتون ، فجدد عقد زواج عاشوراء خاتون من ابن عمها الملك الناصر داود صاحب الكرك (١١٦)، أما بنت الملك الأشرف موسى الوحيدة (١١٧)والتى عرضها من قبل على الملك الناصر داود لينضم إلى الحلف ضد السلطان الكامل ، فقد تزوجها الملك الجواد مظفر يونس بن مودود بن الملك العادل لما تولى دمشق نائبا عليها من قبل الملك العادل بن السلطان الكامل الذى تولى عرش السلطنة بعد وفاة والده فى عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م (١١٨).

ثانيا : دور خاتونات البيت الأيوبى فى الحياة الاجتماعية :

إذا كان هناك من خاتونات البيت الأيوبى من أسهمن بدور بارز فى الحياة السياسية ، فمنهن أيضا من أسهمن بدور كبير فى الحياة الاجتماعية ، مثل الخاتون ست الشام بنت الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى وأخت السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى (١٢٠)، والتى اهتمت بالنواحى الاجتماعية ، وتقربت من الناس واندمجت معهم ، وجعلت دارها ملجأ للقاصدين ، فضلا عن أنها تعتبر من أكثر نساء البيت الأيوبى صدقة واحسانا إلى الفقراء (١٢١)، ومن أبرز ما قامت به الخاتون ست الشام من أجل الناس اهتمامها بالطب والصيدلة والرعاية الصحية لعامة الناس ، حيث أنها كانت تنفق الكثير من الأموال فى شراء العقاقير والأدوية والمعاجين ، بل كانت تصنع الكثير من هذه الأشربة فى دارها ، وبرز اهتمام ست الشام بالصيدلة وما يتعلق بها من أدوية وعقاقير وأشربة وتصنيعها من أجل توفيرها لمن يحتاجها من عامة الناس بدون مقابل (١٢٢)، ولا شك أن هذا يوضح أن الخاتون ست الشام كانت متصلة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية لعامة الناس وتحاول قدر استطاعتها توفير ما يلزم للمحتاجين والمرضى والمساكين .

ولم يقتصر جهد الخاتون ست الشام على اتصالها بعامة الناس وتوفير ما يلزمهم من الأموال والرعاية الصحية ، بل أنها اهتمت أيضا بأصحاب الطرق من المتصوفة ، وأصحاب

المذاهب المختلفة ، لذلك فقد أنشأت لهم الربط(١٢٣) والخوانق (١٢٤). ومن أشهر الخوانق التى أنشأتها الخاتون ست الشام الخانقاه الحسامية التى تقع شمالى المدرسة الشبلية البرانية (١٢٥) عند جسر كحيل (١٢٦).

ومن الخاتونات الأيوبيات اللاتى أظهرن اهتماما بأصحاب المذاهب من المتصوفة السيدة عذراء خاتون ابنة الأمير نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب من شاذى بن مردان أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى ، فهى ابنة أخيه (١٢٧). والتى أنشأت للصوفية وأهل الطرق رباطا داخل باب النصر عرف برباط عذراء خاتون (١٢٨).

كذلك نجد السيدة ضيفة خاتون ابنة السلطان العادل ، والتى حكمت فى حلب ، وقد أظهرت اهتماما كبيرا بالزهاد والصوفية ، وأنشأت لهم خانقاه كبيرة فى حلب داخل باب الأربعين(١٢٩) ، وحظى الزهاد والصوفية فى حلب أيضا باهتمام السيدة فاطمة خاتون ابنة السلطان الكامل وزوج الملك العزيز صاحب حلب ، حيث أنشأت لهم خانقاه بالقطيعة فى حلب (١٣٠).

ومن الخاتونات الأيوبيات اللاتى أسهمن بدور كبير أيضا فى الحياة الاجتماعية السيدة ربيعة خاتون بنت الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى ، وأخت ست الشام ، وأخت السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى ، زوجها أخوها السلطان صلاح الدين أولا بالأمير سعد الدين بن معين الدين أنر ، وتزوج السلطان صلاح الدين من أخته عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنر ، والتى كانت من قبل زوجة لنور الدين محمود بن زنكى (١٣١). ولما مات سعد الدين بن معين الدين أنر فى عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م زوجها أخوها صلاح الدين من مظفر الدين كوكبورى صاحب إربل (١٣٢).

وقد حضر الملك مظفر الدين كوكبورى معظم حروب صلاح الدين مع الصليبيين ، ولما توفى أخوه زين الدين يوسف بالناصرة (١٣٣). التمس مظفر الدين إلى السلطان صلاح الدين أن تنازل عن حران وسميساط والرها مقابل أن يعوضه بإربل ، ولبى صلاح الدين رغبة المظفر الدين كوكبورى ، ومنحه إربل مقابل حران وسميساط والرها من بلاد الجزيرة ، فسار إليها مظفر الدين فى ذى الحجة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ، وبصحبته زوجته السيدة ربيعة خاتون أخت صلاح الدين ، ومنذ ذلك الوقت والسيدة ربيعة خاتون قائمة بإربل (١٣٤).

مما تجدر إليه الإشارة إليه أن السيدة ربيعة خاتون قد أسهمت فى إنقاذ قافلة الحاج العراقى من الوقوع فى يد أمير مكة بل وساعدتها فى أداء فريضة الحج ، ففى عام ٦٠٨هـ/

١٢١١م ، خرجت السيدة ربيعة من إربل قاصدة الحجاز لأداء فريضة الحج ، فخرجت فى الحاج الشامى الذى خرج فى ذلك العام ، وقد كان لها دور كبير فى حسم قضية حدثت فى ذلك الوقت ، ففى العام الذى خرجت فيه للحج حدثت فتنة عظيمة بمكة ، وذلك بسبب أن أحد الباطنية وثب على قريب لشريف مكة أبى عزيز بن قتادة فقتله ، وفى نفس الوقت كانت أم الكيا حسن صاحب الموت قدمت مع الحاج العراقى لأداء فريضة الحج ، ولما علم بذلك الشريف أبو عزيزه ، ركب فى الأشراف ، والعربان وقصد الحج العراقى انتقاما لما حدث لقريبه ، وبالفعل أغاروا على قافلة الحاج العراقى وهاجموها ونهبوها نهبا ذريعا ، بل ورموهم بالنبال والحجارة ، لذلك استجارت قافلة الحاج العراقى بالحاج الشامى ، وأسرعت السيدة ربيعة خاتون بإجارتهم ، بل ومنعت أبا عزيز منهم ، ولولا ما قامت به السيدة ربيعة خاتون لاستأصلوا عن آخرهم ، خاصة وأنه قد استولى أمير مكة على أموالهم ، بل وأكثر من ذلك ، فإن السيدة ربيعة خاتون ساعدت الحاج العراقى على أداء فريضة الحج ، ذلك أن أبا قتادة أمير مكة كان قد أصدر أوامره بمنع الحاج العراقى من دخول مكة ، ولما علمت بذلك السيدة ربيعة خاتون تقدمت إليه ومازالت به حتى سمح لهم أبو قتادة بالدخول إلى مكة ، وأداء فريضة الحج (١٣٥)، ولا شك أن هذا يبين لنا دور ربيعة خاتون فى حسم قضية هامة حدثت فى تلك الفترة ومكنت الحاج العراقى من أداء الفريضة .

ولعل ما سبق يوضح أن خاتونات البيت الأيوبى لم يكن بعيدات عن حياة عامة الناس بل تقربوا من الرعية وأجزلوا لهم العطاء ، كما قدموا لهم الهدايا والصدقات وألوانا من البر والاحسان ، هذا فضلا عن اهتمامهم بإنشاء الربط والخوانق لخدمة فئة أخرى اشتهرت فى المجتمع إبان العصر الأيوبى ، وهم الصوفية وأهل الطرق والمذاهب المختلفة .

وإذا كانت خاتونات البيت الأيوبى قد بذلن هذا الجهد مع عامة الناس ، فهناك صورة أخرى عن الحياة الاجتماعية لهؤلاء الخاتونات ، وتتمثل فى مراسم زواجهن أو احتفالهن بمولود لهن مما يعطى صورة واضحة عن جانب هام من الجوانب الاجتماعية لهؤلاء الخاتونات .

مراسم زواج خاتونات البيت الأيوبى :

كان من أبرز الخاتونات اللاتى كان لمراسم زواجهن أثر وصدى على الحياة الاجتماعية فى العصر الأيوبى السيدة ضيفة خاتون ، فقد كان الملك الظاهر صاحب حلب على نزاع وخلاف مع عمه الملك العادل ، ولما زادت حدة هذا الخلاف خشى الملك الظاهر على مملكته فى حلب ، لذلك

فكر فى التقرب من عمه الملك العادل ومصاهرته ، فأرسل إليه يستعطفه ويسترضيه ، وأن يجدد له اليمين على بلاده ، ثم خطب منه ابنته ضيفة خاتون ، ويذكر ابن واصل أنها " كانت أعز بنات الملك العادل عليه وخطبها منه جماعة من الملوك فلم ينعم عليهم بتزويجها "(١٣٦).

الحقيقة أنه لم تكن هذه أول مرة يطلب فيها الظاهر صاحب حلب الزواج من ابنة عمه ضيفة خاتون ، فقد طلبها من قبل " فلم يجب إلى ذلك " (١٣٧)، إلى أن قدم إلى الملك العادل فى عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٠م القاضى بهاء الدين بن شداد(١٣٨) رسولا من الملك الظاهر صاحب حلب منه خطبة ابنته ضيفة خاتون ، فأجابه السلطان العادل ووافق على خطبتها الظاهر ، كما جدد له اليمين بحلب ، ورجع ابن شداد من عند السلطان العادل مكرما (١٣٩).

مما تجدر الإشارة إليه أن ضيفة خاتون لم تكن أول بنات العادل التى تزوجت من الملك الظاهر صاحب حلب ، فقد سبق وتزوج الملك الظاهر من أختها غازية خاتون ابنة الملك العادل سيف الدين أبو بكر فى حياة أبيه السلطان صلاح الدين ، وذلك فى عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م ، ثم ماتت وهى عنده (١٤٠).

فى ١١ من محرم عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م ، أرسل السلطان الظاهر صاحب حلب القاضى بهاء الدين ابن شداد إلى عمه السلطان العادل لتقرير أمر عقد زواجه من ضيفة خاتون ، ووكله فى قبول العقد ، وأرسل معه الكثير من الهدايا والخلع والأموال لتوزع على أرباب الدولة وتنثر الأموال فى وقت عقد الزواج ، ولعل هذا يعطينا صورة من مراسم زواج خاتونات البيت الأيوبى ، وما يلزم ذلك من بذل الأموال والهدايا والخلع ونثر الأموال فى وقت العقد ، ويقول ابن واصل فى هذا الصدد " وبعث الملك الظاهر القاضى بهاء الدين بن شداد رسولا إلى عمه الملك العادل فى تقرير أمر العقد ووكله فى قبوله وأنفذ معه ثيابا كثيرة برسم الخلع على أرباب الدولة ومالا برسم النثار وقت عقده النكاح " (١٤١).

استجاب القاضى بهاء الدين بن شداد لدعوة الملك الظاهر ، ووصل إلى دمشق لاتمام هذا الزواج ، فى نفس الوقت فقد أرسل السلطان العادل من مصر شمس الدين التنبى ومعه ضيفة خاتون إلى دمشق ليكون نائبا عنه فى الإيجاب ، وتقدم القاضى بهاء الدين لطلب العقد لموكله الملك الظاهر على صداق قدره خمسون ألف دينار ، وأعلن شمس الدين التنبى الإيجاب ، ونثرت الأموال على الشهود والفقراء (١٤٢)، وتم بذلك عقد زواج ضيفة خاتون على ابن عمها الملك الظاهر صاحب حلب ، وبعد تمام العقد سار ابن شداد وبصحبته ضيفة خاتون

وشمس الدين التنبى ، ولما نزلوا فى تل السلطان بحلب ، كان السلطان الظاهر قد أمر العساكر الحلبية بتل السلطان بعمل احتفال لمقدمهم ، وأجزل لهم العطاء ، ثم وصلت ضيفة خاتون حلب فى النصف من المحرم عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م (١٤٣)، وقابلها الملك الظاهر مع جمع كبير من أمراء حلب وعلمائها وأكابرها ، واحتفل احتفالا كبيرا لمقدمها ، ويذكر ابن واصل أنها قدمت " وقدم معها من القماش والآلات وأنواع المصاغ ما يحمله خمسون بغلا ومائة بختى وثلثمائه جمل ومن الجوارى والوصائف والإماء والحرائر فى المحاير والكجاوات ما يحملن مائة جمل " ، كما ذكر " أنه كان فى خدمتها مائة جارية كلهن مطربات يلعبن بأنواع الملاهى ومائة جارية أخرى كلهن يعملن أنواع الصناعة البديعة "(١٤٤).

ولما دخلت ضيفة خاتون على الملك الظاهر " مشى لها عدة خطوات واحترمها احتراما عظيما وقدم لها خمسة عقود قيمتها مائة ألف وخمسون ألف درهم وعصابة مجوهرة ليس لها نظير وعشر قلائد من العنبر المذهب وخمسا غير مذهبة ومائة وسبعين قطعة من الذهب والفضة وعشرين تختا من الثياب المختلفة الألوان وعشرين جارية وعشر خدم "(١٤٥)، وكذلك أقطعها قرية الباب من أعمال حلب والتى ظلت فى أيدى نوابها حتى وفاة الملك الظاهر (١٤٦)، فضلا عن هذا فقد أعطى الملك الظاهر لشمس الدين التنبى قر بة من قرى حلب من ضياع الأرتيق (١٤٧) تعرف بتلع ،كما أجزل له عطاء وافرا ، وقد حظيت السيدة ضيفة خاتون عند الملك الظاهر " حظوة لم يسمع بمثلها "(١٤٨).

وفى العام التالى من زواجهما فى ذى الحجة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م أنجبت السيدة ضيفة خاتون من الملك الظاهر ابنها الملك العزيز محمد ، وقد احتفل الملك الظاهر بذلك احتفالا كبيرا وزينت مدينة حلب وضربت البشائر ، وقد وصف ابن واصل هذا الاحتفال فيقول " وزينت حلب واحتفل الملك الظاهر لمولده احتفالا عظيما من ذلك أنه أمر بإحضار شئ كثير من الفضة والذهب وأمر الصواغ ألا يتركوا شكلا ولا صورة من سائر الصور إلا ويصوغون مثلها فصاغوا من ذلك ما وزن بالقناطير وصاغوا عشرة فهود من الذهب والفضة سوى ما عمل من الأبنوس والعود والصندل وغير ذلك ونسج للمولود ثلاث فرجيات (١٤٩)من اللؤلؤ فى كل واحدة منها أربعون حبة من الياقوت والبلخش (١٥٠) والزمرد ودرعان وخوذتان وبرك اصطفوان(١٥١) من اللؤلؤ وثلاث سروج مجوهرة فى كل واحدة منها عدة من الياقوت والزمرد وثلاث سيوف غلفها وقبضاتها ذهب مرصع بأنواع الجوهر ورماح ذهب أسنتها جوهر منظوم"(١٥٢).

لعل هذا يؤكد مدى حظوة السيدة ضيفة خاتون عند الملك الظاهر كما ذكر ابن العديم من قبل ، فضلا عن هذا فإن ما تم من مراسم زواج السيدة ضيفة خاتون على الملك الظاهر ، وأيضا مراسم الاحتفال بالمولود يعطى صورة عن جزء هام من الحياة الاجتماعية فى العصر الأيوبى خاصة ما يخص ملوك وأمراء وخاتونات الأسرة الأيوبية وكيفية احتفالهم بعقد الزواج أو بقدوم مولود .

يضاف إلى هذا ، أن هذا الزواج يبدو كأنه كان زواجا سياسيا أراد به الملك الظاهر والسلطان العادل أن ينصلح الأمر بينهما ، وبالفعل استقر الأمر بين الملكين فيما بعد ، يؤكد ذلك أن الملك الظاهر أخذ يتقرب بعد هذا الزواج من السلطان العادل ويرسل إليه الهدايا ويعلن الولاء والطاعة له ، وفى نفس الوقت نجد السلطان العادل يرسل إليه ما يطيب به قلبه ويؤكد حفاظه على مملكته (١٥٣)، وكيف لا يكون ذلك وابنته زوجة للملك الظاهر .

كذلك نجد نموذجا آخر من زواج الخاتونات الأيوبيات وهو زواج السيدة فاطمة خاتون ابنة السلطان الكامل وزوج الملك العزيز صاحب حلب ، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد أرسل فى عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م القاضى بهاء الدين بن شداد ليخطب فاطمة خاتون لابنه العزيز الذى كان عمره فى ذلك الوقت سنتان وكسر ، وقد وافق الملك الكامل على تلك الخطبة ، وعاد بهاء الدين بن شداد إلى حلب ليجد الملك الظاهر قد مات ، وفى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م كان السلطان الكامل فى دمشق محاصرا لها وبها ابن أخيه الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ، فأرسل إليه الملك العزيز القاضى بهاء الدين بن شداد وفى صحبته أكابر حلب وعدولها لعقد النكاح على فاطمة خاتون ، ووافق السلطان الكامل وحمل الذهب الواصل لتقديمه كمهر ومعه الجوارى والخدم والدراهم والمتاع ، وتولى العقد من جهة السلطان الكامل الأمير عماد الدين بن شيخ الشيوخ على صداق وقدره خمسون ألف دينار ، وقبل النكاح عن الملك العزيز القاضى بهاء الدين بن شداد وذلك فى يوم الأحد ١٦ رجب عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م (١٥٤)، ولعل هذا يؤكد هذا أن مراسم زواج الخاتونات الأيوبيات كانت متشابهة ، ذلك أن ما تم فى عقد زواج فاطمة خاتون هو نفس ما تم من قبل فى عقد زواج ضيفة خاتون من الملك الظاهر صاحب حلب.

وفى عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢ م ، وهو نفس العام الذى خرج فيه السلطان الكامل إلى آمد للاستيلاء عليها من الملك المسعود وكان معه ابنتة غازية خاتون لتوصيلها إلى زوجها الملك المظفر صاحب حماه كان معه أيضا ابنته فاطمة خاتون لتوصيلها إلى الملك العزيز صاحب حلب ، بينما كان السلطان الكامل فى حماه إذ قدم عليه القاضى بهاء الدين بن شداد ومعه كبار

وأعيان حلب ، وأخذ فاطمة خاتون معه إلى حلب ، فوصلت إلى هناك وكان فى استقبالها الصاحبة ضيفة خاتون أم الملك العزيز ، والعساكر الحلبية ، ولما وصلت إلى الوضيحى من قرى حلب خرج الملك العزيز إلى استقبالها هناك ، ثم صار بها إلى حلب وصعد بها إلى القلعة(١٥٥).

ظلت الصاحبة فاطمة خاتون بحلب حتى بعد وفاة زوجها الملك العزيز فى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م وماتت بها فى عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م (١٥٦).

وأيضا هناك مراسم زواج عائشة خاتون بنت الملك العزيز بن الملك الظاهر صاحب حلب ، وأمها فاطمة خاتون بنت السلطان الكامل الأيوبى ، وقد تزوجها الملك المنصور صاحب حماه فى عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م ، حيث أرسل فى هذا العام الطواشى مرشد المنصورى ومجاهد الدين أمير جندار من حماه إلى حلب لإحضارها ، وكان قد عقد عليها قبل هذا العام فحضرت إلى حماه فى رمضان عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م ، وبصحبتها أمها فاطمة خاتون ، ويقول ابن واصل فى هذا الصدد " فوصلت إلى حماه وصحبتها والدتها الستر العالى فاطمة خاتون بنت السلطان الملك الكامل فى تجمل عظيم وأبهة جليلة ومحفة (١٥٧) ملبسة بالذهب والحرير مكللة بالجواهر وأوانى الذهب والفضة وما يتبع ذلك من أوانى التجملات والأقمشة والزينة والجوارى والخدم وتلقت محفتها الأمراء والأكابر وعظماء البلد وفرشت الثياب الطلس وغيرها من الثياب الفاخرة بين يدى بغال المحفة وتلقاها السلطان الملك المنصور - قدس الله روحه - ووالدته الصاحبة خالتها غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل - رحمه الله - وصعدت إلى القلعة المحروسة فى أسعد وقت وأيمن طالع"(١٥٨).

وتوضح هذه الرواية مظهرا هاما من مظاهر الاحتفال بالزواج للخاتونات وما يلزم ذلك من ظهورهن فى تجمل عظيم وأبهة جليلة تليق ومكانتهن فى المجتمع .

ويتضح من الروايات السابقة فى نماذج خاتونات البيت الأيوبى أنهن كن يسكن مع أزواجهن فى القلعة كما ورد فى خبر زواج كل من السيدتين فاطمة خاتون وعائشة خاتون أنهن صعدتا إلى القلعة مع أزواجهن .

كذلك تعطى مراسم زواج الخاتونات الأيوبيات صورة عن مدى البذخ والانفاق الذى كان ينفق فى تلك الزيجات ، كما تعطى صورة أيضا عن حياة القصر التى كان يعيشها هؤلاء الخاتونات ، فقد كان يعشن وحولهن العديد من الجوارى والإماء والوصيفات .

وإذا كانت مراسم زواج الخاتونات فى حلب وحماه وغيرها فى بلاد الشام متشابهة وكلها مليئة بوسائل الترف والبذخ فضلا عما ينفق فيها من الأموال فهناك مظهر مشابها فى مراسم عقد الزواج فى مصر حيث ورد فى خبر زواج الملك العزيز عثمان صاحب مصر (١٥٩)من ابنه عمه الملك العادل الأيوبى فى عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م .

ويقول ابن واصل فى هذا الصدد " وخطب الملك العزيز ابنة عمه الملك العادل وندب القاضى المرتضى محمد بن القاضى الجليس عبد العزيز السعدى وكيلا عنه وحضر قاضى القضاه محيى الدين بن زكى الدين وجميع عدوله ووكل الملك العادل القاضى محى الدين أبا حامد بن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون فى تزويج ابنته من ابن عمها الملك العزيز " (١٦٠)، ثم ألقى عماد الدين الكاتب (١٦١)خطبة العقد(١٦٢) " وقرئ كتاب الصداق ، وعقد العقد بحضور الملك الظاهر صاحب حلب "(١٦٣).

ونلاحظ فى مراسم هذا العقد أنه ألقى فيه خطبة تعتبر نموذجا لخطب عقد الزواج فى العصر الأيوبى ، حيث ألقاها عماد الدين الكاتب الأصفهانى ، كما نلاحظ أيضا أن كلا من الملك العادل والملك العزيز عثمان وكلا من ينوب عنهما فى توقيع هذا العقد ، ويبدو أن هذا ما كان معمولا به فى زيجات خاتونات البيت الأيوبى لأن ما حدث فى هذا الزواج من التوكيل هو نفسه ما حدث فى زواج ضيفة خاتون ، وفاطمة خاتون وعائشة خاتون ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخاتون ابنة السلطان العادل التى تزوجها العزيز عثمان لم يحدد ابن واصل اسمها (١٦٤).

وهناك خاتون أخرى من بنات السلطان العادل الأيوبى وهى ملكة خاتون التى تزوجها الملك المنصور صاحب حماه فى عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م ، وظلت عنده حتي وفاتها فى عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ، وقد ذكر لنا ابن واصل ، وكان شاهد عيان ، مراسم الحدادعلى ملكة خاتون فيقول فى حوادث عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ، " توفيت ملكة خاتون بنت الملك العادل وحزن عليها زوجها الملك المنصور حزنا عظيما ولبس الحداد وأمر بصعود أكابر حماه إلى القلعة للصلاة

عليها ، فصل عليها وأم بهم والدى - رحمة الله - وحضرت معه يومئذ وعمرى نحو اثنتى عشرة سنة ثم عمل السلطان - رحمه الله - عزاها بالمدرسة المنصورية ظاهر حماه ورأيته وهو جالس يمنه المحراب وهو مكتئب حزين وهو لابس الحداد ثوب أزرق وعمامه زرقاء وإلى جانبه أولاده الملك الناصر قلج أرسلان وأخوته وعليهم كلهم الحداد"(١٦٥).

ويلاحظ من هذه الدراسة أن معظم خاتونات البيت الأيوبى كن متزوجات من أبناء عمومتهن ، فالسيدة ضيفة خاتون ابنة السلطان العادل متزوجة من الظاهر صاحب حلب ، والسيدة فاطمة خاتون ابنة السلطان الكامل متزوجة من الملك العزيز صاحب حلب ، وملكة خاتون ابنة السلطان العادل متزوجة من الملك المنصور صاحب حماه ، وعائشة خاتون ابنة الملك العزيز صاحب حلب متزوجة من الملك المنصور صاحب حماه ، ثم من الملك المظفر محمود وذلك فى عام ٦٤٥هـ ، وهناك أيضا السيدة سعدى خاتون ابنة الملك ناصر الدين محمد بن شيركوه وأخت الملك المجاهد صاحب حمص كانت متزوجة من ابن عمها الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى ، حيث تزوجها فى عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م (١٦٦)، وغير هذا من الأمثلة الكثير التى ورد ذكرها فى هذا البحث ، وقد ذكر من قبل أن سلاطين وملوك الأيوبيين كانوا يلجأون إلى ذلك من أجل الحفاظ على وحدة وكيان الدولة الأيوبية ، فضلا عن أن هذا الزواج فى معظم الأحيان كان زواجا سياسيا ، فإذا كان هذا هو البعد السياسى لهذا الزواج ، فإن له بعدا آخر اجتماعى وهو أن هؤلاء الخاتونات كن أمهات لملوك الأيوبيين فى مصر والشام ، ولاشك أنهن كن يبذلن قصارى جهدهن من أجل تربية هؤلاء الأبناء الذين سيصبحون مع الأيام ملوكا يسيرون دفة الأمور في بلادهم ، ولاشك أيضا أن إعداد الأمراء والملوك ليس بالأمر السهل بل أصبحت هذه مهمة صعبة ملقاة على عاتق هؤلاء الخاتونات حتى يكملن مسيرة الدولة الأيوبية فى مصر والشام .

ثالثا : دور خاتونات البيت الأيوبى فى الحياة العلمية :

لقد أسهمت خاتونات البيت الأيوبى بدور كبير فى الحياة العلمية والثقافية فى العصر الأيوبى ، بعضهن أنشأن مؤسسات علمية كالمدارس ودور الحديث ، ومنهن من تفقه فى الدين وأصبحت دورهن قبلة للعلم والعلماء ، بل وجد منهن محدثات أخذ عنهن الحديث رجال بارزون

والحقيقة أن معظم خاتونات البيت الأيوبى كان لهن دور بارز ملموس فى الحياة العلمية والثقافية ، ومن أبرز هؤلاء الخاتون ست الشام بنت الأمير نجم الدين وأخت السلطان صلاح الدين الأيوبى ، فقد اهتمت الخاتون ست الشام بالحياة العلمية والثقافية فى العصر الأيوبى ، حيث أنشأت مدرستين بدمشق ، أما الأول فهى المدرسة التى تقع فى ظاهر دمشق بمحلة العونية(١٦٧)، والتى ذكرها النعيمى تحت اسم المدرسة الشامية البرانية (١٦٨)، وقد كانت هذه المدرسة قبلة للعلم والعلماء ، حيث تخرج منها الكثير من العلماء ، منهم تقى الدين بن صلاح ، وشمس الدين بن الأعرج ، وشمس الدين بن المقدسى ، وتعتبر هذه المدرسة من أكبر وأعظم المدارس فى مدينة دمشق ، وأكثرها فقهاء ، وذلك نظرا لكثرة الأوقاف التى أوقفتها عليها السيدة الخاتون ست الشام ، حيث قدر ما أوقفته عليها " ثلاثمائة فدان حده قناة الريحانية إلى القبيبات إلى قناة حجيرا ودرب البويضا ومنه لوادى التحتانى ووادى السفرجيل وقدره نحو عشرين فدانا ومنه ثلاثة كروم وغير ذلك "(١٦٩).

وحتى تضمن الخاتون ست الشام استمرار هذا الوقف على المدرسة وحتى لا يتعدى عليه أحد فقد أرسلت وكيلها ابن الشيرجى(١٧٠) إلى قاضى القضاه زكى الدين ليحضر إليها بدارها فحضر ومعه أربعين عدلا من أعيان دمشق ليشهدوا على أنها أوقفت أملاكها على تلك المدرسة ، وبذلك ظلت المدرسة التى عرفت بالشامية البرانية قبلة للعلم والعلماء طوال العصر الأيوبى ، واستمرت حتى العصر المملوكى فخرجت الكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين ، وقد أوقفت هذه المدرسة على أصحاب المذهب الشافعى (١٧١).

مما تجدر الإشارة إليه أن السيدة ست الشام كان من شروطها لمن يدرس فى هذه المدرسة ألا يجمع بينها وبين غيرها من المدارس (١٧٢)، ولعل هذا يعطى انطباعا عن طبيعة عمل المدرسين فى العصر الأيوبى ، فمنهم من كان يقتصر عمله فى مدرسة واحدة ، وهناك من كان يجمع بالتدريس بين أكثر من مدرسة .

أما المدرسة الثانية فهى التى تقع قبلى البيمار ستان النورى بدمشق والتى عرفت بالشامية الجوانية (١٧٣)، ويبدو أن الشامية الجوانية كانت من قبل دارا للخاتون ست الشام ، حيث تذكر المصادر أن دارها كانت بالقرب من البيمارستان النورى بدمشق (١٧٤)، كما يذكر النويرى أن الخاتون ست الشام عندما لحق بها المرض " جعلت دارها مدرسة ووقفت عليها وقوفا "(١٧٥).

ويذكر النعيمي الأوقاف التي أوقفتها ست الشام على هذه المدرسة ومنها ضيعة بيزينة ، وأخرى تعرف بجرمانا من بيت لهيا ، وعدة أسهم من ضيعة تعرف بالتينة والضيعة المعروفة بجدل القرية ونصف ضيعة تعرف بجدل السوداء (١٧٦)، ولعل هذا يوضح مدى اهتمام وحرص الخاتون ست الشام على أن تستمر هاتين المدرستين قائمتين على عملهما ، لذا فقد أوقفت عليهما الكثير من الأوقاف لتضمن ايرادات ومصروفات المدرسة ومرتبات مدرسيها وهيكلها الإداري حيث كانت هذه الأوقاف تنفق على تلك الجوانب .

مما سبق يتضح لنا أن الخاتون ست الشام أسهمت بدور كبير في الحياة العلمية والثقافية في العصرالأيوبي خاصة وأن دارها كانت قبلة للعلم والعلماء ، كما كانت ملجأ للقاصدين (١٧٧).

كذلك أسهمت السيدة ربيعة خاتون أخت صلاح الدين الأيوبي ، بدور كبير في الحياة العلمية والثقافية ، فمنذ أن وصلت إلى دمشق بعد وفاة زوجها مظفر الدين كوكبوري في عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م (١٧٨)، وأقامت بها ، بدأت تجذب حولها الدارسين والعلماء ، وكان على رأسهم الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي ، وكانت هذه العالمة الفاضلة لها تصانيف كثيرة (١٧٩)، وأنشأت مدرسة للحنابلة بدمشق تقع شرقي الرباط الناصري (١٨٠)، وقد قامت هذه السيدة في خدمة ربيعة خاتون ، ويقال أنها هي التي أشارت عليها بإنشاء المدرسة التي عرفت بالصحابية ، والتي تقع في سفح جبل قاسيون (١٨١)من الشرق(١٨٢)، فأنشأت السيدة ربيعة خاتون تلك المدرسة ، وأوقفتها على الحنابلة ، وأسندت التدريس فيها إلى الناصر بن الحنبلي (١٨٣)، وذلك في عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م (١٨٤).

مما تجدر الإشارة إليه أن السيدة العالمة الفاضلة أمة اللطيف كانت دائما في خدمة السيدة ربيعة خاتون ، وكانت ربيعة خاتون ترجع إليها في كثير من الأمور ، لذا فقد أجزلت لهذه السيدة الكثير من الأموال لإنفاقها عل ما تؤلفه من تصانيف ، ولما ماتت ربيعة خاتون نكبت هذه السيدة العالمة الكثير من الشدائد والمتاعب بسبب ما منحته لها ربيعة خاتون من أموال ، لذا فقدصودرت أموالها ، بل وطولبت بالأموال التي منحتها لها ربيعة خاتون ، واعتقلت بقلعة دمشق ، وظلت في حبسها إلى أن أطلقت من الحبس بعد ثلاث سنوات وتزوجها الملك الأشرف موسى الأيوبي بن الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، وسافرت معه إلى الرحبة وهناك توفيت في عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م(١٨٥) .

ولعل ما سبق يوضح مدى اهتمام السيدة ربيعة خاتون بالدارسين والعلماء ، حتى أنها كانت تصاحبها فى بيتها العالمة الفاضلة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلى ، يضاف إلى ذلك أن السيدة ربيعة خاتون كان لها الكثير من الأوقاف على المدارس وفى وجوه الخير (١٨٦)، ولعل هذا يدل على دورها فى الحركة العلمية فى العصر الأيوبى .

وقد توفيت السيدة ربيعة خاتون عن عمر يناهز الثمانين عاما فى دمشق بدار العقيقى فى عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م ، ودفنت فى مدرستها التى أوقفتها على الحنابلة بسفح جبل قاسيون (١٨٧).

وإذا كان لست الشام وربيعة خاتون أختا السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى هذا الدور الكبير فى الحركة العلمية فى بلاد الشام وخاصة دمشق ، فقد كان للخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبى أيضا دور بارز فى الحركة العلمية فى مصر والشام إبان تلك الفترة ، ولكن قبل أن نتكلم عن دور الخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبى فى الحركة العلمية تجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان صلاح الدين الأيوبى لم يكن له سوى ابنة واحدة وهى مؤنسة خاتون التى تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل الأيوبى (١٨٨).

والحقيقة أن المصادر لم تمدنا بمعلومات وافية عن مؤنسة خاتون ابنة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وربما يرجع ذلك إلى كثرة الأبناء الذكور للسلطان صلاح الدين الأيوبى والذين شغلوا أماكن كثيرة فى الدولة الأيوبية ، يضاف إلى ذلك انشغال الأقلام فى تلك الفترة بأخبار الجهاد ضد الصليبيين والأحوال السياسية فى الدولة الإسلامية .

دور الخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبى فى الحركة العلمية :

كان للسلطان العادل الأيوبى عدة بنات ظهر لمعظمهن دور كبير فى إثراء الحركة العلمية فى مصر والشام فى العصر الأيوبى ، ويقول ابن واصل فى ذكر أولاد الملك العادل الأيوبى " كان للملك العادل فيما أعلم ستة عشر ولدا ذكرا سوى البنات " (١٨٩)، ولم يحدد عدد البنات هؤلاء فى حين ذكر الحنبلى أربعا فقط من بنات السلطان العادل الأيوبى ، وهن غازية خاتون وضيفة خاتون اللاتى تزوجهن الملك الظاهر صاحب حلب وقد سبق الإشارة إلى ذلك ، وملكة خاتون التى تزوجها الملك المنصور صاحب حماه ، ثم أضاف إليهن تلك التى تزوجها معز الدين قيصر شاه بن سلطان سلاجقة الروم(١٩٠) ولم يحدد اسمها .

ومن خلال إعداد هذ الدراسة وجد أن هناك ثلاث أخريات من بنات السلطان العادل الأيوبى لم يذكرهن الحنبلى إحداهن التى تزوجها ابن عمها الملك العزيز عثمان صاحب مصر(١٩١) والثانية عصمة الدين مؤنسة خاتون(١٩٢) ، وزهرة خاتون (١٩٣).

يبدو أن الملك السلطان العادل كان له عدد كبير من البنات ، وقد أسهم معظمهن بدور كبير فى الحركة العلمية ، ومن هؤلاء الخاتونات السيدة ضيفة خاتون ، والتى حكمت فى حلب لمدة ست سنوات نيابة عن ابنها الملك الناصر ، فقد كان لها دور فى إثراء الحركة العلمية فى حلب ، حيث اهتمت بالعلم والعلماء ، وقربت إليها أهل العلم والدين وبذلت لهم الكثير (١٩٤)، فضلا عن أنها أنشأت مدرسة شافعية المذهب بظاهر حلب عرفت بمدرسة الفردوس ، وقد عينت فيها السيدة ضيفة خاتون عددا كبيرا من القراء والفقهاء والصوفية (١٩٥).

أما عصمة الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب (١٩٦)، وشقيقة الملك الأوحد قطب الدين أيوب صاحب خلاط ، فولدت فى عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م ، وقد عاشت فى مصر وتعلمت بها وبرعت فى دراسة الحديث حتى أصبحت من محدثات عصرها ، وسمع منها الكثير ، واخرج لها الحافظ أبو العباس أحمد أحاديث كثيرة حدثت بها (١٩٧)، مما يدل على أنها قد أسهمت بقدر كبير فى الحركة العلمية بمصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى .

ولم يقتصر جهد مؤنسة خاتون فى الحركة العلمية على دراسة الحديث وتدريسه فقط ، بل اهتمت بالادب ودراسته ، فضلا عن ذلك فقد أنشأت مدرسة فى مصر فى أول حارة زويلة برحبة كوتكاى عرفت بالمدرسة القطبية نسبة إلى أخيها الأوحد قطب الدين والذى توفى فى عام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م ، لذا نسبة تلك المدرسة إليه ، وكانت تلك المدرسة مركزا لدراسة الفقه الشافعى والحنفى إلى جانب أنها كانت دارا لقراء القرآن الكريم ، يدرس فيها علوم القرآن ، كما أمرت بشراء وقف ينفق من إيراده على متطلبات تلك المدرسة (١٩٨).

ولعل ما سبق يؤكد أن مؤنسة خاتون ابنة السلطان العادل لعبت دورا كبيرا فى الحركة العلمية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، ونقول المملوكى لأنها توفيت فى عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م ، ويقول المقريزى عنها أنها " كانت عاقلة دينة فصيحة لها أدب وصدقات كثيرة وتركت مالا جزيلا "(١٩٩).

كذلك برز دور السيدة زهرة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين ابى بكر ، فى الحركة العلمية فى العصر الأيوبى ، حيث ينسب إليها إنشاء المدرسة العادلية الصغرى بدمشق داخل باب الفرج شرقى باب القلعة ، ويشير إلى ذلك النعيمى نقلا عن ابن شداد فيقول " المدرسة العادلية الصغرى منشئتها زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب " (٢٠٠)، كانت تلك المدرسة أصلا دارا وحماما تعرف بدار موسك ، ثم اشترتها زهرة خاتون ، وحولتها إلى مدرسة ، وأوقفت عليها الكثير من الأوقاف للإنفاق عليها ، كما عينت فى المدرسة "مدرسا ومعيدا وإماما ومؤذنا وبوابا وعشرين فقيها"(٢٠١) .

وتوضح هذه الرواية أمرين هامين ، أما الأول فهو شكل الهيئة التعليمية فى مدارس العصر الأيوبى ، فكما يتضح من الرواية كان على رأس هذه الهيئة المدرس والذى كان دائما يختار من مشايخ علماء عصره وأوسعهم علما على أساس أن شهرته ومكانته تتوقف عليها سمعة وشهرة المدرسة ، فكان من واجب المدرس أن يعطى الدرس حقه شرحا وتوضيحا (٢٠٢)، ثم يأتى بعده المعيد ، والذى كانت مهمته كما أوضحها القلقشندى ، إعادة ما إلقاه المدرس على الطلبة بعد انصرافه ليزداد فهمهم (٢٠٣)، كما عرف السبكى المعيد بأنه "عليه قدر زائد على سماع الدرس ومن تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة" (٢٠٤).

ويتضح من هذا أن المعيد كان يساعد المدرس ، حيث يعيد على الطلبة ما ألقاه المدرس ، فهو أكبر منهم درجة ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس ، ثم يرجع إليه الطلاب ليشرح لهم ما قد يكون قد صعب عليهم ، ولعل هذا يبين أيضا أن المدارس الأيوبية كانت أشبه بالجامعات اليوم مما يدل على أنها كانت فى أوج من الرقى والاتقان (٢٠٥)، وإلى جانب المدرس والمعيد كان يعين عدد كبير من الفقهاء فى المدرسة الأيوبية .

أما الأمر الثانى فهو أن المدرسة الأيوبية كانت بمثابة مسجد تقام فيها الصلاة ، لذا فقد كان يعين فيها مؤذنا وإماما ، مما يدل على مدى التشابه بين المسجد والمدرسة الأيوبية ، ويرجع السبب فى هذا التشابه إلى أن كلا منهما كان يتقرب بإنشائهما العبد إلى ربه ، فإذا كان إنشاء المساجد يعتبر من أجل الأعمال التى يمكن أن يتقرب بها المسلم إلى ربه فإن المدارس أيضا اعتبرت قلاعا للعقيدة وحصونا للدين لأن الإسلام حث على العلم والتعلم ، ومادام الهدف متقاربا بين المسجد والمدرسة فأن الوظائف والمهام تشابهت إلى حد كبير يقترب من

التطابق بمعنى أن المسجد صار مكانا للعبادة والدرس فى حين صارت المدرسة مكانا للدرس والعبادة (٢٠٦).

على أيه حال فإن ما سبق يتضح منه أن زهرة خاتون ابنة السلطان العادل الأيوبى قد اسهمت بدور كبير فى الحركة العلمية فى العصر الأيوبى .

هكذا اسهمت الخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبى فى إثراء الحركة العلمية فى مصر والشام فى العصر الأيوبى فمنهم من ساهمن فى إنشاء المدارس ومنهن من اشتغلن بالعلم .

ومن الخاتونات اللاتى أسهمن فى الحركة العلمية بإنشاء المدارس السيدة عذراء خاتون بنت الأمير نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين ، فقد أنشأت مدرسة بحارة الغرباء بدمشق داخل باب النصر وذلك فى عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤ م ، وقد كانت هذه المدرسة ثنائية المذهب ، حيث كان يدرس فيها المذهبين الشافعى والحنفى ، كما أشارت المصادر إلى أن السيدة عذراء خاتون أوقفتها على الشافعية والحنفية (٢٠٧).

ومن الخاتونات الأيوبيات اللاتى كان لهن دور كبير أيضا فى الحركة العلمية السيدة خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر ، وقد أسهمت هذه السيدة بدور كبير في الحركة العلمية فى العصر الأيوبى ، حيث ينسب إليها المدرسة المرشيدية بدمشق والتى تقع فى جبل الصالحية على نهر يزيد بجوار دار الحديث الأشرف ، وتعتبر هذه المدرسة من المدارس الحنفية بدمشق ، حيث كان يدرس فيها المذهب الحنفى (٢٠٨)، والمعروف أن أباها الملك المعظم عيسى كان الوحيد من أبناء السلطان العادل الأيوبى الذى اتبع المذهب الحنفى بل " كان متغاليا فى التعصب لمذهب أبى حنيفة " ، " وقال له أبوه مرة كيف اخترت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شافعية فقال يا خوند أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم " (٢٠٩)، لذا يبدو أن خديجة خاتون اتبعت هى الأخرى المذهب الحنفى مثل أبيها ، وأوقفت هذه المدرسة على دراسة هذه المذهب .

وقد أوقفت السيدة خديجة خاتون على المدرسة المرشيدية الحنفية أوقافا كثيرة ، وقد كتب على عتبة بابها ما نصه " هذا ما أوقفت الست الجليلة عصمة الدين خديجة خاتون بنت السلطان المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر وذلك حصته من بستان الكليب ، خمسة أسهم ، وثلثى سهم ، وخمس سهم ، وسبع سهم ، ومن طاحون الطرف الخامس ، ودار بجبل الصالحية ، وحصة بقرية تقى الدين سبعة أسهم ونصف سهم ،

وحصة بجنة عاتقة ثمانية أسهم ونصف وحصة بجنة عسال من قصر معلول ثلث أسهم ، ومن الجنة سهم ونصف ، وبستان الماردينية " (٢١٠).

ويتضح من هذا كثرة الأوقاف التى أوقفتها السيدة خديجة خاتون على تلك المدرسة للإنفاق منها على إيرادات ومصاريف مدرسيها وفقهائها ومبانيها ، وحتى تضمن استمرار تلك المدرسة بدرس فيها المذهب الحنفى الذى اتبعه من قبل والدها الملك المعظم عيسى .

يضاف إلى هذه المدرسة التى أنشأتها السيدة مؤنسة خاتون ابنة الملك المظفر صاحب حماه ، حيث أنشأت مدرسة حماه عرفت بالمدرسة الخاتونية ، وقد أوقفت عليها أوقافا كثيرة ، فضلا عن العديد من الكتب فى مختلف العلوم (٢١١).

يبدو أن المدرسة الخاتونية قد أنشئت في العصر المملوكى ،وهى الفترة التى عاشت فيها مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماه ، ويؤكد ذلك أبو الفدا فيقول " ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الأكرم داخل باب المغار وهى الآن مدرسة تعرف بالخاتونية ، وقفتها عمتى مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور " (٢١٢)، والمعروف أن أبا الفدا من ملوك حماه الأيوبيين الذين حكموا حماه فى العصر المملوكى ، وتعد غازية خاتون هذه عمته كما يذكر ، وقد توفى فى عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م (٢١٣).

وجدير بالذكر أن هناك بعض الخاتونات الأيوبيات اللاتى وجدن فى العصر المملوكى ، ومنهن خاتون بنت عبد العزيز المغيث بن الملك المعظم عيسى بن السلطان العادل الأيوبى ، وقد تزوجت من ابن عمها غازى بن الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ، وكانت مقيمة فى القاهرة وتوفيت بها فى عام ٧١٢هـ/ ١٣١٢م (٢١٤)، ومنهن أيضا بست خاتون بنت الملك الجواد يونس بن المعظم مودود بن السلطان العادل الأيوبى ، وكانت تعيش في دمشق وتوفيت بها فى ربيع عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م ، ودفنت بقاسيون(٢١٥) .

ومنهن أيضا خاتون بنت الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وكانت تعيش فى دمشق فى دارها التى عرفت بدار كافور " وكانت رئيسة محترمة ولم تتزوج قط وليس فى طبقاتها من بنى أيوب غيرها فى هذا الحين " (٢١٦)، مما يوضح أنها آخر الخاتونات الأيوبيات اللاتى ظهرن فى العصر المملوكى ، وقد توفيت فى ٢١ شعبان عام ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣ م (٢١٧).

الهوامش

١- الخاتونات : جمع خاتون وهى كلمة فارسية ومعناها المرأة صاحبة الكلمة فى البيت والتصرف فيه ، وقد أطلقت على أميرات البيوت المالكة فى العصر الزنكى والنورى والأيوبى ، انظر : السيد آدى شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٥١ .

٢- السيدة ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، ولدت فى عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م بقلعة حلب حين كان والدها ملكا على حلب من قبل أخيه صلاح الدين ، وسبب تسميتها ضيفة أنه كان عند أبيها ضيف وقت ولادتها فسماها ضيفة ، وهى شقيقة الملك الكامل محمد الذى اعتلى عرش السلطنة بعد وفاة والده العادل ، انظر :

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ، د.ت ، جـ٣ ، ص ١٧١ .

الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق : مديحة الشرقاوى ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

٣- قبل وفاة الملك الظاهر عهد إلى الأمير شهاب الدين طغرل بقلعة حلب ، لذا لما مات استقر رأى الأمراء على توليته أتابكية الملك العزيز ، فقام على ذلك بعد وفاة الملك الظاهر فى عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م ، وقد استطاع أن يقوم على الأمور فى حلب خير قيام وحفظها الملك العزيز حتى سلمها إليه فى عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م ، انظر :

ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق : سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٨ م ، ص ١٧٧-١٧٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٣ ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢١١ .

٤- ابن العديم : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢١١ .

٥- ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١١ .

٦- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، تحقيق : حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١١٩ ،

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٥٨ ،

ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٦٠ .

٧- ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٢٥ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١١٩ ،

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٩ ، تحقيق : محمد ضياء الدين الريس ، القاهرة ١٩٩٢ م ، ص ٢١٧.

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢١ .

٨- يبدو أن علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم هو الذى أوحى إلى ملوك الأيوبيين فى الشام بطمع السلطان الكامل فى أملاكهم على أن يعوضهم بمملكة الروم فى آسيا الصغرى وذلك ليعمل على إحداث الفرقة بينهم خاصة وأنهم كانوا فى حملة عليه فى نفس التوقيت عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م ، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ، انظر :

منى الشاعر : العلاقات السياسية بين سلطنة سلاجقة الروم والدولة الأيوبية فى مصر والشام ، مجلة كلية الدراسات الأنسانية جامعة الأزهر ، القاهرة ، العدد ١٨ لسنة ٢٠٠٠ ، ص ٣٦٠-٣٦٢ .

٩- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

ابن أيبك : الدر المطلوب في أخبار ملوك بنى أيوب ، تحقيق : سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ص ٢١٧-٢١٨ .

ابن العميد : المصدر السابق ، ص ٢٠ .

١٠- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٢١ ، ١٢٧ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، بيروت ١٩٩٧ م ، جـ١ ، ص ٣٧٧-٣٧٨ .

١١- الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن الملك الظاهر غازى ، ولد عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠١م ، وكان أكبر سنا من أخيه الملك العزيز ، وإنما قدموا العزيز عليه فى حكم حلب لأن أمه ضيفة خاتون ابنة السلطان العادل الكبير ، فقدموه لأجل أخواله ، أما الملك الصالح فكانت أمه جارية ، وتوفى الملك الصالح فى شعبان عام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م ، انظر :

أبو ذر : كنوز الذهب فى تاريخ حلب ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رمز خ ٩٦٣٨ .

١٢- عينتاب : قلعة حصينة تقع على جبل ولها ربض وبها نهر الساجور ، وبها بساتين كثيرة على هذا النهر انظر :

ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ق ٢ ، تحقيق : يحيى عبارة ، دمشق ١٩٩١ م ، ص ١٠٩-١١٣ .

ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تحقيق : عبد الله محمد درويش ، دمشق ١٩٨٤م ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

١٣- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ،

المقريزي : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٧٧ .

١٤- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

١٥- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

١٦- نفسه : جـ٥ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

١٧- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

١٨- نفسه : ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

١٩- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

٢٠- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٤ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٩ .

٢١- البقاع : أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق ، انظر :

ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٧ م ، جـ٣ ، ص ٤٧٠ .

٢٢- بصرى : وهي من أعمال دمشق وقصبة كورة حوران، انظر :

ياقوت : المصدر السابق ،جـ٣ ، ص ٤٤١ .

٢٣- السواد موضعان أحدهما نواحي قرب البلقاء ، وسميت بالسواد لسود حجارتها وهو المراد هنا ، والثاني رستاق العراق وضياعها ، انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٤٣ .

٢٤- الرستن : بليدة قديمة على نهر العاص تقع بين حماه وحمص ، انظر :

ياقوت : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٤٣ .

٢٥- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٥-٢٣٧ ،

أبو شامة : الذيل على الروضتين ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، بيروت ١٩٤٧ م ، ص ١٦٥-١٦٦ ،
ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٠ ، ١٥٤ .

٢٦- المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ص ٣٨٠ .

٢٧- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٥ .

٢٨- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٦ ، ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

٢٩- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٦ .

٣٠- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٦ .

أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٦٥-١٦٦،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٤ ، المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٨٠ .

٣١- ملكة خاتون : أخت السلطان غياث الدين كيخسرو، وهى بنت السلطان العادل سيف الدين أبو بكر ، وأبوها كيقباذ بن كيخسرو ، سلطان سلاجقة الروم الذى تزوج من ابنة السلطان العادل وأنجبت ملكه خاتون هذه ، انظر :

الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، ص ٣٥١ .

٣٢- فتحى أبو سيف : المصاهرات السياسية فى العصرين السلجوقى والغزنوى ، القاهرة ١٩٨٦ م ، ص ١٥٩-١٦٠ .

٣٣- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٣ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ ،

المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٨٤ .

٣٤- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧٩ .

٣٥- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٨٢ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧٩ .

٣٦- المعرة : مدينة كبيرة من أعمال حمص بين حلب وحماه ، ماؤها من الآبار ، انظر :

ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١٥٦ .

٣٧- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨١ .

٣٨- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨٢ ، وراجع :

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٢ .

٣٩- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨٢ .

٤٠- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٩٨ ، أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٣ .

٤١- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧٨ .

٤٢- الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، تولى حكم الرها وسروج ، ثم أضاف إليه أخوه الأشرف موسى حكم ميافارقين وخلاط ، وكانت وفاته عام ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩ م ، انظر:

الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

٤٣- عانة بلد مشهور بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة ، انظر :

ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٧٢ .

٤٤- الخابور اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ثم أطلق بعد ذلك على ولاية واسعة وبلدان جمة تطل عليه ، انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣٣٤ .

٤٥- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤١ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

٤٦- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨٦ .

٤٧- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨٦ .

٤٨- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٧ ، وردت أيضا فى :

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٦٨ .

٤٩- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

٥٠- قورس : مدينة قديمة بحلب ، وهى من بناء الروم ، وبها آثار عظيمة ، وتحتوى على عدة ضياع ، انظر:

ابن شداد المصدر السابق ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

ابن الشحنة : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

٥١- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٣١ ، ١٣٠ .

٥٢- بغراس : قلعة حصينة تابعة لأنطاكية ، وكان الطريق إلى الثغور للغزاة عليها ، انظر :

ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤١١ .

ابن الشحنة : المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ م ، ص ٢٥٩ .

٥٣- كانت العلاقة حسنة بين صليبي أنطاكية وبين الأيوبيين في حلب منذ عهد الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، واستمرت هذه العلاقة طوال خمسة عشر عاما ، أي حتى عهد الملك العزيز ، ولم تنقطع هذه العلاقة بعد الملك عبد العزيز ، ولم يحاول بوهيمند الخامس أن يضحي بهذه العلاقة بمساندة الداوية ، انظر:

حسين محمد عطيه : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ط الإسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ٣٥١-٣٥٢ .

٥٤- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٣١ ، ١٣٣ .

أبو الفدا :المختصر في أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ١٥٩ .

٥٥- ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ م ، جـ٣ ، ص ٣٦٤ .

٥٦- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٣ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

بيشوف الجرماني : تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ، بيروت ١٨٨٠ ، ص ٧٦ .

٥٧- لم يواصل الحلبيون انتصاراتهم بمحاولة الاستيلاء على بغراس ، لكي يتفرغوا لمواجهة السلطان الكامل الذي بدت أطماعه واضحة في حلب وغيرها من بلاد الشام ، انظر :

ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

٥٨- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٧١ م ، جـ٢ ، ص ١٠٢٧ .

٥٩- لمزيد من التفاصيل عن تاريخ الدولة الخوارزمية ، انظر :

النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق: حافظ حمدي ، القاهرة ١٩٥٣ م ، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ، القاهرة ١٩٨٧ .

حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩ .

الغامدي : أوضاع الدولة الإسلامية في الشرق الإسلامي ، الرياض ١٩٨١ م .

٦٠- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٤٢ .

ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٣٠ .

٦١- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٢ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧٨ .

٦٢- اعتقل الملك الصالح أيوب فى الكرك عام ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م ، عندما كان في طريقه للسيطرة على السلطنة فى مصر من أخيه العادل الثانى ، حيث اعتقله ابن عمه الناصر داود صاحب الكرك ، فظل عنده حتى أفرج عنه وساعده فى السيطرة على مصر مقابل أن يساعده الصالح أيوب فى السيطرة على بلاد الشام والجزيرة فقط ، انظر :

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٥٩ .

٦٣- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٨ .

٦٤- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

٦٥- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٢ .

٦٦- الملك الجواد يونس : هو مظفر الدين يونس بن السلطان العادل سيف الدين أبو بكر ، تولى دمشق بعد وفاة السلطان الكامل فى عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ، وكان نائبا بها عن السلطان العادل بن الملك الكامل ، ثم ما لبث أن تنازل عها فى عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م ، إلى الملك الصالح أيوب مقابل سنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ، انظر :

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧٠ ، ٢٠٢ .

٦٧- عن عربان آل فضل ودورهم السياسى في بلاد الشام ، انظر :

منى الشاعر : آل فضل بن ربيعة ودورهم السياسى فى بلاد الشام فى العصر المملوكى ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ، العدد السابع عشر ، ١٩٩٩م ، ص ٣٨٣ ، ٤٤٩ .

٦٨- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ .

٦٩- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،

النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

٧٠- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

٧١- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٢،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٥ .

٧٢- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٥ .

٧٣- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

٧٤- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٤،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ٢٨٨ .

٧٥- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٤ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص٢٨٨ .

٧٦- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٨ .

٧٧- القايا: كورة بين منبج وحلب ، وهي من أعمال منبج من جهة قبلتها وادى بطنان ، ولها قرى عامرة ، وفيها بساتين ، انظر : ياقوت : معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٧م ، جـ٤ ، ص ٢٣٤ .

٧٨- سرمين : مدينة كبيرة بطرف جبل السماق ، لها أعمال كثيرة تابعة لها ، وأكثر أهلها من الإسماعيلية ، ولهم بها دار دعوة ، انظر :

ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٨ .

٧٩- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ابن واصل : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

٨٠- الرصافة بناها هشام بن عبد الملك بن مروان لها سور من الحجر ، وهي منيعة لأنها في البرية ولا ماء عندها لذا يضع بها ماء المطر ليشرب منه أهلها ، انظر :

ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ق٢ ص ٣٣ .

٨١- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

٨٢- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

٨٣- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٩٣ .

٨٤- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٥٨ ،

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٨ .

٨٥- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

٨٦- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

٨٧- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

٨٨- دنيسر : بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ، انظر :

ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٤٧٨ .

٨٩- خرتبرت : اسم أرمني وهو الحصن المعروف بحصن زياد بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣٥٥ .

٩٠- المجدل : اسم بلد طيب بالخابور إلى جانبه تل عليه قصر وفيه أسواق كثيرة ، انظر :

ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٥٦ .

٩١- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣١١ ،

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٣٢ .

٩٢- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٦٥،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣١١ ، ٣١٢ ،

النويري : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

٩٣- مراق : بتشديد القاف ، هو ما أسفل البطن عند الصفاق أسفل السرة ، انظر :

ابن منظور : لسان العرب ، إعداد وتصنيف : يوسف خياط و بيروت د.ت ، المجلد الثالث ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

٩٤- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٦٦،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣١٢ .

٩٥- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣١٣ .

٩٦- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣١٣ .

٩٧- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٧٦ ،

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٤٥ .

٩٨- حكم الملك الناصر قلج أرسلان حماه قبل أخيه الملك المظفر محمود ، حيث استغل غياب أخيه المظفر

محمود فى مصر لنجدة عمه السلطان الكامل زمن الحملة الصليبية الخامسة وأعلن نفسه سلطانا بعد وفاة أبيه ، على الرغم أن الملك المظفر هو المعهود له بالسلطنة بعد أبيه حيث كان أبوه عهد له بالملك فى عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ، انظر :

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٧١-٢٧٧ .

٩٩- الملك المسعود ابن الصالح محمود بن قرا أرسلان ، والصالح محمود بن قرا أسلان هذا هو الذى ملكه صلاح الدين آمد بعد نزعها من ابن بيسان ، وظلت فى يد ورثته حتى استولى عليها السلطان الكامل فى عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢ م ، عندما اشتكى من الملك المسعود أهل بيته بسبب سوء سيرته وتعرضه إلى حريم الناس ، وبعد استيلائه عليها أقطع الملك المسعود إقطاعا جليلا فى مصر ، ثم بدت منه أمور اعتقله السلطان الكامل بسببها ، ولما مات الكامل خرج من الاعتقال ، ثم اتصل بالمغول فقتلوه ، انظر :

ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ، جـ٢ ، ص، ١٥٤ .

١٠٠- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٩ .

١٠١- الفالج : شلل يصيب أحد شقى الجسم طولا ، انظر :

مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، القاهرة ١٩٩٢ م ، ص ٤٧٩ .

١٠٢- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

١٠٣- أستاذداره : كلمة فارسية مركبة من جزئين ، استاذ بمعنى الأخذ ،ودار بمعنى ممسك ، فيكون معناها ممسك الأخذ أو متولى قبض المال ، وكان يشغل هذه الوظيفة فى العصر الأيوبى أحد الأمراء العسكريين وكان صاحبها يختص بكل أمور بيوت السلطان من المطابخ والشراب خاناه والحاشيه والغلمان ، ولصاحب هذه الوظيفة حرية مطلقة وتصرف تام فى استدعاء كل ما يحتاج إليه من نفقات وكساوى من بيت السلطان ، انظر :

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩١٨ ، جـ٤ ، ص ٢٠ ، ٢١ ،

الظاهرى : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ،

حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٠ م ، جـ ١ ، ص ٣٩-٤٤ .

١٠٤- الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد المحسن الأنصارى الدمشقى كان والده ينوب فى القضاء بحماه عن القاضى ضياء الدين الشهر زورى ، ثم تولى قضاء بعرين ومات بها ، وكان الشيخ شرف الدين رجلا فاضلا متأدبا خدم مدة طويلة الملك الأمجد صاحب بعلبك إلى أن اتصل بخدمة حسام الدين على ، ثم انتقل إلى خدمة الملك المظفر محمود صاحب حماه ، انظر :

١٠٥- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٠٧ ،

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٩ ،

المقريزي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤١٢ .

١٠٦- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣٤٥ ،

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٣ .

١٠٧- أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٦ .

١٠٨- أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٩ ،

ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٣،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٩٣٨ م ، جـ٧ ، ص ٥٧ .

١٠٩- الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٣٨٦ .

١١٠- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٣ ، ١٤ .

١١١- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٥ .

١١٢- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٥ ، ١٦ .

١١٣- انظر عن ذلك بالتفصيل :

منى الشاعر : العلاقات السياسية بين سلطنة سلاجقة الروم والدولة الأيوبية ، بحث ضمن مجلة كلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ، العدد ١٨ ، لعام ٢٠٠٠ م ، ص ٣٢٣ - ٣٣٨ ، ٣٥٢ - ٣٥٤

١١٤- عن أحداث هذه الحملة بالتفصيل ، انظر :

منى الشاعر : المرجع السابق ، ص ٣٥٩ - ٣٦٣ .

١١٥- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

١١٦- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

١١٧- أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٥٩ ،

ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٦١ ،

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٢١ ، ٢٢ .

١١٨- كانت هذه الأبنية الوحيدة للملك الأشرف موسى بن السلطان العادل ، غير أنه لم يرد ذكر اسمها فى المصادر .

١١٩- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ .

١٢٠- كانت الخاتون ست الشام متزوجة من أحد كبار الأمراء ويدعى لاجين ، وأنجبت منه ابنها حسام الدين لاجين ، لذلك فقد عرفت بالحسامية ، بعد وفاة لاجين تزوجت ست الشام من ابن عمها ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص ، وتوفيت ست الشام في ذي القعدة ٦١٦ هـ/ ١٢١٨ م ، انظر :

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، ص ٦٣ ،

أبو شامة : الذيل على الروضتين ، تحقيق : زاهد الكوثري ، بيروت ١٩٤٧ م ، ص ١١٩ ،

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ٣٠٦ ،

الذهبي : كتاب دو ل الإسلام ، تحقيق : فهيم شلتوت ومحمد مصطفى ، القاهرة ١٩٧٤ م ، جـ٢ ، ص ١٢٠

ابن عماد الحنبلي ، شذرات الذهب في خبر من ذهب ، القاهرة ،١٣٥١ هـ ، جـ٥ ، ص ٦٧ .

١٢١- أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١١٩ ،

النويري : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٤٦ .

١٢٢- أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١١٩ ،

النويري : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٢٤٦ .

١٢٣- الربط : جمع رباط وهو دار يسكنها أهل الطرق ، فهو بيت الصوفية ومنزلهم ، انظر :

المقريزي : الخطط المقريزية ، القاهرة ت.د ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

١٢٤- الخوانق : جمع خانقاه وهي كلمة فارسية قيل أصلها خونكاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك ، ثم أصبحت بعد ذلك بيوتا للصوفية يقيمون فيها لعبادة الله تعالى ، انظر :

المقريزي : المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

١٢٥- المدرسة الشبلية البرانية : تقع بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثوري ، أنشأها الطواشي شبل الدولة الحسامي في سنة ٦٢٦ هـ، انظر :

النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٥٣٠ .

١٢٦- النعيمي :المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٣ .

١٢٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ٢ ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

١٢٨- النعيمى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٤ .

١٢٩- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٧٣ .

١٣٠- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ق١ ص ٢٣٦ ،

ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٠٨ .

١٣١- ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ١٤٨ ،

أبو المحاسن : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٥٣ ،

النعيمى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٨٠ .

١٣٢- كان مظفر الدين كوكبورى قد تولى حكم إربل وهو فى الرابعة عشر من عمره ، وكان القائم على أتابكيته مجاهد الدين قايماز ، الذى ما لبث أن تعصب عليه وصمم على عزله ، لذلك أرسل إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢ هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥ م) بأنه ليس أهلا للولاية ، لذلك أمر بعزله ، وتولى مكانه أخوه زين الدين يوسف الذى كان أصغر منه سنا ، وقام مجاهد الدين باعتقال مظفر الدين كوكبورى ، ثم خرج من حبسه وسار إلى بغداد ومنها على الموصل للالتحاق فى خدمة صاحبها سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود ، ثم اتصل بخدمة السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبى ، وتقرب من السلطان الكبير حتى تقدم عنده وولاه على الرها ، ثم أضاف إليه سميساط من بلاد الجزيرة ، ولما حظى عنده بالمحبة والتقرب زوجه من أخته ربيعة خاتون ، وأصبح مظفر الدين منذ ذلك الوقت منتميا إلى البيت الأيوبى ، انظر : ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥٤ .

١٣٣- كان زين الدين يوسف قد قدم إلى السلطان صلاح الدين لنجدته وهو محاصر للصليبيين فى عكا ، ثم توفى وهو بالناصرة وهى قرية بالقرب من عكا ، حيث لحق به المرض وهو هناك ، انظر :

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥٤ .

١٣٤- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥٣ ، ٥٤ ،

ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

١٣٥- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

١٣٦- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٢ .

١٣٧- نفسه : ص ٢١٢ .

١٣٨- القاضى بهاء الدين بن شداد : صاحب كتاب سيرة صلاح الدين ، ولد بالموصل فى عام ٥٣٩ هـ

١١٤٥ م ، وتوفى بحلب فى عام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩ م ، وقد التحق بهاء الدين بخدمة السلطان صلاح الدين فولاه قاضيا لعسكره وللقدس الشريف ، وظل فى خدمته وملازما له لا يفارقه ليلا أو نهارا ، انظر:

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٣٩- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٢ .

ابن الوردى : المصدر السابق ، بيروت ١٩٩٦ ، جـ٢ ، ص ١٢٨ .

١٤٠- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٨ ، ١٨٢ جـ٣ ، ص ١٦٦ .

١٤١- نفسه : جـ٣ ، ص ٢١٣ .

١٤٢- ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق : سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٨ ، جـ٣ ، ص ١٦٤

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٣ .

١٤٣- ابن العديم : المصدر السابق، جـ ٣ ص ١٦٤ .

١٤٤- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٤ .

١٤٥- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٤،

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١١٤ .

١٤٦- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ، ق٢ ، ص ١٢٩ .

١٤٧- الأرتيق : بفتح الهمزة ، كورة من أعمال حلب ، انظر :

ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ٩٤ .

١٤٨- ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ .

١٤٩- فرجيات : جمع فرجية ، وهى ثوب يلبس فوق سائر الثياب أو يلقى على الكتفين ، وله طوق وآردان طوال ، انظر :

العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، بيروت ١٩٨٨م ، ص ١٥٥ حاشية ٢ .

١٥٠- البلخش : جوهر أحمر شفاف يضاهى فائق الياقوت فى اللون والرونق ، سمى بذلك نسبة إلى موطنه بلخشان فى أقصى شرقى أفغانستان ، انظر :

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٢١ حاشية ٢ .

١٥١- برك اصطفوان أو برك اصطوان أو بركستوان : وهى غاشية الحصان أو الفيل المزركشة ، انظر :

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، بيروت ١٩٧٧ م ، جـ١ ص ١٧٧ ، حاشية ٥ .

١٥٢- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

١٥٣- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٠ .

١٥٤- ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٠٦ ، ٢٥٥ .

١٥٥- ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٢،

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

١٥٦- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ، ق١ ، ص ٢٣٦ ،

ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٠٨ .

١٥٧- المحفة : محمل على أعلاه قبة وله أربع سواعد ، اثنان أمامها واثنان خلفها ، ويغطى بالجوخ ، وأحيانا بالحرير ، يحملها بعيرين أو بغلين ، يكون إحداهما فى مقدمتها والأخر فى مؤخرتها ، بحيث إذا ركب فيها راكب صار كأنه قاعدا على سرير ، انظر :

العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،

القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص ١٤٤٥ .

١٥٨- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣٨٣ .

١٥٩- كان العزيز عثمان نائبا عن والده السلطان صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، ولما مات صلاح الدين أعتلى العزيز عثمان عرش السلطنة بها عام ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م ، انظر :

الأصفهانى : الفتح القصى فى الفتح القدسى : تحقيق : محمد محمود صبح ، القاهرة د.ت ، ص ٦٣٠ - ٦٣٣، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٨ م ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ٢٢ .

١٦٠- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٣٤ .

ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٩٠١ .

١٦١- عماد الدين الكاتب : هو عماد الدين أبو عبد الله بن صفى أبو الفرج محمد بن نفيس الدين الملقب

بالكاتب الأصفهانى ، ولد بأصفهان عام ٥١٩ هـ/ ١٢٢٥ م ، وقدم إلى بغداد وتعلم بها وغادر العراق إلى دمشق وعمل فى خدمة نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبى وأولاده ، انظر :

الفتح بن على البندارى : سنا البرق الشامى ، تحقيق : فتحية النبراوى ، القاهرة ١٩٧٩ م ، ص ٢ ، ٣ .

١٦٢- ورد فى نص هذه الخطبة كاملا فى :

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

١٦٣- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٣٥ .

١٦٤- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٥ .

١٦٥- ورد نظم القصائد الخاصة بوصف لبس الملك المنصور للحداد فى :

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٦٥ - ٦٩ .

١٦٦- أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٢٩ .

١٦٧- أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١١٩ .

١٦٨- النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، القاهرة ١٩٨٨ م ، جـ١ ، ص ٢٧٧ .

١٦٩- نفسه : ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

١٧٠- ابن الشريجى : أبو بكر محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله الأنصارى فخر الدين بن الشيرجى الدمشقى ، أحد المعدلين بها ولد سنة ٥٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م ، وسمع الحديث ، وكان يلى ديوان الخاتون ست الشام ، وكان ثقة أمينا كيسا ، انظر :

ابن كثير : البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٩٢ م ، مجلد ٧ ، ص ١٠٣ .

١٧١- النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٧ ، ٢٧٨ .

١٧٢- أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١١٩ .

النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٩٧ .

النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٩ .

١٧٣- النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٠١ .

١٧٤- ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٣٦ .

١٧٥- النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص٩٧ .

١٧٦- النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٠١ .

١٧٧- أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١١٩ ،

النويري : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٩٧ ،

أبو المحاسن : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٤٦ .

١٧٨- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥٤ ،

النويري : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٣١٧، ٣١٨ ،

ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ١٤٨ .

١٧٩- النويري : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٣١٧ ،

ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ١٤٨ ،

النعيمي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٨٠ .

١٨٠- ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ١٤٨ .

١٨١- جبل قاسيون يقع في شمال دمشق ويتصل من جهة الغرب بسلسلة جبال لبنان ومن الشمال والشرق بسلسلة جبال قلمون الممتدة إلى منطقة حمص ، انظر :

ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق : المنتصر الكتاني ، بيروت ١٩٧٥ م ، ص ١١٥ ،

ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق : محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٩٨٠ م جـ١ ص ٣٧-٤٤ .

١٨٢- النويري : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٣١٧ ،

النعيمي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

١٨٣- الناصر الحنبلي هو أبو الفرج عبد الرحمن الشيرازي ، انظر :

النعيمي : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٨٠ .

١٨٤- ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٩٧ ،

النعيمي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٨٠ ،

محمد كرد علي : غوطة دمشق ، دمشق ١٩٤٩ م ، ص ١٥٣ .

١٨٥- النويري : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٣١٨ ،

ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ١٤٨ .

١٨٦- أبو المحاسن : النجوم ، جـ٦ ، ص ٣٥٣ .

١٨٧- ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ٢ ص ١٢٠ ،

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٤ ،

النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٩ ، ص ٣١٨ .

١٨٨- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٢٦ .

أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٨٦ ،

ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٨٩٦ .

١٨٩- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٧٣ .

١٩٠- الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

١٩١- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٧٣ .

ابن كثير : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٩٠١ .

١٩٢- المقريزى : الخطط ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .

١٩٣- النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٦٨ .

١٩٤- ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص٣١٣ .

١٩٥- ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ١١٣ .

١٩٦- المقريزى : الخطط المقريزية ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .

١٩٧- المقريزى : الخطط ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .

١٩٨- المقريزى : الخطط ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .

١٩٩- المقريزى : الخطط ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .

٢٠٠- النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٣٦٨ .

٢٠١- النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٦٨ .

٢٠٢- ناظم رشيد : التعليم فى ظل الدولتين الزنكية والأيوبية فى الشام ، مجلة آداب الرافدين ، تصدر عن كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العدد العاشر ، لعام ١٩٧٩ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

٢٠٣- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء القاهرة ١٩١٨ م ، جـ٣ ، ص ٣١٦ .

٢٠٤- السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، القاهرة ١٩٤٨ م ، ص ١٠٨ .

٢٠٥- سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٩٦م ، ص ١٤٢ .

عفاف صبرة : المدارس فى العصر الأيوبى ، بحث ضمن كتاب المدارس فى مصر الإسلامية ، إعداد : عبد العظيم رمضان ، القاهرة ٢٠٠٠ م ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ،

ناظم رشيد : التعليم فى ظل الدولتين الزنكية والأيوبية ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

٢٠٦- سعيد عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة ، بحث ضمن كتاب المدارس فى مصر الإسلامية ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ٣١-٣٢ .

٢٠٧- ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،

أبو المحاسن : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٣٧٣ ، ٣٧٤ . .

٢٠٨- النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٥٧٦ ،

محمد كرد على : غوطة دمشق ، ص ١٥٢ .

٢٠٩- المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٦ .

٢١٠- النعيمى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٧٦ .

٢١١- أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٤ ،

محمد كرد على : خطط الشام ، دمشق ١٩٢٧ م ، جـ١ ، ص ١٤٦ .

٢١٢- أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٤ .

٢١٣- ابن كثير : البداية والنهاية ، بيروت ١٩٧٧ ، جـ٤ ، ص ١٥٨ ،

الذهبى : ذيول العبر فى خبر من غبر ، تحقيق : أبو هاجر محمد والسعيد بن بسيونى زغلول ، بيروت د.ت ، جـ٤ ، حوادث ٧٣٢ .

٢١٤- الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٣٧١ .

٢١٥- الكتبى : فوات الوفيات ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥١ م ، جـ٣ ، ص ٢١٨ .

ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ٢ ، ص ٢٤٨ ،

الحنبلى :المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

٢١٦- النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٣١٨ .

٢١٧- نفسه : جـ١ ، ص ٣١٨ .

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير : عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى المعروف بالجزرى ، ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م .
" الكامل فى التاريخ " ٩ أجزاء ، بيروت ١٩٨٠ م .

٢- ابن أيبك : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ، ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م " الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب " ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ .

٣- ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م ، " رحلة ابن بطوطة المسماه " تحفة النظار فى عجائب الأمصار وغرائب الأسفار " تحقيق : المنتصر الكتانى ، بيروت ١٩٧٥م .

٤- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبى بكر ، ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢م ، " وفيات الأعيان " ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧١ .

٥- ابن حجر العسقلانى : الشيخ شهاب الدين أحمد ، ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م ، " الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة " ، تحقيق : محمد سيد عبد الحق ، القاهرة ١٩٦٦ .

٦- ابن الشحنة : أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبى الحنفى ، ت ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م ، " الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب " ، تحقيق : عبد الله محمد درويش ، دمشق ١٩٨٤ م .

٧- ابن شداد : بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع تميم ، ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٥ م ، " سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٢ م .

٨- ابن شداد : عز الدين محمد بن على بن إبراهيم ، ت ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م ، " الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة " ، الجزء الأول بقسميه ، تحقيق : يحيى عبارة ، دمشق ١٩٩١ م الجزء الثانى بقسميه ، تحقيق : سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٢ م ، الجزء الثالث ثلاثة أقسام ، تحقيق : يحيى عبارة ، دمشق ١٩٧٨ م .

٩- ابن طولون : محمد بن على بن أحمد ، ت ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م ، " القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية " تحقيق : محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٩٨٠ م .

١٠ - ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م ، " شذرات الذهب فى أخبار من ذهب " ، القاهرة ١٣٥١ هـ .

١١- ابن العديم : الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله بن العديم ، ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م ، " زبدة الحلب فى تاريخ حلب " ، ثلاثة أجزاء ، تحقيق : سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٨ م .

١٢- ابن العميد : المكين جرجس بن العميد ، ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م ، " أخبار الأيوبيين " ، القاهرة د.ت .

١٣- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م، " البداية والنهاية " ، تحقيق : محمد عبد العزيز النجار ، القاهرة ١٩٩٢ م .

١٤- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م ، " مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب " ، الأجزاء ١-٣ ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ١٩٥٣م ، الجزءان الرابع والخامس ، تحقيق : حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ١٩٧٧م .

١٥- ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد الأنصارى الأفريقى المصرى ، ت ٧١١ هـ/ ١٣١١ م ، " لسان العرب " ، إعداد وتصنيف : يوسف خي اط ، بيروت د.ت

١٦- ابن الوردى : سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردى ، ت ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩م ، " تاريخ ابن الوردى " ، بيروت ١٩٩٦ م .

١٧- أبو ذر : أحمد بن البرهان إبراهيم ، ت ٨٨٤هـ/ ١٤٧٦م ، " كنوز الذهب فى تاريخ حلب " ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم ٩٦٣٨ م .

١٨- أبو شامة : شهاب الدين محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ، ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦م ، " الذيل على الروضتين " تحقيق : محمد زاهد الكوثرى ، بيروت ١٩٤٧ م .

١٩- أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م ، " المختصر فى أخبار البشر " ، القاهرة د.ت . " تقويم البلدان " ، باريس ، ١٨٤٠ م .

٢٠- أبو المحاسن : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م ، " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " القاهرة ١٩٣٨ م .

٢١- الأصفهانى : عماد الدين الكاتب ، ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م ، " الفتح القسى فى الفتح القدسى " ، تحقيق : محمد محمود صبح ، القاهرة ، د.ت .

٢٢- البندارى : الفتح بن على البندارى ، " سنا البرق " تحقيق : فتحية النبراوى ، القاهرة ١٩٧٩ م .

٢٣- بيشوف الجرمانى : " تحف الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء " ، بيروت ١٨٨٠ م .

٢٤- حافظ حمدى : " الدولة الخوارزمية والمغول " ، القاهرة ١٩٤٩ م .

٢٥- حسن الباشا : " الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية " القاهرة ١٩٦٠ م .

٢٦- حسين محمد عطية : " إمارة إنطاكية الصليبية والمسلمون " ، الإ سكندرية ، ١٩٨٩م .

٢٧- الحنبلى : أحمد بن إبراهيم ، ت ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م ، " شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب " ، تحقيق : مديحة الشرقاوى ، القاهرة ١٩٩٦ م .

٢٨- الذهبى : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨ م ، ١٣٤٧ م ، " كتاب دول الإسلام " ، تحقيق : فهيم شلتوت ، محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٧٤ م ، " العبر فى خبر من غبر " والذيل عليه " بيروت ، د. ت .

٢٩- السبكى : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م ، " معيد النعم ومبيد النقم " ، القاهرة ١٩٤٨ م .

٣٠- ستيفن رنسمان : " تاريخ الحروب الصليبية " ، ترجمة : سيد الباز العرينى ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

٣١- سعد بن محمد حذيفة الغامدى : " أوضاع الدول الإسلامية فى الشرق الإسلامى " ، الرياض ١٩٨١م.

٣٢- سعيد عبد الفتاح عاشور : " الأيوبيون والمماليك " ، القاهرة ١٩٩٦ م ،

" العلم بين المسجد والمدرسة " بحث ضمن كتاب " تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية " إعداد : عبد العظيم رمضان ، القاهرة ٢٠٠٠ م .

٣٣- السيد أدى شير : " معجم الألفاظ الفارسية المعربة " ، بيروت ١٩٨٠ م .

٣٤- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٢ م ، " تاريخ الخلفاء " تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، ياسر صلاح عزب ، القاهرة ، د.ت ،

" حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ". تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٨ .

٣٥- الظاهرى : غرس الدين خليل ، " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " ، القاهرة ١٩٨٨ م .

٣٦- عبد العظيم رمضان : " تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية " ، القاهرة ٢٠٠٠ م .

٣٧- عفاف سيد صبره : " التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية " ، القاهرة ١٩٧٨ م ، " المدارس فى العصر الأيوبى " ، بحث ضمن كتاب " تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية " القاهرة ٢٠٠٠م .

٣٨- العمرى : القاضى ابن فضل الله العمرى شهاب الدين أحمد بن يحيى ، ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م ، " التعريف بالمصطلح الشريف " ، بيروت ، ١٩٨٨ م .

٣٩- فتحى أبو سيف : " المصاهرات السياسية فى العصرين السلجوقى والغزنوى " القاهرة ١٩٨٦ م .

٤٠- القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م ، " صبح الأعشى فى صناعة الإنشا " القاهرة ١٩١٨ م .

٤١- الكتبى : محمد بن شاكر الكتبى ، ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م ، " فوات الوفيات " ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥١ م .

٤٢- مجمع اللغة العربية : " المعجم الوجيز " ، القاهرة ١٩٩٢ م .

٤٣- محمد كرد على : " خطط الشام " دمشق ، ١٩٢٧ م ، " غوطة دمشق " دمشق ١٩٤٩ م .

٤٤- المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م ، " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية " ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، القاهرة ١٩٩٦ م ، " السلوك لمعرفة دول الملوك " ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، بيروت ١٩٩٧ م .

٤٥- منى سعد محمد الشاعر : " آل فضل بن ربيعة ودورهم السياسى فى بلاد الشام فى العصر المملوكى " ، بحث ضمن مجلة كلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ، العدد ١٧ ، لسنة ١٩٩٩م
" العلاقات السياسية بين سلطنة سلاجقة الروم والدولة الأيوبية فى مصر والشام " ، بحث ضمن مجلة الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ، العدد ١٨ ، لسنة ٢٠٠٠ م .

٤٦-ناظم رشيد : " التعليم فى ظل الدولتين الزنكية والأيوبية في الشام " ، بحث ضمن مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العدد ١٠ ، لسنة ١٩٧٩ م .

٤٧-النسوى : شهاب الدين محمد بن محمد المنشئ ، ت ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م ، " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى " ، تحقيق : حافظ حمدى ، القاهرة ١٩٥٣ م .

٤٨- النعيمى : عبد القادر بن محمد النعيمى الدمشقى ، ت ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م ، " الدارس فى تاريخ المدارس " ، جزءان ، تحقيق : جعفر الحسنى ، القاهرة ١٩٨٨ م .

٤٩- النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٢٣ هـ / ١٣٣٢ م ، " نهاية الأرب فى فنون الأدب " ، جـ٢٩ ، تحقيق : محمد ضياء الدين الريس ، القاهرة ١٩٩٢ م .

٥٠- ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى ، ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م ، " معجم البلدان " ، ٥ أجزاء ، بيروت ١٩٧٧م ، ١٩٨٨ .



د. صلاح حسن العاوور (*)

المكانة الاجتماعية للعلماء في العصر الأيوبي وانعكاساتها على علاقتهم بالسلطة

تمحورت معظم جهود الأيوبيين في أغلب فترات حكمهم حول بناء نظم للتعامل مع استحقاقات دولتهم الناشئة ، ولعل أبرز ما ظهر على مسرح الأحداث في تلك المرحلة : ذيول الخطر الإسماعيلي الشيعي الذي خلفته أنقاض الدولة الفاطمية في جسم الدولة الأيوبية ، الوليدة ، وبالتالي فإن الأيوبيين استرسلوا في وضع فلسفة مشبعة بتوجهاتهم وأهدافهم ، بحيث تكون قاعدة فاعلة وقادرة على تجاوز واقع متشعب ومتغلغل في أغلب مؤسسات وأنشطة دولتهم الناشئة ، وذلك من خلال خطوات متنوعة ومدروسة ، في محاولة للوصول إلى أرضية خصبة تصلح لتجذر فكرهم السياسي ، وترعرع مذهبهم السني الشافعي .

ومن الاستحقاقات الأخرى التي ترامت على كاهل الحكام الأيوبيين منذ بداية عهدهم الخطر الصليبي الذي بدأت خيوطه تنسج أهدافها بشكل نشط ومتسارع لاستكمال مخطط لم ينته ، وبالتالي فإن العقل الأيوبي الحاكم انشغل في صياغة التدابير التي تكفل التحرر من تـــــلك

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القدس المفتوحة .

الأزمة السياسية – العسكرية ، التى استهدفت وجودهم بكل ملامحه الدينية والسياسية والحضارية .

وأمام هذا الواقع المنسوج بالتعقيدات ، والمعبق بالمسؤوليات الجسام ، بدأ الأيوبيين يصممون مثلثا ترتكز قاعدته على مساحة اجتماعية واسعة ومتينة فى ذات الوقت ، بحيث تصبح أركان المثلث – الإقطاعيون ، العسكريون ، العلماء – دعامات أساسية يرتكز عليها نظام حكمهم ، وتحميه من الانهيار والزوال .

وفى هذا البحث سيتم تسليط الضوء على أحد أركان ذلك المثلث الأمنى للسياسة الأيوبية الداخلية والخارجية ، وهو الجانب المتصل بالعلماء ، وهنا لابد من التنويه إلى أن هذا البحث سيركز فى هذا المجال على النخبة الفكرية دون غيرها ، لما كان لها من دور مؤثر فى الأحداث التى عصفت بالمجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت ، ولما كان لها من أهمية خاصة فى قاموس السياسة الأيوبية ، حيث سعى النظام الحاكم بوسائله المختلفة لاستقطاب هذه الفئة الاجتماعية فى سبيل تجسيدها على خارطة تحركاته السياسية والاجتماعية والعسكرية ، بهدف ترسيخ أركان سياسته الداخلية ، وتحصين نظام حكمه ضد الأخطار الخارجية .

احتل العلماء موقعا استراتيجيا على خارطة نظام الحكم الأيوبى ، كونهم يشكلون نواة تلتف حولها بأحكام قاعدة اجتماعية عريضة ، فقد وصف سبط ابن الجوزى (١)بأنه " كان أوحد زمانه في الوعظ ، ترق له القلوب ، وتذرف لسماع كلامه العيون ، وكان يحضر مجالسه العلماء والأمراء والوزراء ، ولا يخلو مجلس من مجالسه من اناس يتوبون ، وفى مجالسه يسلم أهل الذمة ، فكان الناس يبيتون في مسجد دمشق لسماع وعظه ، ويتذاكرون ذلك فى أعمالهم " (٢).

وعندما توفى سبط ابن الجوزى بدمشق فى سنة ٦٥٤ هـ ، حضر جنازته خلق عظيم ، كما حضرها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق (٣)، وهذا ما حدث أيضا فى جنازة جمال الدين الحصيرى شيخ الحنفية حيث حمل نعشه على الأصابع (٤).

كان العلماء فى العهد الأيوبى موضع احترام وتقدير أغلب فئات المجتمع ، إذ اجتمعت فى معظمهم صفات دينية وخلقية أكسبتهم تقدير الجميع ، لما عرفوا به من تقوى وورع ، وعفة وأمانة ونزاهة ، وهيبة ووقار ، وتواضع وعدالة ونحوها من الصفات الحميدة ، ومما يذكر فى هذا الباب : أن علم الدين السخاوى (٥)، كان خيرا متواضعا ، حسن النادرة ، وافر الحرمة ، محببا إلى الناس (٦)، وأن جمال الدين الحصيرى (٧): " كان كثير الصدقة ، غزير الدمعة ، عاملا نزيها عفيفا " (٨)، وأن القاسم الشاطبى(٩) : كان زاهدا عابدا مخلصا فيما يقول ، يتجنب فضول الكلام ، لا ينطق إلا بما تدعوه إليه الضرورة ، ولا يجلس للأقراء إلا على طهارة فى هيئة حسنة ، وخشوع واستكانة " (١٠).

لم يتوقف دور العلماء عند حدود النشاط العلمى ، بل تجاوز دورهم إلى معايشة المشكلات المختلفة التى كانت تعصف بالمجتمع الإسلامى فى تلك الفترة ، فالعلماء كانوا يمثلون الأمة ، وبالتالى تقع على عاتقهم مسؤوليات جسام تجاه مجتمعاتهم ، ومن هنا فقد استعصت المغريات والضرورات على لوى فكر الكثير منهم ، إذ تصدت مجموعة منهم لكل من تعدى أو تجاوز حقوق الأمة الإسلامية (١١)،ومما يذكر فى هذا الصدد : أن الشيخ عبد الله اليونينى(١٢) كان جريئا على الملوك ، فيروى عنه بأنه كان يرشد الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه (ت ٦٢٨هـ) ملك بعلبك ، ويغلظ له القول إن ظلم أو حاد عن الحق ، ويذكر عنه أنه كان يخاطب الملك الأمجد ويقول له : يا مجيد وفى روايات يا أميجد - بالتصغير - أنت تظلم وتأكل أموال الناس بالباطل ، والأمجد يعتذر له ويستجيب لأوامره (١٣)، كما روى عنه انصرافه عن لقاء الملوك والأمراء ، وكان إذا قصده هؤلاء لا يحفل باستقبالهم ، ولا يقدم لأحد منهم قط تعظيما لله تعالى ، ويردد : " لا ينبغى القيام إلا لله تعالى " (١٤).

تمكن العلماء من بناء قاعدة اجتماعية قوية استندوا إليها فى توسيع صلاحياتهم فى دوائر السلطة الحاكمة ، فقد استطاعت نخبة من العلماء تصدر القضايا التى تهم المجتمع ، فكانوا روادا فى تلمس حاجات الطبقة الاجتماعية الدنيا ، وجهدوا أنفسهم فى سبيل قضاء حوائج أفرادها ، بحكم نفوذهم وقدرتهم فى كثير من الأحيان على التأثير لدى أصحاب القرار ، ولعل أبلغ دليل على ذلك ، ما روى عن الطبيب موفق الدين بن المطران (١٥)، فقد ذكر عنه

بأنه كان يتشبه بالملوك والوزراء ، ومما يذكر فى هذا : أنه كان من عادة السلطان صلاح الدين وقت حروبه أن تنصب له خيمة حمراء مع دهليزها وشقها ، وحدث أن صلاح الدين كان راكبا فى يوم من الأيام لإحدى غزواته ، وإذا به يشاهد خيمة حمراء اللون تشبه خيمته تماما ، عندما سأل لمن هى ، آخبر بأنها للطبيب موفق الدين بن المطران ، فضحك ولم يعمل شئ (١٦)، وموفق الدين بن المطران هذا ، كان فى المقابل مشهورا بالمروءة وحب الخير للناس ، وكان يقضى حوائجهم عند السلطان ، كما كان كريم النفس ، يهب تلاميذه الكتب ، ويحسن إليهم(١٧).

ولقد أصاب عددا كبيرا من العلماء حظا وافرا من الأموال عن طريق الرواتب والخلع والأعطيات والهدايا التى قدمها لهم أصحاب السلطان ، فقد ذكر العماد الأصفهانى عن السلطان صلاح الدين الأيوبى أنه : لم يترك " قارئا إلا قراه ، ولا راويا إلا أشبعه وأرواه ، ولا حافظ حديث إلا حفظه من الحدثان ، ولا محسن صنعه إلا اصطنعه بالإحسان ، ولا ناظم مدائح إلا نظم له المنائح ، ولا موافيا بقريض إلا وفى قروضه ، وأعجز عن القيام بحمل حمده نهوضه" (١٨). ويؤيد قول الأصفهانى هذا ما ذكره بهاء الدين بن شداد ، إذ يقول عن السلطان صلاح الدين بأنه كان " يوصينا بأن لانغفل عمن يجتاز بالمخيم من المشايخ المعروفين ،حتى نحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه " (١٩).

وقد سار معظم خلفاء صلاح الدين على نهجه فى إكرام العلماء وتقديرهم ، فقد ذكر عن الملك محمد صاحب مصر ، بأنه كان يكرم العلماء ، ويطلق " لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الدارة " (٢٠)، وروى عن الملك الناصر داود بأنه قد أنفق فى جوائز الشعراء السبعين ألفا ، وأهان لهم كرايم الأموال ، ولم يعرها طرفا" (٢١)، ولعل هذا النعيم الذى أصيب مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء والأدباء ، إلى جانب صفات البذل التى تحلت بها فئة من علماء العهد الأيوبى قد أسهم بشكل كبير فى تنمية العديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية ، فقد اشتركت مجموعة من العلماء فى إنشاء عدد من المدارس الموقوفة والمراكز العلمية الأخرى ، ورصدوا لها الأوقاف الوفيرة الدارة ، كما ساهموا بفاعلية فى تعهد عدد كبير من طلاب العلم بالرعاية والعناية ، وكفوهم غوائل الفقر والعوز ، كما ترفع بعضهم عن أخذ أجرة عملهم ، ومما

يذكر : أن الشيخ شرف الدين أحمد بن قدامة المقدسي الصالحي (ت ٦٨٧ هـ) ، كانت له " حلقة بالجامع المظفرى يشتغل بها احتسابا من غير معلوم " (٢٢). وأن الحافظ القاسم بن على بن عساكر (ت ٦٠٠ هـ) مدرس دار الحديث النورية بدمشق ، كان يرفض أن يتناول معلومه ، بل جعله مرصدا لمن يرد عليه من الطلاب (٢٣). ومما يذكر أيضا عن بذل العلماء لأموالهم فى أوجه الخير ، أن الضياء المقدسي (٢٤)، قد بنى مدرسته الضيائية المحمدية بدمشق (٢٥)، من أموال جمعها فى جولاته المتعددة فى كل من بغداد وأصفهان ونسابور والموصل ، حيث أنفق على بنائها كل ما جمعه (٢٦)، وذكر عنه أيضا بأنه أوقف جميع مصنفاته ، وما حصله وكتبه بخطه من المسانيد والأجزاء على مدرسته الضيائية (٢٧)، ومما يذكر فى هذا الصدد الشواهد التاريخية أيضا أن فاطمة السمرقندية العالمة ابنة العالم الفقيه محمد بن أحمد السمرقندى صاحب كتاب " التحفه " ، وزوجة الإمام علاء الدين أبى بكر بن مسعود الكاسانى صاحب كتاب " البدائع " ، كانت قد سنت تناول طعام الإفطار فى رمضان للفقهاء بالمدرسة الحلاوية بحلب (٢٨)، وأيضا ما رواه شامة المقدسى عن الفخر بن عساكر (٢٩)، من أنه كان يرعى طلبة العام رعاية كبيرة ، فقد كان " إذا قدم له غذاؤه ، استدعى من أهل مدرسته ممن حضر ليأكل معه " (٣٠).

ومن الشواهد التاريخية التى تشير إلى المكانة الاجتماعية التى تبوأها علماء العهد الأيوبى ، أن واقفى المدارس حرصوا بشدة على استقطاب المتميزين منهم لتصدر التدريس فى منشآتهم العلمية ، ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال استعراض عدد من العلماء الذى تصدروا التدريس بالمدرسة الصلاحية بالقدس (٣١)، فقد تولى التدريس فيها علماء أجلاء عرفوا بعلمهم وفضلهم ، أمثال : بهاء الدين بن شداد (٣٢)، الذى وصف بأنه " كان إماما فاضلا ثقة ، عارفا بالدين والدنيا ، ورئيسا مشارا إليه ، متعبدا متزهدا ، نافذ الكلمة ، وكان يشبه بالقاضى أبى يوسف فى زمانه "(٣٣) ، كما تولى التدريس بهذه المدرسة نخبة من العلماء الأجلاء الذين كانوا أعلاما بارزين فى تخصصاتهم . أمثال : مجد الدين بن جهبل (٣٤)، الذى كان " إمام وقته فى علمه ودينه " (٣٥). وأبو عمرو تقى الدين بن صلاح(٣٦)، الذى كان " أحد فضلاء عصره فى التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال ، وما

يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة ، وكانت له مشاركة فى فنون عديدة " (٣٧)، وابـن واصـل الحموى (٣٨)، الذى كان " إماما عالما بعلوم كثيرة خصوصا العقليات ، مداويا على الاشتغال والتفكير والعلم " (٣٩).

ومما يؤكد المكانة الاجتماعية التى ارتقى إليها علماء العهد الأيوبى ، أن أغلب واقفى المدارس والمراكز العلمية المختلفة ، كانوا يتخيرون أشهر العلماء لتصدر التدريس فى منشآتهم العلمية ، لدرجة أن بعض المدارس فى العهد الأيوبى لأجل علماء بعينهم ، عرفوا بفضلهم ومكانتهم فى المجتمع وطبقت شهرتهم العالم الإسلامى آنذاك ، انطلاقا من أن المدرسة كانت فى ذلك الوقت عبارة عن أستاذ متميز (مدرسة فكرية) ، يرحل إليه طلاب العلم من أقاصى البلاد للدراسة عليه للاستفادة من علمه (٤٠)، ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن الملك المنصور صاحب حماه ، شيد المدرسة المنصورية (٤١)للإمام سيف الدين الأمدى (٤٢)، حتى أنها كانت تعرف أحيانا باسمه (مدرسة الأمدى)(٤٣)، ويتضح هذا الاتجاه أيضا من خلال ما نصت عليه بعض الوقفيات المدرسية ، إذ اشترطت مدرسين بعينهم لتولى مهمة التدريس فيها ، فقد نصت وقفية المدرسة المسرورية بدمشق (٤٤)، على أن يكون الفقيه العالم ناصح الدين أبو الحسن على بن مرتفع بن أفتكين الجميزى المصرى العدلى ، أول من يدرس بها " لما علم من دينه وأهليته للتدريس بها ، واستجماع شرائط الواقف " (٤٥)، كما أن المدرس أحيانا كان يعين من قبل السلطان ، وهو ما يشير إلى علو منصب التدريس فى تلك الفترة ، فقد كان شيخ المدرسة الصلاحية بالقدس يعين بتفويض من السلطان(٤٦). ومن الدلائل التى تشير إلى هذا الاتجاه أيضا ، أنه كان يشترط فيمن يتولى وظيفة ناظر المدرسة ، التحلى بالأمانة والعدالة والكفاية ، كون هذا المنصب يعتبر أعلى سلطة إدارية فى المدرسة ، وعليه كان يعتمد ازدهار المدرسة أو أفولها وربما زوالها ، على اعتبار أن ناظر المدرسة متولى نظارة أوقافها ، ومشرفا ومباشرا لشؤونها العامة (٤٧)، ولذلك أسند النظر فى أغلب الأحيان إلى أهل العلم من القضاة وكبار العلماء ، فقد جعل السلطان صلاح الدين الأيوبى النظر فى المدرسة الصلاحية بالقدس إلى القاضى بهاء الدين بن شداد " رضا ما بأمانته ، واعتقادا بكفايته ، واعتمادا على ديانته " (٤٨).

هناك العديد من المظاهر التي تبين بجلاء المنزلة الاجتماعية التي ارتقى إليها علماء العهد الأيوبي ، ومن تلك المظاهر : أن واقفي المدارس حرصوا على حضور أفاضل العلماء برفقة أرباب الحكم وأهل الحل والعقد في يوم افتتاح مدارسهم ، كي يتصدروا مهمة إلقاء الدرس الأول فيها ، تشريفا لواقف المدرسة وشهرة لمدرسته ، فقد ذكر بأن المدرسة العادلية الكبرى بدمـــشق (٤٩)قد افتتحت في احتفال كبير ، وذلك في سنة ٦١٩ هـ بحضور الملك المعظم عيسى وكبار العلماء والقضاة ، ومما ذكر في سياق ذلك الحدث . أن الملك المعظم عيسى شارك في الدرس الذي ألقاه حينها الجمال المصري (٥٠)، حيث دارت حلقة عظيمة في ذلك اليوم ، فكان كما روى " مجلسا عظيما جليلا "(٥١) ، ومما يذكر في هذا الصدد أيضا أن ربيعة خاتون ابنة الملك نجم الدين أيوب (ت ٦٤٣ هـ) ، قد حضرت افتتاح مدرستها الصاحبة بدمشق (٥٢)، وذلك في سنة ٦٢٨ هـ ، واستمعت إلى درس الشيخ الناصح الحنبلي(٥٣) "من وراء الستار" (٥٤).

ومن المظاهر الأخرى التي يمكن من خلالها تلمس المكانة الاجتماعية التي وصل إليها علماء العهد الأيوبي أن الألقاب العلمية التي كانت تلازم أسماء العلماء المبرزين ، لم تكن ألقابا رسمية ، وإنما هي ألقاب أطلقها عليهم أفراد المجتمع تشريفا وتقديرا لهم (٥٥)، فقد وصف السيف الآمدي بأنه : " الإمام سيف الدين .... أوحد الفضلاء وسيد العلماء ، كان أذكى أهل زمانه ، وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية "(٥٦) ، ولقب تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح بالإمام الحافظ ، لأنه كان " أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث "(٥٧) .

ومن المظاهر العديدة التي تشير إلى المكانة الاجتماعية التي تمركز بها علماء العهد الأيوبي ، أن بعض العلماء المبرزين في علمهم وفضلهم ، رفضوا الاستقلال بالتدريس رغم ما توفر لهم من فرص للارتقاء في مناصب التدريس ، لأنهم فضلوا ملازمة شيوخهم والاستمرار بالدراسة عليهم ، والانتفاع بعلمهم (٥٨)، فكمال الدين المغربي (٥٩)رغم شهرته العلمية ، آثر أن يبقى معيدا لدى استاذه تقي الدين بن الصلاح فترة عشرين عاما بالمدرسة الرواحية بدمشق (٦٠). ومن الشواهد التي تؤكد فضل العلماء في ذلك العهد ، أن طلاب العلم كانوا يتعقبون العلماء المبرزين في أي مكان يحلون به ، حرصا على ملازمتهم والارتواء من علمهم الغزير ، فكثير من طلاب العلم كانوا يتوافدون على منازل المبرزين من العلماء ، ومما يذكر في هذا الصدد :

أن بهاء الدين بن شداد عندما نال منه الدهر ، وأصابته الأمراض ، لزم بيته وأخذ يلقى دروس الحديث على من يحضر إلى منزله من المشتغلين(٦١) ، كذلك فإن الموصوفين بصناعة الطب كانوا يعقدون مجالس خاصة فى منازلهم للمشتغلين عليهم ، وقد نقل إلينا ابن أبى أصيبعة صورة لإحدى المجالس الطبية التى كان يقيمها الأطباء في منازلهم ، لاسيما بمدينة دمشق ، وهو مجلس الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار(٦٢) ، فيقول : كان بعد أن يفرغ من العمل فى البيمارستان النورى ، يعود إلى داره ، ثم يشرع في القراءة والمطالعة والنسخ ، فإذا فرغ من ذلك ، أذن للجماعة فيدخلون إليه ، ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين ، وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ، ويبحث معه فيه ، ويفهمه إياه بقدر طاقته ، ويبحث فى ذلك مع المتميزين منهم ، إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث ، أو فيه أشكال يحتاج إلى تحرير ، وكان لا يقرئ أحدا إلا وبيده نسخه من ذلك الكتاب ، يقرأه ذلك التلميذ ، وينظر فيه ويقابل به "(٦٣).

ومما يشير بجلاء إلى المكانة الاجتماعية التى حظى بها علماء العهد الأيوبى ، أن أصحاب الحكم تنافسوا فى لقائهم وملازمتهم ، ليقينهم بأن احتضان العلماء يضفى على حكمهم صفة القبول والرضا فى الداخل والخارج ، كما أن هذا الإجراء من شأنه أن يعزز أركان دولتهم ، ويوطد سلطانهم فيها ، فقد روى المقريزى : أنه كانت تبيت عند الملك الكامل محمد صاحب مصر بالقلعة " جماعة من أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه " (٦٤). كما كان فى رحاب الملك المنصور محمد بن عمر صاحب حماة ، ما يناهز المئتين من الفقهاء والنحاة وأهل اللغة والمشتغلين بالعلوم الحكمية والمهندسين والمنجمين والشعراء والكتاب والأماثل(٦٥) . ومما روى فى هذا الصدد أيضا : أن بلاط الملك المعظم عيسى كان يضم عددا كبيرا من العلماء والأدباء ، وخاصة المشتغلين منهم بالعلوم العقلية ، كالسيف الآمدى ، وشمس الدين الخسر وشاهى(٦٦) . ووصف ابن خلكان بلاط الملك الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين الأيوبى في حلب ، بأنه كان مجمعا لأهل العلم والفضل(٦٧) ، ومما يشير إلى هذا الاتجاه أيضا أن ملوك بنى أيوب وأمرائهم حرصوا على إنزال العلماء منزلة سامية لديهم ، فكانوا يحضرون مجالسهم ، ويتواضعون لهم ويتواصون فى تقديرهم وإكرامهم سعيا إلى تحويل قصورهم إلى منتديات علمية يجتمع فيها العلماء والفقهاء والأدباء ، ومثابات يلتقى فيها أرباب العلم والفضل(٦٨) ، فقد جمع بلاط السلطان صلاح الدين الأيوبي

جمهرة من العلماء والفقهاء والأدباء ، وكان السلطان يحضر مجالسهم ، ويحسن الاستماع والمشاركة[٦٩] ، كما كان عند الملك المعظم عيسى جماعة من الفضلاء لا يفارقونه فى سفر ولا حضر[٧٠] .

لم يكتف ملوك بنى أيوب وأمرائهم عند حد الاجتماع بالعلماء فى قصورهم ، وإنما سعوا إليها طلبا للعلم والمعرفة ، لدرجة أنهم كانوا يغشون العلماء فى منازلهم للدراسة على أيديهم والانتفاع بعلمهم ، فقد ذكر أن الناصر داود بن الملك المعظم عيسى (ت ٦٥٥ هـ) كان يتردد إلى منزل الشيخ شمس الدين الخسروشاهى ، ليقرأ عليه كتاب (عيون الحكمة)[٧١] ، وأن الملك المعظم عيسى كان يسير ماشيا إلى منازل الشيخ تاج الدين الكندى[٧٢] ، وكتابه تحت إبطه من القلعة إلى بيت الشيخ فى درب الأعاجم بدمشق كى يحضر دروسه[٧٣] .

كذلك فقد شهدت قصور الحكام الأيوبيين انعقاد العديد من المجالس الأدبية والعلمية ، لاسيما أثناء فترة الحملات الصليبية ، إذ تهيأت بيئة كثر فيها القول فى الاستنجاد ، وتمجيد البطولات وتسجيل المعارك ، والتحريض على الجهاد ، وقد كان لأولئك الحكام دور كبير فى إحياء الحلقات والمناظرات العلمية والأدبية ، وخاصة حلقات الشعر ، حيث اشتهر كثير منهم بقرض الشعر ، وأحيانا كانت تلك المجالس العلمية والأدبية تتجاوز حدود القصور إلى مواضع أخرى كان الحكام يحلون بها فى أسفارهم ، لتتحول تلك المواضع إلى مجالس علمية تثار فيها مناقشات ومحاورات تتناول جوانب مختلفة من ضروب المعرفة[٧٤] ، فقد ذكر ابن واصل الحموى أن الملك المعظم عيسى لما قدم القدس فى سنة ٦٢٣ هـ ، جلس خارج الصخرة الشريفة ، واستدعى جماعة من الفقهاء وفيهم والد ابن واصل وباحثهم فى مسائل لغوية وفقهية[٧٥] كما ذكر أن الملك الكامل محمد صاحب مصر نزل فى أحد أسفاره مدينة دمشق ، واستحضر بها جماعة من العلماء وكان فيهم الشيخ زين الدين بن معطى النحوى المغربى[٧٦] ، وتناقش معه فى مسائل نحوية .

ومن الإشارات التاريخية التى توضح حرص حكام بنى أيوب على ملازمة العلماء ، المساعى التى كانوا يبذلونها فى سبيل استقطاب العلماء إلى مناطق حكمهم ، فقد ذكر أن الملك الكامل محمد صاحب مصر طلب من الشيخ زين الدين الزواوى المعروف بابن معطى - بعد أن ذاعت شهرته فى دمشق - بالقدوم إلى مصر ، فاستجاب ابن معطى لطلبه وسافر إليه وهناك تصدر فى الجامع العتيق لإقراء الأدب[٧٧] . ومما يذكر أيضا فى هذا الباب أيضا : أن

الناصر داود تتلمذ منذ طفولته على الشيخ شمس الدين الخسروشاهي ، وكان يحرص على نهل العلم منه ، ولذلك حرص على ملازمته ، فاستدعاه ليقيم عنده في الكرك ، فأقام عنده سنين يدرس العلوم الطبية والفلسفية والفقهية ، وينعم بعطاياه وكرمه ، فأصبحت الكرك في ظل حكم الناصر داود مركزا للدراسات الفلسفية والعقلية(٧٨) .

كذلك فإن مدينة حلب شهدت نشاطا ملحوظا في مجال إنشاء المدارس في عهد صاحبها الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، لاسيما عندما اتصل بخدمته بهاء الدين بن شداد ، الذي كان له فضل يذكر في تنشيط الحركة العلمية في حلب ، فقد عمرت في أيامه مدارس كثيرة ، حتى حصلت بها الاستفادة والاشتغال ، فقصدها الفقهاء وكثر بها الجمع(٧٩) ، ولعل أبرز ما يذكر في هذا الصدد ما روى عن الشيخ العز بن عبد السلام(٨٠)، فعندما قام الصالح إسماعيل في سنة ٦٣٨ هـ بتسليم بعض بلاد الساحل للصليبين ، وسمح لهم بدخول دمشق وابتياع السلاح منها وشق هذا الأمر على الشيخ ابن عبد السلام ، وأنكر ذلك غاية لإنكار ، فوقف على منبر جامع بني أمية بدمشق ينتقد الملك الصالح إسماعيل ويذمه على فعله الشنيع ، حتى أنه يومها قطع الدعاء له في الخطبة ودعا عليه ، والناس يضجون بالدعاء ، مما أدى إلى غضب الملك الصالح إسماعيل عليه ، فعزله من الخطابة ، وضيق عليه وحبسه ، وبعد أن أفرج عنه خوفا من نقمة الناس عليه ، وألزمه داره ، فآثر الشيخ مفارقة دمشق والتوجه نحو بيت المقدس ، وعندما سمع الناصر داود بقدومه ، وافاه بالغور ، وأكرمه حتى بالغ في ذلك ، ثم اصطحبه إلى الكرك ، وقال له :" تقدم عندي بهذا الحصن ، وأنا لا أخرج عن أمرك "(٨١) ، فأقام عنده مدة يسيرة ، ثم استأذنه في الخروج ، فانزعج الملك الناصر داود لهذا الأمر ، وسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه عنده ، فقال له : " هذا بلد صغير ، وأنا أحب الانتقال من بلد إلى بلد أنشر به ما عندي من العلم "(٨٢) فسمح له الملك الناصر داود وغادر إلى القاهرة ، حيث استقبله هناك الملك الصالح أيوب ، وأكرمه غاية الإكرام وفوض إليه خطابة الجامع العمري ، وقضاء مصر والوجه القبلي(٨٣) .

أدرك الأيوبيون الدور الخطير الذي يمكن أن يقوم به العلماء في تشكيل ملامح دولتهم على جميع المستويات : السياسية والعسكرية والإدارية والثقافية والاجتماعية ، لاسيما في ظل أجواء مشحونة باضطرابات خيمت غيومها على معظم مناطق نفوذهم في ذلك الوقت ، فالحكام يدركون تماما كم تمتلك هذه الفئة الاجتماعية الهامة لأدوات فاعلة تمكنها من لعب دور

مفصلى وحاسم فى مجريات الأحداث التى كانت تعصف بالمجتمع الإسلامى فى تلك الفترة ، فهى تأسر قاعدة اجتماعية عريضة ، وبالتالى يمكنها تحريك هذه القاعدة بسهولة ويسر فى الاتجاه الذى تريده ، كما أن أذرع هذه النخبة الاجتماعية تمتد إلى كافة مؤسسات الدولة الثقافية والاجتماعية والسياسية الإدارية ، وفوق هذا فإنها تحتكر عقولا تستطيع أن ترسم وتخطط لاستراتيجيات تحمل بين طياتها مخارج للأزمات العصيبة التى كانت تمر بها الدولة ، ومن هنا جهد الأيوبيون فى استقطاب تلك النخبة ، واتخذوا إلى حدود مملكة سياساتهم وتوجهاتهم واعتباراتهم . وأمام ذلك الحتم السياسى والعسكرى الذى أحاط بدولة الأيوبيين تهافت الحكام للإستعانة بنخبة من العلماء فى تسيير دفة شؤون الحكم ، فهيأوا فرصا عظيمة ومرموقة أمام مجموعة كبيرة منهم تكفل اعتلائهم سدة أغلب الأنشطة السياسية والإدارية والاجتماعية ، ومن الأمثلة على ذلك : أن السلطان صلاح الدين الأيوبى فوض إلى القاضى بهاء الدين بن شداد قضاء العسكر وبيت المقدس والنظر فى أوقافه(٨٤) . وبناء على رغبة الحكام تغلغل العلماء فى مؤسسات الدولة المختلفة ، لدرجة أن الحكام لم يرتضوا بديلا عنهم لترأس أنشطة الدولة المختلفة ، انطلاقا من أن الطبقة الحاكمة لا يمكن لها أن تنفذ سياستها بمعزل عن استجابة القوى الفكرية ومساندتها ، فقد روى ابن كثير فى حوادث سنة ٦٦٤ هـ ما يشير إلى ذلك ، إذ يقول : " وفى هذه السنة استجد بدمشق أربعة قضاة ، وصار لكل منصب قاضى للقضاة .. وللمالكية عبد السلام الزواوى الذى امتنع عن الولاية فألزم بها حتى قبل ، ثم ألزم بها ، فقبل شرط أن لا يباشر أوقافا ، ولا يأخذ جامكية على الحكم ، فأجيب إلى ذلك "(٨٥) .

ومن المظاهر التى تشير بجلاء إلى مدى التفات حكام بنى أيوب للعلماء ، الحرص الذى أبداه بعضهم بشأن استشارة العلماء قبل البت فى بعض القضايا الهامة ، ومما يذكر فى هذا الأمر : أن السلطان صلاح الدين الأيوبى بعد استرجاعه القدس من الصليبيين فى سنة ٥٨٣هـ ، جلس مجلسا عظيما ضم مجموعة من العلماء البارزين والأتقياء الأخيار ، وفاوضهم فى تشييد مدرسة للفقهاء ، ورباطا للصلحاء الصوفية(٨٦) ، ولما نوى السلطان صلاح الدين الأيوبى أداء فريضة الحج فى سنة ٥٨٨ هـ ، استشار القاضى الفاضل ، فأشار عليه بعدم الخروج للحج خوفا من رجوع الصليبيين إلى القدس ، وقد بلغ من اعتماد صلاح الدين على مشورة القاضى الفاضل ، بأن أخذ رأيه ولم يخرج للحج فى ذلك العام(٨٧) ، كما ذكر بأن

السلطان صلاح الدين كان كثير الاستشارة للفقيه زين الدين على بن إبراهيم بن نجا (ت ٦٠٠ هـ) ، الذى كان له الفضل فى كشف مؤامرة عمارة اليمنى ، التى استهدفت حياة صلاح الدين ، وإحياء الدولة الفاطمية بالتعاون مع الفرنج والحشاشية الإسماعيلية فى بلاد الشام[٨٨] ، ولذلك جعله صلاح الدين من كبار مستشاريه ، وكان يسميه عمرو بن العاص لدهائه وحسن حيلته[٨٩] ، وفيه يقول أبو شامه : كان للفقيه زين الدين بن نجا منزلة عالية عند صلاح الدين .. وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره ، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته[٩٠].

ولعل أبرز المؤشرات التى تؤطر العلاقة ما بين السلطة والعلماء هى انتخاب حكام بنى أيوب لبعض العلماء المبرزين كى يكونوا على رأس سفاراتهم إلى الخارج ، فعندما توفى معين الدين حسن بن حمويه[٩١] ، لينوب عنه فى نقل تعازيه إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد ، ومهنئا فى الوقت نفسه بخلافه المستنصر بالله[٩٢] ، وفى سنة ٦٢٤ هـ اختار الملك الكامل محمد صاحب مصر ، شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف بن حموية[٩٣] ، ليكون سفيره فى المفاوضات بينه وبين الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لما كان له من مكانة بارزة لدى الملك الكامل محمد ، ولما عرف عنه من علم واسع ، وذكاء مفرط ، وشخصية قوية وقد انتهت سفارة شيخ الشيوخ فخر الدين بن حموية باتفاقية يافا فى سنة ٦٢٦هـ ، التى تنازل فيها الملك الكامل عن القدس باستثناء الحرم وما حوله من الصخرة والمسجد الأقصى "[٩٤] ، كذلك أرسل الملك الناصر داود كمال الدين بن العديم إلى الخليفة العباسى ، فأكرمه غاية الإكرام ، حتى قيل له : " نحن نعظم الرسل لأجل مرسليها ، ونحن نعظم مرسلك لأجلك "[٩٥] .

فى ظل هذا الواقع الذى كان يترجم أهمية العلماء ، ويرسم بوضوح صورة موقعهم الاجتماعى والفكرى والسياسى والإدراى على خارطة نظام الحكم الأيوبى ، وجدت السلطة نفسها أمام إشكالية معقدة تستلزم نوعا من الحنكة السياسية فى التعامل مع هذه الفئة الاجتماعية الهامة ، فالسلطة لم يكن من مصلحتها تهميش العلماء ، وفى ذات الوقت كان يعنيها كثيرا التبرك بولائهم والتنعم بهدوئهم ، ولأما هذه المعادلة الشائكة ، حاولت السلطة رسم سياسة حذرة تجاه العلماء مشوبة بنوع من الحكمة ، إذ قامت بتوظيف المتوازيات الفكرية بكل جدارة وكفاءة ، أما التقاطعات الفكرية مع طبقة العلماء ، فقد حاولت ثلمها إلى درجة لا تثير ضدها عاصفة شعبية ، لاسيما في ظل غوائل داخلية وخارجية تتربص للفتك بها

وبنظامها السياسى والمذهبى ، ولذلك تأرجحت السياسة الأيوبية تجاه العلماء بين التملق والرياء والمداهنة ، وأحيانا بالحبس والنفى ، ولكن لم يصل الأمر إلى القضاء عليهم ، باستثناء حالة واحدة ، تمثلت فى قتل الفيلسوف شهاب الدين السهروردى(٩٦) على يد الملك الظاهر غازى صاحب حلب فى سنة ٥٨٧ هـ ، بناءا على طلب والده السلطان صلاح الدين الأيوبى ، فكان مقتل السهروردى في ذلك العهد بمثابة انعطاف جذرى فى تاريخ الفكر الفلسفى الإسلامى ، إذ ترتب على ذلك عزل الفلاسفة ، وجنوحهم نحو تصنيف آثارهم والاشتغال بعلومهم فى الكتمان ، وبذلك أصبح انعزال الفلاسفة فى أغلب مراحل العهد الأيوبى ، من أبرز الملامح الفكرية للعصر(٩٧) ، لأن الأيوبيين نظروا إلى الفلسفة على أنها خطر دينى وسياسى فهى من وجهة نظرهم تعتبر من مخلفات الدولة الفاطمية ، وبالتالى فهى من العلوم الهدامة التى ينبغى محاربتها واستئصال جذورها(٩٨) .

حرصت السلطة الأيوبية على تفادى انشقاق طائفة العلماء عليهم ، خشية حدوث شرخ أو تصدع فى القاعدة الاجتماعية الملتفة حولهم ، فعندما انقطع الحافظ بن عساكر الدمشقى عن المجلس الصلاحى ، تكرر طلب السلطان له ، وعندما حضر عاتبه صلاح الدين على انقطاعه ، فرد عليه " نزهت نفسى عن مجلسك ، فإننى رأيته كبعض السوقة ، لا يستمع فيه إلى القائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل ، على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار فإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه ألا يكون منهم ما جرب به عاداتهم إذا حضر الحافظ "(٩٩) ، ومما يذكر فى هذا الصدد أيضا : أن الملك الصالح إسماعيل عندما سلم فى سنة ٦٣٨ هـ بعض بلاد الساحل للفرنج ليكونوا معه على الصالح نجم الدين أيوب ، شق هذا الأمر على الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب دمشق ، فأنكره غاية الأنكار ، حتى أنه أسقط فى خطبته اسم الملك الصالح إسماعيل ، الأمر الذى أغضب الملك ، ودفعه إلى عزل ابن عبد السلام من الخطابة ، والتضييق عليه وحبسه ، ولكن سرعان ما أفرج عنه خوفا من نقمة الناس عليه ، نظرا لما كان يتمتع به ابن عبد السلام من مكانة دينية وعلمية واجتماعية(١٠٠) .

لم يقف العلماء مكتوفى الإيدى أمام تجاوزات أفراد السلطة الحاكمة ، بل تصدوا لهم دون كلل رغم ما أصابهم ولحق بهم من سوء وضرر جراء ذلك ، فعندما سلم الملك الكامل محمد القدس للصليبيين فى سنة ٦٢٦ هـ بمقتضى معاهدة يافا التى عقدت بينه وبين الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، قام سبط ابن الجوزى بعقد مجلس

وعظ ، وفى هذا المجلس شنع فعلة الملك الكامل محمد ، فقال : " ووصلت الأخبار تسليم القدس للفرنج ، وقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام ، واشتدت العظائم ، بحيث أقيمت المآتم ... فجلست بجامع دمشق ... وكان يوما مشهودا لم يتخلف من أهل دمشق أحد "(١٠١) ، وفى هذا المجلس ذكر سبط ابن الجوزى فضائل القدس ، وما ورد فيها من أخبار ، وكان من جملة ما قاله : " انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كما كان لهم فى تلك الأماكن من ركعة .. أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، ولمثلها تنقطع القلوب من الزفرات ، ولذكرها تعظم الحسرات "(١٠٢) ، وقد اشتد تأثر الناس بمجلس سبط ابن الجوزى ، وفى ذلك يقول ابن واصل الحموى : " وحضر الناس لاستماع وعظه ، وكان يوما مشهودا ، وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم ، وحضرت أنا هذا المجلس "(١٠٣) . وعندما أعاد الملك المعظم عيسى تضمين المكوس والخمور ، أنكر الفخر بن عساكر عليه ذلك ، الأمر الذى دفع بالمعظم إلى انتزاع التدريس منه المدرسة الصلاحية بالقدس ، وبالمدرسة التقوية بدمشق(١٠٤) . كما ذكر أن القاضى ابن فلوس قد " أرسل إليه المعظم أن يفتى بإباحة نبيذ التمر وماء الرمان على مذهب بعض الأحناف "(١٠٥) ، فلما امتنع عن ذلك ، غضب عليه المعظم وأخرجه من المدرسة الطرخانية(١٠٦) .

ومما يروى من أحداث تصدى العلماء للسلطة الحاكمة متى تجرأت على حقوق الأمة ، أن القاضى ابن عين الدولة(١٠٧) قاضى مصر فى عهد الملك الكامل محمد ، قد رفض أن يقبل شهادة الملك الكامل فى إحدى القضايا التى عرضت عليه ، لتعلق الملك بمغنية تدعى (عجيبة) ، كان الملك الكامل قد أولع بها ، وحرص على حضورها إلى مجلسه لتغنى له ، وعندما أهان الملك الكامل القاضى ابن عين الدولة على موقفه هذا ، قام القاضى بعزل نفسه عن القضاء ، ولكن الملك الكامل سرعان ما أرسل إليه من يسترضيه ، ويعيده إلى منصبه ، بناءا على نصيحة قدمها إليه الفقيه الأمير فخر الدين بن صدر الدين بن حموية ، بين له فيها أن تصرفه هذا قد يؤدى إلى إشاعة أمر (عجيبة) ، وبالتالى يكون سببا وأداة للتشنيع عليه(١٠٨) .

وهكذا حاولت السلطة الأيوبية عدم الانقلاب على العلماء ، خوفا من اهتزاز القاعدة الاجتماعية وانسحاب بساطها من تحت أركان نظامها الحاكم ، فبعد أن تبين لها عقم سياسة الصدام المباشر مع العلماء ، لاسيما أولئك الذين أظهروا نوايا التمرد عليها ، تخفى أفراد

السلطة تحت مظلة نظام الوقف ، وغيروا دوره الوظيفى الأصيل ، ليصبح أداة تساعدهم فى كبح جماح من تجرأ عليهم ، إذ ضمنوا لوائح الوقفيات تشريعات توائم توجهاتهم وأهدافهم ، ونشروا بين نصوصها شروطا تعثر نزعات أضادهم من النخبة الفكرية .

عموما يمكن تقييم المكانة الاجتماعية التى تمركزت فيها طبقة العلماء ، وانعكاساتها على علاقاتهم بالسلطة الحاكمة من خلال استعراض قطبى هذه المعادلة : قال السلطان صلاح الدين الأيوبى مخاطبا بعض جنده : " لم أفتح البلاد بسيفى ، وإنما برأى القاضى الفاضل "(١٠٩) ، وقال الملك الظاهر بيبرس عندما توفى الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى سنة ٦٦٠ هـ : " لم يستقر ملكى إلا الساعة ، فإنه لو أمر الناس فى شأنى بما أراد ، لبادروا إلى أمتثال أمره "(١١٠) . فالقراءة الفاحصة لمضامين هذه المعادلة ، تترجم طيات أبعادها ، وتفسر مغازى نصوصها ، وهى بالتالى مرآة تعكس بوضوح صورة العلاقة التى جمعت بين العلماء والسلطة الأيوبية .

الهوامش

١- سبط ابن الجوزى ، يوسف بن قزا أو غلى بن عبد الله : ولد فى بغداد فى سنة ٥٨١ هـ، كان بارعا فى الوعظ والتاريخ ، وقد حظى بمكانة مرموقة لدى ملوك بنى أيوب لمكانته العلمية ، درس فى عدة مدارس بدمشق منها : العزية الجوانية والبدرية ، من أهم مؤلفاته : مرآة الزمان ، تفسير القرآن ، توفى فى سنة ٦٥٤هـ. ابن حبيب : درة الأسلاك (مخطوط)، جـ١ ، ٢٠ ب - ٢١ إ - ابن الأهدل : غربال الزمان (مخطوط) ، و١١٣ ب ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ١٩٤ .

٢- ابن حبيب : درة الأسلاك (مخطوط) ، جـ١ ، و ٢٠ ب - ٢١ أ .

٣- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ١٩٤ .

٤- النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٦٢٠ .

٥- علم الدين السخاوى : هو على بن محمد بن عبد الصمد ، كان إماما فى النحو واللغة والتفسير والأدب أقرأ القرآن بجا مع دمشق ، ثم بتربة أم الملك الصالح ، من أهم مصنفاته : حرز الأمانى ، الكوكب الوقاد فى الاعتقاد ، توفى فى سنة ٦٤٣ هـ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ بدوى : الحياة العقلية ، ص ١٠٤-١٠٧ .

٦- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ١٧٠ .

٧- جمال الدين الحصرى : هو جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السيد بن عثمان البخارى ، ولد فى سنة٥٤٦ هـ بمدينة بخارى ، رحل إلى الشام ، ودرس فى حلب ، وحظى بدمشق بمكانة مرموقة لدى الملك المعظم عيسى وابنه الناصر داود ، وفى أيام الملك المعظم عيسى إنتهت إليه رئاسة المذهب الحنفى بدمشق ، من أهم مؤلفاته : خير مطلوب في الفتاوى الذى صنفه للملك الناصر داود ، توفى فى سنة ٦٣٦ هـ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٢٠-٧٢١ .

٨- سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٢١ .

٩- القاسم الشاطبى : هو أبو محمد القاسم بن نيرة الرعينى الشاطبى ، ولد فى سنة ٥٣٨ هـ بشاطب احدى بلاد الأندلس ، حفظ القرآن وسمع بالإسكندرية الحافظ السلفى ، وقد طلبه القاضى الفاضل للأقراء بمدرسته في القاهرة فصار شيخا لها ، وقد ترك ثلاث قصائد فى القراءات أهمها : الشاطبية واسمها (الأمانى ووجه التهانى) . * ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص ٣٠٢ .

وانظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ٧١ * .

١٠- ابن العمـاد الحنبلي : شـذرات الذهب ، جـ٤ ، ص ٣٠١ .
وانظر : أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٧ .

١١- المصري : التعليم في بلاد الشام ، ص ٢٧-٢٨ .

١٢- عبد الله اليونيني : هو أبو عثمان عبد الله بن عبد العزيز بن جعفر اليونيني ، ولد في يونين في حدود سنة ٥٣٤ هـ ، كان معروفا بالزهد والتصوف ، سكن في بعلبك وعرف بالمجاهدات والكرامات ، ومن ألقابه : أسد الشام والزاهد الكبير ، توفي في سنة ٦١٧ هـ
اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، جـ٢ ، ص ٣٩ - ٤٠ .
نصر الله : تاريخ بعلبك ، جـ٢ ، ص ٣٣٣-٣٣٩ .

١٣- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ٧٣ .

١٤- المصدر نفسه : جـ٥ ، ص ٧٣ .

١٥- موفق الدين بن المطران : هو أسعد بن الياس بن جرجس ، كان شيخ الأطباء في الشام ، أسلم في أيام صلاح الدين الأيوبي ، وكان ماهرا بصناعة الطب ، من أهم مصنفاته : آداب طب الملوك ، توفي في سنة ٥٨٧ هـ. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٤١١ - ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٦٥١ - ٦٥٨ .

١٦- ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٦٥١ - ٦٥٢ .

١٧- المصدر نفسه : ص ٦٥٣ .

١٨- الفتح القسي : ص ١٨٢ .

١٩- النوادر السلطانية : ص ٣١ .

٢٠- سبط بان الجوزي : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ - ٧٠٧.
والمقريزي : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٢٥٩ .

٢١- الأمجد : الفوائد الجلية ، ص ٧٥ .

٢٢- ابن شداد : الأعلاق ، جـ٢ ، ص ٨٦ .

٢٣- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

٢٤- الضياء المقدسي : هو أبو عبد الله بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي (ت ٦٤٣ هـ) : ولد بدمشق في سنة٥٦٧ هـ ، أفنى عمره بالدين والورع والفضيلة ، انتفع الناس بعلمه وتصانيفه .
ابن طولون : القلائد الجوهرية ، ص ٨٣ .
ابن شداد : الأعلاق ، جـ٢ ، ص ٢٥٨ .

٢٥- المدرسة الضيائية المحمدية بدمشق : مدرسة حنبلية أنشأها الضياء أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد

المقدسى الحنبلى (ت ٦٤٣ هـ) ، وذلك فى سنة ٦٢٠ هـ ، " النعيمى الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ٢ ص ٩١ ، ابن شداد : الأعلاق ، جـ٢ ، ص٢٥٨ " .

٢٦- ابن شـــداد : الأعـــلاق ، جـ٢ ، ص٢٥٨ .

النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ٢ ، ص ٩٤ .

٢٧- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ١٦٩-١٧٠ .

٢٨- المدرسة الحلاوية بحلب : مدرسة حنفية ، كانت كنيسة عظيمة ، بنتها هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين، ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى المدينة ، جدد فيها أيوانا وبيوتا ، وجعلها مدرسة لتدريس مذهب أبى حنيـفـة ، ووقف عليـها أوقـافا كثـيرة .

الغزى : نهر الذهب ، جـ٢ ، ص ٢١٦ .

٢٩- الفخر بن عساكر : هو أبو منصور عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر الدمشقى الشافعى ، كان زاهدا فى المناصب وعرف بشيخ الشافعية بالشام ، وقد درس فى المدرسة الصلاحية بالقدس وبعدة مدارس فى دمشق ، توفى فى سنة ٦٢٠ هـ .

أبو شـامـة : ذيل الروضـتين ، ص ١٣٦-١٣٨ .

السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص ١٧١-١٨٦ .

٣٠- أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٣٨ .

٣١- المدرسة الصلاحية بالقدس : مدرسة شافعية ، أنشأها صلاح الدين الأيوبى بعد تحرير القدس من الفرنجة فى سنة ٥٨٣ هـ، فقيل المدرسة الناصرية الصلاحية نسبة إلى الناصر صلاح الدين ، وقد وقف عليها السطان أوقــافــا كــثــيــرة .

العليـــمى: الأنس الجليل ، جـــ١ ، ص ٣٤٠-٣٤١ .

والعماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٤٥ .

٣٢- بهـاء الدين بن شداد : أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الأسدى ، ولد بالموصل فى سنة٥٣٩ هـ، درس القراءات السبع ، وقرأ الفقه والتفسير ، وروى الحديث ، عين معيدا بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٥٦٩ هـ، تولى قضاء القدس وقضاء العسكر للسلطان صلاح الدين ، كما أشرف على المدرسة الصلاحية بالقدس ودرس فيها وتولى نظارة أوقافها ، كذلك تولى قضاء حلب عندما اتصل بخدمة الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين ، من أهم مصنفاته : النوادر السلطانية ، توفى فى سنة ٦٣٢ هـ.

العليـــمى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ١٠٢ .

السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

٣٣- السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص ٣٦١ .

٣٤- مجد الدين بن جهبل : هو مجد الدين طاهر بن نصر الله بن الحلبي (ت ٥٩٦ هـ) ، كان أول من درس بالمدرسة الصلاحية بالقدس ، وهو أيضا أول من ألقى درسا على الصخرة المشرفة بعد تحرير بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ، درس في المدرسة النورية بحلب ، والجاروخية بدمشق ، والصلاحية بدمشق .

العليمي : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ١٠٣ .

ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص ١٦٥ .

٣٥- أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٣٦ .

٣٦- تقي الدين بن الصلاح : هو شيخ الإسلام الإمام الحافظ تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري الشافعي (ت ٦٤٣ هـ) من كبار أئمة الفقه والحديث ، كما كانت له مشاركة في فنون عديدة من مصنفاته : أدب المفتي والمستفتي .

السبكي : طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص ٣٢٧ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

٣٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ٢٤٣ .

٣٨- جمال الدين بن واصل : هو جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ) : صاحب كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) ، درس العلوم الشرعية في حماه ، اشتغل بالعلم في بيت المقدس ودمشق والقاهرة وحماه ، ويقال أنه كان يشتغل في حلقته في ثلاثين علما وأكثر .

ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ٤٣٨-٤٣٩ .

٣٩- المصدر نفسه : جـ٥ ، ص ٤٣٨ .

٤٠- المصري : التعليم في بلاد الشام ، ص ١٤٩ .

٤١- المدرسة المنصورية بحماه : بناها الملك المنصور ناصر الدين محمد (ت ٦١٧هـ) ، وموقعها بالقرب من الباب الشمالي المعروف بباب الجسر الشرقي .

جبران : مملكة حماه ، ص ٢٣٦ .

٤٢- السيف الأمدي : هو سيف الدين أبو الحسن بن علي بن محمد بن سالم التغلبي الأمدي ، كان أكثر أهل زمانه معرفة بالعلوم الحكمية ، والمنطق والعلوم العقلية ، تولى التدريس بالمدرسة العزيزية بدمشق ، من أهم مصنفاته : خلاصة الأبريز ، دقائق الحقائق ، توفي في سنة ٦٣١ هـ.

ابن أبي اصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٦٥٠ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٣٥-٤٠ .

٤٣- جبران : مملكة حماه ، ص ٢٣٦ .

٤٤- المدرسة المسرورية بدمشق : مدرسة شافعية ، أنشأها مسرور الخصي الطواشي شمس الدين ، وقيل أنها منسوبة إلى الأمير فخر الدين مسرور الملكي الناصري العدلي .

ابن شـــداد : الأعـــلاق ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ .
النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٤٥٥ .

٤٥- النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٤٥٥-٤٥٦ .

٤٦- العليمى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ١٠٢ .

٤٧- المصرى : التعليم فى بلاد الشام ، ص ١٠٨ .

٤٨- العليمى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ١٠٢ .

٤٩- المدرسة العادلية بدمشق : مدرسة شافعية يذكر أن نور الدين محمود زنكى كان أول من بدأ بتأسيسها ولكن توفى قبل أن يتمها ، فتولى أمرها الملك العادل سيف الدين ، فتوفى قبل إتمامها ، ثم جاء الملك المعظم عيسى فأتمها وافتتحها فى سنة ٦١٩ هـ، ونسبها إلى والده الملك العادل سيف الدين .
ابن شـــداد : الأعـــلاق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ .
ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٧٩ .

٥٠- الجمال المصرى : هو أبو محمد يونس بن بدران بن فيروز القرشى المصرى ، ولد فى سنة ٥٥٥هـ ، درس المدرسة الأمينية بدمشق ، كذلك تولى قضاء الشام فى أيام الملك المعظم عيسى ، وكان أول من درس بالمدرسة العادلية الكبرى ، من أهم مصنفاته : اختصار كتاب (الإمام الشافعى) توفى فى سنة ٦٢٣ هـ.
أبو شـــامـــة : ذيل الروضـــتين ، ص ١٤٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ١٧١ .

٥١- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٩٧-٩٨ .

٥٢- المدرسة الصاحبة بدمشق : مدرسة حنبلية أنشأتها ربيعة خاتون ابنة نجم الدين أيوب ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى ، المتوفاة فى سنة ٦٤٣ هـ، وقد أنشأتها فى سنة ٦٢٨ هـ .

ابن شـــداد : الأعـــلاق ، جـ٢ ، ص ٢٥٧ .
النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ٢ ، ص ٧٩ .

٥٣- الناصح الحنبلى : هو ناصح الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب الشيرازى الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق فى سنة ٥٥٤ هـ ونشأ وتعلم فيها ، وكان عالما فى الفقه والحديث ، وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلى بدمشق ، كذلك اشتهر بالوعظ ، من أهم مصنفاته : تاريخ الوعظ ، توفى سنة ١٣٤ هـ .

ابن كـثيـر : البـداية والنهـاية ، جـ١٣ ، ص ١٢٨-١٤٦ .
ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ١٦٥-١٦٦ .

٥٤- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ١٢٨ .

٥٥- المصرى : التعليم فى بلاد الشام ، ص ١٥٢ .

٥٦- ابن أبي اصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٦٥٠ .

٥٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ٢٤٣ .

٥٨- المصـــرى : التـــعليم فى بلاد الشـــام ، ص ١١٤ .
المصرى : المعبد فى الحضارة الإسلامية ، ص ٧٠-٧١ .

٥٩- كمال الدين المغربى : هو عمر بن أحمد بن هبه الله بن محمد بن أبى جرادة ، ولد بحلب فى سنة ٥٨٨هـ اشتغل بالتدريس والقضاء و من أهم مصنفاته : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، توفى فى سنة ٦٦٠ هـ .
الطباخ : أعلام النبلاء ، جـ٤ ، ص ٤٤٤-٤٦٧ .

٦٠- المدرسة الرواحية بدمشق : مدرسة شافعية أنشأها زكى الدين أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة ، وهو من أكـابر العـدول والتـجار (ت ٦٢٣ هـ) ، وقـد أنشـأها في سنة ٦٠٠ هـ .
ابن شـــداد : الأعـــلاق ، جـ٢ ، ص ٢٤١ .
النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٢٦٥ .

٦١- الطباخ : أعلام النبلاء ، جـ٤ ، ص ٣٦٢-٣٦٣ .

Tritton: Materials Muslim Education, P. 118.

٦٢- مهذب الدين الدخوار : هو مهذب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد ، ولد بدمشق فى ٥٦٥ هـ ونشأ فيها ، اشتهر بصناعة الطب ودرسها على موفق الدين المطران وفخر الدين الماردينى وغيرهم ، وقد انتهت إليه رئاسة الطب ومعرفتها ، وتولى رئاسة الأطباء بمصر والشام زمن الملك العادل . كذلك تولى النظر بالبيمارستان الكبير بدمشق زمن الملك المعظم عيسى ، من أهم مصنفاته : الجنينة . مقالة الاستفراغ . تـوفـى فـى سنـة ٦٢٨ هـــ .
ابن أبى اصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٧٢٨-٧٣٦ .

٦٣- المصدر نفسه : ص ٧٣٢-٧٣٣ .

٦٤- المقـــــريزى : السـلوك ، جـ١ ق ١ ، ص٢٥٨ .
الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٨٢ .

٦٥- ابن واصل الحموى : مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ٦١٤ .

٦٦- شمس الدين الخسروشاهى : هو عبد الحميد بن عيسى بن أموية بن يونس بن خليل الخسروشاهى ، ولد فى سنة ٥٨٠ هـ ،كان بارعا فى المعقولات والعلوم الحكمية والعلوم الطبية ، أقام بالكرك بطرف صاحبها الملك الناصر داود عزيز الجانب ، من أشهر مصنفاته : مختصر الشفاء لابن سيناء . سـقم الآيات البينات تـوفـى فـى سـنـة ٦٥٢ هـــ .
ابن حـــبيب : درة الأســلاك (مـخطوط) ، جـ١ ، و ١٥ ب - ١٦ أ .
ابن أبى اصـيـبعـه : عـيـون الأنبـاء ، ص ٦٤٨-٦٤٩ .
ابن داود : الفرائد الجلية ، ص ٢٥ .

٦٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ١٧٨ .

٦٨- المصرى : التعليم فى بلاد الشام ، ص ٣١ .

٦٩- السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٤ ، ص ٣٢٩ .

٧٠- ابن واصل الحموى : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢١٠ .

٧١- العبرى : مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٥٤ .

٧٢- تاج الدين الكندى : هو تاج الدين زيد بن الحسن الكندى البغدادى الدمشقى ، ولد ببغداد فى سنة ٥٢٠ هـ تقدم فى المذهب الحنفى ، واشتهر بالقراءات والنحو واللغة والشعر ، بمكانة مرموقة عند الملك المعظم عيسى ، من أهم مصنفاته تعليقات على خطب ابن نباته ، توفى فى سنة ٦١٣ هـ .

أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٩٥-٩٦ .

السيوطى : بغية الوعاه ، جـ١ ، ص ٥٧٠-٥٧١ .

٧٣- أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٩٧ .

سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٧٧ .

٧٤- المصرى : التعليم فى بلاد الشام ، ص ٣٢ .

٧٥- ابن واصل الحموى : مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ٢١٣-٢١٤ ، وحول تفاصيل المناقشات التى أثيرت فى المجلس العلمى الذى عقده الملك المعظم عيسى خارج الصخرة المشرفة فى سنة ٦٢٣ هـ ، راجع ما ورد فى :

عبد المهدى : الحركة الفكرية ، ص ٦٣ .

رشيد : داود بن عيسى ، ص ٢٢-٣٢ .

٧٦- زين الدين بن معطى ، أبو الحسن يحيى بن عبد المعطى بن عبد النور النحوي الزواوى (ت ٦٢٨ هـ) . ولد فى سنة ٥٦٠ هـ ، وكان أحد أئمة عصره فى النحو واللغة ، من أهم مؤلفاته ، الفصول الخمسون فى النحو ، قصيدة فى القراءات السبع .

ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ١٢٩ .

٧٧- الحموى : معجم الأدباء ، جـ٧ ص ٢٩٢ .

٧٨- مهيدات : الملك الناصر ، ص ١٥٦-١٥٧ .

٧٩- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ٨٩-٩١ .

٨٠- العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) : ولد بدمشق فى سنة ٥٧٨ هـ ، ونشأ فيها ، تولى الخطابة والإمامة بالجامع الأموى بدمشق وخطابة جامع عمرو بن العاص ، والقضاء والتدريس بالمدرسة الصالحية ، اشتهر فى أصول الفقه وأصول الدين والتفسير والفقه ، من أهم مصنفاته : القواعد الكبرى ، ملحة الاقتصاد فى

الاعتقاد ، فوائد البلوى والمحن ، توفى فى سنة ٦٦٠ هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

الأسنوى : طبقات الشافعية ،جـ٢ ، ص ١٩٧ -١٩٩ .

٨١- الأسنوى : طبقات الشافعية ، جـ٢ ، ص ١٩٨ .

٨٢- المصدر نفسه : جـ٢ ، ص ١٩٨ .

٨٣- مهيدات : الناصر داود ، ص ١٧٥ .

٨٤- العليمى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ١٠٢ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ٨٩ .

٨٥- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٢٤٦ .

٨٦- العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٤٥ .

العليمى : الأنس الجليل ، جـ١، ص ٣٤٠-٣٤١

٨٧- أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص ٢٠٥ .

٨٨- ابن واصل الحموى : مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٢٤٤ .

٨٩- غرايبة : جهود صلاح الدين ، ص ٢٢ .

٩٠- أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص ٥٨ .

٩١- معين الدين حسن بن حمويه ، هو معين الدين حسن بن الشيخ صدر الدين بن حمويه (ت ٦٤٣ هـ) : تولى مشيخة الشيوخ بالديار المصرية ، كما قام بالتدريس في المشهد الحسينى ، استعان به الملك الكامل محمد ومن بعده ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب في تصريف كثير من شؤون الدولة السياسية والحربية

المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٢٢٠ ، ٢٥٩-٢٦٠ .

الدواداري : كنز الدرر ، جـ٧ ، ص ٣٤٣ .

Gottshalk: Awlad Al-Shaykh. P. 766.

٩٢- المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٢٢٠ .

٩٣- فخر الدين يوسف بن حموية : هو فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية ، ولد بدمشق بعد سنة ٥٨٠ هـ ، اشتهر بالحديث والعلوم الفلسفية والحكمية ، درس بالمدرسة الناصرية فى القاهرة ، توفى فى سنة ٦٤٧ هـ .

سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٦٦-٧٧٧ .

الدواداري : كنز الدرر ، جـ٧ ، ص ٣٧٤-٣٧٦ .

٩٤- المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٠ .

٩٥- اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، جـ١ ، ص ٥١٠ .

٩٦- شهاب الدين السهروردي : هو شهاب الدين يحيى بن محمد بن حبشي (٥٨٧ هـ) : ولد في حوالي سنة٥٤٩ هـ ، درس الفلسفة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة مراغة من أعمال أذربيجان ، كما درس علم الكلام والمنطق ، وبرع في تلك العلوم حتى سار ذكره في الآفاق ، وبالرغم من مصرعه وهو في ريعان الشباب ، ترك مؤلفات ورسائل عديدة ، أهمها : التلويحات في الحكمة ، حكمة الاشارات ، هياكل النور ، الغربة الغربية ، المطارحات ، المعارج .

الطباخ : أعلام النبلاء ، جـ٤ ، ص ٢٧٥-٢٨٦ .

الكيالي : الحكيم شهاب الدين ، ص ٣٦-٤٥ .

بدوي : الحياة العقلية ، ص ٢٨٩-٢٩٥ .

٩٧- المصري : التعليم في بلاد الشام ، ص ٢١١ .

٩٨- المرجع نفسه : ص ٢١١ .

٩٩- أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ١٠ .

١٠٠- الأسنوي : طبقات الشافعية ، جـ٢ ، ص ١٩٨ .

ابن واصل الحموي : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

١٠١- سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٣-٦٥٤ .

١٠٢- المصدر نفسه : جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٤ .

١٠٣- ابن واصل الحموي : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

١٠٤- المدرسة التقوية بدمشق : مدرسة شافعية أنشأها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٨٨٧ هـ) ، وأنشأها في سنة ٥٧٤ هـ .

النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٢١٦ .

ابن شداد : الأعلاق ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ .

١٠٥- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ١٣٦ .

١٠٦- المدرسة الطرخانية بدمشق : مدرسة حنفية كانت دارا للحاج طرخان بن محمود الشيباني ، أحد كبار الأمراء بدمشق ، توفي في حدود سنة ٥٢٠ هـ ، اشتراها الأمير سنقر الموصلي ، وجعلها مدرسة لأتباع أبي حنيفة وذلك في سنة ٥٢٥ هـ .

النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٥٣٩ .

١٠٧- ابن عين الدولة : ولد بالإسكندرية في سنة ٥٥١ هـ ، تولى قضاء القاهرة والوجه البحري والقبلي في سنة ٦١٣ هـ ، وكان أديبا ، له نظم وشعر ، عرف بالعفة والزهد والورع .

ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ١٨١ .

١٠٨- السبكي : طبقات الشافعية ، جـ٥ ، ص ٢٧ .

١٠٩- سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٢٨ .

١١٠- الأسنوي : طبقات الشافعية ، جـ٢ ، ص ١٩٩ .

ائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

١- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨ هـ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥ م .

٢- ابن الأهدل ، بدر الدين الحسين بن عبد الرحمن (ت ٨٥٥ هـ) : غربال الزمان (مخطوط) ، صور من جامعة بيل ، تحت رقم (١٢٦٦ / ٦٥١) ، مجموعة لاندبيرج ، يوجد منه نسخة على شريط ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، عمان ، تحت رقم (١٧) .

٣- ابن حبيب ، بدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب (ت ٧٧٩ هـ) : درة الأسلاك في دولة الأتراك (مخطوط) ، جـ١ ، صور من مكتبة بودليان ، اكسفورد ، تحت رقم (٢٢٣) ، مجموعة مارش ، يوجد عنه نسخة على شريط ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، عمان ، تحت رقم (٥٣٩) .

٤- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٧ م .

٥- ابن داود ، الأمجد حسن (ت ٦٧٠ هـ) : الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ، تحقيق : ناظر رشيد ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٩٢ م .

٦- ابن شداد ، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٣٢ هـ) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية تحقيق : جمال الدين الشيال ، ط١ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٧- ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٣ م ، ١٩٥٦ م .

٨- ابن طولون ، شمس الدين بن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق : محمد أحمد دهمان دمشق ، ١٩٤٩ م .

٩- ابن العماد الحنبلي ، شهاب الدين عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الحديثة ، بيروت ، د.ت .

١٠- ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض ، ١٩٦٦ م .

١١- ابن واصل الحموي ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ١ -٣ ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠ م ،

جـ٤ - ٥ ، تحقيق : حسنين محمد ربيع وسعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ١٩٧٧ .

١٢- أبو شامة المقدسى ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥ هـ) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع عشر الهجريين (ذيل الروضتين) ، عرف الكتاب وترجم للمؤلف وصححه محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، عنى بنشره ، وراجع أصله ووقف على طبعه عزت العطار الحسينى ، ط ٢ ، دار الجيل بيروت ١٩٧٤ م .

١٣- أبو شامة المقدسى : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت .

١٤- الأسنوى ، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ) : طبقات الشافعية ، تحقيق : عبد الله الجبورى ، ط١ ، رئاسة ديوان الأوقاف ، بغداد ، ١٩٧٠ - ١٩٧١ م .

١٥- الدوادارى ، عبد الله بن أيبك (ت ٧٣٦ هـ) : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ٧ ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ م .

١٦- الحنبلى ، عز الدين أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦ هـ) : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق : ناظم رشيد ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ١٩٧٨ م .

١٧- سبط ابن الجوزى ، شمس الدين يوسف بن قزا أو غلى (ت ٦٥٤ هـ) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ط١ ، جـ٨ ، ق ١-٢ ، حيدر أباد ، الدكن ، الهند ، ١٩٥١-١٩٥٢ م .

١٨- السبكى ، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ) : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو ، ط١ ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٤-١٩٧٦ م .

١٩- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) : بغية الدعاه فى طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، مطبعة عيسى الباب الحلبى ، القاهرة ، د.ت .

٢٠- الطباخ ، محمد راغب : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، جـ١ ، صححه وعلق عليه محمد كمال ، ط٢ ، دار القلم العربى ، حلب ، ١٩٨٩ م .

٢١- العبرى ، غريغوريس بن أهرون (ت ٦٨٥ هـ) : مختصر تاريخ الدول ، دار المسيرة ، بيروت ، د.ت .

٢٢- العليمى ، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٧ هـ) : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٧٣ م .

٢٣- العماد الأصفهانى ، محمد بن صفى الدين (ت ٥٩٧ هـ) : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبيح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م .

٢٤- الغزى ، كامل بن حسين : نهر الذهب فى تاريخ حلب ، المطبعة المارونية ، حلب ، ١٩٢٦ م .

٢٥- الكيالى ، سامى : الحكيم شهاب الدين السهروردى ، مجلة الأديب ، السنة الأولى ، جـ١١ ، بيروت تشرين الثانى ، ١٩٤٢ م ، ص ٣٦-٤٥ .

٢٦- المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٥٤ هـ) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١-٢ ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٨ م ، جـ٣-٤ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠-١٩٧٣ م .

٢٧- النعيمى ، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ) : الدارس فى تاريخ المدارس ، تحقيق : جعفر الحسنى ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٤٨ م ، ١٩٥١ م .

٢٨- اليونينى ، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ) : ذيل مرآة الزمان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الركن ،الهند ، ١٩٥٤-١٩٦١ م .

ثانيا : المراجع :

٢٩- بدوى ، أحمد أحمد : الحياة العقلية بمصر والشام فى عصر الحروب الصليبية ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

٣٠- رشيد ناظم : داود بن عيسى الأيوبى ، حياته وأدبه ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، جامعة بغداد ، ١٩٨١ م .

٣١- عبد المهدى ، عبد الجليل حسن :الحركة الفكرية فى ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبى والمملوكى ط١ ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٨٠ م .

٣٢- غرايبة ، محمد الرحيل : جهود صلاح الدين الأيوبى في إحياء المذهب السنى فى مصر وبلاد الشام ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، مج ١٠ ، ع٣ ، جامعة مؤتة ، الأردن ، ١٩٩٥ م ، ص ١٣-٣٦ .

٣٣- المصرى ، جهاد سليمان : التعليم في بلاد الشام فى العهد الأيوبى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، جامعة آل البيت ، الأردن ، ١٩٩٩ م .

٣٤- المصرى ، جهاد سليمان : المعيد فى الحضارة الإسلامية ... العهد الأيوبى نموذجا ، مجلة نور اليقين ، جمعية تحفيظ القرآن الكريم بقطاع غزة ، بإشراف معهد فلسطين الدينى ، غزة ، فلسطين ، ع١١٥ ، السنة العاشرة ، مارس ٢٠٠١ م ، ص ٦٦-٧١ .

٣٥- نصر الله ، حسن : تاريخ بعلبك ، ط١ ، جـ٢ ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

ثالثا : المراجع الأجنبية

(36) Gottschalk, H.L. : Awlad Al-Shaykh, in Encyclppedia Of Islam, New Edition, Edited By : H. Gibb and Others, Vol. 1. Leiden, 1986, P. 765-766.

(37)Tritton, A.S.: Materials Muslim Education in the Middle Ages, London, 1957.



د. نعمة على موسى(*)

التغيرات المالية فى بلاد الهند
فى عهد السلطان محمد تغلقشاه
وأثرها فى الأوضاع الداخلية (٧٢٥ - ٧٥٢ هـ / ١٣٢٤ - ١٣٥١ م)

تنسب الدولة التغلقية فى الهند (٧٢٠ - ٨١٥ هـ / ١٣٢٠-١٤١٢م) إلى مؤسسها السلطان غياث الدين تغلق شاه ، والذى قدم إلى البلاد أثناء حكم السلطان علاء الدين الخلجى(١) فى صحبة بعض التجار فتقرب إلى والى السند " أولوخان " وأخذ يترقى فى المناصب حتى تولى حكم مدينة " دبالبور " من توابع إقليم السند(٢) ، كما ارتقى ابنه محمد إلى منصب أمير خيل السلطان " قطب الدين الخلجى " (عام ٧١٧ هـ / ١٣٢٠ م)(٣) ، وهى من أعلى المناصب الإدارية فى الدولة ، وكان صاحبه من أكثر المقربين إلى السلطان(٤) .

ولقد لعب تغلق شاه دورا بارزا فى سياسة الهند الداخلية ، عندما قام الوزير الهندى "خسروشاه" بالثورة على أخر سلاطين الدولة الخلجية " قطب الدين الخلجى " وقتله ، ومن ثم لم يركن تغلق شاه لتولى هذا الوزير العرش ، لذا أثبت إخلاصه للدولة الخلجية بالوقوف أمام هذا الوزير فقاد الجيش ضده وحاربه عند مدينة دهلى(٥) ، حتى تمكن من الانتصار عليه فى

* أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد ، جامعة المنيا - كلية دار العلوم

عـام (٧٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) هزم على أثرها خسروشاه ووقع قتيلا ، ومن ثم جلس غياث الدين تغلقشاه على عرش السلطنة بموافقة الأهالى والقواد ورجال الدين[٦] لتبدأ من ذلك الوقت قيام الدولة التغلقية فى الهند .

اتسمت فترة حكم السلطان غياث الدين بالإزدهار الاقتصادى ، حيث عمل على إصلاح أحوال البلاد الداخلية فاهتم بالزراعة والصناعة والتجارة وضرب بقوة على أيدى قطاع الطرق والمفسدين ، واهتم بالبريد وأنشأ نظاما ضريبيا فى منتهى الدقة[٧] فنعمت الرعية بالراحة والاستقرار والهدوء .

استمر السلطان " غياث الدين تغلق شاه " يحكم البلاد حتى وافته المنية فى عام (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤ م) وذلك على يد ابنه " محمد "[٨] الذى جلس مكانه فى الحكم ، واستطاع أن يصل بالإسلام إلى قلب هضبه الدكن الجنوبية ، كما أسكن ثورات العصاة فى البنغال[٩] والبنجاب[١٠] .

إلا أن كثرة الثورات فى عهده بجانب المجاعات والأوبئة التى أصابت بلاد الهند قد منعت السكان من العيش فى هدوء واستقرار كما كان فى عهد سلفه .

توفى السلطان " محمد تغلق شاه " ولم يعقب ولدا ، فعهد بالملك إلى ابن عمه " فيروز تغلق " ، الذى جلس على عرش البلاد عام (٧٥٢ هـ/ ١٣٥١ م)[١١] وأهم ما يميز عهده تلك القواعد التى ضمها فى دستوره ووزعها فى مناطق حكمه على الأهالى وطلب الجميع تنفيذها ، والتى شملت نشر العدل والمساواة وتحديد الخراج كما فرغ أغلب وقته لسماع الشكاوى من رعاياه[١٢] ، لذا فقد انتشر الأمن وعم الرخاء وعاشت الرعية فى سلام ، كما اهتم بالطب فأقام العديد من دور الشفاء ، ووزع الأدوية بالمجان[١٣].

بلغ السلطان فيروزشاه التسعين من عمره فضعف عن متابعة الحكم فأخذ ابنه محمد يعد العدة لقتله والانفراد بالحكم ، وعندما علم " فيروزشاه " ذلك ولى حفيده " غياث الدين بن فتح خان " الحكم نكاية فى عمه ، فجلس على عرش السلطنة بعد وفاة جده عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) فانصرف إلى ملذاته الخاصة وضيع جهود جده السابقة فى إصلاح أحوال البلاد[١٤] ، كما عامل كبار القواد بالقسوة وتتبعهم بالقتل مما دفعهم إلى التآمر ضده وقتله بعد خمسة أشهر من الحكم ، وولوا مكانه ابن عمه "أبو بكر"[١٥].

قضى أبو بكر عمره فى التصدى لعمه " محمد بن فيروزشاه " ودخل معه فى معارك عديدة كان أخرها عام (٧٩٣ هـ/ ١٣٩٠ م) ، التى هزم فيها وترك دهلى هاربا ليدخلها السلطان محمد بن فيروزشاه ظافرا ، وقد أطلق على نفسه " ناصر الدين محمد الثانى "[١٦] ، وقد حاول السلطان " ناصر الدين محمد الثانى " إصلاح شئون الدولة المضطربة فبذل قصارى جهدة حيث تصدى لثورات الأمراء فى الكجرات ومالوه والبنجاب إلا أن المنيه قد عاجلته عام (٧٩٥ هـ/ ١٣١٢ م) فتولى مكانه ابنه همايون ، الذى لم يستمر فى الحكم إلا أياما حتى توفى[١٧] ، ولم يترك وريثا للعرش ، فتولى مكانه أخيه " ناصر الدين محمود " ، ولما كان ضعيف الإرادة فقد أصبح ألعوبة فى يدى الأمراء الذين تنافسوا فيما بينهم فاستقل كل واحد منهم بما يملك وأعلن نفسه سلطانا مستقلا فى منطقة نفوذه[١٨] .

وتضاعفت المتاعب على السلطان " ناصر الدين محمود" حيث استطاع " تيمور لنك " أن يستولى على دهلى عام (٨٠١ هـ/ ١٣٩٨ م) وذلك بعد معركة قصيرة أثبتت مدى ضعف جند دهلى وسلطانها الذى فر هاربا ، وقد حاول مرات عديدة استرداد عاصمة ملك أبيه إلا أنه فشل وكان آخرها عام (٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) حيث قتله " خضر خان " نائب " تيمورلنك"[١٩] لتنتهي بذلك الدولة التغلقية فى الهند بعد أن عمرت خمسة وتسعون عاما ، ترنحت فيها البلاد بين الازدهار تارة والجوع والأوبئة والأمراض تارة أخرى وكانت القاسمة سقوط دهلى بأيد التيموريين لتبدأ حقبة جديدة فى تاريخ الإسلام فى الهند .

أولا التغيرات المالية فى عهد السلطان محمد تغلق شاه

انحصرت تغيرات السلطان محمد تغلق شاه المالية فى الخراج كمورد من موارد الدولة وتغيير العملة المستخدمة فى البلاد من الذهب والفضة إلى عملة نحاسية آخرى . لذا سندرس كل تغير على حد .

١- الخراج :

الدارس لبلاد الهند يجد الفاتحين الأتراك منذ أن وطأت أقدامهم أراضى البلاد مع السلطان "محمود الغزنوى" (٣٩١ هـ/ ١٠٠١ م)[٢٠] قد اتبعوا سياسة مالية ثابتة تجاه جباية الخراج واعتبروا أهل الهند من المشركين أهل ذمة وهذا على المذهب الحنفى الذى اعتبر المذهب

الرسمى للبلاد[٢١] لذا فقد أبقوا الأرض بحوزة مالكيها واكتفوا بتحصيل الخراج[٢٢] ، وذلك ليتفرغوا لمواصلة فتوحاتهم العسكرية لتثبيت أقدامهم فى البلاد .

ونظرا لطبيعة الزراعة فى الهند والتى تعتمد فى المقام الأول على مياه الأمطار[٢٣] ، والتى قد تتذبذب من عام إلى آخر فإما أن تحول الأرض إلى جنة خضراء وإما أن تحولها إلى مستنقعات كبرى يصعب اختراقها[٢٤] لذا فقد وضع سلاطين المسلمين هذا الأمر نصب أعينهم وفضلوا أخذ الخراج عن طريق المقاسمة[٢٥] ، وذلك لتوفير الغذاء اللازم للأهالى وقت المجاعات والأزمات التى كانت تعصف بالبلاد من آن لآخر ، وقد قاموا بتخزين تلك المواد الغذائية فى صوامع كبرى أعدت خصيصا لهذا الغرض[٢٦] ، وكانت تملأ المدن الكبرى وبجوار الأسواق حتى يسهل نقلها وتوزيعها وقت الحاجة وكانت الحبوب تخرج منها بعد مدة وكأنها وضعت من بضع ساعات[٢٧] حيث روعى فيها التهوية الجيدة والنظافة الدائمة ، لذا فقد قدر سلاطين المسلمين الخراج وفقا لحالة الأرض وطريقة ريها ونسبة المحصول ، ولم يزد الخراج فى أسوأ الظروف عن أخذ الخمس من المحصول فى صورة ضرائب عينية[٢٨] .

وأسندوا مهمة جمع الخراج إلى رجال الدين ليضمنوا تحقيق العدالة للجميع[٢٩] وتلك كانت سياسة حكيمة ارتضاها الأهالى ، فاستقرت الحالة الاقتصادية ، وثبتت أقدام المسلمين فى البلاد . أما السلطان محمد تغلق شاه فقد خالف تلك السياسة ، حيث أمر بأخذ نصف المحصول كضريبة من الأرض المملوكة للهنود[٣٠] وعين المحصلين القساة لجمعها دون رحمة[٣١] ولما كان النصف الآخر لا يكفى لقضاء حوائج المالك - الإقطاعى - والمستأجر - الفلاح - فقد ضجر الفلاحون من ذلك فقاموا فى سابقة لم تشهدها البلاد بحرق محاصيلهم[٣٢] جميعا ، وقتل ماشيتهم وتركوا الأرض ، بعد تخريبها ومن ثم ظهرت عدة نكبات اقتصادية كبرى أزهقت أرواح الألوف من أهالى المدن بل قرى بأكملها من الجوع والأوبئة والأمراض .

٢- العملة :

عرفت الهند خلال العصر الإسلامى العديد من العملات المالية مثل الدنانير الذهبية والتى عرفت باسم تولة[٣٣] ، أم الدراهم فكانت على أربعة أنواع وهى الهشتكانى والسلطانى والششتكانى والدروز هكانى ، وكانت قيمتهم تقدر بأقل وحدة مالية وهى الجيتل[٣٤] ، كما عرفت البلاد نوع أخر من العملة وهى التنكة - وهى التى حلت محل الدرهم والدينار - وكان

يطلق على التنكة الذهبية الصفراء ، وعلى التنكة الفضية " البيضاء " وهى تساوى ثلاثة مثاقيل من الذهب أو الفضة(٣٥)، وكل عشرة آلاف تنكة يطلق عليها لكا(٣٦) .

وقد راعى سلاطين الإسلام فى الهند وزن بدقة تلك العملات ، واهتموا بدور الضرب ، وعينوا عليها كبار رجال الدين والعلم لمراقبة عمليات السك ، وشيدوا العديد منها فى مناطق دهلى والبنغال ولاهور(٣٧) ، ومما ساعد على سهولة سك العملات وفرة معدنى الذهب والفضة فى جبال كشمير بالإضافة إلى منطقة السند(٣٨) ، وقد أدى ذلك الاستقرار فى العملة ودقة صنعها إلى استقرار أوضاع البلاد المالية وتيسير عمليات البيع والشراء .

إلا أن السلطان " محمد تغلق شاه " أصدر مرسوما بتغيير عملة البلاد - التنكة - بعملة نحاسية عرفت باسم " بارة "(٣٩) وقارن فى وزنها بالنسبة للتنكة الفضية فخففها وبالنسبة إلى التكنة الذهبية فأثقلها وأمر الناس بالتعامل بها بضمان بيت المال(٤٠) .

تحديد وزن العملة الجديدة :

عرفنا فيما سبق أن وزن العملة سواء الذهبية أو الفضية التى كانت تستخدم فى الهند ثلاثة مثاقيل(٤١) علما أن المثقال يساوى ٤,٢٥ جرام وأن نسبة العملة الفضية إلى الذهبية فى المشرق تساوى (٧ : ١٠)(٤٢) ، وإذ علمنا أيضا أن السلطان جعل قيمة " البارة " ثمانى تنكات فضية(٤٣) ، فنستطيع أن نستنتج أن نسبة التنكة الفضية إلى الذهبية بلغت فى الهند (٨ : ١١) وبالتالى يمكننا حساب وزن العملة النحاسية بالمثقال والجرام كالتالى :-

وزن التنكة الفضية بالمثقال × مثاقيل عددها

* العملة الفضية = وزن التنكة فى عددها = ٣×٨ = ٢٤ مثقال نحاس .
* العملة الذهبية = وزن التنكة فى عددها = ٣×١١= ٣٣ مثقال نحاس .
* العملة الفضية = ٢٤×٤,٢٥ = ١٠٨ جرام نحاس .
* العملة الذهبية = ٣٣×٤,٢٥ = ١٤٠,٢٥ جرام نحاس .

وقد كان تقدير العملة من الضروريات فى بداية العمل بها حتى يستطيع السكان تبديل التنكات الذهبية والفضية " بالبارة " كل حسب ما يملك من كلا النوعين(٤٤) .

ويمكننا أن نعرف مقدار الأخطار التي نجمت عن ذلك من التضخم في قيمة العملة وارتفاع قيمتها الشرائية ، وذلك تزامنا مع تلك الضريبة الكبرى التي دفعت الفلاحين إلى حرق محاصيلهم وترك أراضيهم ، مما ترتب عليه اختفاء السلع الغذائية من البلاد ، وبالتالي فقد حدثت المجاعات التي أودت بحياة الآلاف من أهالي الهند في مناطق شتى حتى أن العاصمة دهلي خربت تماما وأكل من وجد بها الجيف وأجساد الموتى[٤٥] ، ناهيك عن الاضطرابات السياسية والمالية الأخرى .

رغم الرؤيا الواضحة لضرر تلك التغيرات على أوضاع البلاد السياسية والاقتصادية إلا أن السلطان " محمد تغلق شاه " مضى قدما في تنفيذ سياسته ، واتخذ من القوة أداة للبطش والتنكيل برعيته ، حيث أنزل أقصى العقوبات بالمخالفين له من الولاة أو الفلاحين ، وكانت تلك العقوبات تصل إلى حد شق الفرد نصفين ثم وضع الجثة تحت أقدام الفيلة[٤٦] ، وكذلك تقطيع الجثة إلى ثلاثة أجزاء والقائها على قارعة الطريق[٤٧]. كما قرب السلطان إليه كبار الجلادين أمثال مخلصي الملك " يوسف بغرا " و " أبو راجا " ، و " ابن قاضي الكجرت " وغيرهم[٤٨] ، كما كلف أشخاص بمراقبة الأسواق وعقاب المخالفين ومنهم " محمد ابن السلطان " الذي نعته السلطان بأسد السوق[٤٩] ، لذا فقد انتشر الرعب والفزع في قلوب الأهالي حتى دفعهم البؤس والخوف إلى إعلان الثورة ورفض العيش .

ثانيا : دوافع السلطان محمد تغلق شاه لتغيير سياسة الهند المالية

اعتاد مؤرخو الهند على وصف السلطان محمد تغلق شاه بأنه مهووس وغير متزن في قراراته ، وكذلك في طموحاته العسكرية ، وخططه المالية ، والتي ترتب عليها تفكك وحدة الدولة الإسلامية في الهند وإزهاق أرواح عديدة من الأهالي جوعا ومرضا[٥٠] ، إلا أننا لا نستطيع أن نركن إلى ما ذكروه ونفسر على أساسه نظام الخراج وتغيير العملة في عهده ، والواقع أن هناك عدة دوافع هي التي قادت السلطان إلى تلك السياسة أعمق مما سبق ، من أهمها ما يأتي :-

١- تأديب الهنود :

الواضح أن السلطان " محمد تغلق شاه " قد فرض ضريبة نصف المحصول على الأراضي الواقعة في أيدي الهنود الذين اعتبرهم الحكام المسلمين أهل ذمة ، وهذه المنطقة تمتد من نهري الكنج والسند وتعرف بأرض " الدواب "[٥١]. المعروف أن هذه المنطقة من أخصب وأنفع بلاد

الهند ، وعليها مدار واعتماد السكان فى غذائهم ، وقد تركز فيها الهنود العصاة وكانوا يشنون الحملات على دهلى وما جاورها من آن إلى آخر(٥٢) ، وكان يؤازرهم فى ذلك ويقوى من عزيمتهم راجا مالوه(٥٣) ، وهذا ما دفع حكام المسلمين إلى توجيه أقصى الضربات إليهم(٥٤).

وفى عهد السلطان علاء الدين الخلجى اتخذ معهم سياسة مماثلة وهى فرض الضرائب الباهظة عليهم التى بلغت حد نصف المحصول ، وعين المحصلين القساة لتجميعها ، فى صورة مواد عينية ، ولما كانت أسعار المحاصيل قد انخفضت بسبب سياسته الاحتكارية فقد إزداد فقرهم ، فشلت ثورتهم ، ولم يستطيعوا مواجهة السلطان وجنده فلم تقم لهم قائمة طوال فترة حكمه(٥٥) ، لذا فقد رأى السلطان " محمد تغلق " شاه المضى قدما فى تنفيذ سياسة سلفه علاء " الدين الخلجى " فأثقل كاهل هنود الدواب وأمر بتحصيل النصف من محصولهم ، إلا أنهم أعلنوا الثورة عليه ، وشقوا عصا الطاعة ، وأظهروا غضبهم ، فأحرقوا زروعهم ، ونفقت مواشيهم ، وفروا من أراضيهم(٥٦) ، مما ترتب عليه حرمان الدولة من مصدر غذائها الرئيسى فانتشرت المجاعات .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن لماذا نجح علاء الدين وفشل نظام " محمد تغلق شاه " مع أن نفس الحاكمان قد انتهجا سياسة واحدة ؟ وجزء من الإجابة نجدها عند الدكتور "الساداتى"(٥٧) الذى أرجع إخفاق السلطان إلى قلة حظه وسوء طالعه ، وهو فى هذا يكرر كلام " الهروى "(٥٨) ، ولذ أكد أن قلة سقوط الأمطار التى واكبت خطة السلطان الضريبية كانت هى السبب فى فشلها ، حيث يجتمع على الفلاحين الشيئين المطر والضريبة .

وهذه وجهة نظر إلى حد ما صحيحة إلا أننا لا نستطيع تفسير الإخفاق أو النجاح بالاستناد على سوء الحظ ، ولكن الاعتماد على مدى الإدراك والفهم العميق لأبعاد الموقف فقد أدرك علاء الدين مدى احتياج أهل البلاد إلى محاصيل إقليم الدواب ، كما أدرك أيضا مدى الخطر المتكرر لأهالى تلك المنطقة من الهنود . ومن هنا أراد البحث عن مصدر آخر يوفر به الأمن الغذائى للأهالى ، ويقيه شر تهديد أهل الدواب بتجريف زروعهم وترك أراضيهم . وهنا قام بأكبر حملة عسكرية على هضبة الدكن ، أخصب بقاع الجنوب الهندى ، وفتح طريقا مباشرا إليها ونقل من محاصيلهم ما يشاء إلى عاصمته(٥٩) ، وأودع تلك الحبوب فى مخازن كبرى بكميات وفيرة لاستخدامها وقت الحاجة لو تطلب الأمر(٦٠) . حقيقة سيطر "محمد

تغلق شاه " على إقليمى الكجرات والدكن إلا أنه لم يستطع الاستفادة منه نهائيا بسبب تزايد أعمال الثورة فيهما ومحاولة الولاة الاستقلال بهما عن كيان الدولة[٦١] ، كما أن تاريخ الهند أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن التعامل مع الهنود بالحسنى وإدماجهم بالمجتمع الإسلامى يقى شرهم ، بل ويحولهم إلى مواطنين صالحين يحرصون على مصلحة البلاد لحساب حاكمها المسلم[٦٢] .

٢- تعويض النفقات الباهظة :

ومن أهم الأسباب التى دفعت السلطان محمد تغلق شاه إلى انتهاج السياسة المالية السابقة تعويض خزائن الدولة عن المصروفات الكبيرة التى كان ينفقها السلطان بلا حساب فى صورة هبات وعطايا ومنح ، حتى أن " ابن بطوطة "[٦٣] قد استعجب من هذا الكرم الفياض الذى لا يسعه عقل ولا يدركه منطق ، وقبل أن يذكر مآثره " قال حتى لا يندهش القارئ " وأنا أشهد الله وملائكته ورسله أن جميع ما أقوله عن كرم السلطان حق يقين وكفى بالله شهيدا ". ومن جملة إنفاقه توزيع أحمال الجمال ذهبا على أهالى دهلى ليضمن ولاءهم بعد قتل أبيه[٦٤] ، ومن جملة نفقاته أيضا إعطاءه للفقهاء ورجال الدين مبالغ باهظة بلغت هذه النفقات ما قيمته سبعة وعشرون ألف تنكة للقاضى شمس الدين الاندكانى[٦٥] ، وعشرة آلاف تنكه للقاضى الشوكانى[٦٦] ، وأربعين ألف تنكة للقاضى الصاعرجى[٦٧] . وإنعامه على ملك التجارة الكازورنى بثلاثين ألف تنكة[٦٨] ، كما وهب قاضى غزنه عشرة ملايين تنكة ، وصديقاه "عماد الدين" سبعة ملايين تنكة ، وسيد عضد أربعة ملايين تنكة[٦٩] بل بلغ من عطاياه لرجال دولته ما يفوق الوصف ، وكانت جميع الأدوات المستعملة لرجال دولته من الكتاب ، والوزراء والحجاب من الذهب الخالص[٧٠] ، وبلغ من هذا الإسراف الغير عادى أن أحد المؤرخين ما برح أن قال أن خزائن الدولة خلت تماما في طرفة عين[٧١] وإزاء هذا تطلب الأمر البحث عن مصادر دخل جديدة لتعويض الخزينة كل هذه الخسارة .

الانفاق على المشاريع الكبرى :

بلغت مشروعات السلطان مداها واحتاج المزيد من المال ، لتنفيذ مشروعاته المدنية الكبرى وكان أهمها نقل عاصمة ملكه إلى " دولت آباد "[٧٢] فى شمال الدكن[٧٣] وبالتالى أجبر أهالى دهلى على ترك منازلهم والسير إليها أربعين يوما ، وكان هدفه من ذلك الابتعاد عن غارات المغول على شمال البلاد[٧٤] . فقام بتهيئة الطرق ، وبنى بالعاصمة الجديدة القصور

العالية والمسجد الجامع والسوق - وأحاطها بسور عظيم(٧٥) إلا أن الأهالى لم يطيقوا العيش بها لشدة الحر ، مما دفع السلطان إلى التفكير فى عاصمة أخرى ، وهنا كان على السلطان أن يرجع إلى دهلى إلا أنه إستاء منها ويأس من خرابها ، فقام ببناء عاصمة فى مدينة سركدارى(٧٦) على نهر الكنج شمال دهلى ، وقد أنفق أموالا طائلة على مشروعه هذا أيضا .

من الجدير بالذكر أن نوضح أن الأهالى لم يطيقوا كثرة التراحل واشتاقوا إلى مدينتهم القديمة دهلى ، ورفضوا العيش فى " سركدارى " وهنا لم يجد السلطان بدا من تركهم فما برحوا أن عادوا إليها جميعا ، وأتبعهم السلطان نفسه(٧٧) .

ورغم كثرة إنفاقات السلطان إلا أن مشاريعه العسكرية كلفته الكثير والكثير ، وكان أولها رغبته فى طرد المغول من خراسان والعراق نهائيا ، وهنا أخذ ينفق ببذخ على الرجال القادمين إليه فرارا من بطشهم(٧٨) ، بل وأخذ فى تجهيز جيشا منهم مكون من ثلاثمائة وسبعين ألف فارس ، بكل ما يحتاج إليه من عده وعتاد ، وبسبب زيادة النفقات لم يستمر السلطان فى تدعيمه لهذا الجيش ، ورغم مرور عام على تجهيزه ، إلا أنه بقدوم العام التالى كان أغلب فرسانه قد فر بما يملك(٧٩) ، ورغم خسارة السلطان المالية إلا أنه قدم على مشروع عسكرى آخر غاية فى الخطورة كلف خزانة الدولة ما لا تطيقه ، حيث أمر بإعداد جيش قوى وعين عليه أعظم القواد ورجال الدولة وأمرهم باقتحام جبال الهيمالايا(٨٠) ، ولم يقبل السلطان اعتراض بعضهم على ذلك ، لصعوبة تنفيذ مثل هذا المشروع الذى لم يجرؤ أحد الحكام السابقين على تنفيذه ، إلا أن السلطان صم أذنيه وهدد بقتل كل من تسول له نفسه العصيان على أمره(٨١) .

وقد تحرك الجيش لتنفيذ رغبة السلطان إلا أنه منى بهزيمة نكراء ، وقتل أغلبه حيث حارب الهنود الجيش حرب عصابات ، وأخذوا ينقضون على الجنود من الضروب والمسالك التى كانوا يعرفونها جيدا ، والتى ضل جنود السلطان طريقهم فيها ولم ينجوا من ذلك إلا عددا قليلا. ومن هذا نرى أن المشاريع الكثيرة التى أسسها السلطان " محمد تغلق شاه " ، كلفت الدولة أموالا طائلة ، وأنها كانت مشاريع فاشلة لم تحقق للدولة أى مكاسب مادية ، مما أجبر السلطان إلى محاولة تعويض هذه الخسائر بالتغيرات المالية سواء فى نظام الخراج أو فى سك العملة .

وفى حقيقة الأمر لم يكن السلطان مخترعا لهذه الحلول لمواجهة الأزمة المالية التى عصفت ببلاده على أثر تزايد النفقات بشكل كبير ، فبالنسبة للخراج فقد لجأ السلطان " علاء الدين " إلى مثل تلك الطريقة ، كما لجأت إليها حكومة العراق فى أوقات كثيرة[٨٢] ، إلا أن أضرارها لم تظهر مثلما ظهرت على مثيلتها فى الهند .

وكذلك العملة حيث عرفت من قبل فى عهد بنى أمية ، وكان يطلق عليها فلسا ، وكانت تستغل لشراء الحاجيات البسيطة التى تقل أن تباع بدرهماو جزء منه[٨٤] ، وهذا بخلاف كونها أساسية مثل الهند ، كما عرفت العراق فى عهد " كيخاتو خان المغولى " (٦٩٠ هـ/ ٦٩٤ هـ) عملة ورقية طرحت فى البلاد لمواجهة الإفلاس بواسطة الوزير أحمد الريحانى[٨٥] .

كذلك تقدمت الصين خطوة كبرى أهلتها لتكون أول من اتخذ العملة الورقية ومنها انتقلت إلى أوروبا[٨٦] ، وذلك فى عهد أسرة مينج ، وإذا كان نظام العراق قد فشل لرفض الأهالى التعامل بالعملة الورقية ، فإن نظام الصين كتب له النجاح وخصوصا عندما أصدرت الحكومة مرسوما بمعادلة قيمة العملة الورقية بالذهب[٨٧] ، وكان تقدم الطباعة فى الصين قد منع من تقليد العملة أو تزييفها عكس الهند تماما .

ثالثا : الآثار الجانبية للنظام المالى فى عهد محمد تغلق شاه :

تعددت الآثار الجانبية للنظام المالى فى الهند وطالت تأثيراته كافة مناحى الحياة بلا استثناء السياسية منها والاقتصادية ، وقد دفع ضريبة كل تلك الاضطرابات الأهالى والشعوب كما استفاد منها أعداء الإسلام فى الهند وعلى الرغم من أن التغيرات المالية فى الهند لم تستمر طويلا ، إلا أن آثارها على الاقتصاد والمجتمع وتفكك الجيش ، والفتن والثورات ظهرت بصورة واضحة ومباشرة .

١- اضطرابات أحوال الجيش :

كان للجيش الإسلامى فى الهند مكانة كبرى فى نفوس الأهالى والحكام على اعتبار أن البلاد " دار حرب " وجهاد لذا فقد أولاه السلاطين رعاية كبيرة وحافظوا على وحدته وقوته ، وقد استمر هكذا طوال العهد الإسلامى فى البلاد ، إلا أنه قد تسرب إليه الفساد فى عهد السلطان " محمد تغلق شاه " حيث احتكر السلطان الذهب والفضة لنفسه ، مما أغضب القواد ، هذا إلى جانب إهمال السلطان الأخذ برأى قادة الجيش فى تنفيذ سياسته العسكرية بل انفرد

برأيه وأجبرهم على تنفيذ أوامره ، لذا نرى ردود فعل من جانب القواد منها قيام أمراء المئة ببيع جزء من أسلحة الجيش إلى عملاء الثوار الهنود ، مما ترتب عليه ضياع إقليم الكجرات من يد السلطان(٨٨) كذلك سربت أسلحة من الجيش إلى الثوار الهنود فى مدينة سامان ، وبيعت لهم مقابل الذهب من قبل قواد المائة(٨٩) ، مما أعطى ثورة الهنود قوة ودفعة كبرى لم يقف الأمر فى الجيش عند هذا الحد ، بل أصبح فرار الجنود من ميدان القتال أو وقت السلم من السمات البارزة فى جيش السلطان " محمد تغلق شاه " ، وصار هروب العسكر من أهم ملامح جيش السلطان ، فقد فر منهم ما يقرب من النصف ، وانضموا إلى صفوف والى الملتان "كشلو خان" أثناء حربه ضد السلطان ، حتى كاد عسكره يفوق عسكر السلطان ، وذلك طمعا فى الغنيمة وتيسر الحال(٩٠) . كذلك أثناء قتاله للهنود والعصاة فر من جيش السلطان ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين جنديا ، وانضموا إلى صفوف الثوار طمعا فى الذهب والفضة ، فأحدثوا بذلك ارتباكا شديدا وكاد جيش السلطان أن ينهزم لولا مهادنته لكبار قواد الهنود(٩١) ويبلغ الأمر مداه حيث طلب السلطان من قواد جيش الولاة فى بهار وواكهتوتى تقديم العون له أثناء حربه ضد والى البنغال المتمرد " فخر الدين " وعندما اتفقوا على الخطة انسحبوا من الجيش فى اللحظة الحاسمة ، لينهزم جيش السلطان ويستقل فخر الدين بالأقاليم لنفسه(٩٢) .

٢- انتشار عمليات السرقة والسطو :

ونتيجة لاحتكار السلطان امتلاك الذهب والفضة وفرض العملة النحاسية على الأهالى والسكان ، الذين لم يقتنعوا بها ووجدوا فى الذهب والفضة الثروة الدائمة فقد انتشرت عمليات السطو والسرقة وفقدت الدولة السيطرة على الأمن العام ، وطالت تلك العمليات بالتالى خزائن السلطان ففى قلب العاصمة الثانية " دولت اباد " اشترك الأمراء مع بعضهم البعض ، وانقضوا على خزائن العاصمة ونهبوا الذهب والفضة وقسموها فيما بينهم(٩٣) ، وكانت تلك بادرة خطيرة سرعان ما انتشرت بين الجنود . كما شكل الهنود عصابات كبرى للسرقة ، واستطاعوا السطو على خزائن السلطان أثناء رحلته من دهلى إلى "دولت أباد" ، رغم الحراسة الشديدة التى فرضت على الخزائن من قبل رجال السلطان ، وقد كلف هذا العمل حياة جميع الحراس بما فيهم خطيب الخطباء حيث اتهمهم السلطان بالتقصير وقتلهم جميعا بعد تعذيب شديد(٩٤) ، وبلغ الأمر بقطاع الطرق أنهم قطعوا الطريق بين مدينة " هانسى "(٩٥) والعاصمة دهلى حتى لم يكن فى مقدور رجال الدولة إرسال الأموال المقررة عليهم إلى دهلى ،

خوفا من وقوعها فى أيدى اللصوص(٩٦) ، وقد إزداد امر قطاع الطرق وارتفع شأنهم وأصبحوا على قدر عال من الثراء ، وهذا ما دفع كبار رجال الدولة إلى التعاون معهم ضد أمن الدولة ، فقد اشترك الوزير " خواجه جهان " مع قطاع الطرق ورسم لهم خطة محكمة للسطو على أموال ملك التجار الكازورنى الملقب ببرويز ، فخرجوا عليه أثناء ذهابه إلى السلطان من الكجرات وسرقوا أمتعته وهداياه ، بل قاموا بقتله مع حراسه(٩٧) ، وبذلك فقد انهار الوضع الأمنى فى البلاد وانتشر الفزع والخوف خصوصا بعد أن تبين للجميع عجز السلطان عن التصدى لتلك القلة الباغية .

٣- ثورات الأمراء :

أعطت اضطرابات أوضاع البلاد وتشبث السلطان بقراراته دون أخذ مشورة الأمراء فى الأقاليم البعيدة الفرصة فى إعلان الثورة على السلطان والانفصال بما تحت أيديهم من أراضى عن دهلى ، ومما زاد من ثورة هؤلاء الأمراء انضمام الفلاحين والتجار إليهم ، لما أصابهم من أضرار نتيجة نظام السلطان المالى ، وكانت البنغال المحطة الأولى لتلك الثورات حيث أعلن واليها " بغى بهرام " الثورة ونصب نفسه سلطانا على الاقليم(٩٨) ، وانضم إليه كافة الأهالى والسكان ، ولكنه عندما علم بقدوم السلطان اكتفى بتحصين عاصمته لكهنونى الهش مما ساعد على سقوطها وقتله ، وقد أراد السلطان إعمال السيف فى كافة السكان لولا شفاعة شيخ الإسلام لهم(٩٩) ، ولكن الأهالى لم ييأسوا من جراء تلك الهزيمة واعتبروا السلطان عدوهم اللدود ، حيث انضموا إلى الوالى الجديد " فخر الدين " الذى هزم جند السلطان بعد معركة دامية واستقل بالأقليم لنفسه(١٠٠) .

واستغل والى طفراباد المسمى " عين الملك " - وتقع ولايته على الضفة الشرقية لنهر الكنج - فرصة اضطراب أحوال البلاد وأعلن الثورة ، كما استولى على خيل ودواب السلطان التى كانت ترعى فى أرضه(١٠١) ، وانضم إليه العديد من سكان دهلى وسركدارى(١٠٢) ، كما انضم إليه كبار التجار ، وعندما علم السلطان بذلك رحل إليه ودارت بينهم معركة عنيفة هزم فيها عين الملك ورجاله(١٠٣) . كما قام أمير آخر بالثورة على السلطان محمد تغلق شاه وهو " والى الكجرات " ، فقد أعلن " طغى خان " الثورة فى الكجرات ونهب خزائن الإمارة ، وانضم إليه أمراء النواحى والمدن القريبة ، فاستقل بالإقليم ، وعندما علم السلطان بذلك توجه

إليه بنفسه وتقابل معه فى معركة عنيفة قرب مدينة كنبايت فقتله وفرق جمعه[١٠٤] ، إلا أن الثورة استمرت مشتعله فى الكجرات حتى أستولى عليها الهنود فى آخر الأمر .

٤- ثورة الهنود :

وكان الهنود أكبر المستفيدين من تلك الاضطرابات التى عمت البلاد ، فاستطاعوا شراء الأسلحة اللازمة لهم بعد أن اشتروا ذمم العديد من أمراء المائة ، وأعلنوا ثوراتهم وطالبوا بالاستقلال بالعديد من المدن الإسلامية وكانت كبرى تلك الثورات تلك التى قامت فى مدينة سامانه حيث اتحدت طوائف الهنود من مدن "أهرات" و "جوهانان" و "بهتيان" و "ميانه" و استقلوا بما تحت أيديهم ، كما شرعوا فى الهجوم على دهلى نفسها ، ولولا إجراء السلطان الصلح مع قادتهم لتم لهم الاستيلاء على العاصمة[١٠٥] كما اشتعلت ثوراتهم فى إقليم الكجرات حتى تثنى لهم الاستيلاء على مدينة كنيل وتوابعها[١٠٦] واضطر حماة المدينة إلى الفرار منها ليلا ، ومما زاد من تلك الثورات انضمام سكان منطقة الدواب إلى القادة الهنود ، مما دعم ثورتهم وأضاف إليها قوة جديدة .

٥- ثورات الأهالى وعقاب السلطان لهم :

ونتيجة للنظام المالى الذى ترتب عليه خراب المدن وارتفاع الأسعار ، وقلة العلف ، حتى نفقت أغلب مواشى السكان كما بلغت المجاعة فى الهند مداها[١٠٧] ، حيث دفع الجوع والحرمان الأهالى إلى أكل لحوم الخيل الميتة[١٠٨] ، بل وتعدى الأمر إلى أكل لحوم بنى أدم الميتة[١٠٩] ، وإزاء هذا لم يجد الأهالى سوى الفرار من هذا الجحيم ، فشهدت مدن بهار والبنغال إقبال عظيم عليها[١١٠] وقد ضاق الأهالى ذرعا بهذه الحال وضجروا من تعنت السلطان وإصراره على موقفه ، فانضموا إلى الثوار في البنغال والسند والكجرات ، بل وأخذوا يكتبون البطاقات وفيها شتائم وسباب ثم يلقونها بالنشاب إلى داخل قصر السلطان ليلا[١١١] ، ونتيجة لكثرة الثورات التى تزعمها الأهالى فقد تجبر السلطان فى عقابهم ، حيث أمر بقتل جميع سكان مدينة برن ، الذين رفضوا الأنصياع لتعليماته ورفضوا تسديد الضرائب[١١٢] ، وفى أمر مماثل أمر بإعدام ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين رجلا من أهالى دهلى أمام أعين ذويهم[١١٣] كما بالغ فى عقاب أهل المدينة أيضا الذين لم يقبلوا السياسة المالية الجديدة وأكثروا من الذهب والفضة فى بيوتهم فأجلاهم عن مدينتهم ولم يتوانى عن إنزال أقصى العقوبات حتى بأصحاب العاهات مثل الكسيح والأعمى[١١٤] وعندما اعترض

سكان ما بين النهرين على قرار تحصيل نصف الخراج وقد أكملوا تعاملهم بالعملات الذهبية والفضية ، أعطى السلطان تصريحا لقواد جيشه باقتحام الاقليم وقتل جميع سكانه . وقد نفذ الجنود ذلك فقتلوا من وجدوه من السكان وقاموا بإحراق البيوت(١١٥) ، ومن ثم فر من بقى منهم على قيد الحياة إلى مدينة "بهار" القريبة ، لعلهم يجدون الأمان(١١٦) ، ولم تقتصر عقوبات السلطان على الرجال فقط بل طالت النساء أيضا ، ففى سابقة لم تشهدها من قبل البلاد أصدر السلطان مرسوما بالقبض على ثلاثمائة إمرأة من أهالى " لاهور" المسلمات وأودعهن السجن فى مدينة " كوليار "(١١٧) ، وذلك عقابا لأزواجهن الذين اشتركوا فى ثورة والى لاهور المدعو هلاجون(١١٨) ولم يتثن لرجال السلطان القبض عليهم . إلا أن كل تلك الأفعال أدت إلى ازدياد الأمر سوءا .

٦- غضب رجال الدين ووقوفهم ضد السلطان :

إزاء هذا الوضع المتردى لم يقف رجال الدين مكتوفى الأيدى ، وهم الذين داوموا على مقاومة الظلم والوقوف فى وجه السلاطين المسلمين ، الذين تعدوا حدود العدل والإنصاف ، لذلك نراهم يشاركون القواد والثوار ويقفون فى وجه السلطان مطالبين أياه بإلغاء نظامه المالى التعسفى ، حيث شجع الشيخ الفقيه " شمس الدين تاج العارفين " الساكن مدينة كول الأهالى إلى الانضمام إلى أحد الأمراء الذين ثاروا ضد السلطان ، وانضم إليه قاضى المدينة والمحتسب وعندما علم السلطان بذلك أرسل إليهم من قيدهم جميعا وأرسلهم إلى دهلى كما قام بقتل أولاد الشيخ تاج العارفين ثم اتبعهم بالقاضى(١١٩) . لذا إنضم الشيخ "معز الدين" مع تلاميذه وباقى شيوخ مدينة كجرات إلى ثورة الوالى العاص " طغرخان بن الحرام " المشهور بالصفدارى ، وبعد أن استطاع قائد جيش السلطان يوسف بغرا من تسكين الفتنة قام بقتل الشيخ وأعوانه بعد أن نكل بهم وشجع الشيخ " على الحيدرى " التجار فى ثورتهم ضد السلطان وكان كثير الجلوس إليهم ، وعندما رفع القاضى " جلال الدين الأفغانى " وأهله لواء المعارضة فى مدينة كنباية أيدهم وبايعهم على قتال السلطان ، الذى انتصر على الثوار ، فأمر بالشيخ فقتله أمام أهالى المدينة(١٢١) .

كذلك ثار الشيخ " شهاب الدين بن جام الخراسانى " فى وجه السلطان ورفض خدمته ، وأعلن على الملا ظلمه ، بسبب إخراجه أهل دهلى وتخريب المدن التعليمية الباطلة ، فما كان من السلطان إلا أن قبض عليه وتركه مصلوبا أربعة عشر يوما ، ثم أمر بضرب عنقه(١٢٢)

وقد طالت يد السلطان رجال الدين من المدرسين الشرعيين فى مدرسة دهلى الذين لم يتوانوا عن ذكر ظلم السلطان وتعسفه ، ومنهم الفقيه عفيف الدين الكاشانى الذى قتل مع فقيهين آخرين شر قتله[١٢٣] .

وقد اشتد السلطان فى عقاب رجال الدين وبلغ حدا أصبح استمراره ينذر بثورة عارمة ، حيث اتصف أهالى الهند بمدى إعتزازهم واحترامهم لرجال الدين ، والتفانى فى خدمتهم بل وتربى فيهم أخذ مشورتهم فى كافة مناحى الحياة العملية والعلمية[١٢٤] .

٧- ثورات التجار :

كان التجار أكبر المتضررين من هذا النظام المالى حيث أجبروا على بيع سلعهم بالعملة النحاسية ، رغم شرائهم لها بالعملة الذهبية والفضية ، فما لبثوا أن أغلقوا محالهم وأصبحوا بلا عمل ، كما اضطر من بقى منهم إلى إعلان إفلاسه نتيجة سرقة بضائعهم من جانب قطاع الطرق ، الذين انتشروا فى بقاع عديدة من الهند ، واضطر هذا الوضع التجار إلى التعبير عن غضبهم بإعلان الثورة ضد السلطان ، وكانت ثورة " تاج الدين بن الكولى " فى مدينة كنبـاية[١٢٥] واشترك معه كبير التجار ويسمى بالتاجر " الياس " ولولا تصدى قائد جيش السلطان المدعو "مقبل خان" لهذه الثورة لاستفحل أمرها بعد انضمام الأهالى من زراع وصناع إليـهم[١٢٦] ، وكان ابن الكولى هذا عندما وجد الركود الاقتصادى اشترى المنتجات الهندية وأرسلها بالسفن إلى جزيرة سيلان لبيعها بالذهب والفضة دون أن يستورد من هناك شيئ ، ولما سمع السلطان بذلك أرسل إليه يأمره بإيداع هذه الأموال الخزينة ، فرفض وكان ذلك إيذانا ببدء ثورة [١٢٧].

وقد استغل التجار فى مدينة ظفر أباد ثورة واليها " عبد الملك بن ماهر " ضد السلطان ، وسارعوا فى الانضمام إليه يتزعمهم فى ذلك بن ملك التجار وقد استطاع السلطان إخماد تلك الفتنة وقبض على ابن ملك التجار ومعاونيه فأمر بهم فعلقوا من أرجلهم وأمر رجاله برميهم بالنشاب حتى الموت[١٢٨] ، ونتيجة لكثرة إرهاب السلطان لهؤلاء التجار ، فقد فر من بقى منهم حيا إلى مدينة كاليكوت عند مالكها الكافر المدعو " سامرى " ولاقوا عنده ترحيبا عظيما[١٢٩] .

وإزاء هذه الأوضاع المتردية لم يجد السلطان بدا سوى مهادنة كبير التجار المدعو الكازرونى نفسه فارتبط معه بعلاقات حميمه واستماله إلى جانبه ، لذا فقد أقطعه مدينة

كنيابة وولاه عليها ، ووعده بمنصب الوزارة أن هو ضبط أحوال المدينة كما أرسل إليه السلطان مع التاجر شهاب الدين مجموعة هدايا حملتها عدة بغال وسراجه مزينة بالذهب الخاص(١٣٠) لعله بذلك يضمن تهدئة أحوال التجار ويشترى سكوتهم ، وفى حقيقة الأمر لم يكن السلطان راضى عن تلك الثورات وعن مدى عقابة الذى جاوز كل الحدود ، حيث جلس إلى مستشاره المسمى " بارانى " يشكو إليه سوء ما وصل إليه حال دولته قائلا : " أن مملكتى أصابتها أمراض متضادة إذا عالجت أحدها ، غلب عليها مرض آخر " ثم طلب منه النصيحة فقال له بارانى " لقد كنت أرى أنه عندما ينفر الناس من السلاطين وتهب الفتن ، يجلسون أبنا أو أخا جديرا بالسلطنة محلهم وبعضهم كان يترك الأعمال التى تسبب الفتور العام "(١٣١) .

رابعا : إصلاحات السلطان محمد تغلق شاه المالية :

إزاء هذه الأوضاع السياسية والاقتصادية المتردية والتى كان يصعب معها استمرار الحكم ، أخذ السلطان برأى بارانى السابق وبدأ فى إصلاح شؤون الحكم . ولما كان أساس خراب الديار الخراج والعملة ، فقد أبطل نظام الخراج ، وطلب من المحصلين مراعاة ظروف الفلاحين وتقديره الخراج بأحوال أراضيهم ، كما ألغى العملة النحاسية وأبطلها ورد للناس عملاتهم الفضية والذهبية ثم تفرغ لإصلاح أمور الزراعة للقضاء على المجاعات وتيسير عمليات الصناعة والتجارة .

ونتيجة لما عرف عن أهل الهند المسلمين بتمسكهم بالإسلام واحترامهم لأهل بيت النبى (ﷺ) فقد استقبل السلطان محمد تغلق شاه رسول الخليفة العباسى المستكفى بالله والمدعو "حاجى سعيد الأفراح" فى عام ٧٤٤ هـ/ ١٣٤١ م ، وأمام الأهالى نزل وقبل قدمه ، وأمر أن يقيموا الأفراح(١٣٢) . كما آمر أن يثبتوا اسم الخليفة على العملة الجديدة محل اسمه(١٣٣) وعلى الفور جلس داخل قصره ووضع المصحف وبايعه رسول الخليفة أمام الأهالى والأعيان ، وبدأ فى أخذ البيعه منهم من جديد ، وكان كل إصلاح يقوم به يقول هكذا أمر أمير المؤمنين(١٣٤) . وبذلك فقد بدأ أول خطوات الإصلاح بكسب ثقة الأهالى .

وبدأ السلطان إصلاحاته بالزراعة فاهتم بها وأعطى لأصحابها أوفر قدر من ماله وجهده ، حيث أمر بحفر العديد من الأبار خارج دار الملك ، لمد الأهالى بالمياه اللازمة ، كما أمد المزارعين بالحبوب والبذور اللازمة مجانا(١٣٥) .

وأنشأ للزراعة ديوانا خاصا اسماه ديوان " أمير كوى " ، كانت مهمة رئيسه الأساسية الإشراف على كل صغيره وكبيرة تخص الزراعة ، وكان يضع خطا حول ثلاثين فرسخا من الأراضى ويأمر شقدار حاكم المنطقة بزراعتها فورا ، وعندما بلغ أن ولاية ميرهت ودبوكير قد خربت زراعتها وأن محصولها وصل إلى أقل من العشر ، أقر لها ثلاثين مليون تنكة لإصلاح أحوال الزراعة بها فورا(١٣٦) كما أرسل إليها أربع من كبار رجاله هم سرور الملك ومخلص الملك " ويوسف بغرا " وعزيز خمار " وطلب منهم دراسة أحوال الزراعة فيها وتقسيمها فورا ، كما عين أحد رجاله مختصا بتوزيع التقاوى والحبوب وكان يطلق عليه دهاراو حتى يضمن وصولها كاملة إلى كافة المزارعين(١٣٧) .

وتعقب السلطان المخالفين لسياسته وأسند المناصب الإدارية إلى رجال الدين ، أمثال الشيخ شهاب الدين الذى عينه على ديوان الخراج(١٣٨) ، والشيخ نظام الدين الذى عينه على خزائن ديوكير ، ،وعهد بإصلاح أحوالها المالية(١٣٩) ، وعملا منه على مواجهة المجاعات فقد حدد نفقة ستة أشهر للأهالى وليضمن سير العدالة فى توزيعها وضعها فى أيدى رجال الدين اللذين كانوا يجبون البيوت ويوزعونها على الأهالى(١٤٠) ، وبذلك فقد قضى على شبح الخوف من المجاعات وما تبعها من أمراض وأوبئة ونتيجة لجهوده الصادقة فقد ازدهرت الزراعة ونشطت بالتالى الصناعة ، كما أخذ التجار يديرون تجاراتهم فى سهولة ويسر من جديد .

صفوة القول التغيرات المالية التى اتبعها السلطان محمد تغلق شاه بدافع إصلاح أحوال البلاد وخزانة الدولة وبناء عاصمة جديدة ، مالبثت أن اثبتت فشلها ، وأدت بالتالى إلى العديد من الثورات سواء من الهنود أو التجار أو الأمراء وغيرهم ، مما أجبر السلطان فى النهاية إلى العودة عن سياسته المالية ومحاولة إصلاح ما خرب من شئون الزراعة والصناعة والتجارة ، واتخذ لذلك عدة أساليب أهمها توظيف رجال الدين المعروفين بمهارتهم الإدارية فى المناصب الكبرى ، واستقباله المشرف لرسول الخليفة العباسى المستكفى بالله ليكسب ثقة شعبه بذلك .

الهوامش

١- السلطان علاء الدين الخلجي ثاني حكام الأسرة الخلجية في الهند تولى بعد عمه فيروزشاه الخلجي في الفترة (٦٩٥-٧١٥ هـ / ١٢٩٥-١٣١٥ م) ، ويعد من أعظم سلاطين المسلمين في الهند استطاع أن يوسع حدود دولته لتشمل لأول مرة هضبة الدكن وإقليم الكجرات ، كما ضم إليه البنغال وجنوب كشمير وانشأ نظاما اقتصاديا احتكاريا على جميع المحاصيل الغذائية وبعض الحيوانات مثل الخيل ووضع عدة ضوابط على عمليات البيع والشراء ونظم العملية التجارية ، وبلغت قوته العسكرية حدا جعله يفكر في طرد المغول من خراسان والعراق ، وذلك بعد أن أنزل بهم هزائم متكررة عند لاهور والملتان " ملا عبد الباقي نهاوند " : مأثر رحيمي ، بتصحيح محمد هدايت حسن ط كلكته ١٩٢٤ م - ج ١ ، ص ٤٠) ولمزيد من التفاصيل حول حركة التجارة في عهد علاء الدين الخلجي أنظر نعمة على مرسى : تجارة الهند في عهد السلطان علاء الدين الخلجي ، مجلة ندوة المؤرخين العرب حصاد ٨ ، ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٦٢٧-٦٣٨ .

2- Cambridge: History Of India, (New Delhi 1958) Volume. 111 P. 173.

وذكر ابن بطوطة أن " تغلق شاه " كان يسكن مع باقي الأتراك تلك المنطقة الممتدة من السند إلى بلاد الترك فيما وراء النهر " أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي : الرحلة ، ط بيروت ، ص ٤٣٦ ، ورغم أننا لا نستطيع تحديد منطقة سكن الأتراك في الهند بدقة إلا أنه من المعروف أنهم قدموا إلى البلاد قبل العرب ، وازداد نفوذهم منذ فتوحات السلطان محمود الغزنوي (٣٩١ هـ / ١٠٠١ م) و سكنوا المدن الكبرى مثل لاهور والبنغال ودهلي .

K.M: Munsh: The struggle for Empire Bombey 1957. P. 6.

٣- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٣٦ .

4- Emma hawkridy India Gods and Kings. p. 186, (New Delhi, 1994).

اهتم سلاطين المسلمين في الهند بتربية الخيول العربية ، لاستخدامها في الحرب والقتال وذلك لضعف الخيول الهندية التي تميزت بالسمنة وقصر القامة وثقل الحركة عكس العربية ، وقد خصصوا أحد كبار رجالهم للإشراف على الخيل وسمي ، أمير الخيل أو أمير الإسطبل

Chamha: The Sultant of Delhi, (New Delhi) 1994 , p. 186.

٥- دهلى هى مدينة ذات إقليم متسع ، وهى فى مستوى سطح الأرض ، فتحها " قطب الدين أيبك " عام (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م) واتخذها حاضرة للدولة المملوكية فى الهند ، واستمرت طوال العهدالإسلامى حتى جاء الإنجليز وأطلقوا عليها دلهى أو نيودلهى وهى تبلغ من حيث الطول ١٢٨ درجة ، و ٥٠ دقيقة والعرض ٢٥ درجة و ٥٠ دقيقة .

A.K. Jain: The City of Delhi, (New Delhi, 1994). p. 29 .

٦- بدوانى : منتخب التاريخ ، بتصحيح مولوى أحمد على صاحبى ، ط كلكته ١٨٩٨ ع ، ج١ ، ص ٢٠٤

٧- أحمد محمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ، ط مكتبة كلية الآداب ، جـ١ ، ص ١٥٠ .

٨- حيث شيد له ابنه محمد قصرا من الخشب على عجلة من أمره قرب دهلى ، ليستريح فيه أثناء عودته من رحلة البنغال وخطط لبضعف إحدى جوانبه ، والتى أمر السائس أن يمر فيها بالفيلة أثناء استعراضها أمام السلطان مما ترتب عليه انهيار المبنى بأكمله ، فقتل السلطان مع ابنه وعددا من رجال الدولة تحت الانقاض (نهاوندى : مأثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٣٤٣) .

٩- البنغال : تقع فى أقصى شرق الهند وتعتبر المعبر الرسمى إلى أرض التبت والصين ، وأكبر مصدر للسكر والعقاقير الطبية الطبيعية وهى تشكل الآن دولة بنجلاديش الإسلامية .

١٠- البنجاب : كلمة فارسية مكونة من مقطعين ، بنج بمعنى خمسة وآب بمعنى نهر أى الخمسة أنهار ، ويقصد بها فروع السند وهى " شلنج ، جيناب ، بياس ، جهلم ، راوى " .

١١- بدوانى : منتخب التواريخ ، جـ١ ،ص ٢٤١ .

١٢- محمد قاسم هندو شاه : تاريخ فرشتة ، ط بومباى " ١٨٣١م ، جـ١ ، ص ١٤١ ،وما بعدها .

١٣- الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتها ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

14- Camb: Hist. Of India, p. 189.

١٥- نظام الدين الهروى : طبقات أكبرى ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦ م ، جـ١ ، ص ٢٠٠ .

١٦- الهروى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٢ والواضح أن اسم لقب الثانى تميزا له عن السلطان محمد تغلق شاه الأول - موضوع البحث .

17- Camb: Hist. Of India, p. 191.

١٨- حيث أعلن مظفر خان استقلاله بمنطقة الكجرات واستقل القائد خواجه جهان سرور بمنطقة جونبور ، ووقعت منطقة البنغال في قبضة الأفغان ، واستقل علاء الدين كانكو بالدكن ، وأسس بها الإمارة البهمينية ولمزيد من التفاصيل حول هذه الإمارة ارجع إلى :

Nilakanta: Abvanbced History of India, (New Delhi 1986) , p. 365.

19- Nilakanta :OP. Cit p. 369.

المعروف أن الغزوات التركية لبلاد الهند بدأت مع فتوحات الأمير سبكتكين ، إلا أن المعروف أن استقرار أوضاع المسلمين في الهند لم يأخذ شكله النهائي إلا مع غزوات السلطان محمود الغزنوي بعد استيلائه على المدن الكبرى مثل لاهور والملتان وقنوج وكشمير ، وذلك في سبعة عشر غزوة متواصلة من عام "٣٩١ هـ / ١٠٠١ م " إلى عام "٤٢٠ هـ/ ١٠٣٠ م" .

20- S.M.J. Affar: Medevial India, (New Delhi 1972) p.p. 94-50.

21- Aziz Ahmed: An Intellectual History of Islam in India (U.S.A, 1969) p. 22.

٢٢- وقد حدث خلاف في الأراضي التي تفتح عنوة في الإسلام فللمالكية رأى أنها تصير ملكا وقفا للمسلمين ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين ، أما الحنابلة فقد أرجعوا الأمر إلى الإمام فله أن يقسمها على الفاتحين أو يوقفها على جميع المسلمين ، أما الشافعية فرأوا أن هذه الأرض كغنيمة الأموال التي تقسم على الفاتحين ، أما أبو حنيفة فقال تقسيمها على المسلمين أو تركها في أيدي أصحابها ويعاملوا كأهل الذمة ، وهذا الرأي هو الذي أخذ به في الهند . محمد أمين صالح : النظام المالي والاقتصادي في الإسلام مكتبة نهضة مصر الشرق ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٣٩ ، ص ٤٠ .

٢٣- ويسمى المطر عندهم ريشكال البيروني ، تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة ، ط علم الكتب بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م ، ص ١٤٩ .

24- Affar: OP, Cit. P. 66.

٢٥- والمقاسمة : أخذ جزءا عينيا من المحصول ، أما نظام المحاسبة فهو أخذ الخراج نقدا أو عينا .أو كلاهما معا (محمد أمين صالح : النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ص ٥٢) .

٢٦- ولسلى هايج : الهند وامبراطوريتها الإسلامية ، بحث منشور ضمن مجموعة تاريخ العالم ، جـ٥ ، ص٦٦٣ .

٢٧- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤١٥ .

٢٨- كلوس كريزر ، فارنرديم ، هانس جووج : معجم العالم الإسلامي، ط بيــروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، ص ٢٩١ .

29- C.E, os worth BOSWORTH: the Imparial Policy of early Ghazawids, (Islamic Studies Journal - 1/3/1962)PP. 50-51.

٣٠- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧١ .

٣١- الهروى : نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

32- Havell: The History of Aryan - Rule of India, (London) p. 310-311 .

٣٣- البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر ، ط المتنبى ، ص ١٦٤ .

٣٤- والدرهم الهشتكانى والدروازهكانى يساويان ثمانى جتلات ، والدرهم السلطانى يساوى جيتلات ، الششتكانى يساوى ستة جيتلات (القلقشندى : صبح الأعشى ، ط مؤسسة مصرية ، جـ٥ ص ٨٤ .

٣٥- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ٦٦ أما القلقشندى يذكر أن كل مائة ألف تنكة تسمى لكا (صبح الأعشى : جـ٥ ، ص ٨٤) .

٣٦- الهروى : نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٦٨ .

٣٧- الجوزجانى : طبقات ناصرى تعليق : عبد الحى حبيبى ، ط كابل ، ١٣٤٣ هـ، ص ٤٢٥ .

٣٨- البيرونى : الجماهر ، ص ٣٣٦ .

٣٩- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٦٨ .

٤٠- الساداتى : تاريخ المسلمين فبى شبه القارة الهندية وحضارتهم ، جـ١ ، ص ١٥٤ .

٤١- القلقشندى صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٨٥ .

٤٢- محمد أمين صالح : النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

٤٣- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٦٨ .

٤٤- نهاوند : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٣٤٨ .

٤٥- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٠١ .

٤٦- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٤٤ . وفى حقيقة الأمر أن إلقاء المخالفين تحت أقدام الفيلة عادة عرفها ونقلها حكام المسلمين فى الهند عن راجات البلاد أنفسهم وطبقوها بمهارة طوال فترة حكمهم .

٤٧- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧١ .

٤٨- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٦٩ .

٤٩- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٨٦ .

٥٠- نهاوند : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٣٤٦ ، فرشته ، جـ١ ، ص ١٣٨ .

٥١- وكلمة دواب مكونة من مقطعين دو بمعنى أثنين وآب بمعنى نهر أى أرض النهرين .

T- Walter : A short History of India Pakistan, (New Delhi, 1958), p. 48.

52- Nilkanata: op- cit- p. 241.

53- Camb: Hist. of India, p. 67.

مالوه : هو إقليم كبير يقع جنوب دهلى يحجزها عن هضبة الدكن وكبرى مدنه مندو .

٥٤- وكانت أقوى تلك الضربات فى عهد السلطان ناصر الدين محمود بن ألتمش الذى حكم الهند من "٦٤٤هـ / ١٢٤٦ م" إلى " ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٥م " ولمزيد من التفاصيل أنظر : فرشته : تاريخ فرشته ، ط ، ص ١٢٧ ثم الضربة الثانية فى عهد خلفه فى عهد غياث الدين بلن الذى حكم البلاد من "٦٦٤هـ / ١٢٦٦ م" .

Camb: Hist of India. p.p. 77-78.

٥٥- فرشته : جـ١ ، ص ١٧١، ١٧٢ .

٥٦- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧١، ١٧٢ .

٥٧- تاريخ المسلمين وحضارتهم فى شبه القارة الهندية ، جـ١ ، ص ١٥٨ .

٥٨- طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

59- Havell: op- Cit, p. 313.

٦٠- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤١٤ و لسلى هاج : الهند وأمبراطوريتها الإسلامية ص ٦٣٣ .

61- Cambridge: Hist. Of India. p. 144.

62- L. P Sharmh: The Mughul Empire, New Delhi, 1988 PP. 96-95.

وأكبر دليل على ذلك عصر السلطان جلال الدين محمد أكبر الذى أدخل الهنود واستعملهم فى كافة مناصب الدولة ، وما كان منهم القواد مثل راجا شنخ والوزراء مثل تردرمل وغيرهم ، ويعتبر فترة حكمهم والتى امتدت من عام (٩٦٥ هـ / ١٥٥٥ م) إلى (١٠١٣ هـ/ ١٦٠٥) من أزهى عصور الهند لذلك السبب كما أرجعه مؤرخو الغرب ولمزيد من التفاصيل انظر Sharmh, Op. Cit, PP. 94-120.

٦٣- الرحلة : ص ٤٢٢ .

٦٤- نهاوند : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٤٠-٤١ .

٦٥- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٥٦ .

٦٦- ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٥٦ .

٦٧- ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٥٧ .

٦٨- ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٤٧ .

٦٩- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٦٨ .

٧٠- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٤٣-٤٤٤ .

٧١- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٦٧ .

٧٢- تقع دولت آباذ على مسافة أميال عن مدينة أورنك آباد الحالية شمال هضبة الدكن ، وهى تمتاز بكثرة الزرع ووفرة الثروات المعدنية كالذهب والفضة (رشيد الدين : قلعة دولت آباد ، ثقافة الهند ، عدد ١ سنة ١٩٦٧ ، ص ٥٣ ، ص ٥٥) .

73- Havell: Op. Cit. p. 312.

٧٤- عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : بلاد الهند فى العصر الإسلامى ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٦ ، ص١١٠ ،

Emm: Op. Cit. p. 188.

75- Havell: Ibid. p. 312.

٧٦- نهاوندى : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٣٥٦ ، وهى المكان القديم لعاصمة السلطان معز الدين كيقباد (ت ٣٨٦هـ/ ١٢٨٦م) والذى بناها بعد أن ترك دهلى ليستمتع بالمغنيين والرقاصين بعيدا عن شيوخ دهلى وكانت تعرف باسم كيلوكهرى .

77- Munshi: Op. Cit. pp. 154-155.

Havell. Op. Cit. p. 312.

٧٨- عن فرار علماء وأهالى خراسان إلى الهند عقب الغزو المغولى ، ويمكنك الرجوع إلى

Aziz Ahmed: Op. Cit. p. 179.

٧٩- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧١ .

٨٠- بدوانى : منتخب التواريخ ، جـ١ ، ص ١٢٩ .

81- Camb Hist. Of India. p. 156.

٨٢- بدوانى : منتخب التواريخ ، جـ١ ، ص ١٣٠ ، ١٢٩ .

٨٣- آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥ م ، ص ١٦٢ ، ص ١٦٣ .

٨٤- محمد أمين صالح : النظام المالى والاقتصادى ، ص ٢٠٣ .

٨٥- رشيد الدين : جامع التواريخ ، دراسة وترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد ، دار الثقافة للنشر ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م ، ص ٣٢١ .

٨٦- ول ديورانت : قصة الحضارة . ترجمة : ذكى نجيب محمود ، ط الهيئة العامة للكتاب ، جـ٤ ، ص ٢٥٠ .

٨٧- ليونيل جايليز : الصين فى عهده أسرة منيج ، منشور ضمن سلسلة تاريخ العالم ، جـ٥ ، ص ٢٥٥ .

٨٨- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧٩ ، ص ١٨٠ ، وأمير مائة معناها بالتركية يوزباشى .

٨٩- فرشته : جـ٢١ ، ص ١٤٠ ، وتقع تلك المدينة جنوب دهلى وكان أهلها دائمى الهجوم على العاصمة ، مما وضع حكام المسلمين إلى توجيه العديد من الضربات إليهم .

Cambridge: Hist of India. p. 78.

٩٠- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٨٢ .

٩١- ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٤٧١ .

٩٢- غلام حسين : تاريخ بنغال ، بتصحيح مولوى عبد الحق عابد ، ط كلكته ، ١٨٩٠ م ، ٩٢ .

٩٣- نهاوندي : مآثر رحيمي ، جـ١ ، ص ٢٥٧ .

٩٤- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٩ .

٩٥- هانسي : تقع في شمال مدينة دهلي .

٩٦- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٨٨ . وكان أمر هؤلاء القطاع قد انتهى منذ عهد السلطان بلبن ولكن قوتهم ظهرت مرة أخرى في عهد محمد تغلق شاه Sharmha: Op. Cit, p. 112.

٩٧- ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٤٥٢-٤٥٣ .

٩٨- نهاوندي : مآثر رحيمي ، ص ٣٤٧ .

٩٩- الهروي : طبقات أكبري ، جـ١ ، ص ١٧١ .

١٠٠- غلام حسين : تاريخ بنغال ، ص ٩٣ .

١٠١- بدواني : منتخب التواريخ ، جـ١ ، ص ٤٣٣ .

١٠٢- بدواني : نفس المصدر ، جـ١ ، ص ٤٣٣-٤٣٤ .

١٠٣- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٩ .

١٠٤- الهروي : طبقات أكبري ، جـ١ ، ص ١٨٢-١٨٣ .

١٠٥- فرشته : جـ١ ، ص ١٤٠ حيث أحضر هؤلاء القواد إلى دهلي وأغراهم بالمال والضياع الجديدة ، مما دفعهم إلى التنازل عن قضيتهم نهائيا .

K.R.Malkami: The Sindh Story. (New Delhi, 1984). p. 40.

١٠٦- نهاوندي : مآثر رحيمي ، جـ١ ، ص ٣٤٨ .

107- K.R.Malkant: Op. Cit, p. 41.

١٠٨- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٠١ .

١٠٩- الهروي : طبقات أكبري ، جـ١ ، ص ١٧٣ .

110- Ray, Chau Dhary. Bihar. (New Delhi, 1974). p. 18.

١١١- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٩ .

١١٢- نهاوندي : مآثر رحيمي ، جـ١ ، ص ٣٥١ .

١١٣- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧١ .

١١٤- ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٧٩ .

١١٥- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

116- C.Ray: Op. Cit, p. 18

١١٧- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٨٦ .

١١٨- بدوانى : منتخب التواريخ ، جـ١ ، ص ٢٣١ ، ورغم إيداع السلطان هؤلاء النسوة فى سجون كواليار البعيدة ،إلا أن حراس السجون لم يكونوا يؤيدون هذا العمل وهذا ما دفعهم إلى فتح أبوب السجن لأزواج هؤلاء النسوة لزيارتهن خلسة (ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٨٦) .

١١٩- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٧ .

١٢٠- نهاوندى : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٣٤٠ .

١٢١- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٧، ٤٧٨ .

١٢٢- ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٤٧٢-٤٧٣ .

١٢٣- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٤ .

124- Camb: Hist of India, p. 62.

١٢٥- بدوانى : منتخب التواريخ ، جـ١ ، ص ٢٣٥ .

126- Camb: Hist of India, p. 167.

١٢٧- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٠٠ .

١٢٨- ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٤٧٨-٤٧٩ .

١٢٩- محى الدين الألوانى : مابلا ، ثقافة الهند ، عدد سبتمبر ١٩٥٥ ، ص ٥٩، ٦٠ ، ٦١ ، وقد تميزت مدينة كاليكوت بوسع تجارتها وكان يقصدها أهل الصين وجاوه وسيلان واليمن وفارس ومرساها من أعظم مراسى الدنيا .

-١٣٠

١٣١- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٨٤ .

١٣٢- نهاوندى : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٣٥٢ .

124- Camb; Hist of India, p. 138.

١٣٣- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

١٣٤- نهاوندى : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ١٥٤ .

١٣٥- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٤ .

١٣٦- الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١ ، ص ١٧٨ .

١٣٧- الهروى : نفس المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٧٩ .

١٣٨- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٢ .

١٣٩- نهاوندى : مآثر رحيمى ، جـ١ ، ص ٣٥٥ .

١٤٠- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٧٠، ص ٤٨٣، ص ٥٠١ .

أسماء المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع العربية :

١- أحمد محمود الساداتي : " تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم " ، جـ١ ، مكتبة كلية الآداب .

٢- ابن بطوطة (ت ٧٩٩ هـ / ١٤٠٢ م) : محمد بن عبد الله بن محمد إبراهيم اللوات " تحفة النظار في غرائب الأمصار " المعروف بالرحلة ، شركة الإعلانات الشرقية ، القاهرة ، سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٩٦م .

٣- البيروني : (٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد " تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرزوله " ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م .

٤- : ــــــــــــــــ: الجماهر في معرفة الجواهر ، طبعة المتنبي .

٥- رشيد الدين : " قلعة دولة آباد " ، مجلة ثقافة الهند العدد الأول ١٩٦٧ م .

٦- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : " بلاد الهند في العصر الإسلامي " ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٩٦م.

٧- القلقشندي (توفى ٨٢٠ هـ/ ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد بن علي . " صبح الأعشى في صناعة الإنشا" ، جـ٥ ، ط المؤسسة المصرية .

٨-محمد أمين صالح أمين : " النظام المالي والاقتصادي في الإسلام " ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ م .

٩- محي الدين الألوائي : " مابلا " ، مجلة ثقافة الهند ، عدد سبتمبر ، ١٩٥٥ م .

ثانيا: المصادر والمراجع الفارسية :

١٠- بدواني : (ت في النصف الأول من القرن ١١هـ / ١٨م) : عبد القادر بن ملوك شاه " منتخب التواريخ" جـ١ بتصحيح مولوي أحمد صاحبي ، طبعة كلكته ، ١٨٩٨ ع .

١١- الجوزجاني (ت ٦٩٨ هـ / ١٣٠٠ م) : أبو عثمان منهاج السراج " طبقات ناصري " ، تصحيح وتعليق عبد الحي حبيبي قندهاري ، طبعة كابل ١٣٤٣ هـ . ش .

١٢- رشيد الدين فضل الله الهمذاني : " جامع التواريخ " ، فرغ من تنقيته سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م ، دراسة وترجمة فؤاد عبد المعطي ، دار النشر للثقافة سنة ١٤٢٠ / ٢٠٠٠ م .

١٣- غلام حسين : " تاريخ البنغالة " ، بتصحيح مولوى عبد الحق عابد ، طبعة كلكته ١٨٩٠ م .

١٤- فرشته (ت القرن ١١هـ / ١٦ م) : محمد قاسم هندو شاه . " تاريخ فرشته " ، المجلد الأول ، تقديم العالم الإنجليزى P.K.Kursh طبعة بومباى ١٨٣١ م .

١٥- ملا عبد الباقى نهاوند (ت ١٠١٠ هـ/ ١٦٠٢ م) : " مآثر رحيمى " ، بتحصيح محمد هدايت حين ، طبعة كلكته ١٩٢٤ م .

١٦- نظام الدين الهروى (ت فى النصف الأول من القرن ١١هـ / ١٨م) : أحمد بخشى " طبقات أكبرى " جـ١ ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٥ م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

17- Aziz Ahmed: An Intellect History of Islam in India, (U.S.A. 1969).

١٨- آدم متز : " الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى " ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥ م .

19- Bosworth: The Imperial Policy of early Ghozawids (Islamic Studies Journal 1-3-1962.

20- Cambridge: History India. (New Delhi, 1950).

21- Havell: The History of Aryou Rule of India, London.

22- Hawkridy: India Gods and Kings. (New Delhi, 1994).

23- Jaffar: Medevial India under Muslims The Rise and fall Ghazawids. (New Delhi, 1977)

24- Jain: The City of Delhi, (New Delhi, 1994)

٢٥- ليونيل جايليز : الهند فى عهد أسرة مينج " جـ٥ ، منشور ضمن سلسلة تاريخ العالم " .

26- Malkani: The Sindh story, (New Delhi, 1994).

معجم العالم الإسلامى : كلوس كريز ، فارنريم ، هانس جورج ، معجم العالم الإسلامى ، ترجمة .

27- Nildkanta: India gods and kings. (New Delhi, 1994).

28- Munshi: The Struggle for Empire. (ZBombay, 1957).

29- Sharmha: The Sultan of delhi. (New Delhi, 1988).

30- Ray chou dhury Bihar. (New Delhi, 1974).

31- Walter: Ashort History of India pak. stan (New Delhi, 1958).

٣٢- ول ديورانت : " قصة الحضارة " ، جـ٤ ، ترجمة ذكى نجيب محمود ، طبعة الهيئة العامة للكتاب .

٣٣- ولسلى هايج : " الهند إمبراطوريتها الإسلامية " ، جـ٥ ، تحت منشورات ضمن مجموعة تاريخ العالم .

د. أميرة على وصفى مداح(*)

خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعى والدينى خلال العصر العثمانى

(١٠٢٦ هـ = ١٦١٧م / ١٠٤٩ هـ = ١٦٣٩ م)

تمهيد :

ركز المعنيون بدراسة الوثائق الوقفية لتاريخ الدولة العثمانية على سلاطينها ورجال الدولة فيها ، ولكننى لاحظت أنه لم يعتن أحد بدراسة الوقفيات الخاصة بالنساء - إلا القلة - وإلقاء الضوء عليها وخاصة أمهات السلاطين اللاتى كان لهن دور فعال فى إثراء المجتمع بهذه الأوقاف التى قدمنها .

ولعل السبب فى اهتمام المؤرخين بأعمال الرجال دون النساء ، أن الحريم العثمانى كان عالما مجهولا لدى من لم يدخله ، حيث كان المسئول عن متابعة هذه الأوقاف الخاصة بنساء الحريم هو أغا البنات " قيزلر اغاسى " ويعرف أيضا باسم أغا دار السعادة " دار السعادة أغاسى " وهو يتمتع بدرجة رفيعة فى البروتوكول العثمانى تعادل درجة الوزير في النظام المدنى ، وهو المسئول الأول عن تنظيم علاقات الحريم بالخارج ، وظهرت كتابات هؤلاء

* أستاذ التاريخ الحديث المساعد بجامعة أم القرى .

الأغاوات الذين عاشوا فى قسم الحريم من القصر العثمانى زمنا ثم كتبوا عنه ، من ضمنها هذه الوقفية الخاصة بالحريم العثمانى والذى شملت أمهات السلاطين .

هذه الوثيقة التى نحن بصدد دراستها -وغيرها- تعتبر أثرا تاريخيا هاما طالما أهمل فى زوايا النسيان وتركت محتوياتها دون اطلاع ، فقد آن الأوان للكشف عنها .

لذا تهدف هذه الدراسة لوثيقة وقف " ماه بيكر كوسم " أم السلاطين إلى إلقاء الضوء على دور المرأة فى المجتمع العثمانى لإثراء الحضارة الإسلامية هذا الدور الذى أتمنى أن يلقى اهتماما من الباحثين والباحثات .

الوقف فى الإسلام :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام الاتمين على سيد المرسلين سيدنا محمد -ﷺ- ، نسأل العلى العظيم التوفيق فى العمل والإخلاص فى القول ..

وبعد ...

فقد قال -ﷺ- وهو الصادق الأمين : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم نافع ، أو ولد صالح يدعوا له " رواه مسلم .

فالدين الإسلامى يدعو إلى البذل والعطاء والمسارعة إلى الإنفاق فى السراء والضراء وهذه الخصائص تفرض على المؤمنين أن يسود بينهم التكافل في المشاعر والأحاسيس فضلا عن التكافل فى الحاجات والماديات ، ومن ثم كانوا بهذا الدين كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

والوقف الذى يكون فيه حبس العين على حكم الله تعالى ، والتصدق بالثمرة على جهة من جهات البر هو نوع من أنواع الصدقات الجارية بعد وفاة المتصدق يعم خيرها ، ويكثر برها ، وتتضافر بها الجماعات فى مد ذوى الحاجات ، وإقامة المعالم ، وإنشاء دور الخير ، من مستشفى جامع ، أو نزل يؤوى أبناء السبيل ، وملاجئ تؤوى اليتامى وتقى الأحداث شر الضياع[١] .

وعلى ذلك فإن الوقف[٢] لغة : يطلق عليه الحبس عند التصرف ، ولهذا يعبر عنه بالتحبيس كما يعبر عنه بالتسبيل بمعنى الإباحة أو إرسال الشئ وتركه أو جعله فى سبيل الله يقال : سبل ضيعته تسبيلا ، أى جعلها فى سبيل الله .

وبذلك يمكن تعريف الوقف بأنه حبس العين على حكم الواقف والتصدق بمنفعتها على من أحب[٣] .

الوقف ودوره فى دعم الحياة الاجتماعية والدينية فى العصر العثمانى :

لقد لعب نظام الوقف فى العصر العثماني دورا كبيرا فى حياة المسلمين ، وهذا يتضح من دراسة وثائق الوقف والقفيات التى تفصح عن الخدمات الجليلة التى أدتها الأوقاف للمجتمع والحضارة الإسلامية ، سواء فى الحياة الاجتماعية أو الدينية أو التعليمية أو الحربية أو المعمارية الفنية وغير ذلك[٤] .

وقد اتسعت الأوقاف فى الدولة العثمانية باتساع رقعتها ، وأصبحت الأوقاف شاهدا على الحضارة العثمانية ، ومن هذه الأوقاف شيدت الجوامع ، والمدارس والبيمارستانات ، ودور الكتب ورعاية وتعليم الأطفال بمكاتب الأيتام ، وإعتاق الأرقاء وخلاص المسجونين ، ووفاء دين المديونين ، وكسوة العرايا ، وتكفين الموتى الفقراء ، وإقامة الكبارى والجسور ، والقلاع وشحنها بالسلاح وإقامة بيوت للأرامل والأيتام وغيرها من المؤسسات ذات الخدمات الثقافية والاجتماعية والحضارية . وقد خصصت الدولة العثمانية أيضا أوقافا للإنفاق على أعمال معنوية مثل قراءة القرآن ترحما على أرواح الموتى وبالنسبة للإنفاق والإشراف على أوقاف الحريم بالقصر السلطانى كان أغا[٥] البنات هو المسئول عن متابعة تلك الأوقاف[٦] .

ونظرا لأهمية الوقف فقد أسست الدولة العثمانية له نظارة (وزارة) تختص بشئونه ، ألغيت تلك النظارة بعد إعلان الجمهورية فى تركيا مباشرة وتأسست بدلا منها "مديرية الأوقاف العامة" بقانون جديد ١٩٣٥ م[٧] .

ويتندر أن نجد وثيقة وقف عثمانية تخلو من تخصيص جزء من ريعها للحرمين الشريفين لما للحرمين الشريفين من منزلة خاصة فى نظر حكام ورجال ونساء الدولة العثمانية ، فكانت الأوقاف فى العصر العثمانى كثيرة وذات دخل وفير .

يذكر لنا ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور : " أن الأوقاف خلال العصر العثمانى ساهمت بريعها الوفير فى مساعدة العاجزين على أداء فريضة الحج ، وتسهيلها لغير القادرين عليها ومساعدة المنقطعين منهم بأن يركبهم أمير الحج على جماله ، وينعم عليهم بالماء والبقسماط فى الطلعة والرجعة ، ويصرف أيضا على المجاورين بالحرمين الشريفين على اعتبار الأوقاف من

القربات الدائمة والصدقات المستمرة "(٨) ، كما جاء فى البروتوكول الافتتاحى لكثير من وثائق الوقف الإسلامى" .

ولم تهمل الدولة العثمانية شئون الحجاز حتى فى أحلك ظروفها الاقتصادية والسياسية وما كان يحدث من تقصير كان مرده إلى سوء تصرف الإدارة المحلية فى الحجاز نفسها ، والصراع الذي كثيرا ما كان ينشب بين الولاة والإشراف خصوصا أن الخطوط الفاصلة بين صلاحيات كل من الشريف والوالى لم تكن واضحة(٩) .

فقد كانت الرغبة فى عمل الخير دافعا أكيدا من دوافع الوقف باعتباره صدقة جارية مبرورة لوجه الله تعالى ، والوثيقة التى بين أيدينا هى خير مثال على ذلك .

التعريف بصاحبة الوثيقة " ماه بيكر كوسم " :

هى زوجة السلطان أحمد أول(١٠) ، وأم السلطانين مراد الرابع ، وإبراهيم وهى أكثر النساء شهرة فى تاريخ الأسرة العثمانية ، سميت باسم " ماه بيكر " تبعا للتقاليد بالأسرة العثمانية ، ومعناها ضوء القمر(١١) نظرا لأنها كانت أكثر جمالا من غيرها وأكثر ظرفا وذكاء فقد لقبت بهذا اللقب وكانت تعرف أيضا " كوسم سلطان " حيث حصلت على هذا اللقب لأنها كانت بلا شعر فى جسدها(١٢) ، ويذكر لنا الرحالة الإيطالى " بترو ديله فيل " الذى قام برحلته تجاه الشرق عام ١٠٢٣ هـ/ ١٦١٤ م " أنها لقبت بهذا اللقب وهو كوسم وذلك لأمرين: أنها كانت بمثابة الدليل الذى يقود الدولة خلال حكم أبنائها وذلك المعنى اللغوى كان لكلمة كوسم يعنى قائد القطيع الذى يسير أمامه ، هذا احتمال ، أما الأمر الثانى : فيحتمل أنها لقبت بذلك لأنها كانت جميلة الملامح بيضاء البشرة لا يوجد بها شعر قط على جلدها"(١٣) .

أما عن هوية ومولد " كوسم سلطان " فقد اختلف المؤرخون فى أصلها فمنهم من يقول أن أصلها رومى ، وهى ابنة لأحد القساوسة الرومان الذى كان يمتلك مقاطعة تبعد عن استانبول بمقدار (٢٠٠) ميل تقريبا ، واسمها " آناستسيا " ويختصر إلى ناسيا(١٤) أما الفريق الثانى فيقول : أن أصلها بسنوى أتى بها أغا البنات من أحد ولاة البوسنة .

وتاريخ ميلادها لم يكن معروف بشكل قطعى عند كلا الفريقين فمنهم من يزعم أنها ولدت عام ٩٨٨ هـ/ ١٥٨٩ م وبذلك تكون أكبر سنا من السلطان أحمد الأول حيث ولد عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣ م(١٥) .

أما عن حياتها داخل القصر فقد أعجب السلطان أحمد الأول بها كثيرا وذلك لتفوقها على الحريم الموجودات بالقصر العثمانى فتزوجها[١٦] . فقد كان زواج السلاطين العثمانيين من الجوارى أمرا مستقرا منذ زمن السلطان سليم الأول ، ولا يؤثر فى زواج السلطان فى الجارية العرق الذى تنحدر منه ، وبصفة عامة فإن أمهات السلاطين العثمانيين اعتبارا من السلطان سليم الثانى كلهن من الجوارى وينحدرن من أصول غير تركية[١٧] ، والجارية التى يقع عليها الاختيار لتصبح زوجة للسلطان لا تكلف بأى عمل فى الحريم بل توجه العناية كلها لتربيتها وتهذيبها وتعليمها قواعد الدين الإسلامى ، وتقاليد الحريم وآداب الحديث ، وما يمكنها أن تتعلمه من اللغات والآداب والموسيقى حسب استعدادها لتكون جديرة بملاقاة السلطان[١٨] .

كانت تسمى الواحدة منهن (قادين) وهى أعلى درجة من درجات نساء السلطان ، وكان لقبها حتى القرن الثامن عشر الميلادى " الخاصة " " خاصكى " ثم أصبح السيدة حرم السلطان " قادين أفندى " وتخاطب بلفظ " ذات العصمة " " عصمتلو " وهو نفس لقب حفيدات السلطان[١٩] .

لقد أنجبت ماه بيكر كوسم من السلطان أحمد أربعة ذكور وبنتين ، السلطان مراد الرابع الذى حكم السلطنة من ١٠٤٣ هـ - ١٠٥٠ هـ = ١٦٢٣ م - ١٦٤٠ م ، والسلطان إبراهيم الذى حكم من ١٠٥٠ هـ - ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٠ م - ١٦٤٨ م ، والأمير قاسم وسليمان ، أما البنات ، فالأميرة فاطمة التى تزوجت من قائد القوات البحرية حسن باشا والأميرة عائشة التى تزوجت الصدر الأعظم نصوح باشا[٢٠] .

ولذلك أصبح يطلق عليها أم السلاطين قبل أن تكمل التاسعة والأربعين من عمرها[٢١] فتمتعت بمكانة عالية ولقبها "المهد العالى" " مهد عليا سلطنة " أى مهد السلطان العالى ، ووالده سلطان La sultane - Validle . ولقب سلطان هذا هو نفس لقب بنات السلطان الذى يلى اسمهن[٢٢] .

وتخاطب والدة السلطان بلقب صاحبة الدولة ، صاحبة العصمة " دولتليو عصمتلو " وكان يطلق فى البداية عليهن اسم " خاتون " استمرارا للتقاليد السلجوقية ثم أصبحت تعرف منذ القرن السادس عشر الميلادى باسم سلطانة وحملته والدة السلطان سليمان القانونى حفصة[٢٣] ويقال بأنه أطلق للمرة الأولى على والدة السلطان مراد الثالث ٩٨٢ هـ - ١٠٠٤ هـ = ١٥٧٤م - ١٥٩٥ م[٢٤] .

ووالدة السلطان هى أكثر السيدات نفوذا فى داخل السراى وأكثرهن اتصالا بمن فى خارجه، فكانت والدة السلطان التى يعتلى ابنها العرش تنتقل من السراى القديمة إلى سراى " طوب قابى " فى موكب يعرف باسم " والدة الآيى " أى موكب السلطانة الوالدة ، وتصبح منذ تلك اللحظة وعلى امتداد سلطة ابنها أوسع السيدات نفوذا داخل الحرم الهمايونى(٢٥) .

كان السلاطين العثمانيون يظهرون لأمهاتهم احتراما كبيرا ، ومنهن من اكتسبن نفوذا كبيرا وتدخلا فى شئون الدولة خاصة عندما يكون السلطان صغير السن وكانت " ماه بيكر كوسم " من يطبق عليها ذلك و سميت الأم الكبرى " بيبوك والدة " حيث أصحبت " نائبة " للسلطنة لابنها مراد الرابع عام ١٠٤٣ هـ/ ١٦٢٣ م وكان عمره ١٢ سنة واستمرت تأخذ بمقاليد الأمور فى الدولة حتى اشتد عوده ، واستقل هو بالحكم وبعد أن استقل مراد بالحكم لنفسه لم يهمل أمه بل كان يوقرها ويحترم آرائها ويأخذ بمشورتها(٢٦) حتى أنها كانت تقوم بإعداد التقارير عن حالة الدولة فى الأوقات التى يكون فيها ابنها خارج استانبول(٢٧) .

كانت كوسم سلطان ذات شخصية قوية وعقل مفكر فقد استطاعت أن تقضى على حالة التمرد التى قام بها جيش الإنكشارية فى عهد ابنها مراد الرابع وذلك حينما لم تدفع لهم المنح المالية نظرا للقصور فى خزينة الدولة فأمرت " كوسم سلطان " الصناع بأخذ مقدار من الأوانى الذهبية والفضية الموجودة بالقصر وصهروها وحولوها إلى نقود ومن ثم منحتها للجنود فانقذت السلطنة من حركة تمرد الإنكشارية التى اعتادوا عليها من حين لآخر(٢٨) .

كان للسلطانة الوالدة إيرادات تأتيها من أماكن شتى فى الدولة العثمانية ، من ريع الأراضى الخاصة السلطانية باسم " باشمقلق " ، ومخصصات أخرى كثيرة صيفية وشتوية ، كما كانت الهدايا التى تأتيها من رجالات الدولة العثمانية تشكل مقدارا كبيرا من إيراداتها(٢٩). وأغلب الأمهات السلاطين اللاتى كن لديهن ثورة طائلة كن ينفقنها على الأوقاف المختلفة التى أقمنها فى استانبول أو الحرمين الشريفين والقدس(٣٠).

وكانت " كوسم سلطان " ذات ثراء كبير يقال أنها كانت تمتلك عشرين صندوقا مليئا بالعملات الذهبية " السلطانى " وعددا من الصناديق المليئة بالمجوهرات ، كما كانت تمتلك إقطاعيات كثيرة فى الأناضول ومزارع فى قبرص(٣١) ، لذا تركت أوقافا كثيرة ، ولها العديد من الآثار الخيرية فى استانبول وخارجها ، تركتها بعد وفاتها فى ١٠٦٢ هـ ٣ أغسطس ١٦٥١م(٣٢) . حيث انتقلت كل تلك الأموال إلى خزينة الدولة ودفنت ماه بيكر بجوار زوجها السلطان أحمد الأول .

ويمكننا أن نتعرف على أوقاف وخيرات " ماه بيكر كوسم " مما هو مدون على أحجار الجدران الملاصقة لباب العربة في قصر " طوب قابى "(٣٣) أو من الوقفية التى نحن بصدد دراستها ، وبالطبع كانت هذه الوثيقة فاتحة خير على أمهات السلاطين الذين سيأتون بعدها لأنهم كانوا يحتذون حذوها في ذلك . هذه الآثار الخيرية التى تركتها " كوسم سلطان " تدل على أنها امرأة متدينة محبة للخير كريمة على غيرها .

خيرات السيدة ماه بيكر كوسم سلطان بشكل عام :

أولا : جنيلى جامع : Cinili Comi Kulliyesi **جامع الخزف .**

الجامع من المؤسسات التى تلعب دورا في تقدم المجتمع الإسلامى من الناحية الثقافية كما أن الجامع المرتبط بالأوقاف يأتى فى مقدمة الآثار الدينية من الناحية المعمارية ، وهو يستخدم لأغراض عديدة منها الصلاة والتعليم والقضاء والشورى ، ومن هنا نستشعر أن المسجد كان بمثابة المؤسسة الاجتماعية الأولى فى الدولة .

وكان المسجد فى العصر العثمانى يحاط بأبنية كثيرة أهمها المدرسة والمكتبة وغيرها من الأبنية الخيرية والاجتماعية مثل السبيل والحمام والمستشفى ، وإذا كان الوضع عندئذ يطلق عليه لفظ " منشأة " فكان صاحب الخير الذى يقوم ببناء المسجد ، لا يبنيه وحده بل يكمل منظومة الخير التى بدأها فيقوم ببناء مشتملات المسجد حوله ، ويخصص صاحب الأعمال الخيرية أجور للأئمة من الأموال الموقوفة للجامع(٣٤) ، وخير مثال على ذلك " جامع الخزف " التى أنشأته كوسم السلطان .

يقع هذا المنشأ فى حى " مراد رئيس " بمنطقة إسكدر باستانبول وللجامع فنائين خارجى وداخلى ، الفناء الداخلى يوجد به الجامع والمدرسة والسبيل ، والفناء الخارجى يوجد به حمام مزدوج ومكتب للأطفال وسبيل آخر ، وكتب على مدخل الجامع عند الباب الشمالى للفناء الداخلى تاريخ إنشاء الجامع ، وهو عام ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠ م ، ولا توجد إى إشارات توضح تاريخ إنشاء المدرسة ، لذا يعتقد أنها بنيت بعد ذلك .

وقد قام ببناء هذا الجامع رئيس المعماريين حينذاك المهندس " قاسم آغا " وصرف على بناء هذا الجامع من الأوقاف التى سبق ذكرها والخاصة بكوسم سلطان كما هو ثابت فى دفتر محاسبات الأوقاف(٣٥) .

وصف المسجد :

مساحة المسجد من الداخل ٩،١٢ م × ٩،١٦ م وهو ذو تصميم مربع الشكل به قبة واحدة وصحن المسجد كله ما عدا الناحية الموجودة بها القبلة مغطى بسقف خشبى يستقر على عشرين عامودا مرمريا رؤوسها مذنبة بتيجان البقلاوة المثمنة ، وهيكل جسم الجامع بنى على أساس مرتفع يصعد إليه بدرج من الناحية الشمالية والناحية الغربية ، ويمتد السقف الخشبى عند السلم الغربى والشمالى ليغطيه ، ويلاحظ هنا الطنف[٣٦] الذى يغطى السلم الشمالى يستقر على عمودين ، أما الطنف الذى يغطى السلم الغربى فيستقر على ثلاثة أعمدة ، وفى الحائط الشمالى للمسجد يوجد المدخل وعلى جانبيه توجد نافذتان مزينتان بالقاشانى "القطع الخزفية" .

أن الفراغات الموجودة بين الأعمدة التي تحمل السقف سد ما بينها بشبكة حديدية لذا فإنها تعطى إيحاء للناظر إليها أنه يوجد مكان آخر غير صحن المسجد ، وحوائط المسجد مزينة بالنوافذ والأفاريز الكبيرة والصغيرة .

وقد أضيف للمسجد محفلا[٣٧] للنساء بناء على طلب " كوسم سلطان " حتى أن قسما من دخل منزل كوسم الموجودة فى " باغجه قابى " فى استانبول أوقف للإنفاق على هذا الجامع والآثار الخيرة الموجودة بجواره ، بالإضافة إلى تخصيص جزء من محاصيل المزارع الأخرى أوقافا لهذا الجامع[٣٨] .

أما الصحن الرئيسى للجامع الذى يبدأ من المحراب وحتى الباب فهو مغطى كله بالقيشانى حتى النوافذ العلوية ، وكل تلك القطع الخزفية بيضاء مرسوم عليها نماذج رائعة للأزهار ومنها الشقائق ، والبنفسج وغيرها من الزهور الجميلة بالألوان الزرقاء والفيروزية ، هذه الرسومات القيشانية فى المسجد لها أهمية أخرى غير الجانب الفنى حيث أنها تعد آخر نموذج لفن الخزف التركى الكلاسيكى[٣٩] .ويعد قيشانى إزنيك هو أكثر أنواع القيشانى المستخدمة فى عنصر الزينة فى القرن السابع عشر[٤٠] .

ويحيط بالصحن الرئيسى أيضا إطار خطى جميل يمتد حتى يصل إلى المحراب من على جانبيه ، وبه نقوش خطية جميلة مكتوبة بقطع الصينى الصغيرة ، كما كتبت الآيات المحيطة بإطارات النوافذ بقطع الصينى بالأحرف الضخمة .

أما منارة المسجد فتحتل مكانا من الناحية اليمنى للمسجد وهى منارة ذات شرفة واحدة[٤١].

المدرسة :

تعنى المكان الذى يجلس فيه الطلاب لتلقى الدروس ، وجمعها مدارس ، وهى من المؤسسات التى قدمت خدمات جليلة فى مجال التربية والتعليم فى العالم الإسلامى ، وهى تقوم وفق برنامج علمى محدد تستطيع من خلاله إصلاح المجتمع وتقديمه بالشكل الواجب له ، ولأن المدرسة توضع تحت بند الوقف فإنه يمكن إضافة بعض الأبنية الخيرية لها مثل المكتبات والحمامات ، وكل ذلك يوضح فى الوقفية الخاصة بها ، وتدار المدرسة بالشكل الذى يحدد فى الوقف أيضا وعلى هذا فإن أجور المدرسين والموظفين تحدد فى وقفية تلك المدرسة[٤٢] .

ومدرسة كوسم سلطان الملحقة بجامع الخزف والتى توجد بالزاوية الجنوبية الشرقية للفناء ، وتتكون من مجموعة غرف تأخذ شكل حرف (L) والمدرسة مقامة على أساس مرتفع مثل الجامع ، ويتم الصعود إليها بدرج . والغرف فى المدرسة مغطاة بقبقاب ويوجد رسم هندسى للمدرسة " كورليت " يوضح وجود رواق مغطى بسقف خشبى أمام المدرسة ، وغرف المدرسة تبدو وكأنها مستقلة عن بناء الجامع نهائيا ، وعلى يمين المدرسة توجد حظيرة صغيرة على يمينها يوجد حوض[٤٣] . ومن الملاحظ أن جامع الخزف ألحق به أيضا مدرسة للأطفال ودار للحديث[٤٤] . شكل رقم (٥ أ) .

الحمام :

يعد الحمام من المؤسسات الوقفية الهامة ، وتأتى أهميته من الأوامر الإسلامية التى تحث على النظافة فى جميع الأوقات ، وكانت الدولة العثمانية من الدول التى اعتنت بالحمامات. من هذا المنطلق كان السلاطين العثمانيون ينشئون الحمامات ويقوفونها لخدمة المسلمين ، وقد زاد عدد الحمامات فى استانبول بشكل كبير ، وكانت تخصص لها الأوقاف الكثيرة[٤٥] ، ومنها الحمام التى أنشأته كوسم سلطان بجوار جامع الخزف والمدرسة ويسمى الحمام المزدوج ، فهو أكبر الأبنية الموجودة وقد قسم قسمين ، قسم خاص بالنساء وقسم خاص بالرجال وعلى ذلك سمى الحمام المزدوج . بنى بالشكل الكلاسيكى المعمارى العثمانى لبناء الحمامات والقسم الخاص بالنساء أكبر قليلا من قسم الرجال وهو على شكل مثمن وبه أربع ايوانات ، أما قسم الرجال فهو مكان مغطى كلية بقبة كبيرة[٤٦] . انظر الأشكال (١ . ٢ . ٣ . ٤ . ٥) بالملحق .

ثانيا: مسجد قواغى بالأناضول :

تم إنشاء هذا المسجد عام ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وهو بناء ذو طابقين يطل على مضيق البسفور ، وهو مسجد يحمل خصائص العمارة العثمانية ، فهو عبارة عن مكان مربع يضم صحن للصلاة تغطية قبة رئيسية كبرى تحيط بإطارها ثمانية دعائم ترتفع بمحاذاة الإطار ويحيط بتلك القبة الكبرى مجموعة قباب صغيرة ، وإيوان المدخل مقسم إلى ثلاثة أقسام يفصل بين القسم والقسم الآخر بعقد مفرد ، وحوائط المسجد ذات كمر حاد وتنقسم إلى قسمين بالنوافذ الموجودة حيث يمثل كل صف من النوافذ طابقا على الحائط ، وتضيئ تلك النوافذ المسجد من الداخل إضاءة جيدة . ومنبر المسجد من المرمر وهو بالقيشاني والفيسفساء ، كما زينت الكمر الداخلى أيضا بقطع القاشانى[٤٧] .

ثالثا: نزل السيدة كوسم :-

ويعرف باسم " والدة خانى " .

ومن المؤسسات الخيرية الهامة والتى تحتل مكانة خاصة بين الآثار الخيرية الكبرى والتى تظهر المستوى الاجتماعى والخصائص المعمارية للعصر النزل .

وهو ضمن المؤسسات الخيرية التى اختصت بها المجتمعات الإسلامية ووظيفته تنحصر فى تقديم الخدمات لكل الأشخاص دون النظر إلى لونهم أو دينهم أو لغتهم أو مذهبهم .

ويطلق على النزل لفظ " منزل "[٤٨] ولتلك النزل أو المنزل أوقاف كثيرة لسببين : الأول : الخوف على القوافل التجارية من النهب والسلب ليلا ، فكانت تنشئ النزل لتقيم فيها القوافل ليلا ، لذا كانت تحاط بأسوار ضخمة ، وكانت تقام الأبراج على الأسوار وكان باب النزل من الحديد الثقيل .

والسبب الثانى : تأمين احتياجات المسافرين وأبناء السبيل بشتى الطرق[٤٩] .

وقد وصل عدد النزل فى عهد الدولة العثمانية ٢٢١ نزلا (منزلا)، وقد ساعد على وجود هذا العدد الهائل من نزل القوافل الانتعاش الاقتصادى التى كانت تعيشه الدولة العثمانية فى عصرها الأول ، فقد سيطر الأتراك العثمانيون على البحر الأسود والأبيض ، وازدادت الحركة التجارية فى المدن والموانئ التركية الأمر الذى أدى إلى زيادة نسبة التجار[٥٠] . لذا كان من ضمن الأعمال الخيرية التى وردت بوثيقة كوسم سلطان الوقفية نزلها الذى يعرف باسم "والدة

خانى" تم إنشاؤه فى سوق المرجان ، ويعد ذلك الخان من أكبر الخانات التى بنيت فى ذلك العصر وتوجد فى حديقة الخان مسجد صغير لكنه احترق[٥١] . إن قسما من داخل منزل الوالدة الموجودة فى باغجه قابى فى استانبول أوقف للإنفاق على هذا الجامع والآثار الخيرية الموجودة بجواره .

رابعا : أ- تعمير مسجد أوزدمير أوغلى عثمان :

قامت السيدة كوسم سلطان بتعمير المسجد الذى أسسه الصدر الأعظم أوزدمير أوغلى عثمان باشا فى عهد السلطان مراد الثالث عام ٩٣٣ هـ/ ١٥٨٥ م ، وقد عمرته على أسس قويه ، وألحقت به سبيلا آخر[٥٢] ، وهو عبارة عن مسجد مربع الشكل حوائطه مغطاة بالخزف وأحجار المولوز ، أبعاد المسجد ١٧٠٦ م ، تغطى المسجد قبة رئيسية تستقر على إطار مفرد ، وملحق بالمسجد مكتبة ، وبخلاف صحن الصلاة يوجد إيوان مقسم خمسة أقسام ، وكلها مغطاة بالحجار والطوب الأحمر ، أما سقف قبة المسجد فهو مستوى مغطى بالقيرميد ، وللمسجد مئذنة واحدة من الطوب المنحوت ذات شرفة واحدة تقع على يمين المدخل ، وحوائط المسجد مزودة بأربعة نوافذ فى كل جهة ، بخلاف الحائط الخلفى فتوجد به نافذتان فوق بعضهما البعض وتقعان فى وسط الأربعة نوافذ على الحائط ، وحوائط المسجد مزينة بالنقوش الخطية ، والمنبر الموجود بالمسجد منبر خشبى محلى بالنقوش الهندسية ، أما أيوان المحراب فيزينه عمودان صغيران[٥٣] .

خامسا : الأسبلة :

والأسبلة عبارة عن خزانات صغيرة تبنى فوق سطح الأرض وتملأ بالمياه لسقيا الناس فى غدوهم ورواحهم بها[٥٤] .

ونظرا لضرورة توفر المياه للشرب وغيره بجوار المؤسسات الخيرية التى أقامتها كوسم سلطان فقد ألحقت عدة أسبلة بتلك المؤسسات أشارت إليها الوثيقة منها :

* سبيل بجوار جنيلى جامع (جامع الخزف) الذى سبق ذكره .
* سبيل بجوار تكية[٥٥] أبو الهدى .
* سبيل بجوار تكية معمار عجم .
* سبيل كوسم سلطان فى حى بنى قابى .
* سبيل ملحق بمسجد الصدر الأعظم أوزدمير أوغلى عثمان باشا .

سادسا :

وأشارت الوثيقة الوقفية إلى أعمال أخرى خيرية موسمية ، فقد كانت " كوسم سلطان " توزع وتخصص منحة توزع على أكثر من مائتى رجل وإمرأة فى الأشهر المباركة (شعبان - رمضان) ، كما كانت تذهب إلى السجون فى شهر رجب بعد أن تغير ملابسها بالشكل اللائق وتقوم بتوزيع الهدايا على المحبوسين ، وتقوم بدفع الديون عن الأشخاص الذين حبسوا نتيجة العجز عن دفع قروضهم التى اقترضوها قبل ذلك(٥٦) .

سابعا:

ذكرت الوثيقة أن السيدة كوسم سلطان كانت تقوم كل سنتين أو ثلاث سنوات بتجهيز مجموعة من جواريها وتزوجهم(٥٧) .

وصف وتحليل الوثيقة :

هذه الوثيقة التى اعتمدت عليها هو النص الذى قام بترجمته باللاتينية " مجتبى ايلكورل" عن النص العثمانى والذى نشر فى مجلة التاريخ -كلية الآداب- جامعة استانبول فى مارس ١٩٦٦ م المجلد السادس عشر العدد (٢١) من صفحة ٨٧ إلى ٩٤ .

فقال أن الوثيقة موجودة فى استانبول فى قسم التاريخ مجموعة " على اميرى افندى " ومسجلة برقم ٩٣١ ، عبارة عن ثمانية عشر ورقة مكتوبة بالخط النسخ الغليظ ، وبكل ورقة تسعة سطور وهى محفوظة فى غلاف من الجلد القوى .

وأن هذه الوقفية وثيقة شرعية صحيحة كتبت فى عهد السلطان أحمد خان عن وقف زوجته ماه بيكر كوسم .

تحتوى الوقفية على أسماء أشخاص من الدرجة الأولى من رجال الدولة العثمانية الذين عاصروا النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى ، السابع عشر الميلادى ، وهذا يوضح لنا أن الوثيقة أعدت فى أوائل محرم عام ١٠٢٦ هـ = أواسط يناير ١٦١٧ م ويوجد بالوثيقة طغرا،(٥٨) مذهبة وتعقيب آخر للسلطان مراد الرابع بأنه وافق على الوقفية بناء على موافقة والده ، ولكن الذى يلفت النظر أن هناك توقيعا على الوقفية للسلطان محمد السادس " وحيد الدين " وكتب عبارة " اطلعنا عليها "(٥٩) رغم طول الفترة الزمنية من وفاة صاحبة الوثيقة ماه بيكر كوسم ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م وتولى السلطان محمد السادس عام

١٣٣٦هـ-١٣٤٤هـ/ ١٩١٨م - ١٩٢٢م(٦٠) . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى اهتمام السلاطين العثمانيين بالإشراف ومتابعة الأوقاف السابقة لعهودهم مؤكدين على استمرارها .

توجد على الوثيقة عدة إشهادات وتوقيعات مكتوبة بحضور شهود كبار رجال الدولة أمثال سعد الدين افندى زاده حسين ، وقاضى عسكر الروملى كمال الدين محمد ، وقاضى عسكر الأناضول آخى زاده حسين ، ومفتش الأفلاق عمر أفندى ، وكان توقيع مصطفى اغا(٦١) "اغا البنات" متولى على هذا الوقف . ومن ضمن الإشهاد أيضا مجموعة أخرى من كبار رجال الدولة منهم خليل باشا الصدر الأعظم(٦٢) ، والوزير الثانى اكملجى زاده أحمد . ووزير القباب داود ، وعدد من الوزراء ، وقائد البحرية ورئيس الدفتر دار(٦٣) ورئيس الكتاب يازجى زاده حمزة ، ودفتر دار الأناضول ، ودفتر دار الرومانى . وحررت هذه الوثيقة بواسطة عبد الباقى بن أبى الوفا الموكل على الخزائن السلطانية ، وحسن بن محمد التوفيقى الشهير بحكمى .

فقد جرت العادة في العصر العثمانى أن هذه الإشهادات والتوقيعات تكتب بمجلس شرع شريف .

يظهر من إطلاعى على الوقفية المنشورة فى مجلة التاريخ -كلية الآداب- أن العثمانيين كانوا حريصين على استخدام الآيات القرآنية التى تدعم المعنى مثل {فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم} (البقرة الآية ١٨١) كما ورد فى صفحة (٨٨) {وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها} (إبراهيم الآية ٣٤) كما أن لغة الوقفية هى اللغة العثمانية القديمة قام مجتبى ايلكورل بترجمتها إلى اللاتينية .

كما وردت كثير من ألقاب ماه بيكر كوسم فى الوقفية مثل سيدة المخضدرات بالكليلة المحسنات ، رفيعة الدرجات العلا ، صاحبة العصمة ، درة البحر ، جوهرة الزمان المختصة بعناية الملك المستعان ، ربيعة الدوران ، فاطمة الزمان ، عائشة الأون كوسم سلطان(٦٤) .

كما كتب فى نهاية الوثيقة بعض العبارات " تم هذا الوقف على ما يوافق مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ، والإمام الثانى أبو يوسف ، وقد رأى صحة هذا الوقف من الناحية الشرعية فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إنه سميع عليم ، وأجر الواقفة على الجواد الكريم ، جرى ذلك وحرر فى أوائل المحرم من شهر سنة ستة وعشرين وألفا "(٦٥) .

أما المصدر المالى الذى حدد فيه الصرف على الأوقاف أو الخيرات والتى سيتم شرحها فهى من حاصلات ثمانى قرى تابعة لمقاطعة " لوديا " التابع للواء اغريبوز[٦٦] التـابع لولاية الرومـالى[٦٧] ، حيث كانت هذه القرى ملك للسيدة كوسم سلطان والقرى هى دادى ، قرية راهوفة ، ريفوز ، فلبة ، أدية ، أكسرخوره ، مارت مورق ، جرانتيا ، بما فيها مساجد ومعابد وطرق عامة وأراضى ومقابر .

وهناك أوقاف أخرى فى خمس مدن خارج استانبول هى : منمن ، زيلة ، غزة ، كيليس ، ازدين[٦٨] .

ومن خلال دراستى للوثيقة وجدت أن خيرات كوسم سلطان انقسمت إلى قسمين قسم خاص بخيراتها بشكل عام كما سبقت الإشارة إليها وآخر مخصص للحرمين الشريفين كما هى عادة العثمانيين فى جميع الأوقاف التى خصصوا جزءا منها للحرمين .

أوقاف كوسم سلطان الخيرية فى مكة والمدينة والقدس :

ذكرت سابقا أنه يندر أن تكون هناك وثيقة وقفية فى العصر العثمانى إلا ويكون لأرض الحرمين الشرفين فيها نصيب وذلك يرجع لمنزلة الحرمين فى نفوس سلاطين العثمانيين ولهذا نجد أن وثيقة كوسم سلطان قد خصصت عدة أوقاف للإنفاق فى وجوه عدة بمكة والمدينة خاصة فى مواسم الحج .

وقد خصصت جزء من المبالغ التى تصرف فى مكة والمدينة والقدس على أعمال عينية والجزء الآخر على أعمال معنوية كقراءة القرآن وغيره . فأما المبالغ التى تصرف فى أعمال عينية هى:ـــــ :

فنظرا لقلة المياه وشدة الحرارة فى الأراضى المقدسة فقد أنشأت خزانات للمياه فى طريق الحجيج لمن يحتاج إليه حرصا منها أن لا يهلك الحجيج من جراء ذلك .

وأشارت الوثيقة أنها أرسلت الأموال إلى مكة والمدينة لمساعدة الفقراء والمساكين وكانت هذه الأموال ترسل فى كل عام مع الصرة [٦٩] .

وأمرت بشراء مائة قميص ومائة عباءة لتوزيعها على فقراء مكة شرفها الله ومثلها لفقراء المدينة ، كما يتم شراء نفس العدد ويوزع على أبناء السبيل كل عام ، ويتم شراء مائة زوج من النعال توزع مناصفة بين العلماء فى مكة والمدينة ، وأربعمائة زوج أخرى من النعال توزع بالتساوى على الفقراء وأبناء السبل فى كل عام[٧٠] .

أما الجمال التى تقوم بتوصيل الفقراء إلى منازلهم -أى الفقراء- الذين لا يقدرون على استئجار الدواب فتخصص لهم أجرة سنوية تقدر بخمسة وستين عملة ذهبية[٧١] ويتم شراء مائة عمامه ومائة عراقية[٧٢] توزع بالتساوى على الفقراء ، ويقوم شخص بتوزيع خمسين عملة ذهبية لروح الواقفة فى بيت الله الحرام ، والروضة المطهرة ، ومجموع ذلك أربعة آلاف عملة ذهبية[٧٣] .

وقد اشترطت " كوسم سلطان " لهذا الوقف أن يؤجر كل عام ثلاثين رأس من الجمال تكون محملة بالمياه فى طريق الحجاج الذاهبين إلى بيت الله الحرام من الشام خمسة من تلك الجمال تكون مخصصة لحمل أغراض السقائين وسائر أغراضهم ، والخمسة والعشرين الباقية تحمل بالمياه يقوم السقاؤون كل يوم بالمرور بها على الأماكن التى لا توجد بها مياه ، ويسقون العطشى من الحجيج ، كما يؤجر اثنى عشر شخصا ستة منهم يعملون سقائين على تلك الجمال والستة الباقين يكونوا بمثابة جمالين كما يتم تأجير ثلاثين جملا أخرى تحمل بالمياه ويكون تواجدها أيضا فى الأماكن التى يندر بها المياه ، ويقومون بسقاية الحجيج ، كما يشترى الجمالون والسقاؤون مقدار سبعة قناطير ونصف من البقسماط والأرز والعدس ، والبرغل والزيت والجبن والرومان ، كما يتم شراء ثلاثين قطعة من اللباد ، ومائة من الحصير ، وعشرين قطعة من الجلد وستين شنكل[٧٤] ، وقمع لملئ القرب وتغطيتها . وكذلك شراء أوانى للطهى وصناديق مزدوجة لحفظ الجبن وستة أوانى مزدوجة لحفظ البقسماط لتوزع على سكان مكة والحجيج كل عام .

أما الأموال التى خصصت لأعمال معنوية فتحددت بالتالى :

خصص مبالغ ٦٠٠٠ ستة آلاف وحدة من العملة الذهبية كل عام يتم تسليمها لسفر أغا متولى الوقف بعد مراجعتها وثم توزيعها على تسعة عشر محفظ للقرآن واثنين من الأئمة ، وخصصت أموال منها لعشرين شخص يحفظون الفاتحة والإخلاص ويقرؤونها فى المدينة المنورة ووزعت على اثنين وثلاثين شخصا يقرؤون كل يوم جزءا من القرآن بعد صلاة الصبح والعشاء ، وجزءا من هذه الأموال لإمام الحرم ، ويعطى نائب الحرم ثلاثين عملة ذهبية نظير نيابته للحرم كما يعطى شيخ الحرم عشر عملات ، وأغا خزينة الحرم عشر عملات سنويا[٧٥] .

ويتم تخصيص ثلاث وثلاثون أغا من أغوات الحرم الشريف ليقوموا بقراءة الفاتحة والإخلاص ثلاثة مرات عقب كل صلاة وتخصص لكل شخص منهم كل عام عشرة عملات

ذهبية ، ويشرف على هؤلاء الأغوات شيخ الإسلام ويأخذ نظير إشرافه عليهم عشرين عملة ذهبية ، ويقوم تسعة عشر شخص بتلاوة جزء من القرآن الكريم بعد صلاة الفجر في مكة ويعطى لكل شخص منهم عشر عملات ذهبية ، كما يعطى مسئول بئر زمزم عشر عملات ذهبية أيضا ، كما يقوم أربعون شخصا من أغوات الصفة الموجودين بالمدينة المنورة بقراءة الفاتحة والإخلاص ثلاث مرات كل يوم ويعطى لكل منهم عشر عملات ذهبية كل عام(٧٧) .

يقوم اثنان وثلاثون شخصا بتلاوة جزءا من القرآن الكريم كل بعد صلاة الصبح والعصر فى المدينة المنورة ، ويخصص لكل واحد منهم عشر عملات ، ويشرف على تلك القراءة نائب الحرم النبوى ويتقاضى ذلك عشرين عملة ذهبية ، ويخصص للشخص الذى يقوم بفرش السجاد النبوى كل عام خمسة عملات ، كما يأخذ الشخصان اللذان يجلبان المياه من الحوض المطهر خمسة عملات ذهبية كل عام بالقدس الشريف ، كما يقوم واحد وثلاثون شخصا بتلاوة جزء من القرآن الكريم كل يوم عند الحوض المطهر بالقدس ، ويعطى لكل منهم ستة عملات ذهبية كل عام ، ويأخذ من يشرف عليهم فى القراءة عشرين عملة ذهبية نظير إشرافه ، وبذلك يكون المتحصل تلك الأموال ألفين عملة ذهبية من ضمن الستة آلاف المخصصة لذلك .

أما المجاورون بالمدينة المنورة الاثنى عشر ، فيعطى لسبعة منهم عشرة عملات ذهبية لكل واحد ، وتسعة لشخص واحد ، والأربعة الباقين يعطى كل واحد منهم ثمانية عملات ذهبية(٧٨) .

الواقع أن هذه السيدة لها خيرات كثيرة ، بصرف النظر عن ما كتب عنها من تدخلها فى السياسة والإدارة العثمانية ، وما كتب عن الطريقة التى انتهت بها حياتها لا مجال لذكرها هنا نظرا لأن موضوع الدراسة هى الأعمال الخيرية التى أسهمت بها السيدة كوسم سلطان من خلال الوثيقة الوقفية التى نحن بصدد نشرها ، إلا أنها أسهمت بنصيب وافر بأوقافها لخدمة الثقافة الإسلامية العثمانية ، وكانت نموذجا احتذى به كثير من نساء الحريم السلطانى وجواريه .

الهوامش

١- ابن قدامى : المغنى والشرح الكبير ، جـ٦ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢ م ، ص١٨٥ ، محمد أبو زهرة : محاضرات فى الوقف ، ط ٣ ، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م ، دار الفكر العربى، القاهرة ص ٣ .

٢- المعجم الوسيط : مادة وقف ، جـ٢ ، المكتبة العلمية ، طهران ، ص ١٠٦٣ .

٣- شرح فتح القدير جـ٥ ، ط ١ ، صادر ، بيروت ، د.ت ، ص ٣٧ .

٤- محمد الدسوقى : الوقف ودوره فى تنمية المجتمع الإسلامى ، القسم الأول ، العدد ٦٤ ، القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠ م ، ص ٥ .

٥- الأغا : لقب فى التركية يحمل مفاهيم متعددة مثلا الأخ الأكبر ، أغا القرية ، أو الشخص العظيم ، أو الزعيم بين الناس ، ويعتبر رتبة لدى العثمانين ، ومصطلح أغا يطلق على من يتبوأ مكانا سواء فى السلطة الإدارية أو العسكرية مثل أغا الانكشارية أو فى القصر السلطانى مثل أغا الحريم أو أغا البنات ، انظر :

Turv: Ansiklopedisi c, 1 S. 219 Istanbul 1989.

٦- ماجدة مخلوف : الحريم فى القصر العثمانى ، ط ١ ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م ، ص ٤٢ .

7- Ziya Kazi: Islam Muessesder Tarihi , Istanbul, 1991. S, 183.

٨- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٥ ، ص ٣٤ .

٩- محمد عبد الله آل زلفة : جزازات من تاريخ مكة المكرمة ، المنهل ، العدد ٤٧٥ ، العدد ٥٦ ، مجلد (٥١) الربيعان ١٤١٠ هـ/ أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩ م .

١٠- السلطان أحمد الأول ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م تزوج من خديجة ماه فيروز سلطان ، وماه بيكر كوسم والدة سلطان ، شايسته ، خانم ، انظر: د. ماجدة مخلوف ، ص ٥٥ .

11- Islam Ansiklopdesis: 6. cilt s 915 Istanbul, Milli Egitim Basimevi.

12- M. CaCatay: Padisahlarin Kadinlari Ve Kizlari s. 48 Ankora 1980.

13- Islam Ansiklopdesis: 6. cilt 915

14- Buyuk LuGat Ve Ansiklopedi: Yedinci cilt, Meydan Yayinevi, Istanbul s, 554.

15- Islam Ansiklopdesis: 6. cilt 916

16- Buyuk LiGat Ve Ansiklopedi: Yedinci cilt S. 553

١٧- د. ماجدة مخلوف : الحريم ، ص ٤٦ .

١٨- د. ماجدة مخلوف : نفس المرجع السابق ، ص ١٤-١٥ .

١٩- نفس المرجع السابق والصفحة .

20- Islam Ansiklopdesis: 6. cilt s 917

21- Tahsin Tunah: Hayat Sayi 8 Agustos 1975.

٢٢- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ط ١ ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٨٠م ص ٥٩٤ .

٢٣- أكمل الدين احسان أوغلى : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة :صالح سعداوى ، جـ١ ، ص ١٥٥ .

٢٤- ماجدة مخلوف : الحريم ، ص١٣ ، ص ٥٢ .

٢٥- نفس المرجع السابق والصفحة .

أكمل الدين احسان أوغلى : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ترجمة : صالح سعداوى ، جـ١ ، ص ١٥٥ .

26- Buyuk LuGat Ve Ansiklopedi: Cilt 7 S, 554.

27- M. CaCatay Ulucay: Padisahlarin Kadinlari Ve Kizlari s. 48-49.

عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، ط ١ ، ص ٥٩٤ .

28- Islam Ansiklopdesis: c.b S. 918.

٢٩- أكمل الد ين احسان اوغلى : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ترجمة : صالح السعداوى ، جـ١ ، ص١٥٥ .

٣٠- أكمل الدين احسان أوغلى : المرجع السابق والصفحة .

31- Hayat Tarih: Sayi 1 Subat 1971 S, 49.

32- Buyuk LuGat Ve Ansiklopedi: Cilt 7 S, 554.

; Yeni Turk Ansiklopedis c 5 S. 1966 Otuken.

٣٣- قصر طوب قابى : القصر الذى أقام فيه السلاطين العثمانيون قرابة أربعة قرون وفيه دائرة الحريم وحديقة الخاصة السلطانى ، والسلطان محمد الفاتح هو الذى شيد ذلك السراي وظل محلا للإقامة الرسمية للسلاطين العثمانيين من بعده . انظر : اكمل الدين احسان أوغلى : الدلة العثمانية تاريخ وحضارة ترجمة : صالح سعداوى ، جـ١ ، ص ١٥٤ .

34- Ziya Kazi: Islam Muessesder Tarihi S, 203.

35-Tarin Degisi C, XVI Mart 1966 S, 87. الوثيقة

٣٦- الطنف هو امتداد السقف الخشبى على السلم .

٣٧- محفل النساء : هو الحفل والجمع محفل تقول عنده حفل من الناس أي : جمع كثير والمحفل اسم المكان الذى يجتمع فيه النساء . انظر : المنجد ص ٣٣٥ .

٣٨- الوقفية مجلة التاريخ -كلية الاداب- ص ٨٣ .

39- Tarih Degisi C, XVI Mart S, 87.

40- Islam Hakki Uzun carsili: Osmanli Tarihi, c 2 Ankara 1982 S, 573.

٤١- يقال أن المنارة أعيد بنائها من جديد عام ١٩٦٥ م على يد مديرية الأوقاف على أسلوب الباروك المعمارى ، وهو أسلوب اتبع فى العمارة العثمانية فى القرن التاسع عشر ، انظر:

Islam Ansiklopdesis: cilt 8 S 336 .

42- Ziya Kazi: Islam Muessesder Tarihi S, 214.

43- Islam Ansiklopdesis: cilt 8 S 335. Istanbul 1993.

٤٤- الوثيقة كما وردت فى مجلة التاريخ ص ٨٣ .

45- Ziya Kazi: Islam Muessesder Tarihi S, 216.

46- Islam Ansiklopdesis: cilt 8 S 335-336 .

47- Okty Aslan Apa: Osmanli Devri Mi,arisi S. 300.

48- Ziya Kazi: Islam Muessesder Tarihi S, 211.

٤٩- نفس المرجع والصفحة .

50- Ziya Kazi: Islam Muessesdcr Tarihi S, 211.

51-Tarih Degisi C, XVI Mort 1966 S, 84. الوثيقة

٥٢- الوثيقة الوقفية ، ص ٨٤ كما وردت في مجلة التاريخ - كلية الآداب - كما أوردها مجتبى ايلكورل

53- Okaty Aslan Apa: Osmanli Devri Mimarisi Istanbul 1986 S. 221.

٥٤- سليمان المالكي : بلاد الحجاز ، ط ١ ، دارة الملك عبد العزيز الرياض ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ص. ١٤٨

٥٥- التكية : واحدة من المؤسسات الهامة في تاريخ الثقافة الإسلامية ، قامت بخدمات جليلة في المجتمع الإسلامي خاصة في مجال التصوف ، فكان لها دور بارز في تربية الأفراد في المجتمع وتسهيل الفتوحات في الدولة العثمانية أطلق عليها عدة مسميات مثل الزاوية والخانقاه والدركاه . وكانت الدولة العثمانية تساهم في إنشاء التكايا على طرق المسافرين وخاصة في المناطق الخطرة مثل الجبال والممرات الجبلية الوعرة فكانت أيضا بمثابة مخافر الشرطة على تلك النقاط ولا يمكن اغفال الدور الكبير الذي قامت به التكايا المرتبطة بالأوقاف لمساعدة الأهالي في شتى المجالات ، انظر :

Ziya Kazi: Islam Muessesdcr Tarihi S, 211.

٥٦- الوثيقة ٨٤ .

٥٧- نفس المصدر السابق .

٥٨- طغراء : علامة ترسم على المناشير والمسكوكات السلطانية وهي كلمة تركية ، أما العامية فهي الطرة . انظر: المنجد الأبجدي ، ط ٤ ، دار المشرق ، لبنان ١٩٨٥ ، ص ٦٦١ .

٥٩- انظر : المخطوط في المجلة التاريخية -كلية الآداب- Tarih Dergisi: cild: XVI s.21.

٦٠- د. إسماعيل أحمد ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط ١ ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ص ٢٦٥ .

٦١- مصطفى اغا : ولي المذكور منصب أغا السعادة في ٢٣ جمادي الآخر عام ١٠١٤ هـ ، وكان سليم التفكير حسن التدبير فقدره رجال الدولة ، ولي هذا المنصب مرتين استمرت الأولى ثمانية عشر عاما ، والثانية حوالي سبعة أو ثمانية أشهر ، وهو من أهل الخير والإحسان . انظر : أحمد بن إبراهيم : الخميلة الكبرى مخطوط ورقة ٧ / أ استانبول ١١٦٣ هـ بمكتبة طوب قابي سراى رقم : ١٤٠٣ .

٦٢ . - خليل باشا القيصرى : أحد البشاوات والصدر العظام فى عهد السلطان أحمد الأول ، والسلطان مصطفى الأول والسلطان عثمان الثانى ، والسلطان مراد الرابع ، نشأ فى القصر العثمانى ، وشارك فى حملة على المجر ١٥٩٦ م وبسبب ما قام به خليل باشا من إصلاحات ومنافع لها الأثر الأكبر فى إخماد عصيان الإنكشارية فقد عين قائدا للبحرية ، كان قائدا ناجحا لذا عين ثلاث مرات فى منصب وزير شارك فى حروب إيران لكنه هزم فى موقعة (بولى شكت) عزل من منصبه فاعتكف بتكية الشيخ عزيز محمود خداعى افندى " إسكودار " ، انظر :

TuRK Ansiklopedisi C, XVIII S. 387.

٦٣- دفتر دار : لقب يطلق على أكبر رئيس للشئون المالية فى الدولة العثمانية وهو وكيل للسلطان فى الأمور المالية ، وهو المسئول والذى يحافظ على الدفاتر المالية فى الخزانة والتى تحفظ الأملاك الرئيسية للدولة . وهو يكتب الأحكام الخاصة بالشئون المالية . انظر :

Midhat Sertoglu: Osmanli Tarih Lugati S, 81.

٦٤- الوقفية المنشورة فى مجلة التاريخ ص ٨٧ .

65- Tarih Dergisi: Cild XVI Istanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi, Mart 1996 S, 92.

انظر نص الإشهاد فى الملحق الخاص بنشر الوثيقة .

٦٦- اغريبوز : مقاطعة عثمانية قديمة تقع شرق اليونان ، تحمل اليوم اسم " خالكيس " وهى قاعدة عسكرية بحرية هامة للدولة العثمانية من عام ١٤٧٠ م - ١٨٣١ م وهى أيضا مركز إدارى وإسلامى وتأتى فى المقدمة لما لها من وضع دينى كبير ، بعد فتح العثمانين لهذه المدينة أصبحت كلا من أثينا ، بودوبيتا ، اشاقا ، ايزدين ، ليفاديا ، صالونا ، طالانت ، مدن تابعة لمقاطعة " اغريبوز " ومن ثم تحولت اغريبوز إلى عاصمة للدولة العثمانية ومركزا لولايتها . انظر :

Islam Ansiklopedisi Cilt 10 Istanbul 1994 S, 491.

٦٧- إقليم الروماللى : ولاية فى الدولة العثمانية وهى شبه جزيرة البلقان ، وهى كلمة تطلق على جميع أراضى جنوب أوروبا التى دخلت تحت السيادة العثمانية ، هذا الاسم يأتى من كلمة الروم ، أطلق العثمانيون الأوائل رَوَم - آيلى وهى جميع الأراضى الذى أخذها العثمانيون من الغرب ، ويقال أيضا أنها سميت بهذا الاسم لأنها من " رومانيا " وبالتالى فإن سكانها من الروم وهى التى يسكنها

البيزنطيون ، بدأ الفتح العثمانى بها منذ عهد أرخان بن عثمان على يد ابنه سليمان وفصل مدنه عن المنطقة الحدودية وجعلوها مدن تركية ونتيجة لذلك أصبحت كل مدينة من مدنه مثل " أدرنه ، فيليه ، وصوفيا ، وسرز واسكوب وغيرها مركزا وغيرها مركزا من مراكز الثقافة العثمانية " .

انظر:

Turk, ,Ansiklopedisi C, XXVII, Milli Egitim Basime. Vi - Ankara S. 458.

٦٨- نص الوثيقة التى نشرت فى مجلة التاريخ ص ٨٣ .

٦٩- الصرة : أعطيات سنوية يرسلها سلاطين آل عثمان لتوزيعها على أشراف وسادات وفقراء مكة . أول من جهزها من سلاطين آل عثمان السلطان محمد الأول ٨١٦ - ٨٢٤ هـ وتسمى الصدقة الرومية فكان كـــل سلطان يتولى يزيد مقدار الصرة حتى عهد السلطان سليم الأول الذى جعـــل لها دفترا تسجل فيه العـطايا ، ورتب صدقة الحب لأهل الحرمين ، فكانت الصدقات الجارية من أوقاف كوسم سلطان ترسل مـع نقود هذه الصرة المقدرة لأهل الحرمين الشريفين . انظر : إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين ، مجلد ٢ ، ص ٣٠٩ .

محمد عبد الله آل زلفة : جزازات من تاريخ مكة ، المنهل ، العدد ٤٧٥ السنة ٥٦ المجلد ٥١ الربيعان ١٤١٠ هـ/ أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩ م .

٧٠- الوقفية المنشورة بمجلة التاريخ - كلية الآداب - ص ٩٠ .

٧١- العملة الذهبية : تسمى (سلطانى) أمر السلطان محمد الفاتح بسكها وهى أول عملة ذهبية عثمانية١٤٧٨ م ومنذ عام ١٤٦٥ م أمر السلطان محمد الفاتح بسك العملة الذهبية المصرية وتسمى "أشرافيا" فى دور سك الأموال باستانبول وادرنه اسكوب ، وهى تختلف عن الأمجه فهى عملة فضية .
انظر : Islam Ansiklopedisi, Turkiye Diyanct Vavfi Adina Kemal Guran S, 226.

٧٢- عراقية : ما لبس تحت العمامة ، انظر : المنجد الأبجدى ص ٦٩٤ .

٧٣- الوثيقة الوقفية ص ٨٦ من مجلة التاريخ - كلية الآداب - جامعة استانبول ١٩٦٦ م .

٧٤- شنكل : ج شناكل : حديدة يقيد بها مصرع النافذ من الخارج إذا فتح وأخرى يقيد بها من داخل إذا أغلق ، وعند العامة : وتر صغير يدق فى الحائط تعلق به الثياب ونحوها وهى كلمة سريانية الأصل . انظر : المنجد الأبجدى ص ٦٠٨ .

٧٥- الوثيقة ص ٩١ من مجلة التاريخ - كلية الآداب - جامعة استانبول ١٩٦٦ م .

٧٦- الوثيقة ص ٩٢ .

٧٧- الوثيقة بمجلة التاريخ ص ٩٢ .

المصادر والمراجع العربية :

١- إسماعيل أحمد ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط ١ ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م .

٢- سليمان المالكي : بلاد الحجاز ، ط الأولى ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م .

٣- شرح فتح القدير : الجزء الخامس ، ط ١ ، صادر بيروت ، د.ت.

٤- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، الجزء الأول ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٠م.

٥- ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ط ١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨ م ، دار الآفاق العربية ، القاهرة.

٦- محمد أبو زهرة : محاضرات في الوقف ، ط ٢ ، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١ م ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٧- محمد الدسوقي : الوقف ودوره في تنمية المجتمع الإسلامي ، القسم الأول العدد ٦٤ ، القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠ م .

٨- محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الخامس ، ط ٢ ، حققها محمد مصطفى القاهرة ، ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م .

٩- محمد عبد الله آل زلفة : جزازات من تاريخ مكة المكرمة ، مجلة المنهل ، العدد ٤٧٥ السنة ٥٦ ، مجلد ٥١ الربيعان ١٤١٠ هـ / أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩ م .

١٠- المنجد الأبجدي : الطبعة الرابعة ، دار المشرق ، لبنان ١٩٨٥ م .

١١- موفق الدين بن قدامة ط: المغني الشرح الكبير ، الجزء السادس ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢ م .

١٢- المعجم الوسيط ك الجزء الثاني ، المكتبة العلمية ، طهران ، د.ت.

كتب مترجمة :

١- أحمد بن إبراهيم : الخميلة الكبرى ، مخطوط بمكتبة طوب قابي سراي تحت رقم ١٤٠٣ ، استانبول سنة ١١٦٣ هـ .

٢- أكمل الدين احسان اوغلي : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة : صالح السعداوي ، جـ١ استانبول سنة ١٩٩٩ م .

مراجع ومصادر باللغة التركية :

1- Buyuk Lugat ve Ansiklopedi: Yedinci Cilt, Meydan Yayinevi, Istanbul.

2-Hayat Tarih Sayi 1 Subat 1971.

3- Islam Ansiklopedisi. C. 8 Istanbul 1989.

4- Islam Ansiklopedisi cilt 10 Istanbul1994.

5- Islam Ansiklopedisi Istanbul, Milli Egitim Bosimevi.

6- Islam Hakki UzuncaRsili: Osmanli Tarihi, Cilt 23 Baski.

7- M. CaCatay Ulucay: Padisahlarin Kadinlari Ve Kizlari Turk Tarin Kurumu Basimevi-

Ankata 1980.

8- Midhat Sertoglu: Osmanli Tarih Lugati Enderun Kitabevi, Istanbul 1986.

9- Okaty Aslan Apa: Osmanli Devri Mimarisi Istanbul 1986.

10- Tahsin Tunah: Kosem Sultan, Hayat Tarih, Sayi 8 Agustos 1975.

11- Tarih Dergisi: Cild XVI Istanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi, Mart 1996.

12- Turk Ansiklopedisi, C. XVIII.

13- Turk Ansiklopedisi C, 1 Istanbul 1989.

14- Turk Ansiklopedisi C, XXVII, Milli Egitim Pasime. VI. Ankara 1978.

15- Yeni Turk AnsiklopedisiC.5 1966 Otuken.

16- Ziya Kazici: Islam Muesseseleri Tarihi, Istanbul 1991.

الملاحـــــــــــق

Vakfiye metni

(1ᵃ) Hezâr sitâyiş-i sipâs-ı bî-kıyas ve bî-şümâr hamd-ı ihlâs-ı
ȝâs-ı kabûl-istînâs bâdi-i mebâdi-i Âlem ve bânî-i mebânî-i âdem hâ-
ḳ-ı erzâk-ı beşer ü ni'am melik-i kül-i mülk-i mâl olan mâlik-i zi'l-
elâl ve'l-kerem ve vâkıf-ı küll-i hâl olan sultân-ı zi' (1ᵇ)l-ḳıdem celle
ıülkühû ve sultânühû 'amme birrühû ve ihsânühû hazretlerinin ce-
âb-ı mukaddes ü münezzehine ki kâffe-i kâinâtı nizâm-ı bedî' üzere
ɔdâ' ve üslûb-ı menî' üzere ihtirâ' edüp her ferdi ferdâniyyet ve
luhiyyetine delîl-i zâhir eyledi ve salât-ı salavât-ı vâsılât tuhaf-ı
əslîmât-ı mütevasılât ol fâtiha-i sûre-i nübüvvet ve hâtime-i risâ-
:-i risâlet server-i sürûr-ı küll-i ma'şer şefî'-i müşaffa'-i rûz-ı mah-
er müstenid-i sened-i ıstıfâ Ebu'l-Kâsım (2ᵃ) Hazret-i Muhammed
Mustafâ aleyhi's-selâm mâ tala'a'ş-şemsü ale'l-enâm cenâbına ki
Eshâb-ı hasenât ve erbâb-ı meberratı levâmi'-i envâr-ı şer'-i mübîn
le sübül-i sûy-i selâmete hidâyet eyledi ve bî-hisâb rahmet-i rab-
bü'l-erbâb ol zümre-i âl ü eshâb üzerlerine ki teksîr-i ma'âlim-i hay-
ât-ı celiyye ve tevfîr-i merâsim-i dîn-i ve meberrât-ı 'aliyye bâbın-
la her biri cidd-i belîğ ve sa'y-i bî-dirîğ ederler rıdvânu'llahu
a'ala aleyhim ecma'în (4ᵃ) Emma ba'd iş bu vesîka-i enîka-i
ahîha-i şer'iyyenün tâlibesi ve hayrât ü hasenâtün sâhibesü sul-
an-ı a'zam ve hâkân-ı ekrem bâsıtu bisâti'l-'adli ve'l-kerem mâ-
ikü'l-emâneti'l-'uzmâ vârisü'l-hilâfeti'l-kübrâ müstahdimu eshâbi's-
eyfi ve'l-kalem müsfa'bidü erbâbi't-tabli ve'l-'alem mâlikü memâ-
iki'l-'âlem zıllullahi' (4ᵇ)z-żalîl 'alâ kâffeti'l-ümem kâsirü'l-ekâsire
ḳâhirü'l-kurûm sultânü'l-'arabi ve'l-acemi ve'r-rum melikü'l-berreyni
ve'l-bahreyn hâdimü'l-Haremeyni'ş-şerifeyn e's-sultânu'bnu's-sultân-
's-sultân Ahmed Han a'lâllâhu ta'âlâ a'lâmı saltanatihî ilâ yevmi'd-
dîn ve ahkeme ahkâme ma'deletihî an-müteşabîhi'n-neshi ve't-tem-
kîn hazretlerinün hasekileri (5ᵃ) olan seyyidetü'l-muhadderât iklî-
etü'l-muhaşşenât refî'atü'd-derecât zâtü'l-'ulâ ve's-sa'âdât mihr-i
sipihr-i 'iffet bedr-i evc-i 'ismet dürr-i deryâ-yı devlet ü ikbâl gev-
her-i kân-ı 'ismet ü iclâl el-muhtassatu bi-inâyeti'l-meliki'l-müste'ân
Râbi'atü'd-devrân Fâtımetü'z-zemân 'Â'işetü'l-evân Mâh-Peyker Sul-
tân dâmet 'iffetühâ (5ᵇ) ve zâdet 'ismetuhâ taraf-ı karînü'ş-şeref-
lerinden vakf-ı âti'z-zikri ikrâra ba'dehu nehc-i ma'rûf ve meşrû'
üzere da'vây-ı rücû'a hasım-ı câhid-i şer'î mahzarında nehc-i mu'te-
ber-i mer'î üzere Dârü's-sa'âdeti'l-'aliyye ağalarından 'umdetü'l-

ıavâss ve'l-mukarrebîn kıdvetü eshâbi'l-izzi ve't-temkîn bi'l-fi'l Baş :apu (6ᵃ) oğlanı Mehmed Ağa ibnu Abdilmennân ve İsma'il Ağa bnu 'Abdilhannân şehâdetleriyle şer'ân vekâleti sâbite olan if-iharü'l-havâşsı ve'l-mukarrebîn muhtâru eshâbi'l-izzi ve't-temkîn ıu'temedü'l-mülûki ve's-selâtîn enîsü'l-hazreti'l-'aliyyeti'l-hâkâniyye elîsü's-sa'âdeti's-seniyyeti's-sermediyye zü'-lkudreti'l-kâmile ve'l-urreti'ş-şâmile el-mahfûfu bi-sunûfi 'avâtıfi'l-meliki'l-mennân Elhac 5ᵇ) Mustafa Ağa ibnu Abdilhannân [1] hazretleri meclis-i şer'-i şerîf-i âsihü'l-erkân ve mahfil-i dîn-i münîf-i şâmihü'l-bünyânda vakf-ı âti-:-zikre li-ecli't-tescîl mütevellî [2] nasb ü ta'yîn olunan fahrü'l-krân Sefer Ağa ibnu 'Abdilmennân mahzarında bi'l-vekâle ikrâr-ı imm ve takrîr-i kelâm edüp müvekkilem vâkıfe-i mumâileyhâ (7ᵃ) u dünyây-i denînin firîbine mağrûre olmayup hazret-i Rabb-ı 'iz-ɜtten alet-i kelimetuhu ve cellet kendüye vâsıl olan 'atâyây-ı ce-yye ve mevâhib-i 'aliyyeyi و ان تعدوا نعمت الله لا تحصوها vefkınce add ü 'adde imkân olmadugu ma'lûmu olup ما عندكم ينفد وما عند الله باق ıefhûm-ı şerîfi kalblerine münsâk olmağla 'avâtıf-ı aliyye-i sul-ınî ve mevâhib-i seniyye-i hâkânî ber muktazây-ı (7ᵇ) emr-i :lilü'l-kadr-i احسن كما احسن الله اليك kâffe-i enâm ve cümle hâss u 'âm-a şâmil olup sultân-ı 'aliyyü'ş-şân lâ-zalet maâsirehü'l-fâhire zîne-ın li-sahâifi'z-zemân kâsımü'l-kayâsire ve kâhirü'l-kurûm sultânü'l-râbi ve'l-'acemi ve'r-rûm hazretleri vâkıfe-i celiletü'ş-şân اسكنها الله تعالى فى اعلى غرف الج (8ᵃ) hazretlerine vilâyet-i Rûm-ilinde Eğriboz ıncağında vâki' Livadya [3] hâssından hibe ve temlik ve mülknâ-e-i hümâyûn ihsân buyurdukları Dadi ve Rahove ve ريفوز ve فيله ve athy (وادیه) ve اكسرخوزه ve مارث مورزق ve Granitsa nâm karyeler ki ımlesinin (8ᵇ) hududu sınûr-nâme ve mülk-nâmesinde mastûre ve ma'-

[1] 1605 Kasımında Darüssaade ağası olmuştur. 1619 da azledilmiş ve 1622 de ıiyen aynı memuriyete getirilmiştir. 1624 de vefat etmiştir (Fazla bilgi için bk. ımed Resmî Ef., *Hamiletü'l-Kübera*, Ali Emiri, T. Y. nr. 274).

[2] Vakıf işlerini idare için, vakfiye şartları ve dini hükümler dahilinde ta-. olunan kimsedir. Mütevelliyi ya vâkıf tayin eder veya kadı tayin eder. Va-da tasarruf hakkı tamamen mütevelliye aittir. Namuslu ve itimada lâyık bir nse olmasına dikkat edilir (Fazla bilgi için bk. İbnülemin Mahmud Kemal. *Ev-f-ı Hümayûn Nezareti'nin tarihçe-i teşkilâtı ve nüzzârın terâcim-i ahvali*, İst. :5, s. 5 ; Ali Himmet Berki, *Vakıflar*, Ankara 1950, II, s. 98).

[3] Yunanistan'da ve Attik yarımadasında ve Atina'nın kuzey-batısında bir .abadır.

imedir şer'-i kavimde istisnâsı lâzım olanlardan gayri ki her bi-
inin hudûdu ma'lûme mesâcid ve ma'âbid ve tarik-ı âmm ve şe-
ări'-i 'izâm ve arâzî-i makâbir ve evkâf ve sâirlerdür vâkıfe-i sâ-
ıfetü'l-evsâf الاوقاف تعالى منها عنها تقبل الله 'avâtıf-ı 'aliyye-i (9a) sultâ-
iden ihsân buyrulan mülk-nâme-i hümâyûn mazmûnı üzere kurây-ı
nezbûrenin hudûdu dâhilinde olup mülk olan eşyâyı vakf ü tes-
ıîl eylediklerinden sonra hazret-i vâkıfe-i celiletü'ş-şân ve cemile-
ü'l-'unvân şöyle şart ve beyân buyurdular ki zikr olunan kurânın
ıer sâl hâsıl olan rey'i ü nemâsından her sene Şâm-ı şerîfden (9b)
ieytu'llahi'l-harâma müteveccih olan huccâc-ı kirâm ve müslimîn-i
evi'l-ihtirâma sebîl içün otuz re's deve ücretle tutulup beş re'sine
akkâların çadırı ve sâir esbâbları ve yirmi beş re'sine su tahmîl
ılunup yolda her gün 'atşâna sebîl oluna ve selma[4] develerinden
otuz re's deve dahi ücretle tutulup su tahmîl oluna ki yollarda
u bulunmayıp (10a) zarûret çekilen mevâzi'de her gün 'atşâna
sebîl oluna ve on iki nefer kimesne dahi ücretle tutulup altı ne-
eri zikr olunan develere deveci ve altı neferi sakkâ ola ve bu
ıeferâtın cümlesinin zahîreleri içün yedi buçuk şâmî kantâr[5] bek-
simâd ve kifâyet mikdârı birinc ve mercimek ve tarhana ve bul-
ğur ve yağ ve bekmez ve cübün ve habb-ı rummân ve basal iştî-
â oluna ve su tulumlarını üzerine (10b) örtmekiçün otuz kıt'a ke-
çe ve altlarına tutmağiçün yüz kıt'a hasır ve merammatleri içün
yirmi kıt'a meşin ve tulumlara su doldurmağiçün dört kıt'a koğa
ve bir huni ve zemmâl urganı[6] demekle ma'rûf altmış vakiyye[7]
resen ve altmış 'aded çengâl iştirâ oluna ve sakkâlara her sene
bir çadır ve beksimâd ve sâir zahîreleri içün altı çift garar[8] (11a)
ve bir çift cebbânîn sanduk ve tabh-ı ta'am içün bir kazgan iş-
tirâ oluna ve Mekke-i Mükerreme şerrefeha'llahu ta'âlâ fukarâsına
her sene yüz 'aded gömlek ve yüz 'aded 'abâ ve Medine-i Mü-

[4] Selm, bir kulplu koğa anlamında gelmektedir (bu kelime için bk. Âsım Efendi, *Kamus Tercümesi*, İst. 1305, IV, s. 387 vd.).

[5] Eski ağırlık sisteminde büyük bir ağırlık ölçüsüdür (Fazla bilgi için bk. E. v. Zambaur, *Kantar* mad, *İsl. Ans*: Valter Hinz, *Islamische gewichte und masse*, Göttingen 1955, s. 24).

[6] Yük urganı demektir.

[7] Bir ağırlık ölçü birimidir. Vukiyye şeklinde de okunur. Bozulmuş şekli okka diye maruftur (Walter Hinz, *Aynı eser*, s. 24).

[8] Harar diye bilinen büyük çuvaldır.

nevvere fukarâsına dahi kezâlik yüz 'aded gömlek ve yüz 'aded 'abâ ve yolda muhtâcîne tevzi'çün dahi kezâlik yüz 'aded gömlek ve yüz 'âded 'abâ iştirâ olunup vech-i meşrûh (11ᵇ) üzere muhtâcine tevzi' oluna ve yüz çift içedik[9] ve başmak[10] dahi iştirâ olunup elli çifti Mekke-i Mükerreme sulehâsına ve elli çifti Medine-i Münevvere sulehâsına tevzi' oluna ve dört yüz çift pâbuc dahi iştirâ olunup her sene yolda pâ-bürehne olan fukarâya tevzi' oluna ve yollarda yorulup kalan piyâde fukarâyı bir konaktan bir konağa îsâl (12ᵃ) içün tutulan develere her sene atılmış beş hasene[11] ücret verile ve yüz 'aded harcî dülbend ve yüz 'aded 'arakiyye[12] iştirâ olunup her sene yolda fukarânın ser-bürehnelerine tevzi' oluna ve vâkıfe-i müşârün-ileyhâ rûh-ı şerîfi içün her sene tavâf-ı Beytullahi'l-harâm ve ziyâret-i ravza-i Resûl aleyhi's-selâm eden bir nefer kimesneye elli (12ᵇ) flori[13] verile ve bu cümle zikr olunan mesârife cem'an dört bin hasene sarf oluna eğer fazla kalursa yine fukarâ-i mezbûrenin bu emsâl üzere mesârif-i mühimmelerine sarf oluna ve dahi şart eylediler ki Mekke-i Mükerreme'de a'kâb-ı salavâtda ağavâttan otuz üç nefer ağa üçer ihlâs-ı şerîf ve birer fâtiha-i şerîfe tilâvet edüp her sene her birlerine onar (13ᵃ) flori verile ve şeyhü'l-harem üzerlerine nâzır[14] olup cihet-i nezâret yirmi flori verile ve yine Mekke-i Mükerreme'de ba'de salâti'l-fecr on dokuz nefer kimesne dahi Kur'ân-ı 'azîmden birer cüz'-i şerîf tilâvet edüp her birlerine onar flori verile ve hâdim-i zemzem-i şerif olan kimesnelere on hasene verile ve Mekke-i Mükerreme müşiddlerine (?) otuz hasene (13ᵇ) verile ve iki nefer imâma dahi beşer flori verile ve Medine-i Münevvere'de vâki' suffa ağalarından kırk nefer ağa her

9 Üstüne papuç giyilen çedik olmalıdır.

10 Bir nevi ayakkabı, sandal cinsini ifade ettiği halde sonraları umumiyetle pabuca denmiştir (Fazla bilgi için bk. Tayyib Gökbilgin. *Başmak mad., İsl. Ans*).

11 Sikke-i hasene, para yerine kullanılır bir tabirdir.

12 Sarığın üzerine sarıldığı külâhın altına ter çekmesi için giyilen takyedir (Fazla bilgi için bk. W. Björkman. *Sarık mad. İsl. Ans.*).

13 Floransa'da basılmış ve üzerine zambak çiçeği resmedilmiş olan altın paradır. Bu isim mahalli darbtan ve üzerindeki çiçekten dolayı verilmiştir. (Fazla bilgi için bk. Eyüp Sabri Paşa. *Mir'âtü'l-haremeyn*, İst. 1304, II, 808; L. Fekete *Die siyāqat-Schrift, in der türkischen Finanzverwaltung*, Budapest 1955, I, s. 218).

14 Mütevellinin işini teftiş etmek için vâkıf tarafından tayin edilen kimsedir (Fazla bilgi için bk. Muhammed Ahmed Simsar. *Waqfiyah of Ahmed Paşa*, Philadelphia 1940, s. 182).

ün üçer ihlâs-ı şerîf ve birer fâtiha-i şerîfe tilâvet edüp her bi-
ine beher sene onar hasene verile ve yine yedek ağalarından
irmi beş nefer ağa her gün üçer ihlâs-ı şerîf ve birer fâtiha-i
erîfe tilâvet edüp her birine beher sene onar (14ª) hasene verile ve
ıâibü'l-hareme otuz hasene cihet-i nezâret verile ve şeyhü'l-hareme
ın hasene ve hazinedâr olan ağaya dahi on hasene verile ve yi-
ıe Medîne-i Münevvere'de vakt-i subhda ve 'asrda otuz iki nefer
:imesne dahi birer cüz-i şerîf tilâvet edüp her birlerine beher se-
ıe onar hasene verile ve nâibü'l-harem olan kimesne bu zikr olu-
ıan eczâ-i (14ᵇ) şerîfeye nâzır olup cihet-i nezâret yirmi flori
verile ve bir kimesne dahi ser-mahfil[15] ve hâfız-ı eczâ-i merküme ve
ve noktavî[16] olup beher sene sekiz hasene verile ve hazret-i Resûl-i ek-
rem sallallahu 'aleyhi ve sellem câmi'-i şerîfinde imâmun seccâde-
sin döşeyüp kaldıran bir kimesneye beş hasene verile ve Medi-
ne-i Münevvere müşiddlerine otuz hasene verile ve harem-i (15ª)
Ravza-i Mutahhara'da vâki' bi'r-i mâdan âb-keş[17] olan iki kimesneye
beşer flori verile ve Medîne-i Münevvere mücâvirlerinden[18] on iki mü-
câvirin yedi neferine onar hasene ve birine dokuz hasene ve dör-
düne sekizer hasene verile ve Kuds-i şerîfde Hazret-i Mûsâ aleyhi's-
selâm ravza-i şerîfesinde otuz bir nefer kimesne birer cüz'-i şe-
rîf tilâvet edüp her birine beher sene (15ᵇ) altışar hasene verile
ve eczâ'-i merkümeye nâzır olan kimesneye cihet-i nezâret beher
sene yirmi hasene verile ve nâzır-ı hasbî hizmet-i Darü's-sa'âde
ile müteşerrif olan ağalar ola bu cümle dahi iki bin hasene olup
bâlâda zikr olunan dört bin hasene ile cem'an altı bin sikke-i ha-
sene olur deyüp vakf olan eşyâyı bi-cümletihâ sâlifü'z-zikr müte-
velli Sefer Ağa'ya teslîm edüp anlar dahi tevliyeti hasebi ile (16ª)
kurâ-i mezkûreyi kabz ü zabt eylediler deyü ikrâr-ı sahîh-i şer'î
ve i'tirâf-ı sarîh-i mer'î ettikden sonra mukirr-i merkûmu cemî'-i
ikrâr-ı meşrûhunda mezbûr Sefer Ağa bi'l-muvâcehe tasdik ve
tahkîk edüp emr-i vakf tamâm oldukdan sonra vekîl-i müşarün-

15 Bazı câmilerde inşa edilmiş, pâdişâh veya hanedana mensup kimselerin namaz kıldığı yerin temizliğine ve idaresine bakan kimsedir (Fazla bilgi için bk. Muhammed Ahmed Simsar, *Aynı eser*, s. 118, n. 3).

16 Her halde Kur'anı noktalamakla vazifeli kimse olsa gerek.

17 Su çeken, suyu bir yerden bir yere götüren kimse (bk. Ziya Şükûn, *Ferheng-i Ziyâ*, İstanbul, 1944, s. 29; F. Steingass, Persian-English Dictionary, London, s. 9).

18 Hac için gidip hacı olduktan sonra orada ikâmet eden kimseye denir (Fazla bilgi için bk. Eyüb Sabri Paşa, *Aynı eser*, I, s. 165).

ileyh hazretleri hilye-i niza' ve cidâle 'atf-ı 'inân-ı makal edüp müvekkilem Sultân-ı mûmâ-ileyhâ hazretleri eşyâ'-i mesfûreyi (16[b]) kemâkân silk-i mülklerine idhâl murâd buyurup İmâm-ı a'zam hümâm-ı akdem ü efham sirâcü'l-ümme muktede'l-eimme kâşif-i estarü'l-hakāyık muvaddihu esrâri'd-dekāyık sultânu serîri'l-ictihâd hüccetü'l-hakk 'alâ kâffeti'l-'ibâd hazret-i Ebi Hanife Nu'mânu'bnu Sâbiti'l-Kûfî جرزی خیرالجزاء، وکرق mezheb-i şerîfleri üzere vakf-ı mezbûr gayr-ı lâzım olmağın eşyâ'-i merkûme (17[a]) vakfiyyetinden bi-hasebi'l-vekâle rucû' etdim mütevelli-i mezbûr kasr-ı yed ile me'mûr olması matlûbumdur dedikde mütevelli-i merkûm dahi bi'l-muvâcehe cevâb-ı ba-savâb verüp eğerçi hâl imâm-ı ma'hûd mezheb-i şerifinde zikr olunan minvâl üzeredür lâkin imameyn-i hümameyn bedreyn-i neyyireyn Ebu Yûsuf Ya'kub el-imâmu's-sânî ve imâm Muhammedu'bnul-Hasani'ş-Şeybânî hazretleri katlarında (17[b]) vakf olunup mütevelliye teslîm olunan eşyâ'-ı vakf lâzım olduğu bî-mirâdur bu takdîrce vakf-ı mezbûrun sıhhat-i vakfiyyeti hilye-i lüzûm ile muhallâ olduğuna binâen bâb-ı rucû' münsedd idüğü mahall-i irtiyâb değildür deyu bu mecelle-i celîlede mastûr olan vakf-ı mezkûru şer'-i şerîf üzere tescîle ve bünyân-ı hayr-ı cemîli tekmîle me'mûr olan kıdvetü'l-ulemâi'l-müderrisîne' (18[a]) l-kirâm muvakki'-i kitâb-ı müstetâb-ı cenâb-ı fazîlet-iktisâblarından hüküm taleb etdikde anlar dahi cânibeynde te'emmül ve merâm-ı ferikaynde tefekkür ve ihtimâm eyledikde 'âlimen bi-tefâsîli'l-hilâf fi mesaili'l-evkâf beyne'l-eimmeti'l-eslâfi'l-eşrâf vakf-ı mezbûrun sıhhat ve lüzûmuna hükm-i sahîh-i şer'î ve kazâ-i sarîh-i mer'î eyledi. Min ba'd naks u nakzına mecâl muhâl ve ibtâl ü ihlâli mümteni'ü'(18[b]) l'-ihtimâl oldu. فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم واجر الواقفة على الحي الجواد الكريم جرى ذلك وحرر في اوائل المحرم الحرام من شهور سنة ست و عشرين والف.

Şuhûdü'l-hâl

ما هو المحرر في هذه السطور الكائنة بها بلا نقصان و قصور

و انا الواثق بالملك الجليل خليل باشا

المأمور بخدمة الوزارة العظمى[19]

ما هو المسطور فى هذا المنشور وقع عندى خالياً عن القصور

و أنا الفقير أحمد باشا الوزير الثانى[20]

ما سطر فى هذا الكتاب محقق بلا شبهة و ارتياب

و أنا عبدالودود داود باشا الوزير[21]

ما حرر فى هذا الوثيقة وقع عندى على نهج الحقيقة

و أنا الفقير حسن باشا الوزير[22]

و أنا ايضاً شاهد بها الفقير الى ربه الملك الودود

محمود باشا الوزير[23]

و أنا شاهد بحقيقة هذا الصحيفة

على باشا الوزير والقپودان[24]

ما ذكر فى الكتاب صح عندى بلا ارتياب كتبه الفقير

عبدالباقى بن أبى الوفا الموكل على الخزائن السلطانية[25]

لازالت معمورة بالعنايات الربانية

ما زبر فى الوثيقة صح عندى على الحقيقة كتبه العبد

حسن بن محمد التوقيعى الشهير بحكمى[26]

[19] İki defa Sadrıâzam olduktan sonra 1030 senesinde bu makamdan azledilen lalil Paşa.

[20] 1026 da beklediği sadâret kendisine verilmediğinden müteessir olarak efât eden Ekmekci-zâde Ahmed Paşa.

[21] Vakfiyenin yapıldığı tarihde vezir bulunan Bosnalı Kara Davud Paşa lup idâmı 1032.

[22] Bir müddet Sadâret kaymakamlığında ve Kubbe vezirliğinde bulunduktan sora Ramazan 1032 de vefât eden Nakkaş Hasan Paşa.

[23] Bu vakfiyenin tanzimi sırasında Kubbe veziri bulunan Cigala-zâde Vezir ahmud Paşa.

[24] Kapudân-ı deryalıkta ve Sadârette bulunduktan sonra 15 Rebi'ülâhir 1030 ı vefât eden İstanköylü Güzelce Ali Paşa.

[25] Baş-defterdar Abdülbâki Paşa, vefâtı 1036.

[26] Vakfiye tanzim edilirken Nişancı bulunan Hasan Hükmî Efendi (Bu zat in bk. Çetin Derin, *XVII. asır Nişancıları*, lisans tezi, Ed. Fak. Tarih Semineri taplığı nr. 520).

هذا كذلك و أنا اشهد بذلك نمقه الفقير
الى الله الملك الوهاب حمزة بن محمد كانى
بخدمت رياست الكتاب[27]
و أنا شاهد بحقيقة هذه الصحيفة
ابوبكر دفتردار آناطولى[28]
و اشاهد بهذا حرره الحقير يوسف
دفتردار شق ثانى[29]

27 1026 de dördüncü defa Reisülküttâb olan Yaycı-zâde Hamza Efendi. Vefâtı 1032.

28 Aslen Manisalı olup Küçük ve Orta defterdarlıkta, 1036 da Darphâne nezâretinde, sonra vezirlikle Sadâret kaymakamlığında bulunan Ebubekir Paşa; idâmı Rebiü'lâhir 1039.

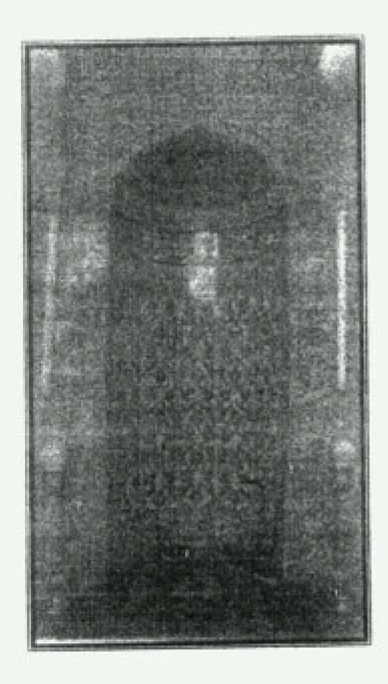
29 Mâliyeden yetişip Şıkk-ı evvel defterdarlığında ve Maraş vâliliğinde bulunduktan sonra 1032 senesinde Abaza Mehmed Paşa tarafından öldürülen Kulavuz Yusuf Paşa.



صورة كوسم سلطان نُشرت على
غلاف مجلة حياة التاريخية
عدد ٨ لسنة ١٩٧٥م

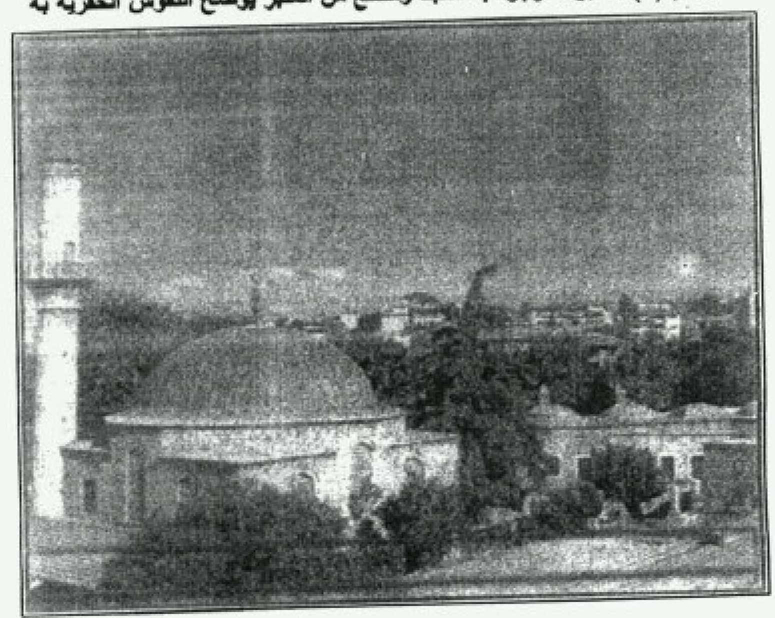


شكل رقم (١) دخلة من دخلات أحد النوافذ الموجودة بـ جنيلى جامع الخزف

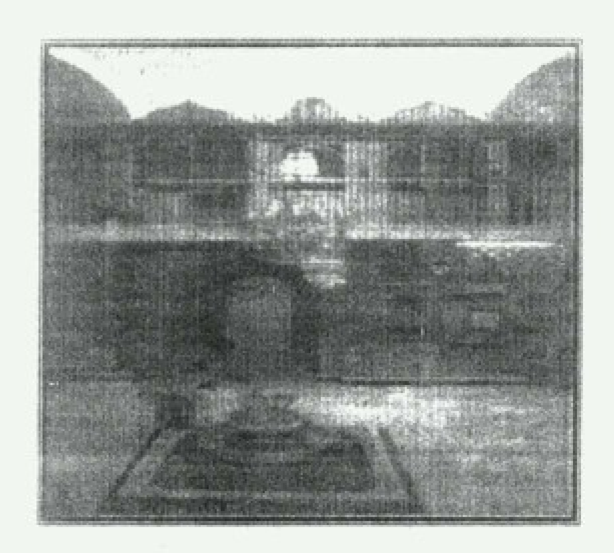


شكل رقم (٢) محراب مسجد جنيلى جامع

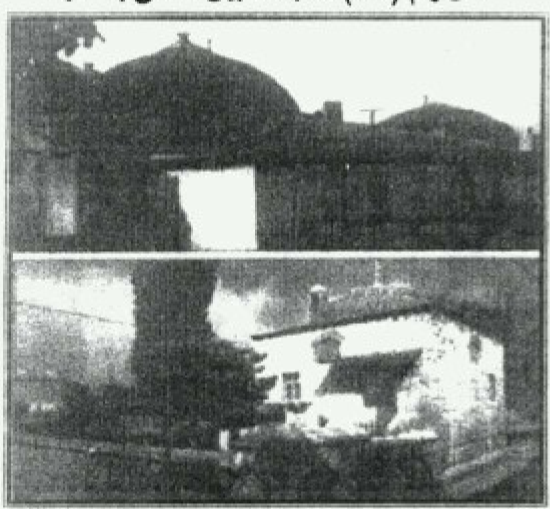
شكل رقم (٣) المنبر الموجود بالمسجد ومقطع من المنبر يوضح النقوش الحفرية به



شكل رقم (٤) جنبلى جامع والمدرسة



شكل رقم (٥ أ) مكتب الصبيان الملحق بالمسجد



شكل رقم (٥ ب) صورة للحمام وجزء من الحمام من الداخل

د. محمد بن عبد الله النويصر

موقف الأهالي في نجد
من حملات طوسون وإبراهيم باشا

كان سقوط الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٨ م يرجع إلى عوامل عدة ليس هذا مكان مناقشتها وتفصيلها ، ويبدو أن الموقف السلبي من بعض الأهالي في نجد تجاه حملات طوسون وإبراهيم باشا ، كان له أثر فعال في تهيئة الهزيمة التي حلت بالدولة السعودية الأولى وأدت إلى سقوطها ، لأنه أدى إلى نشوء الخلل في الجبهة الداخلية ، وساعد القوات الغازية في تحقيق أهدافها .

وعلى الرغم من أن أهالي نجد ، قاموا - وعلى مختلف فئاتهم بادية وحاضرة - بواجبهم ضد القوات الغازية إلا أن الموقف السلبي الفردي ، ساهم في تفكيك تماسك الجبهة الداخلية وكشف نقاط القوة والضعف في دفاعاتها مما أدى إلى حدوث الهزيمة ، ومن هنا كان الحديث عن هذا الموقف السلبي الفردي خاصة موقف القبائل ، وبعض الأفراد من بلدان نجد . ولعل هناك عوامل متعددة ، ساهمت في حدوث هذا الموقف السلبي الفردي .

العوامل التي ساهمت في ظهور الموقف السلبي :

أولا : طبيعة المجتمع النجدي الذي كان يتكون غالبيته من العنصر البدوي ، وما يتصف به هذا العنصر من صفات ظل بعضها ملازما له ، ولذا كان دائما يتحين الفرص للتعبير عنها

ولا شك أن القوات الغازية استغلت هذا العامل أحسن استغلال عندما أرادت غزو البلاد النجدية فى تحقيق أهدافها مرحلة مرحلة . فقد بادرت تلك القوات بإغداق المال والكساوى والرشاوى على مشايخ القبائل ، وكان لهذا أثره فى كسب عطف وتعاون بعض أفراد القبائل مع قواتهم أثناء تقدم القوات الغازية فى البلاد النجدية . كما كان لهذا أثره فى كسب تعاون بعض الأفراد المهمين من البلاد النجدية خلال مراحل مهمة من الحرب الدائرة بين الجانبين ، وقد قدمت تلك العناصر التى خرجت عن القوات السعودية ، وانضمت إلى القوات الغازية خدمة جليلة للأخيرة ، تمثلت فى إعطاء معلومات مهمة عن الطرق والمسالك ومواطن الضعف فى التحصينات ، وساهم هذا فى تحقيق الحملات لأهدافها بسهولة(١) .

وقد أشارت بعض المصادر إلى أن شيخ حرب المدعو غانم شارك مع إبراهيم باشا فى غزوه لبعض أعراب نجد ولعل هذا كان له أثر فى وقوف بعض قبائل حرب مع جيش إبراهيم باشا(٢) وتشير مصادر أخرى ، إلى أن بعض العناصر قبلت الرشوة ، التى كان الجيش الغازى يملك وسائلها ، وأثرت فى موقف بعض الأفراد من قبائل نجد ، ولعل هذا كان من أسباب قبول الأمام عبد الله بن سعود صلح الرس ، بهدف المحافظة على القبائل التى لم تنضم بعد إلى جيش الباشا(٣) كما كان لهذا السلاح أثره فى تحقيق بعض المكاسب فى مرحلة مهمة من الحرب الدائرة بين الجانبين ، إذ بعد أن أصاب اليأس إبراهيم باشا من سقوط الدرعية ، رشا أحد حراس الأبراج بمبلغ من المال ، واستولى عليه ، وكان يحتل موقعا عاليا من البلد ، فأطلق مدافعه منه ، وأثر ذلك تأثيرا عظيما ، حيث قتل خلقا كثيرا(٤) .

يضاف إلى هذا موقف رئيس الفرسان فى الدرعية الذى خرج من الدرعية ، وانضم إلى جانب القوات الغازية ، وكان لهذا الموقف أثره فى إضعاف موقف القوات المدافعة ، وتعزيز موقف القوات الغازية ، يقول ابن بشر فى هذا المقام : " أصاب أهل الدرعية كآبة ووهن من خروجه ... " ، وأنه لما خرج من خرج من أهل الدرعية وغيرهم منها إلى الباشا أخبروه بعوراتهم وغراتهم وأخبروه بالموضع الذى ليس فى أهله شدة فى الحرب والموضع الذى يتفرقون عنه فى الليل وبالموضع الذى ليس به إلا القليل وبالموضع الذى يدخل منه على أهل الدرعية وهم لا يعلمون "(٥) .

وهذه المعلومات أفادت إبراهيم باشا ومكنته من أحكام خطته النهائية لهجوم شامل على الدرعية من كل الجهات .

ولأن الدولة السعودية ، أقامت سلطتها على الإقليم كله ، مما أدى إلى سيادة الأمن فيها ، وإلى الالتزام بدفع الزكاة المفروضة ، وهما أمران يتعارضان مع طبيعة العنصر البدوى ، الذى كان يستفيد من سلبياتها ، ولذا ساعدت بعض العناصر البدوية الحملات الغازية ، محاولة منها للتخلص من نظام منعها من النهب ، ومهاجمة الآخرين ، وألزمها دفع الزكاة التى كانت أول إجراء أقره جيش محمد باشا ، حيث أمر بإعفاء البدو منها ، مما جعلهم أقل عداء له(٦) ولعل دخول بعض القبائل فى طاعة الدولة السعودية الأولى من غير اقتناع بالدعوة التى قامت عليها حيث وقف معها عندما كانت قوية بغرض الاستفادة من الغنائم التى كانت تجمعها نسبة لكثرة انتصاراتها فإنه سرعان ما أصبح عامل هدم خطير لكيانها حينما تعرضت لهجوم خارجى بدت بوادر تفوقه عليها(٧) ، وكان استمرار الغزوات من قبل القوات الغازية ، عاملا هاما فى استمرار مساعدة بعض العناصر البدوية ، للقوات الغازية ، لأن استمرار الغزوات ، يؤدى إلى استمرار الإخلال بالأمن ، الذى يحقق رغبة هذه العناصر ، يوضح هذا ما رفعه قائد القوات الغازية إبراهيم باشا لوالده فى مذكرة تحمل كشفا بين فيه أسماء العربان ومشايخهم ، الذين حضروا إلى طرفه . أولا وأخرا ، وقد أكد إبراهيم لوالده فى هذه المذكرة ، إمكانية الحصول على ما يريده من هؤلاء العربان بسهولة ، شرط استمرار الغزوات ، والمواظبة عليهـا " .. أن العربان لا يخالفون قطعا عندما تطلب منهم مسألة الجمال أو أى مسألة أخرى شرط استمرار الغزوات والمواظبة عليها من الآن فصاعدا .. " ومن هنا طلب إبراهيم من والده الموافقة على عدم ترك الغزوات حتى يتم الحصول على كل شئ .(٨) ونتيجة لهذه الغارات التى قادها إبراهيم باشا ، أعلنت قبائل كثيرة ولاتها للقوات الغازية ، وقد استعان إبراهيم باشا بقبائل البدو الموالية له فى غزواته اللاحقة(٩) . وإذ لم يجد إبراهيم باشا تأييدا كاملا له من القبائل فإنه على الأقل وجد تسهيلات لمهماته فى نقل الذخائر والمستلزمات الأخرى فى كل مرحلة من مراحل الحرب الدائرة بين الجانبين(١٠) .

ثانيا: الخلافات بين الإمام عبد الله بن سعود ، وبعض عناصر المجتمع النجدى ، سواء أكانت خلافات ذات جذور قديمة أم كانت ردة فعل لعمليات التأديب التى قام بها الأمام ردا على تأييد بعض العناصر القبلية فى نجد للقوات الغازية . وقد أشرنا إلى مشاركة بعض عناصر قبيلة حرب لإبراهيم باشا ، وكان للخلافات بين الإمام عبد الله بن سعود وبين قبيلتهم أثر فى ذلك(١١) وقد تبادل عدد من القبائل البدوية العهد والصداقة مع إبراهيم باشا ، ولعل

أسلوب الإمام عبد الله بن سعود في تأديب القبائل البدوية كان سببا مشجعا لانضمامهم إلى القرا ت الغازية ، فقد وصل فيصل بن وطيان الدويش شيخ قبيلة مطير ، وطلب مقابلة الباشا كما أرسل ابنه لتهنئة الباشا على انتصاراته ، ثم وصل إلى معسكر الأتراك وتم استقباله بكل احترام وتقدير ، ولعل هذا الموقف ينطلق من ضغينة ونزاع بين الإمام عبد الله بن سعود ، وبين الدويش حول ما ذكر من أن الإمام عبد الله بن سعود قتل أثنى عشر شيخا من قبيلة مطير ، وهم من أقرباء فيصل[١٢] على أن هناك من ذكر أن السبب فى هذا الموقف يعود إلى وعد سابق من إبراهيم باشا لفيصل الدويش بأمارة الدرعية من قبل إبراهيم . مقابل المساعدة له .

إذ وعده بها عند وصوله الرس فلما وصل إليها نفذ ما وعده به ، ودعمه بالرجال والمؤن ووسائل النقل ، وربما كان لموقف الدويش هذا أثر بارز فى نجاح القوات الغازية فى احتلال إقليم القصيم ، فهذا الموقف قوى عزيمة الباشا ، وطمعه فيها ، على أن إبراهيم باشا تنكر للدويش ، وطالبه بالمتأخر من الزكاة ، ثم هرب الدويش بعد ذلك إلى العراق[١٣] .

وقد استمر الدويش فى العداء ، حيث تآمر مع محمد بن معمر ، للقبض على مشارى بن سعود ، الذى حاول إقامة دولة نجدية جديدة عقب سقوط الدولة السعودية الأولى ، واتفق الدويش مع القوات الغازية لضبط تلك النواحى من نجد بعد سقوط الدرعية ، وأظهر صداقتهم[١٤] كما أرسل رسالة إلى محمد على باشا يخبره فيها أنه مقيم على الطاعة ، مداوم على الدعاء لهم هو وعشائره والبدو ، ويشكره على إرسال حسين بك ، وحسن تنظيمه ، وتعيينه محافظا للمدينة[١٥] . على أن هناك من أشار إلى أن الدويش شارك بعربانه إلى جانب القوات الغازية ، مما أدى إلى انكماش القوات السعودية ، وتحصنها فى بلدتى الرس وعنيزة[١٦] . ومن هنا فإن الموقف السلبى من بعض عناصر المجتمع النجدى كان له أثر واضح فيما تحقق للقوات الغازية من نصر . يقول أحد المصادر : " ولا والله تغلب عليهم صاحب مصر عن ضعف منهم أجمع ، بل خيانة من العربان ومن ساكنى البلدان "[١٧] .

ومما يدعم هذا الرأى المتعلق بردود أفعال بعض عناصر المجتمع النجدى من عمليات التأديب التى قام بها الإمام عبد الله بن سعود أنه أثر طاعة بلدتى رياض الخبرا والبكيرية لطوسون باشا ، قام الإمام عبد الله بهدم سور الخبراء ، وسور البكيرية ، عقوبة لهما على تخاذلهما ، واستدعائهما جيش طوسون باشا . والسماح له بدخول بلديهما . ولعل الإمام عبد الله كان يهدف إلى عدم تكرار هذا الموقف مرة أخرى[١٨] وكان الإمام قد جهز جيشا قبل

ذلك أغار به على بعض عربان منطقة القصيم وأغلبهم من قبيلة مطير ، وأخذ مواشيهم(١٩) وقام أيضا بقطع نخيل بعض بلدان المنطقة ، و[illegible]ها الرويضة ، وقضى على أغالب زروعها . كما أغار الإمام على بعض بوادى مطير وحرب [illegible] مكان يقال له البصيرى ، وأخذ أمتعتهم وأغنامهم(٢٠) وخلال هذه الغارات أمسك الإمام [illegible] الله ثلاثة رجال من أهل الرس ، وعاد بهم إلى الدرعية(٢١) . وذلك رغبة منه فى تأديبهم لئلا ينكثوا العهد مرة أخرى(٢٢) . مما أدى إلى تجدد القتال مرة أخرى . إذ بعد هذه الحوادث نقض محمد باشا الصلح المعقود بين ابنه طوسون ، وبين الإمام عبد الله بن سعود ، بعد أن ركب رجال من أهل القصيم إلى مصر من البادية والحضر . وحرضوه على استئناف القتال ، فبادر إلى تجهيز عساكره إلى نجد مع ابنه إبراهيم ، وحاول الأمير عبد الله أن يثنى محمد على باشا عن نيته ، فأرسل إليه حسن بن مزروع وعبد الله بن عون بهدايا ومراسلات ، إلا أنهما وجداه قد تغير(٢٣) . ثم تتابعت المراسلات بين أعوان محمد على ، تحثه على الانتقام من أهل نجد ، وأنهم من أجلاف العرب ، وأمزجتهم تميل إلى الانتقام فى أوقات الفوضى ، وتذكر بعاداتهم وأخلاقهم حينما أرادوا الهدنة(٢٤) .

وقد كان للعناصر التى أجلاها الإمام سعود بن عبد العزيز قبل ذلك إلى البصرة والزبير أثر فى دعم قوة الباشا أثناء حرب الدرعية ، حيث قدمت تلك العناصر إليه ، وأمدته بحاجته من المال والطعام وغيرهما(٢٥) .

ثالثا : أثر استراتيجية الإمام عبد الله بن سعود ، الدفاعية فى إحداث نوع من الخلل فى بعض البلدان النجدية ، ومن المؤكد أن هذه الإستراتيجية أثرت تأثيرا سيئا حتى على من وقف موقفا إيجابيا ، فضلا عن من وقف موقفا سلبيا ، و من الواضح أن الإمام عبد الله بن سعود كان يعتقد أن ميدان المعركة الحاسمة سيكون فى الدرعية ، ولذا وضع اهتمامه واستعداده فيها ، ولم تكن مساعدته للبلدان الواقعة فى طريق إبراهيم باشا إلى الدرعية إلا لمجرد تأخيره حتى يستكمل استعداداته الدفاعية . ولم يوفق الإمام عبد الله بن سعود فى صرف قواه إلى الدفاع عن الدرعية ، بل كان يجب عليه الابتعاد عن هذه الاستراتيجية نظرا لتفوق إبراهيم باشا فى سلاح المدفعية ونحوه وكان يجب الانسحاب أمامه ، ثم مهاجمته كلما سنحت الفرصة له هجوما خاطفا حتى إذا جاءت الظروف المناسبة ضربه ضربة قاصمة . واستعاد البلدان التى فقدها أو جلا عنها(٢٦) . كما كان من الأجدى للإمام أن يهاجم مؤخرة الجيش الغازى ،

وينهكه فى حرب الصحراء ، بدلا من أن يحصر نفسه فى القلاع والمدن ، حيث لا مجال لتحقيق رغبات البدو في متابعة الغزو ، وهو الأسلوب الذى تحدثنا عنه سابقا[٢٧] . كما أن الأمام من خلال هذا الأسلوب لم يستطع دعم البلدان النجدية المحاصرة دعما مباشرا ، ولذا لم تستطع الصمود أمام قوات الغزاة فتساقطت الواحدة تلو الأخرى . وربما كان الإمام يهدف من وراء هذا الأسلوب الذى سار عليه إلى تحقيق هدفين ، الأول أن أهل بلده أقدر على الدفاع عن بلدهم من غيرهم ، الثانى إنهاك الجيش الغازى حتى إذا ما وصل إلى الدرعية كان قد بلغ مرحلة متقدمة من الإعياء ، فيقضى عليه بعد استكمال تحصينات الدرعية ، إلا أن إبراهيم كان لديه جيش قوى يهاجم به كل بلدة نجدية على حدة ، فلا تستطيع مقاومته ، فتضطر إلى مصالحته وطلب الأمان منه. ثم من ناحية أخرى كانت الإمدادات تتواصل سواء من مصر أو من بعض العناصر النجدية المؤيدة له لسبب أو لآخر حتى وصل إلى الدرعية وكان قد أكمل استعداده ، فحقق مراده .

الوسائل التى استخدمتها القوات الغازية لاستمالة الأهالى فى نجد

استخدمت القوات الغازية مختلف الوسائل لاستمالة الأهالى فى نجد لصالحها ، الأمر الذى سيكون له أثر واضح فى ضعف الجبهة الداخلية مما يمهد لهزيمة قوات الدولة السعودية الأولى المدافعة عن بلادها وشعبها وعقيدتها . وقد استغرقت تلك المحاولة قرابة ستة أشهر كاملة ، فتارة تتخذ شكل توطيد النفوذ بين العربان وكسب ودهم ، حتى تمكنت من خلال هذا الأسلوب من تطعيم جيوشها برجال العشائر المحلية تطعيما قويا ، جذب إلى القوات الغازية أكبر عدد من القبائل البدوية[٢٨] . وقد أشارت الوثائق التركية إلى دخول بعض عناصر إقليم القصيم ، وبعض عناصر قبيلتى مطير وعتيبة ، وبعض العناصر من قبائل أخرى متفرقة عن طريق محاربة بعضهم ، وتخويف البعض الآخر منهم ، وذلك بإرسال فرسان كثيرة إلى تلك القرى[٢٩]. وتشير بعض المصادر الأجنبية إلى أن طوسون باشا عندما وصل إلى القصيم لحق به الرس حلفاؤه السياسيون من أهالى الإقليم دون إشارة إلى نوعية هؤلاء الحلفاء ، واصفة إياهم بالفرسان الذين طلبوا منه التقدم ، كما تصف حجيلان بن حمد أمير بريدة ، وأقوى رجل فى الإقليم بأنه كان مخلصا فى إرتباطه مع حكومة الدرعية ، ولم يشترك فى هذه المؤامرة ، بل جهز قواته واستعد للحرب فى بريدة[٣٠] . على أنه كان للرشاوى أثر واضح فى إخلاص المؤيدين والمتحالفين مع طوسون ، نتيجة إغداقه عليهم الذهب المصرى فى قرى القصيم

المختلفة حتى تمكن فى خلال فترة وجيزة من الاستيلاء على بلدة الرس ، ولم يقتصر هذا على بدو الإقليم ، بل أن حضر بعض القرى ، قد أدوا دورا مشابها لدور البدو فى مساعدة طوسون والانضمام إليه ، حتى بدا وكأنه سوف يخضع الإقليم فى فترة قصيرة ، إلا أن الأمام عبد الله استدعى اتباعه المخلصين من جميع الجهات وقام بعملية تأديب لمن كان يرغب فى الانضمام للجيش الغازى ، واحتل مخيما بين المذنب وعنيزة ، كان طوسون ينوى مهاجمته ، لكن نقص الإمدادات والمؤن والذخائر اضطره للتراجع إلى الرس ، وتعقبه الإمام عبد الله وضايق قواته فى موضع بين الرس وعنيزة ، يقال له الحجناوى ، ولذا أدرك طوسون ضرورة عرض صلح على الأمام عبد الله[٣١] . مما يشير إلى أن طوسون هو البادى فى طلب الصلح ، فى حين تشير الوثائق المصرية إلى أن أنجال سعود - دون ذكر أسمائهم - هم الذين طلبوا العفو والأمان بعد رؤيتهم قوات الباشا ، وأنهم سوف يكتفون بالجهات التابعة للدرعية[٣٢] . كما تشير الوثائق إلى أن طوسون أخذ رهائن اثنين من الرجال المعتبرين بهدف إنفاذ الشروط التى قطعت عليهم وإبعاد الرهينتين لدى والى مصر ، على أن يعادا فى كل عام بعد إحضار غيرهما[٣٣] . وفى مكاتبة أخرى إشارة إلى أن طوسون قد وافق على طلب الصلح مضطرا ، وذلك بسبب نقص الذخيرة[٣٤] .

هذا وقد ندم بعض أهالى الرس على طاعتهم للجيش الغازى ، وانحاز عدد منهم إلى الشنانة[٣٥] . على أن طاعة بعض عناصر القبائل للقوات الغازية كان خوفا منها ومن بطشها ومن قسوة العمليات الحربية ، خاصة وإنها رأت ضعف نفوذ الدولة السعودية[٣٦] ومن الواضح أن القوات الغازية لجأت إلى استخدام هذا الأسلوب ، بعد فشلها فى استخدام أسلوب اللين ، واستطاع بهذا الأسلوب هزيمة عربان حرب ومطير وتأديبهم وإخضاعهم لسيطرته[٣٧] وكان إدخال الرعب فى نفوسهم عن طريق استعراض القوة من خلال المناورات العسكرية التى قام بها الجيش الغازى بعد وصوله ، ولذا أسرعت بعض عناصر القبائل إلى التهافت على معسكره - خاصة القبائل المجاورة - معلنة ولاءها لحكم محمد على[٣٨] . ومن الوسائل المستخدمة أيضا ، استغلال الخلافات القائمة بين بعض القبائل النجدية ، والبعض الأخر ، مثل الحرب القائمة بن قبيلتى حرب ومطير والتى نتج عنها استغلال القوات الغازية لها ، حيث أخذت من القبيلتين المذكورتين ٧٠٠ جمل وخمسة آلاف رأس من الأغنام ، مما أدى إلى تدعيم القوات الغازية ، وإضعاف القوات المدافعة الأمر الذى أجبر بعض عناصر القبائل على

الانضمام للقوات الغازية[٣٩] . واضطرت بعض عناصر القبائل بعد تلك الأعمال إلى الفرار مستغلة إنهاك الجيش الغازى ، وعدم قدرة حيواناته على المسير فعاد إلى معسكره مرة أخرى ولا شك أن إبراهيم باشا حقق أهدافا كثيرة ، حيث خوف الكثير من القبائل مما أدى إلى قدومهم إليه فى معسكره ، وقد رفع كشف إلى والده ، يبين فيه أسماء العربان ومشايخهم الذين حضروا إلى طرفهم كما أكد إبراهيم لوالده[٤٠] .

ومن الوسائل المستخدمة إغراء بعض العناصر عن طريق استمرار الغزوات وبالتالى استمرار الكسب وهو أسلوب ينسجم مع عادات بعض القبائل ، ولذا ومن خلال استمرار الغزوات ، حقق الجيش الغازى الكثير من الانتصارات ، والغنائم التى أسرت العربان الذين انضموا إليه فقد أخذوا حصتهم من الغنائم أغناما وإبلا ، كما ألبس إبراهيم باشا بعض عربان الأطراف الخلع ، واستقر أكثرهم فى الحناكية - إحدى قرى إقليم القصيم - حيث استفاد منهم الجيش الغازى فى غزواته اللاحقة[٤١] .

وتبعا لهذا الأسلوب ، استمر الولاء من القبائل لإبراهيم باشا ، وبخاصة بعض عناصر قبائل حرب ومطير وعتيبة ووضعوا ما يملكون من وسائل فى خدمة الجيش الغازى ، وقد أكد إبراهيم لوالده أنه لم يحصل من هذه العناصر أى تقصير في نقل الأذخار والعتاد[٤٢] .

ومن الوسائل التى استخدمتها القوات الغازية لاستمالة عناصر المجتمع النجدى إليها تقديم الهدايا والخلع ، مثل الشال الكشميرى من الجوخ والبالغ عددها ٥٠٠ شال يقدر ثمنها ١٢٥٠٠٠ قرشا وكذلك الجبب الخفيفة من الجوخ والبالغ عددها ٥٠٠ جبه ، ويقدر ثمنها ٤٠٠٠٠ قرش وكذلك الفرجيات المخصصة للركوب لجلب العربان وعددها ٥٠٠ بنش ، بسعر يقدر ٢٠٠٠٠ قرشا ، وكذلك فراء السمور المخصصة لاستمالة كبار الرجال وشيوخ القبائل وعددها ١٠ فراء سمور ، وثمنها ١٥٠٠ قرش ، وكذلك الجبب الخفيفة من الجوخ والفرجية لمشايخ القبائل والعلماء والخطباء ، وعددها ١٥٠ كراكة ، بثمن ٧٥٠٠ قرشا ، وكذلك سرج الفرس والبالغ عددها ٥ ، وسعرها ١٥٠٠٠ قرشا . وهذا يؤكد التخطيط المسبق لاستخدام وسائل الاستمالة لتسهيل مهمة القوات الغازية فى نجد[٤٣] .

وقد أوضحت المراسلات بين القوات الغازية ووالى مصر حاجة القوات الغازية للإنسان والحيوان لأنها تتعرض باستمرار للإغارة من قبل القوات المرافقة ، وبالتالى فإن الأعراب التابعين للقوات الغازية يحتاجون العون والمساعدة ، وإذا لم يقدم لهم مساعدة ، فإن هذا ليس فى مصلحة القوات الغازية[٤٤] .

ومن وسائل القوات الغازية فى كسب ولاء بعض العناصر المحلية ، الإغداق الواسع عليهم، ودفع رواتب منتظمة لبعضهم ، وتقديم الهدايا والرشاوى للبعض الآخر[٤٥] وذلك بهدف جعلهم يدا واحدة قوية ضد القوات المدافعة فى محاولة لإضعاف الدولة السعودية عن طريق إغراء القبائل بعدم الوقوف مع قيادتها أو دعمها بأية لوازم ، ومعدات تستفيد منها خلال الحرب وقد أدت تلك السياسة إلى إقناع ثمانية عشر من رؤساء القبائل ، ومشايخ العشائر أخذوا عائلاتهم ، وابتعدوا عن قادة الدرعية ، حيث تركوا نجدا وقبلوا اللجوء والاحتماء كدخلاء وبدأوا الاستعداد للحرب بالنفس والمال بعد أن قدمت لهم إغراءات متعددة ، ولذا رغبوا فى تقديم العون والمساعدة وقاموا بمهمة خدمة القوات الغازية فى مجالات متعددة ، وكان مكمن الخطورة فى هذا الجانب بالنسبة لحكومة الدرعية أنه كان لهؤلاء بعض القرابات فى عشائر نجد مما جعلهم يؤثرون على هؤلاء الآخرين ، حيث تعهدوا لهم أن لا يقوموا بأى عمل ضد جيش السلطان ، وعندما أفرج عن الذين تم القبض عليهم من هذه العشائر تبعوا الجيش الغازى لتقديم ما يمكن تقديمه من مساعدة ، وأعلنوا تخليهم عن مساعدة وتأييد قادة الدولة السعودية الأولى . وبهذا الأسلوب انضم حوالى نصف العشائر الموجودة فى نجد[٤٦] وتؤيد المصادر المحلية أثر هذا الأسلوب فى النتائج المترتبة عليه ، حيث تشير إلى أن القبائل الرحل والقوافل ، جاءت إلى إبراهيم - وهو بالدرعية - من البصرة والزبير من أهل نجد الذين لجأوا إلى تلك المناطق ، مما كان له أثر بارز فى دعم الجيش الغازى وإضعاف القوات المدافعة عن البلاد السعودية[٤٧] .

الخدمات التى قدمتها العناصر الموالية للقوات الغازية

مما لاشك فيه أن العناصر الموالية قدمت خدمات كبيرة لها إذ تشير المصادر ، إلى أنه بعد تجدد الاشتباكات بين قوات إبراهيم باشا ، الذى خلف أخاه طوسون فى هذه الحرب ، وبين جيش الإمام عبد الله بن سعود لقى جيش إبراهيم مساعدة من بعض العناصر المحلية ، وربما كان لإمعان الإمام عبد الله بن سعود فى تأديب العناصر التى ساعدت جيش طوسون من قبل أثر فى دعمهم ومساعدتهم من جديد لجيش إبراهيم باشا ، إذ تشير المصادر إلى أن القوة التى أرسلت إلى جبل ماوية[٤٨] قد جاءت بناء على طلب قبائل البدو لهذه القوات ، ولذا انتهت هذه المعركة لصالح قواتَ المعتدين[٤٩] مما يعنى كثرة المنضمين إلى جيش الباشا ، حيث تشير إحدى المكاتبات إلى محمد على انضمام خمسة أو عشرة آلاف من قبائل البدو لقوات الباشا ،

والى تناقص القوات الموجودة مع الإمام عبد الله بن سعود فقد أشارت الرسالة إلى أن من بقى من العربان مع جيش الإمام عبد الله بن سعود هم ابن ربيعان من قبيلة عتيبة ، وقلة من أفراد قبيلة مطير (٥٠) .

ومن الخدمات التى قدمت للقوات الغازية ، بيع واستئجار الإبل ، وهو أمر ساعد القوات الغازية فى نقل الأسلحة والذخيرة والتموين ، حيث تؤكد المراسلات أنه فى حالة ارتفاع أسعار الإبل عن طريق الشراء ، فسوف يتم تأمينها عن طريق الاستئجار من القبائل ، ليكون ذلك أنسب وألوى ، علما أن القوات الغازية تؤكد أن القبائل لن تمانع فى ذلك(٥١) كما قدمت العناصر الموالية للقوات الغازية تسهيلات لبيع الأعلاف والشعير لتغذية الحيوانات(٥٢) . وقامت بعض العناصر بدعم جيش الباشا بالذخائر والمهمات الأخرى . وقد أكد إبراهيم باشا فى إحدى رسائله " أن الذين منحو الأمان من أهالى الإقليم قائمون بدعم جيشه بالذخائر والمهمات الأخرى مثل إعطاء الشعير"(٥٣) . وقد أشار إبراهيم باشا فى إحدى رسائله لوالده أن إقامته فى أحد الأقاليم مكنه من شراء ذخائر من أهالى الإقليم تكفى لمدة خمسة وعشرين يوما(٥٤) وكان لانضمام بعض الأفراد إلى قوات الباشا خلال حصار الدرعية أثرا بارزا فى تقوية جيش الباشا ، وما أصاب أهل الدرعية من كآبة ووهن خاصة وأن هذا الموقف أدى إلى نقل معلومات مهمة إلى الباشا ، تتعلق بمعرفة نقاط القوة والضعف فى تحصينات الدرعية ، وهذا جانب هام استفاد منه الباشا بدرجة كبيرة (٥٥).

ولعل القوات الغازية ، استفادت أيضا من بعض العناصر المؤيدة فى مسألة التجسس والإدلاء لمعرفة الطرق والمسالك ، وخاصة فى الغزوات اللاحقة للاستيلاء على إقليم القصيم(٥٦) كما استفاد إبراهيم باشا بعض الأخبار عن الإمام عبد الله بن سعود ، بواسطة بعض الجمالة الذين تواردوا إلى هذه الأطراف ، مما وفر خدمة جليلة لقوات الباشا فى نجد(٥٧) وهكذا فقد استفادت القوات الغازية من الموقف السلبى لبعض العناصر المحلية فى التأييد له والانضمام إلى قوته ، وبيع الذخائر والمؤمن له ، واستئجار الإبل أو بيعها ، والتجسس لمعرفة الطرق والمسالك بواسطة الإدلاء ، ومعرفة نقاط الضعف فى الجبهة الداخلية ، وتلك أمور ساعدت – دون شك – الجيش الغازى فى تحقيق تقدم مهم فى حربه مع الدولة السعودية الأولى ، وكان يمكن حرمان القوات الغازية من هذه المميزات ، لو صمد هؤلاء إلى جانب قيادتهم وجيشهم .

طبيعة الموقف المؤيد للقوات السعودية

على الرغم من أن هذا الموقف هو الموقف الطبيعي الذي وقفه أهل نجد تجاه عقيدتهم وبلادهم وقيادتهم ، وليس مهمة هذا البحث التركيز عليه ، إلا أنه كان لابد من الإشارة إلى بعض المواقف البطولية التي أبداها النجديون ، وفقا لظروفهم وإمكاناتهم العسكرية وذلك من خلال المعلومات المستخلصة من الرسائل المتبادلة بين القوات الغازية في نجد ووالي مصر محمد على باشا ، وبينه وبين السلطان العثماني . فقد صمد النجديون للجيش الغازي ، وبذلوا ما يستطيعون من جهد وتضحية ، ولكنهم كانوا يواجهون الجيش الغازي بقوات محدودة لا توازي قوة الجيش الغازي في العدة والخبرة والاستعداد ، ونوعية الأسلحة . ففي حوالي ٢٥ رجب من عام ١٢٣٢ هـ ، الموافق ١٨١٦ م . قام إبراهيم باشا بغزوة توجه بها نحو جبل شمر، شمالي نجد ، دون أن يعلم به أحد ، وعند وصوله داهم الجبل وحقق الكثير من الغنائم ، شملت وفرة من الحيوانات ، كما ساق بعض أولاد الأهالي في الجبل وبناتهم أسرى ، ثم عاد إلى ماوية[٥٨] .

بدأ إبراهيم باشا حصار قلعة الرس في اليوم الخامس والعشرين من شهر شعبان من عام١٢٣٢ هـ ، الموافق ١٨١٦ م ، وقد دهش إبراهيم لمتانة قلعة الرس ، وكثرة عدد من فيها من أتباع الدرعية ، كما أدهشه وقوفهم في وجه قواته بعد زحفه على القلعة ، إذ يقول : "كان جميع المحصورين الذين يؤلفون عددا كبيرا من أتباع الإمام عبد الله بن سعود في المحل الذي جرى الزحف عليه فمنعوا جنود الباشا برصاص البنادق وهلك عدد كبير من العساكر" ولذا لم يوفق في فتح القلعة المذكورة في هذه المحاولة . وعلى الرغم من الجهد الذي بذله ، لكنه لم يفلح ، ودخلت قواته في المتاريس نتيجة لضربهم من المحاصرين في القلعة ، تؤكد المراسلات أن عدد القتلى والجرحى من قوات الباشا خمسمائة نفر ، كما جرح عدد من الضباط ذوي الرتب العسكرية المختلفة ، مما جعل إبراهيم باشا قلقا كثير الهم والحزن[٥٩] . ونتيجة لذلك بدأ إبراهيم باشا يتصرف بعصبية زائدة ، حيث باشر التنكيل بقوات الرس المحاصرة ، وضيق نطاق الحصر عليهم بكل ما يستطيع ، مما دفعهم إلى طلب الأمان بعد أن يأسوا من النجاة فأعطاهم الأمان ، الذي كان مشروطا من قبل أهل الرس . وقد أعدم ثلاثة رجال من رؤسائهم وتم له ضبط القلعة المذكورة [٦٠].

وتؤكد المصادر المحلية ، أن سبب طلب الأمان من قبل أهل الرس هو فشلهم فى الحصول على المزيد من القوات من قبل الإمام عبد الله بن سعود ، بعد أن أرسلوا إليه – خلال إقامته فى عنيزة – طالبين منه أن يقف إلى جانبهم ضد الجيش الغازى ويدعمهم أو يأذن لهم بالمصالحة معه .

ومن هنا وقعت المصالحة بين الطرفين المتحاربين بعد وصول المزيد من الإمدادات لجيش إبراهيم(٦١) . وكان فشله فى المحاولة الأولى ، وإرساله لوالده وصفا لمناعة قلعة الرس وضخامة القوات التى يتطلبها إخضاعها ، ولذا طلب المزيد من القوات والذخائر ، بعد فشل ١٢٠٠ من مشاته فى الاستيلاء على القلعة ، فطلب المزيد من المشاة والألغام والخبراء بها ، وقد ذكر فى وصفه للقلعة " إننى أعجز عن الإفادة فى وصف هذه القلعة المعندة ، وعندما استولى عليها سوف أرسل صورتها لسيدى "(٦٢) كما تؤكد المكاتبات ما أبداه المحاصرون فى قلعة الرس من شجاعة نادرة ، فقد أمطروا الجنود الذين توزعوا فى الخنادق ، واتجهوا نحو القلعة بوابل من الرصاص حتى صدوا الجنود عنها مما أدى إلى فشلهم فى الاستيلاء عليها . ونظرا لمناعة القلعة المذكورة ، وكثرة من فيها ، فقد امتدت أيام محاصرتها على الرغم من أهميتها لدى إبراهيم ، لاعتباره إياها بمثابة القفل للدرعية ، وقد قتل خلق كثير(٦٣) . إذ قدرت المصادر المحلية القتلى من أهل الرس بسبعين رجلا ، ومن الجيش الغازى أكثر من ستمائة رجل(٦٤) . ولم يتمكن إبراهيم من تسخير قلعة الرس إلا بعد أن أنشأ برجا جديدا فى مواجهة القلعة ، وأعدم ثلاثة من قادتهم كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وقد صمدوا – رغم المخاطر – حتى لم يبق لديهم استطاعة على الصمود ، ولذا كان لابد لهم من طلب الأمان(٦٥) .

بعد استلام الرس ، رحل الإمام عبد الله بن سعود من عنيزة إلى بريدة – قاعدة إقليم القصيم التى يوجد بها أقوى أعوانه حجيلان بن حمد ، وتمتاز بمناعة قلعتها ، عند ذلك وصل إبراهيم باشا إلى عنيزة ، وبدأ حصار قلعتها ، وضيق عليهم ، لمدة يومين وليلتين حتى لم يستطيعوا المقاومة فاستأمنوا ، وارتبطوا برهن قوي ، بعد أن اغتنمت مدافعهم وذخائرهم الحربية(٦٦) .

وتشير بعض المصادر إلى الدوافع التى بموجبها استسلمت حامية عنيزة ، وهى تفجر مستودعات الذخيرة ، بعد أن وقعت رصاصة من أحدى القذائف فدخلت فيها ، على الرغم من

أنهـا كـانت فى مكان أمين(٦٧) . ونتيجة لهذا طلب المرابطون فى قصر عنيزة الأمان على دمائهم وأموالهم وأملاكهم على الرغم من أن الإمـام عبد الله بن سعود اجتهد فى تنظيم المدافعين عن عنيزة وباللات فى قصرها(٦٨) ولعل الإمام رحل عن عنيزة بعد أن خسر بعض القوات التى أرسلها نحو جنود أرسلهم الباشا لجلب أعلاف للحيوانات من بلدة الخبرا القريبة من هناك وتبعد عن الرس ٦ ساعات ، وسلطهم على الجمال التى تحمل الأعلاف مما أدى إلى هزيمتهم بعد انضمام الباشا إليهم ، وقد خسرت قوات الإمام فى هذه المواجهة حوالى ١٨٠ قتيلا(٦٩) . وقد استخدم الباشا أثناء حصار قصر عنيزة المدافع والقنابل حتى مال من بداخله إلى طلب الأمان(٧٠) .

وفى محرم من عام ١٢٣٣ هـ ، الموافق ١٨١٧ م تحركت القوات الغازية من عنيزة إلى بريدة ، وكان قسم من اتباع الإمام عبد الله بن سعود داخل الأبراج الواقعة فى جهات البساتين المحيطة بالبلدة من الجهات الأربع ، وقد أرادت هذه القوات أن تمنع الجيش الغازى من النزول بالقرب من البلدة ، وبدأوا بالحرب ، ثم هدمت أثناء ذلك أربعة من الأبراج بالمدافع حتى أصبحوا هدفا للهجوم ، وقتل وأعدم منهم خمسين رجلا ، ولذا طلب الذين بالأبراج الأخرى الأمان ، فوافق الجيش الغازى على إعطائهم الأمان بعد أن أخذ أسلحتهم ، ثم اقترب الجيش من البلدة وحاصرها ، وبعد ضربها بالقنابل يوما وليلة التمس الأمير حجيلان بن حمد الأمان ، وأعطى الأمان له ولأهالى البلدة وسلموا بعض المدافع والمهمات الأخرى(٧١) . وعلى الرغم من أنه كان باستطاعة إبراهيم باشا . احتلال بريدة حربا والقبض على حجيلان بن حمد حيا ، إلا أنه ذلك تم بناء على تقدير الباشا لأمور منها أن صرف المهمات فى سبيل الأصعب ، وهى الدرعية أولى من صرفها فى حرب بريدة التى قد يستغرق احتلالها مدة خمسة عشر يوما ، كما سوف تؤدى إلى استهلاك ذخائر كثيرة من قنابل المدافع ، كما رأى الباشا أن من المصلحة كسب ود بعض أتباع الإمام فى إقليم القصيم عن طريق رد ما أخذه الإمام ، عندما قام بعملية تأديب بعض أهالى الإقليم قبل ذلك إلى أصحابه وكان الهدف من ذلك زرع الاختلاف بين الإمام عبد الله بن سعود وبين أتباعه فى هذا الإقليم حتى يتقوى الباشا بهم من جهة ، ويضعف الإمام من جهة أخرى وتأسيسا على أن إبراهيم أعطى الأمان لأمير البلدة والمحاربين معه فقد منح الأمان لبقية أهالى الإقليم الذين كانوا لا يخالفون رأى وتدبير أمير بريدة ، نظرا لتبعيتها له ، وقد حقق أسلوب الباشا فى كسب ود أتباع الإمام بعض النتائج ، إذ اعتبروا رده للنخل الذى أخذه الإمام منهم نوعا من العدالة ، ومن هنا يؤكد إبراهيم باشا استمرار

تأييد أهالي الإقليم له ، وعدم مفارقتهم له ، ودعم جيشه بما يحتاج إليه من المهمات والذخائر الأخرى ، علما بأن بعض هؤلاء أطاعوا بسبب الخوف من قوات الباشا والتي استخدمت القوة من خلال تفوق المدفعية[٧٢] . وقد عمل إبراهيم حسابا جادا لطول المسافة بين القصيم والدرعية ، وحاجته للقنابل والعتاد ، ومن هنا تصرف بهذا الأسلوب السابق ، كما أراحه تبعية بلدان إقليم القصيم له[٧٣] . على أن إبراهيم استغرق بعض الوقت في إقليم القصيم ، لكنه علل أسباب ذلك إلى عدم وجود ذخائر عنده وإلى طول الوقت الذي تستغرقه قافلة الإمدادات من المدينة المنورة إليه ، حيث ذكر أنها بحاجة إلى مدة ثلاثين يوما ، وأن إقامته مكنته من شراء ذخائر من أهالي الإقليم ، تكفى لمدة خمسة وعشرين يوما ، وقد حدد تاريخ سفره من بريدة إلى شقراء إحدى أهم بلدان الوشم بعد خمسة أيام من تاريخ هذه المكاتبة[٧٤] .

وصل إبراهيم باشا إلى شقراء ، وبدأ حصار قلعتها في اليوم الحادي عشر من شهر ربيع الأول عا م ١٢٣٣ هـ ، وتمكن من الهجوم على سورها الخارجي وأبراجها ، وقتل وهزيمة مقدار من القوات الموجودة بداخلها ، وفي اليوم الذي يليه شدد الحصار ، وبعد ضرب القلعة ثلاثة أيام مع لياليها بالمدافع والقنابل والبنادق ، أدرك من فيها أنهم لا خلاص لهم ، عندئذ طلبوا الأمان والعفو ، كما حضر عدد من الرجال من مشايخهم ، حيث أعطوا الأمان ، وأخذ منهم خمسة مدافع ، وقد بلغ من أعطوا الأمان أربعمائة رجل ، وأطلق سراحهم بعد أخذ سيوفهم وبنادقهم وسائر أسلحتهم[٧٥] . كما أعدم عدد منهم ، وقد استمر القذف والرمى ثلاثة أيام ، وثلاث ليال ، حتى تهدم شطر السور ، وكشف البيوت التي خلفه . وقد اشترط عليهم إبراهيم أن يبيعوا لجنوده ما عندهم من ذخائر وميرة ، ووفد عليه - وهو هناك - جميع شيوخ قرى إقليم سدير طالبين ومبدين استعدادهم لإبراهيم ، وإذا توقع إبراهيم أن لا تواجه قواته قتالا في غير الدرعية[٧٦] . وقد سقط خلال حصار شقراء عدد كبير من مشاة قوات الباشا[٧٧] . وهذا يؤكد حصول مقاومة من المدافعين عن شقراء . وقد بذل في الدفاع عن شقراء أعمال كبيرة من قبل أميرها حمد بن يحيى بن غيهب ، حيث أتم العمل في حفر خندق حول البلدة ، كانوا قد بدأوا به زمن وصول طوسون إلى الرس ، وبعد المصالحة معه تركوا العمل به ، ثم استأنفوا بعد عودة إبراهيم باشا ، حتى جعلوه خندقا عميقا واسعا ، كما بنوا إلى جانبه جدارا من جهة السور ، وقام الأمير كذلك بإلزام الأهالي شراء ما يلزمهم للحصار من الطعام وغيره ، تحسبا لطوله كما أمر أن تقطع عسبان النخيل التي تلي الخندق والقلعة ، وذلك إمعانا في

الاستعداد للحصار المتوقع من إبراهيم وقواته لهذه البلدة الى كانت سندا للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، زعيم الدعوة الإصلاحية والإمام عبد العزيز بن محمد ، ومن بعدهما . ولذا كان ذكر هذه البلدة على لسان الباشا فى مجالسه . وكان لهذا الاستعداد أثره فى حماية البلدة واضطرار الباشا إلى مصالحة أهليها[٧٨] وقد تكون مبررات الباشا فى مصالحة أهل بريدة ، هى المبررات نفسها فى مصالحة شقراء . علما أن الباشا قد قام بعملية تمشيط مع بعض قواته قبل وصول الجيش الغازى إلى هذه البلدة ، وذلك بهدف معرفة كيفية اقتحامها ، لأنه يعرف مدى استعدادها لحربه ، وصدق أهلها فى القتال ، ثم عاد من يومه إلى مقر إقامته ، وكان ذلك يوم ١٦-٣-١٢٣٣ هـ ، وفى اليوم التالى رحل من اشيقر بقواته والإمدادات التى جاءت إليه متجها إلى شقراء حيث نزل أسفل البلد وشمالها ، وخرج أهلها إليه ، فوقع القتال بين الطرفين وسط النخيل وخارجها ونتيجة لكثرة القتلى والجرحى فى جيش الباشا تكاثروا عليه ، وعندما جرح أمير البلدة جرحا شديدا ، اضطروا لدخول البلدة ، وجر الباشا مدافعه وجعلها فوق الجبل الشمالى ، وبدأ يرمى البلدة رميا هائلا ، أرهب ما حوله من القرى والبلدان من أهل إقليم سدير والمحمل وغيرهم ثم أطبق الحصار على أهل البلدة ، وأنزل المدافع والذخائر من الجبل وقربها من السور ، ثم تابع الحرب والرمى حتى قيل أنه رماها فى ليلة واحدة بثلاثمائة حمل من الرصاص والبارود ، ولذا استطاع هدم ما يليه من سورها ، وقطع نخيلها وأهلها ثابتون ، ثم هدم ما يليه من الدور والقصور ، لكن هذه البلدة امتنعت عليه بعد إرادة الله ، نتيجة الاستعداد الكافى والأهمية التى أداها حفر الخندق ، وبعد المجهود الكبير الذى بذله أهالى البلدة فى الدفاع عنها مما أدى إلى استنزاف قواهم ، وكان قد تكرر طلب الصلح من طرف الباشا أكثر من مرة ، وفى يوم الخميس تمت المصالحة بين الطرفين بعد أن خرج الباشا ورجلان من رؤساء أهلها فصالحوه على دمائهم وأموالهم وما احتوت عليه بلادهم[٧٩] .

عزز الإمام عبد الله سعود بلدة ضرمى بقوات كثيرة ، حتى تكون خط دفاع أول عن الدرعية ، ولما ثارت الحرب بين الطرفين ، صمدت قوات البلدة رغم شدة الحرب ، وطلب الباشا مصالحتهم فأبوا فشدد عليهم بالقتال والمدافع حتى هدم سور ، إلا أنهم ثبتوا واستطاعوا بناء ما هدم من السور ، لكنهم فوجئوا بعد ذلك بمن يصرخ ، ويقول : " إن الترك قد خلفوكم فى أهليكم وأولادكم وأموالكم ، ولذا كروا لبلدهم راجعين ، فكرت القوات من خلفهم ، وتلك حيلة لجأ إليها الباشا بعد عجزه عن اقتحام البلدة ، إذ وجه بعض قواته إلى جنوب البلدة ،

الذى يتمركز فيه متعب بن عفيصان ومن معه من أهل الخرج فتعرضوا لنيران المدافع ، ولأن أهالى البلدة كانوا يتمركزون فى الموضع الأول ، وجميع أهل النجدة من أهل البلدة والمرابطين قبالتهم عند السور المهدوم فى وجه المدافع ، ففاجأهم الصارخ من خلفهم بقدوم قوات الباشا من الخلف داخل البلدة فخافوا ولذا كروا راجعين(٨٠) .

ومن هنا تمكن الجيش الغازى من أخذ البلدة عنوة ، واستولى على قلعتها ، وقتل منهم قتلى ، وأمعن إبراهيم باشا فى التمثيل بالقتلى من أهل البلدة ، إذ أرسل آذان ١٥٠٠ قتيل منهم إلى مصر(٨١) .

وصل إبراهيم باشا إلى الدرعية فى غرة جمادى الأولى عام ١٢٣٣ هـ ، الموافق ١٨١٧م ، ونصب خيامه على مسافة ساعة ونصف الساعة من الدرعية ، وتحرك فى اليوم الرابع ، وكانت قوات الدرعية تقف على مسافة نصف الساعة من الدرعية ، وكان الإمام عبد الله بن سعود ، يملك بعض المدافع وقد بدأ بإطلاقها بدون توقف ، ووزع قواته على الجبال ، وأطراف مضيق الدرعية ، وداخل الحدائق كما وضع بعض القوات داخل الأسوار والأبراج ، وقوى متاريسه تقوية جيدة ، بحيث لا تنفذ منها القذائف ، وبعد خمسة أيام هجمت قوات الباشا على المتاريس الواقعة فى الشمال ، فاستولت عليها ، ثم تراجعوا نحو المتاريس الأخرى . ولذا أقامت قوات الباشا المتاريس التى استولت عليها من قوات الدرعية متاريسا وطوابى للمدافع وهجم مشاة الباشا على مشاة قوات الدرعية المتمركزين فى الجبل فى الجهة اليمنى منه فأخرجوهم منه ولذا لجأوا إلى المتاريس القريبة من البلدة ، وهدمت أحد أبراج القلعة ، وجزءا من أسواره بالمدافع ، ثم هجمت قوات الدرعية على متاريس الباشا ، إلا أنهم انهزموا ، ثم أخرج المشاة والفرسان من اليمين والشمال ، وفى مضيق الدرعية ، وهجموا على متاريس وطوابى مدافع قوات الدرعية ، فتمكنت قوات الباشا من دخول الأسوار ، واستولت على المحلات الواقعة فى مسافة رمى مدفع إلى الدرعية ، واستولت قوات الباشا على أربعة مدافع صغيرة ، وقتلت نحو أربعمائة ، كما فر حوالى ألفين(٨٢) . وفى اليوم الخامس من شهر ذى القعدة عام ١٢٣٣ هـ ، استولت قوات الباشا على المتاريس والمدافع التى حوصرت بعد مهاجمتها من جوانبها الأربعة(٨٣) .

وتقدر المصادر غير المحلية ، عدد قوات الإمام عبد الله بن سعود فى الدرعية بأكثر من خمسة آلاف ، كما أن لدى الإمام من المماليك والمدربين ثلاثة آلاف محارب ، وقد أحاط الدرعية بسور وجعلها فى متانة واستحكام ، ودافع أتباع الإمام عن بلادهم ببطولة ، مرجحين

الموت فى سبيل الدفاع عن عاصمتهم ، والوقوف مع زعيمهم بعد أن أشاع الأمن وبسط الاطمئنان(٨٤) . ولعل من أهم عوامل انتصار قوات الباشا فى الدرعية ، كثرة الإمدادات التى وصلت خلال الحرب وكانت وراء استمرار قواته ، على حين أن القوات المحاصرة كانت تضعف مع مرور الوقت . أما قوات إبراهيم فكلما قتل ألف ، جاءت آلاف ، وهكذا ، حيث تتابعت العساكر والمؤن من مصر إلى الدرعية ، وقد استمر حصار الدرعية أكثر من ستة أشهر وقع خلالها الكثير من المعارك ، بالإضافة إلى أن الباشا تقوى برؤساء بعض البلدان النجدية الذين أشاروا عليه أن يبعث إلى أهل النواحى والبلدان ، ويأخذ من كل بلد رجالا يقاتلون معه فى الدرعية ، فبعث إليهم عسكرا ورجالا ممن ساعده ، وأخذوا من كل بلد بعض الرجال وساروا بهم إلى الدرعية ، ولذا ازداد الباشا بهم قوة . كذلك ساهمت العناصر التى أجلاها الإمام سعود بن عبد العزيز قبل ذلك إلى البصرة والزبير فى دعم قوات الباشا فى حرب الدرعية(٨٥) . وربما كان من أسباب أخذ الرجال من بعض بلدان نجد قبل الوصول إلى الدرعية ، ضمانا لعدم ثورة البلدان بعد خروجه منها وتوفير الوقت والجهد والقوات على جيشه انتظارا لمعركة الدرعية الأهم طول فترة الحصار فى انضمام بعض أهالى نجد إلى قوات إبراهيم نتيجة سأمهم ويأسهم ، فكانوا عينا له فى معرفة الطرق والمسالك التى توصله إلى هدفه بسهولة ، ومن جراء هذه المعلومات تمكن من النجاح فى هدم كثير من الحصون والمتاريس فى الدرعية(٨٦) .

ومن خلال موقف الأهالى من الحملات ، برزت بعض المواقف الفردية السلبية ، وكان لها أثر بارز فى تقوية قوات الباشا ، وإضعاف القوات السعودية المدافعة عن بلادها . ومن هذه المواقف الفردية أن الباشا بعد أن أمن أهل شقراء وقرر الرحيل من بلدتهم فى طريقه للدرعية إلا أن رجلا من أهل نجد ممن ساعد الباشا وسار معه ، وشى بهم ، وقال له : أنه ارتحل عدة رجال من أهالى شقراء من أعيانهم وعامتهم إلى الدرعية بهدف نقض العهد الذى أبرموه معك بعد رحيلك عن بلدهم ، فغضب الباشا وقام باتخاذ إجراءات جديدة فى حق أهل شقراء ، إذ دخل البلد بقواته وعساكره وأشعل النار فى المسجد ، ودخل الباشا بيت إبراهيم بن سدحان الواقع جنوب المسجد ، وطلب أمير البلدة حمد بن يحيى - الذى كان جريحا - فجئ به بين رجلين وخاطبه الباشا بكلام غليظ ، كما طلب الشيخ عبد العزيز الحصين - على الرغم من كبر سنه - فجئ به محمولا فأكرمه وقدره ، وناقش مع الأمير والشيخ ما حصل من أهل البلدة ،

وتحدث بعض من حضر بكذب ما قال الواشى ، إلا أن الباشا طلب ورقة الصلح وقرأها ، وكرر قراءتها ، فصدقه الشيخ عبد العزيز ، وطلب العفو منه فوافقه على ذلك إكراما للشيخ ، ثم طلب بيوتا لإخلاء الجرحى فى حرب شقراء ، فاستجابوا له ، وقام بهدم سور البلدة ، ودفن الخندق بعد أن أقام فيها نحو شهر ، ثم ارتحل منها بعد أن أخذ عشرة رجال من رؤساء أهلها(٨٧) .

وتشير بعض المصادر المحلية إلى أن من أسباب الهزيمة في ضرمى خيانة بعض العناصر المحلية ممن تولى قيادة إحدى المجموعات التى دعم بها الإمام عبد الله بن سعود ضرمى مع أهل الخرج(٨٨) . على أن بن بشر أشار إلى أن إبراهيم باشا ، دخل من جهة المجموعة التى أرسلها الإمام عبد الله مع أهل الخرج بالقوة بعد أن رماهم بالمدافع ، وهذا يعنى أنه دخل من ناحيتهم بالقوة لا خيانة منهم(٨٩) . فى أثناء حصار الدرعية حقق الباشا الكثير من النتائج عن طريق هذه المواقف الفردية السلبية ، حيث أشارت بعض المراجع إلى أن إبراهيم باشا بعد أن يأس من سقوط الدرعية ، رشا أحد حراس الأبراج بمائة ألف ريال واستولى على البرج الذى كان يمثل موقعا عاليا من البلدة ، ومنه أطلق مدافعه ، فخربت تخريبا عظيما ، وقتلت خلقا كثيرا(٩٠) ومن أخطر تلك المواقف التى حدثت خلال حرب الدرعية ، انضمام بعض العناصر المهمة فى القوات السعودية إلى قوات الباشا ، كما حصل من قائد الخيالة فى القوات السعودية ،وكان ممن يظن به الصدق مع قوات بلاده والصبر معهم ، ولهذا تقوى الباشا به من جانب ومن جانب آخر أدى خروجه إلى كشف معلومات سرية خطيرة تتعلق بنقاط القوة والضعف فى جانب القوات السعودية المدافعة(٩١) .

الموقف الفردى الإيجابى فى نجد

ومثلما كان هناك بعض المواقف الفردية السلبية ، لبعض الأفراد فى المجتمع النجدي ، كان هناك بعض المواقف الفردية الإيجابية ، التى حفظ التاريخ لأهلها تلك المواقف البطولية فى الدفاع عن بلادهم بكل ما يستطيعون ، وكانوا أكثر من غيرهم فى مواجهة تلك الحملات . من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر ، أمير الرس منصور العساف الذى كان من الشجعان البواسل ، قاوم مع غيره من أهل الرس إبراهيم باشا مقاومة شديدة أثناء حصاره لهم ، ولم يمكنوه من دخول بلدتهم ، وأصيب منصور برصاصة مدفع أدت إلى تعثره ، فنادى مستصرخا " هلموا يا إخوانى من يقوم مقامى وأجره على الله يا عباد الله قاتلوا فى سبيل الله ذودوا عن

محارمكم " فلبى النداء الشجاع المقدام ، قرناس بن عبد الرحمن ، قاضى الرس وقال بأعلى صوته : " من كان يريد الشهادة فليحسر عن ساعديه " وتولى قيادة جيش المقاومة التى استمرت أربعة أشهر إلا عشرة أيام ، حاصرهم إبراهيم باشا من جميع الجهات بقوات لا قبل لهم بها(٩٢) . وقد أشارت بعض المصادر إلى أن من أبرز عوامل انتصار القوات الغازية فى نجد تفوقها فى القوات تدريبا وتسليحا وتنوعا كالمدافع والآلات الحربية والنيران التى لا قبل لهم بها ، وهو أمر يحتاج إلى معارف وعلوم وصناعات وهندسة(٩٣) . وقد وصف معاناة أهل الرس وتلك الأحداث ، الشيخ أحمد بن على بن دعيج من أهل مرات فى أرجوزة له قال فيها :

وشب نار الحرب فوق الرس   ثلث السنة يضربهم بالقبس

وصبروا وصبرهم قربانا   اصبر فى الهيجاء من أبانا(٩٤)

رجال صدق فى اللقا والباس   أعيانهم وشيخهم قرناس

كما سجل الشعر العامى ، مواقف الشيخ قرناس ، يقول البدرى ، شاعر الرس فى وقت قرناس :

يا راكب من عندنا فوق ضمير   يشوق بصبى العين حلو هذيله(٩٥)

تلفى خيام بايسر الحزم شيدت   هذيك خيام العز واحبنى له(٩٦)

إلى أن يقول :

متى الجور (قرناسنا) إلى ما تعايلت   بالأشوار يقصد تابهه مع دليله(٩٧)

وقال آخر :

ليت ربيع على قرناس توحى به   كان يدفع خبر ما يدهل حمانا(٩٨)

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الأسلوب الذى اتبعه إبراهيم باشا فى كسب ولاء بعض العناصر المحلية ، كان الأسلوب نفسه الذى كان متبعا خلال حملات ولاة العراق العثمانى على الدولة السعودية الأولى قبل ذلك بفترة ، وكان من خصائص هذا الأسلوب ، محاولة كسب ولاء بعض العناصر المحيطة بالدرعية ، وبذل المساعى لدى مشايخ القبائل لا بعادهم عن الولاء لزعماء الدولة السعودية الأولى بطرق شتى منها خلع الخلع الثمينة عليهم ، ومن ناحية أخرى محاولة إضعاف الدولة السعودية الأولى عن طريق إغراء القبائل بعدم التعاون مع قيادتها أو

دعمها بأية لوازم ، أو معدات تستفيد منها خلال الحرب ، وقد أدت تلك السياسة إلى إقناع ثمانية عشر من رؤساء القبائل ، ومشايخ العشائر ، أخذوا عائلاتهم ، وابتعدوا عن قادة الدرعية ، حيث تركوا نجدا وقبلوا اللجوء والاحتماء كدخلاء ، وبدءوا الاستعداد للغزو بالنفس والمال بعد أن قدمت لهم إغراءات متعددة ، ولذا رغبوا في تقديم العون والمساعدة ، وقاموا بمهمة الجاسوسية لتحديد الأماكن التي يتوفر فيها الماء ، والمراعي الكافية لاختيار أنسب الطرق لقطع الصحراء إلى نجد ، وكان مكمن الخطورة فى هذا الجانب بالنسبة لحكومة الدرعية أنه كان لهؤلاء بعض القرابات فى عشائر نجد ، مما جعلهم يؤثرون على هؤلاء الأخيرين ، حيث تعهدوا لهم أن لا يقوموا بأى عمل ضد جيش السلطان ، وعندما أفرج عن الذين تم القبض عليهم من هذه العشائر تبعوا الجيش الغازى لتقديم ما يمكن تقديمه من مساعدة ، وأعلنوا تخليهم عن مساعدة وتأييد قادة الدولة السعودية الأولى . وبهذا الأسلوب ، انضم حوالى نصف العشائر الموجودة فى نجد[١٠٠] . ولهذا أيدت المصادر المحلية النتائج المترتبة على هذا الأسلوب عندما أشارت إلى أن القبائل الرحل والقوافل ، جاءت إلى إبراهيم - وهو فى الدرعية - من البصرة والزبير ومن أهل نجد الذين لجأوا إلى تلك المناطق عن طريق هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه ، وبدون شك كان لهؤلاء وأولئك أثر بارز عن طريق هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه ، وبدون شك كان لهؤلاء وأولئك أثر بارز فى دعم الجيش الغازى ، وإضعاف الجيش السعودى[١٠١] .

ونخلص من كل هذا إلى أنه إذا تجاوزنا المعارك التى وقعت بين قوات الدرعية وقوات الباشا سواء فى الدرعية ، أو فى غيرها من البلدان النجدية فإن الغالبية من بلدان نجد ، قاومت الجيش الغازى على قدر استطاعتها ، فأهل الرس على الرغم من موقفهم السلبى خلال حملة طوسون باشا ، إلا أنهم قاوموا بضراوة قوات الجيش الغازى بقيادة إبراهيم باشا ، ولم يكن أمامهم إلا التسليم بعد أن قاموا بمراسلة الإمام عبد الله بن سعود - وهو فى عنيزة - طالبين منه مساعدتهم أو السماح لهم بالمصالحة مع إبراهيم باشا ، وأهل عنيزة ، وبالذات حامية قصر الصفا قاوموا حتى انفجرت مستودعات الذخيرة ، ولذا لم يكن أمامهم إلى طلب الأمان ، أما أهالي شقراء وضرمي فقد قاتلوا قتال الأبطال ، دفاعا عن بلادهم وعقيدتهم وأعراضهم . أما الدرعية فيكفى أن الحصار دام أكثر من ستة أشهر ، وإذا كانت هناك بعض المواقف السلبية من قبل بعض أهالي نجد ، فإنها كانت نتاجا لبعض العوامل والظروف التي

أشرنا إليها فى موضوعها من هذا البحث . ومن الملاحظ أن هذه المواقف إما أنها فردية أو تمثل بعض العناصر التى جبلت طبيعتها على حب الغزو والتبعية لمن يساعد على استمراره أملا فى الحصول على الغنائم وربما كانت تمثل غالبيتها البادية وبالذات بعض العناصر من عربان قبائل حرب ومطير وعتيبة الذين كان لهم أثر فى مساعدة الباشا على الاستيلاء على غالبية بلدان نجد ، وبخاصة بلدان إقليم القصيم حتى اتجه للدرعية . ولعل قوات الجيش الغازى استفادت من دعم المؤيدين بطرق متنوعة ، فهو إما استفاد فى نقل ذخائره عن طريق استئجار الإبل وبعض الدواب الأخرى ، أو استفاد بأن اشترى من بعض العناصر ما يحتاجه من سلاح وغذاء وذخائر أو استفاد من معرفة نقاط القوة والضعف فى تحصينات البلدان النجدية ، أو معرفة الطرق والمسالك عن طريق استئجار بعض الأدلاء ، أو كسب مواقع مهمة فى دفاعات بعض البلدان النجدية نتيجة الخيانة من بعض العناصر . وقد لجأ إبراهيم باشا إلى إعطاء الأمان لبعض أهالى البلدان النجدية ، وأخضعها عن طريقه ، إلا أن ذلك لم يكن حبا فى الأمان بقدر ما كان أملا فى المحافظة على قواته من الذهاب والتلف استعدادا لما ينتظرها فى بلدان نجدية أخرى ، وبالذات فى الدرعية من حصار[١٠٢] . كما لجأ إبراهيم باشا إلى أسلوب آخر ، تمثل فى أخذ رهائن من مشاهير سكان بعض البلدان النجدية ، حتى لا يضطر إلى وضع حاميات فى هذه البلدان ، وبالتالى يضعف جيشه الذى سيحتاجه فى المستقبل من ناحية ، وحتى يضمن عدم ثورة تلك البلدان بعد خروجه منها من ناحية أخرى[١٠٣] .

والواقع أن الحملات التى وجهت على الدولة السعودية الأولى بصفة عامة ، وعلى نجد بصفة خاصة ، قد أعد لها إعدادا هائلا ، من حيث العدة والعتاد ، والمؤن الطبية والأموال الطائلة لرشوة بعض القبائل ، وشراء ضمائر بعض الزعماء ، ورغم ذلك فقد أبدى النجديون مقاومة باسلة ، كانت تفوق الخبرات والإمكانات العسكرية المتاحة لهم ، حيث كان يصحب إبراهيم باشا خبراء وقادة عسكريون ، خبروا الحرب الحديثة ، ومارسوها ، بينما النجديون يحاربون بأسلحة بدائية تقليدية ، مقارنة بأسلحة القوات الغازية ، وقد حققوا نتائج قياسية ، فقد أهلك قرابة اثنى عشر ألفا من رجاله ، عشرة آلاف منهم عند أسوار الدرعية نفسها وبعد حرب ضروس ، استمرت قرابة عامين ، منها سبعة أشهر فى الدرعية وحدها ، وبعد نفاذ كل وسيلة للمقاومة استسلم الإمام عبد الله بن سعود ، مقدما نفسه فداء للعقيدة والوطن والمواطنين[١٠٤] .

ومن العوامل التى سهلت تفوق قوات إبراهيم على قوات الدولة السعودية فى البلدان النجدية ، تعاونه مع بعض الأمراء ، الذين قضت الدولة السعودية الأولى على مالهم من سلطة أمثال زعماء بن خالد فقد ظل هؤلاء سند لإبراهيم باشا ، أملا فى إعادتهم إلى سلطتهم ونفوذهم فى الإحساء على يد إبراهيم باشا ، وهو أمر أثبتت المصادر تنفيذه بعد سقوط الدرعية حيث ظل هؤلاء فى مكاتبتهم مع ولاة العثمانيين ، خوفا من إمكانية نجاح بعض النجديين بعد قيام دولتهم من أخذ الإحساء ولذلك تشير المكاتبات إلى الخوف والخشية على أهالى الإحساء من هذه الجهة ، وتطالب باستمرار الحملات حتى يمكن القضاء على أيه محاولة تقوم فى نجد(١٠٥) . وقد حثهم إبراهيم باشا فى مكاتبة أخرى على الالتزام بتنفيذ بعض الوصايا ، حاثا إياهم على الالتزام بتقديم بعض المساعدات مثل الخيل ، وسرعة إرسال الإبل(١٠٦). من جهتهم فقد أبدى هؤلاء تعاونهم التام مع القوات الغازية ، ووضعو أنفسهم وعشائرهم تحت تصرف ولاة العثمانيين ، وبخاصة والى بغداد (داود باشا)(١٠٧) . مما يؤكد التعاون الوثيق بين زعماء بنى خالد من جهة ، وبين ولاة العثمانيين سواء فى مصر أم العراق من جهة أخرى ضد الدولة السعودية الأولى .

الهوامش

١- عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور) ، الدولة السعودية الأولى ، ط ٣ ، ١٩٧٩ م ، منشورات دار الكتاب الجامعي ٣٤٢/٣٤٥/١ .

٢- العجلاني ، منير ، (دكتور) ، تاريخ البلاد العربية السعودية ، عهدعبد الله بن سعود ، الجزء الأول ، القسم الرابع ص ص ٧٩ ، ٨٠ .

٣- بوركهاردت ، جوهان لودفيج ، مواد لتاريخ الوهابيين ، ترجمة د. عبد الله العثيمين ، ط (٢) ، ١٩٩١م ، ص ١٩٠ .

٤- العجلاني ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، القسم الرابع ، ص ١٣٠ .

٥- ابن بشر ، عثمان بن عبد الله ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ط (٥) ، ١٣٩١ هـ ، طبعة وزارة المعارف ١ / ٢٧٣ .

٦- بوردكهارد ، المصدر السابق ، ص ص ٥٠-٥١ .

٧- العثيمين ، عبد الله بن صالح ، (دكتور) ، تاريخ المملكة العربية السعوديـــــة ، ط ٥ ، ١٩٩٣ م ، ١/ ١٧٨ .

٨- دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظة بحريرا ، محفظة رقم ، وثيقة رقم ٣٨ ، تاريخ ٩ صفر ١٢٣٢هـ ، من إبراهيم باشا إلى والده محمد على باشا .

٩- لوريمر ، ج ج ، دليل الخليج ، ترجمة ديوان سمو ولى العهد فى القطر ، القسم التاريخى ، ٣ / ١٦١٩ .

١٠- مجموعة الوثائق التركية (محفوظة بدارة الملك عبد العزيز) وثيقة رقم ١٩٦٩ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من والى مصر إلى معتمده فى استانبول .

١١- العجلاني ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، القسم الرابع ، ص ص ٧٩-٨٠ .

١٢- Sadler, R.K. Account of A journey from Kateif on the Persian Golf to yanboo the Red Sea, Bomby pp 484, 485, 489.

١٣- العجلاني ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، القسم الرابع ، ص ص ٨١-٨٦-٨٩ .

١٤- دار الوثائق القومية ، محافظ معية تركى رقم ٧ ، وثيقة رقم ٥٠ ، تاريخ ٢٣ / صفر / ١٢٣٦ هـ من والى مصر إلى والده .

١٥- دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظة بحريرا ، محفظة رقم ٨ ، وثيقة رقم ٤٩٨ ، تاريخ ١٦ شوال ١٢٣٧هـ ، من فيصل الدويش إلى محمد على .

١٦- عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ١ / ٣٣٣ ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ٧١ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من محمد نجيب إلى محمد على .

١٧- البسام ، محمد ، الدرر الفاخر فى أخبار العرب الأواخر ، تحقيق سعود بن جمران العجمى ، ط ١ ، ١٩٨١ م ، ص ٤١ .

١٨- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١-٢٥٢ .

١٩- ابن بشر ، المصدر نفسه ، ١ / ٢٥٢ - ٢٤٤ .

٢٠- ابن بشر ، المصدر نفسه ، ١ / ٢٤٩ .

٢١- ابن بشر ، المصدر نفسه ، ١ / ٢٥٢ .

٢٢- عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ١/ ٣٢٩ .

٢٣- ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ١ / ٢٥٢ - ٢٥٣ .

٢٤- دار الوثائق القومية ، محافظة بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ٣٥ ، تاريخ ٦ شوال ١٢٣٠هـ ، من رؤوف إلى الجناب المعالى .

٢٥- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١/ ٢٧٢ .

٢٦- العجلانى ، المرجع السابق ، ٤ / ١١١ ، ١١٢ .

٢٧- كشك محمد جلال ، السعوديون والحل الإسلامى ، ط ٣ ، ١٩٨٢ م ، ص ١٩٦ .

٢٨- عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ١ / ٣٣٢ .

٢٩- دار الوثائق القومية ، محافظة بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ١٤ ، تاريخ ٩ / ٥ / ١٢٣٠هـ من طوسون إلى والده .

٣٠- لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخى ، ٣ / ١٦١٧ .

٣١- أ. موزل ، تاريخ الدولة السعودية ، مجلة العرب ، جـ٤ ، ٣ س ١١ ، رمضان وشوال عام ١٣٩٦ هـ ، ص ٢٢٦ .

٣٢- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ٣٥ ، تاريخ ٦ / ١٠ / ١٢٣٠هـ ، من رؤوف إلى محمد على .

٣٣- محافظة بحريرا ، المحفظة نفسها ، الوثيقة ذاتها .

٣٤- دار الوثائق القومية ، محافظ ذوات ، محفظة رقم ٢ ، وثيقة رقم ٢٥٨ ، (بدون تاريخ) ، من محمد على إلى الجناب العالى .

٣٥- الشنانة ، قرية تقع قرب الرس إلى الجنوب الغربي منه ، جرى فيها وقعات حربية بين العثمانيين والسعوديين ، الفاخرى ، محمد بن عمر ، الأخبار النجدية ، تحقيق د. عبد الله الشبل ، ص ١٤٥ .

٣٦- عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ١ / ٣٣٥ .

٣٧- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ٨٣ ، تاريخ٩ / ٢ / ١٢٣٢ هـ .

٣٨- عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ١ / ٣٣٠-٣٣١ .

٣٩- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ٨٣ ، تاريخ ٩ / ٢ / ١٢٣٢هـ ، من إبراهيم باشا إلى والده .

٤٠- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة نفسها ، الوثيقة ذاتها .

٤١- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ٨ ١٩٦٩٧ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم باش إلى والده .

٤٢- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم B ١٩٥٣٨ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم باشا إلى والده .

٤٣- دار الوثائق القومية ، معية تركى ، وثيقة رقم ٨ ، ص ص ١٢-١٣ ، تاريخ ١١ / ١ / ١٢٢٣ هـ طلبات محمد على من الدولة العثمانية .

٤٤- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ٨٣ ، مسلسل ١٦٢ ، تاريخ ٩ / ٢ / ١٢٣٢هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٤٥- عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ١ / ٣٣٢ .

٤٦- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ٣٧٨٣ ، تاريخ ٢٢ / ٦ / ١٢١٩ هـ ، من والى بغداد إلى السلطان .

٤٧- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٧٢ .

٤٨- اسم لماء يقع بالقرب من الحناكية بين القصيم والمدينة المنورة ، الفاخرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

٤٩- لوليمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخي ، ٣ / ١٦١٩ .

٥٠- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٣ ، وثيقة رقم ٧٦ ، تاريخ ١٣ / ٥ / ١٢٢٩هـ، من رؤوف إلى محمد على .

٥١- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، المحفظة السابقة ، الوثيقة السابقة .

٥٢- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ١٤٩ ، مسلسل ١٧٥ ، تاريخ جمادى ١٢٣٢ هـ .

٥٣- دار الوثائق القومية ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٥ ، تاريخ ٦٩ / ١ / ١٢٣٣هـ، من إبراهيم إلى والده .

٥٤- دار الوثائق القومية ، محفاظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ١٨ ، تاريخ ٩ / ٢ / ١٢٣٣هـ، من إبراهيم إلى والده .

٥٥- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٧٣ .

٥٦- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ٨ ١٩٦٩٧ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٥٧- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٥٣٧ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من القائم على جمرك ينبع إلى والى مصر.

٥٨- مجموعة الوثائق التركية ،الوثيقة نفسها .

٥٩- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ١٢ ، تاريخ ٢٣ / ١ / ١٢٣٣هـ، من رئيس الكتاب .

٦٠- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٢٢ ، تاريخ ١٥ / ٢ / ١٢٣٣هـ، من محمد نجيب إلى ..... .

٦١- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٥٧ .

٦٢- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٥٨٤ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم باشا إلى والده محمد على باشا .

٦٣- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٧٠٠ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من محمد على باشا إلى السلطان

٦٤- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٥٨ .

٦٥- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ٨ ١٩٥٩٢ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من والى مصر إلى الصدر الأعظم .

٦٦- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٢٢ ، تاريخ ١٥ صفر ١٢٣٣هـ، من محمد نجيب إلى ..... .

٦٧- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٥٨ ، موزل ، المصدر السابق ، المجلة والعدد السابقان ، ص ٢٢٧

٦٨- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٥٨ .

٦٩- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٥٨٤، تاريخ ١٢٣٢ هـ ٢٣ شوال ، من محمد على باشا إلى السلطان .

٧٠- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٥٩٢، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم إلى والى مصر .

٧١- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٦ ، تاريخ ٩ محرم ١٢٣٣هـ، من إبراهيم إلى والده .

٧٢- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٥ ، تاريخ ٩ محرم ١٢٣٣هـ، من إبراهيم إلى والده .

٧٣- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٥٦٠، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٧٤- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ١٨ ، تاريخ ٩ صفر ١٢٣٣هـ، من إبراهيم إلى ....

٧٥- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٣٢ ، تاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣هـ، من إبراهيم إلى رئيس الديوان .

٧٦- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٣٣ ، تاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣هـ، من إبراهيم إلى الجناب العالى .

٧٧- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ٨ ١٩٥٩٧، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من محمد على إلى رئيس الكتاب .

٧٨- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٥٨ .

٧٩- ابن بشر ، المصدر نفسه ، ١ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

٨٠- ابن بشر ، المصدر نفسه ، ١ / ٢٦١ .

٨١- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٧٨ ، تاريخ ١٥ رجب ١٢٣٣هـ. من محمد نجيب إلى الجناب العالى .

٨٢- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٤٢ ، تاريخ ٢٥ جمادى الأول ١٢٣٣هـ. من إبراهيم إلى والده .

٨٣- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٦ ، وثيقة رقم ١١ ، تاريخ ٢٣ محرم ١٢٣٤هـ. من محمد نجيب إلى الجناب العالى .

٨٤- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٦٠٧ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٨٥- ابن بشر ، المصدر نفسه ، ١ / ٢٦٩-٢٧١-٢٧٢ .

٨٦- عبد الرحيم ، المصدر السابق ، ١ / ٣٤٢ .

٨٧- ابن بشر ، المصدر نفسه ، ١ / ٢٦٠-٢٦١ .

٨٨- الفاخرى ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

٨٩- المصدر السابق ، ١ / ٢٦١ .

٩٠- العجلانى ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، القسم الرابع ، ص ١٣٠ .

٩١- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٧٣ .

٩٢- القاضى ، محمد بن عثمان ، روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ، ط ١ ، ١٩٨٠ م ، مطبعة الحلبى ، ٢ / ١٥٤ .

٩٣- العجلانى ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، القسم الرابع ، ص ١٣٠ .

٩٤- يقصد جبل أبان المشهور .

٩٥- صبى العين ، ناظر العين ، هذيله : هذيلها ، ويقصد الناقة .

٩٦- تلفى : تبلغ ، واحبنى : ما أشد حبى له .

٩٧- أى أنه يقول لا ينبغى أن تنام أعينكم عن الأعداء .

٩٨- العبودى ، محمد بن ناصر ، مواضع تاريخية فى بلاد القصيم ، مجلة العرب جـ٢١ ، ٢ س ١٤ ، رجب وشعبان عام ١٣٩٩ هـ ، ص ص ١٧-١٨ .

٩٩- القاضى ، المصدر السابق ، ٢ / ١٥٦ .

١٠٠- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ٣٧٨٣ ، تاريخ ٢٢ جمادى الثانية ١٢١٩ هـ ، من والى مصر إلى بغداد على باشا إلى السلطان .

١٠١- ابن بشر ، المصدر السابق ، ١ / ٢٧٢ .

١٠٢- دار الوثائق القومية ، محافظ بحريرا ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ١٤٩ ، تاريخ ٢٥ جمادى الأول ١٢٣٢هـ، من إبراهيم باش إلى والده .

١٠٣- مرزل ، المصدر السابق ، مجلة العرب ، العدد السابق ، ص ٢٢٨ .

١٠٤- الغنام ، سليمان بن محمد ، (دكتور) ، قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية فى الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا ، ط ١ ، ١٩٨٠ م ، مطابع دار البلاد ، جدة ، منشورات تهامة ، جدة ، السعودية ، ص ٣٣ .

١٠٥- دار الوثائق القومية ، محافظ معية تركى ، محفظة رقم ٤ ، وثيقة رقم ١٥٤ ، صورة مكاتبة محررة إلى الصدر الأعظم ، تاريخ ٩ محرم ١٢٣٦ هـ ، كذلك محفظة رقم ٤ ، من معية تركى ، وثيقة رقم ١٨٠ ، مرسلة إلى طرف ملجأ الصدارة تاريخ ١٣ جمادى الآخر ١٢٣٦ هـ .

١٠٦- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٦٠٣ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم باشا إلى ماجد العريعر .

١٠٧- مجموعة الوثائق التركية ، وثيقة رقم ١٩٦٧٦ ، تاريخ ١٢٣٤ هـ ، من رئيس الكتاب إلى السلطان.

المصادر والمراجع

إولا : الوثائق : تم جمع المادة العلمية الوثائقية من جهتين رسميتين الأولى دار الوثائق القومية بالقاهرة من خلال محافظ بحريرا ومعية تركى ، وذوات . أما الجهة الثانية فهى الوثائق التركية المحفوظة فى دارة الملك عبد العزيز وقد ترجم غالب هذه الوثائق من قبل دارة الملك عبد العزيز بالرياض ، وقام الباحث بإرسال ما لم يترجم إلى أساتذة متخصصين لترجمتها من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية .

وثائق دار الوثائق القومية العثمانية بالقاهرة فى مصر :

أ- وثائق محفظ بحريرا

١- محفظة رقم (٤) ، وثيقة رقم (٨٣) ، تاريخ ٩ / ٢ / ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم باشا إلى والده محمد على باشا .

٢- محفظة رقم (٨) ، وثيقة رقم (٤٩) ، تاريخ ١٦ / ١٠ / ١٢٣٧ هـ ، من فيصل الدويش إلى محمد على باشا .

٣- محفظة رقم (٤) ، وثيقة رقم (٣٥) ، تاريخ ٦ / ١٠ / ١٢٣٠ هـ ، من رؤوف إلى الجناب العالى .

٤- محفظة رقم (٤) ، وثيقة رقم (١٤) ، تاريخ ٩ / ٥ / ١٢٣٠ هـ ، من طوسون إلى والده .

٥- محفظة رقم (٤) ، وثيقة رقم (٨٣) ، تاريخ ٩ / ٢ / ١٢٣٠ هـ ، من إبراهيم باشا إلى والده .

٦- محفظة رقم (٣) ، وثيقة رقم (٧٦) ، تاريخ ١٣ / ٥ / ١٢٢٩ هـ ، من السيد محمد طاهر إلى السلطان .

٧- محفظة رقم (٤) ، وثيقة رقم (١٤٩) ، تاريخ ٢٥ جمادى ١٢٣٢ هـ .

٨- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (٥) ، تاريخ ٩ / ١ / ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٩- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٨) ، تاريخ ٩ / ٢ / ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى ....

١٠- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٢) ، تاريخ ٢٣ / ١ / ١٢٣٣ هـ ، من رئيس الكتاب .

١١- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (٢٢) ، تاريخ ١٥ / ٢ / ١٢٣٣ هـ ، من محمد نجيب إلى ....

١٢- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (٦) ، تاريخ ٩ / ١ / ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

١٣- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (٣٢) ، تاريخ ١٧ / ٣ / ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى رئيس الديوان .

١٤- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (٣٣) ، تاريخ ١٧ / ٣ / ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم باشا إلى الجناب العالى .

١٥- محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (٧٨) ، تاريخ ١٥ / ٧ / ١٢٣٣ هـ ، من محمد نجيب إلى الجناب العالى .

١٦-محفظة رقم (٥) ، وثيقة رقم (٤٢) ، تاريخ ٢٥ / ٥ / ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

١٧- محفظة رقم (٦) ، وثيقة رقم (١١) ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من محمد نجيب إلى الجناب العالى .

١٨- محفظة رقم (٤) ، وثيقة رقم (٧١) ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من محمد نجيب إلى محمد على .

ب- وثائق محافظة معية تركى :

١٩- محفظة رقم (٧) ، وثيقة رقم (٥٠) ، تاريخ ٢٣ / ٢ / ١٢٣٦ هـ ، من والى مصر إلى والده .

٢٠- دفتر معية تركى ، وثيقة رقم (٨) ، ص ص ١٢-١٣ ، تاريخ ١١ / ١ / ١٢٢٣ هـ .

٢١- محفظة رقم (٤) ، وثيقة رقم (١٥٤) ، تاريخ ٩ / ١ / ١٢٣٦ هـ ، صورة مكاتبة .

جـ- وثائق محفظة ذوات :

٢٢- محفظة رقم (٢) ، وثيقة رقم (٢٥٨) ، تاريخ (بدون تاريخ) ، من محمد على إى الجناب العالى.

وثائق عثمانية محفوظة فى دارة الملك عبد العزيز بالرياض :

٢٣- وثيقة رقم ١٩٦٩٥ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من والى مصر إلى معتمده فى استانبول .

٢٤- وثيقة رقم A ١٩٦٩٧ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٢٥- وثيقة رقم B ١٩٥٣٨ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٢٦- وثيقة رقم ١٩٥٨٤ ، تاريخ ٢٢ / ٦ / ١٢١٩ هـ ، من والى بغداد إلى السلطان .

٢٧- وثيقة رقم ١٩٥٣٧ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من القائم على جمرك ينبع إلى والى مصر .

٢٨- وثيقة رقم ١٩٥٨٤ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم باشا إلى والده محمد على باشا .

٢٩- وثيقة رقم ١٩٧٠٠ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من محمد على إلى السلطان .

٣٠- وثيقة رقم A ١٩٥٩٢ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من والى مصر إلى الصدر الأعظم .

٣١- وثيقة رقم ١٩٥٨٤ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، ٢٣ شوال ، من محمد على إلى السلطان .

٣٢- وثيقة رقم ١٩٥٢ ، تاريخ ١٢٣٢ هـ ، من إبراهيم إلى والى مصر .

٣٣- وثيقة رقم ١٩٥٦٠ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٣٤- وثيقة رقم ٨ ١٩٥٩٧ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من محمد على إلى رئيس الكتاب .

٣٥- وثيقة رقم ١٩٦٠٧ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم إلى والده .

٣٦- وثيقة رقم ١٩٦٠٣ ، تاريخ ١٢٣٣ هـ ، من إبراهيم باشا إلى ماجد العريعر .

٣٧- وثيقة رقم ١٩٦٧٦ ، تاريخ ١٢٣٤ هـ ، من رئيس الكتاب إلى السلطان .

٣٨- ابن بشر ، عثمان بن عبد الله ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ط ٥ ، ١٣٩١ هـ ، طبعة وزارة المعارف السعودية ، تحقيق : عبد الرحمن آل الشيخ .

٣٩- البسام ، محمد التميمى النجدى ، الدرر المفاخر فى أخبار العرب الأواخر ، حققه ونشره : سعود بن جمران ، ط ١ ، عام ١٤٠١ هـ .

٤٠- بوركهارت ، جوهان لودفيج ، مواد لتاريخ الوهابيين ترجمة د. عبد الله العثيمين ، ط ١ ، ١٩٩١ م .

٤١- عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، (دكتور) ، الدولة السعودية الأولى ، ط ٣ ، ١٩٧٩ م ، منشورات دار الكتاب الجامعى ، الجزء الأول .

٤٢- العثيمين ، عبد الله بن صالح ، (دكتور) ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ط ٥ ، ١٩٩٣ م ، الجزء الأول .

٤٣- العجلانى ، منير (دكتور) ، تاريخ البلاد العربية السعودية عهد عبد الله بن سعود ، ط ٢ ، ١٩٩٣م مطابع دار الشبل ، الرياض ، الجزء الأول ، القسم الرابع .

٤٤- القنام ، سليمان بن محمد (دكتور) ، قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية فى الجزيرة العربية والسودان وسوريان ، ط ١ ، ١٩٨٠ م ، مطابع دار البلاد ، جدة ، منشورات تهامة ، جدة ، السعودية

٤٥- الفاخرى ، محمد بن عمر ، الأخبار النجدية ، تحقيق : د. عبد الله الشبل ، مطابع جامة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض .

٤٦- القاضى ، محمد بن عثمان ، روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ، ط ١ ، ١٩٨٠م ، مطبعة الحلبى .

٤٧- كشك ، محمد جلال ، السعوديون والحل الإسلامي ، ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ .

٤٨- لروير ، جون غورردون ، دليل الخليج ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان أمير قطر ، الدوحة ، ١٩٧٥م ، القسم التاريخي .

المصادر الأجنبية :

٤٩- Sadler (C.G.F) Travels crows Arabic desert from Katef on the Perisan Golf to Yanboo on the Red Sea during the Year. Bombay. 1866.

" الدوريات "

٥٠- مجلة العرب ، جـ١ ، ٢ ، س ١٤ ، رجب وشعبان عام ١٣٩٩ هـ .

٥١- مجلة العرب ، جـ٣ ، ٤ ، س ١١ ، رمضان وشوال عام ١٣٩٦ هـ .

ثانياً : عرض الكتب

عـــرض الكتـــاب

العلاقات العثمانية الأمريكية [1]

١٨٣٠ - ١٩١٨م

١٢٤٦ - ١٣٣٧هـ

تأليف سلوى سعد الغالبي

عرض وتحليل أ.د. عبد العليم على أبو هيكل [2]

لم يكتنف الغموض المرتبط ببداية التواجد الأمريكي بالشرق الأوسط عند حدوده الزمنية فقط بل امتد ايضا إلى محاوره وميادينه الذى اهتم بها .

فعلى حين آمنت الأغلبية من المفكرين فى عالمنا العربى بأن بداية الرياح الأمريكية قد هبت مع موجات الزحف الغربى على الشرق الأوسط مع بداية العشرينات من ق ١٩م متدثرة بثياب التبشير مركزة على بلاد الشام ، بينما ركن البعض الآخر إلى تفسير هذا القدوم الأمريكى

١- إصدار حديث - مكتبة مدبولى .

٢- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

المتواضع إلى حداثة القوة الأمريكية آنئذ وتدنيها بالقياس مع بقية القوى الأوروبية الأعظم وهى بريطانيا وفرنسا .

إلا أن جهودا حثيثة وإصدار متواصل على التنقيب فى أمهات المصادر الأصلية من قبل المثابرين والجادين العرب ومحاولاتهم العثور على خلفيات ما يجرى فى عالمنا العربى المعاصردفعتهم لإعادة النظر وتقديم رؤيا جديدة حطمت بعض الفروض التقليدية التاريخية للتواجد الأمريكى فى الشرق الأوسط .

فى هذا الإطار جاءت الدراسة شاملة للدكتورة سلوى الغالبى عن العلاقات العثمانية الأمريكية فأزاحت عتامة قد رانت على كثير من القضايا المرتبطة بتلك العلاقة بما تمكنت به صاحبة الدراسة من إطلاع على المصادر الأصلية .

فى هذا الإطار أتى التفسير لموقف الشمال الأفريقى إزاء محاولات النفاذ الأمريكى لاختراق ساحة البحر المتوسط بغية الوصول إلى قلب الشرق الأوسط ، والذى اعترضته قوى هذا الشمال بدأ من المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس الغرب كل على حدة تارة بالقوة وأخرى بعقد معاهدات مع الطرف الأمريكى حتى يمكن ضبط حركة هذا الأخير ، وأعاد الموقف العربى إلى الأذهان مسيرة جهاد الشمال الأفريقى وتصديه لقوى الضغط الغربى الذى تعقب خروج رجال الأندلس فى أواخر ق١٥م وبداية ق ١٦ م .

كان الطموح الأمريكى فى أواخر ق ١٨ يرنو باتجاه القوة الرئيسية فى ذلك الوقت وهى الدولة العثمانية باعتبارها القابضة بيدها على مسار التوجهات الإقليمية ، إلا أن الوثائق البريطانية والأمريكية سجلت محاولات توازن مع ما كان يجرى من محاولات أمريكية على سطح البحر المتوسط ، كانت تترى عبر المحيط الهندى والبحر العربى ، كما أشارت إليها بعض الدراسات المعنية بالموضوع ، وأدت هذه المحاولة الثانية إلى ذات الهدف الذى كان الطموح الأميركى يصبو إليه وهو كسر حاجز الطوق الذى فرضته بريطانيا القوة الأعظم بالشرق الأوسط آنذاك .

وإذا كانت المحاولة الأمريكية قد نجحت فى الحصول على مبتاغها بتوقيع معاهدة مع سلطان عمان عام ١٨٣٠ م ، من منطلق تجارى فقد كان ذات الهدف بأطرافه وخطواته هو لب ما سجلته وأفرزته المعاهدة الأمريكية العثمانية الموقعة فى ذات العام بفضل جهود وليم سميث William Smith الوزير الأمريكى المفوض لدى البرتغال .

إلا أن التطورات الدولية وتعاظم التواجد للقوى الأوربية الأخرى جعل نصوص هذه المعاهدة غير ذات جدوى ، عندما بدأت نصوص ما تم الاتفاق عليه يدخل حيز التنفيذ فأثيرت قضايا خلافية بين الطرفين العثماني والأمريكي مثل مسألة الولاية الجنائية العثمانية على الأمريكين، وتوسيع حقوق الامتيازات واستمر الجدل قائما دون الوصول إلى حل يذكر حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، بالرغم من توقيع معاهدة تجارة وملاحة بين الطرفين عام ١٨٦٢ م / ١٢٧٩هـ لتوسيع ميدان العلاقات التجارية بينهما على غرار ما تم مع بريطانيا ، وما أردفها ببروتوكول ومعاهدة أخرى عام ١٨٧٤ م / ١٢٩١ هـ لوضع بنود تنفيذية تتعلق بمدى أحقية الأجانب فى تملك العقارات لمن حصل على الجنسية الأمريكية ممن كانوا عثمانيين ، ومسألة تبادل المجرمين.

مع هذا استمر التذبذب فى العلاقات بين الأطراف المعنية عند تفسير ذات البنود المستحدثة فعلى حين كان الانسجام واضحا بينهما عند اندلاع الحرب بين الولايات المتحدة الأمريكية وأسبانيا عام ١٨٩٨ م ، إلا أن التوتر خيم بظلاله ثانية حول الموقف إزاء المشكلة الأرمينية بسبب التعاطف الأمريكى مع الطائفة المسيحية فلعب الأرمن على أوتار قوانين التجنس القائمة بين العثمانيين والأمريكيين ، وعمق من الخلاف حساسية الطرف الأول إزاء مسألة المرور بمضيق البسفور والدردنيل فى الوقت الذى كان الترحيب شاهد عيان على الأمريكين عند وصول الاتحاديين إلى أريكة الحكم فى الاستانة ، وبعد ذلك بموقف الولايات المتحدة الأمريكية الحيادى إزاء الحرب الطرابلسية عام ١٩١٣ م وأحداث البلقان .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى نقطة جوهرية سواء فى أوضاع كل طرف على حدة أوسع فى علاقة مع الآخرين تبعا لمجريات الحرب . فإذا كانت المرحلة الأولى لمسيرة العمليات العسكرية والتى استحدثت مع بداية المعارك عام ١٩١٤ حتى ١٩١٧ قد شهدت انخراطا عثمانيا فيها باعتبارها طرفا أساسيا فى الصدام بالاشتراك مع ألمانيا ضد الإنجليز والفرنسيين ، وفيها وقفت الولايات المتحدة الأمريكية موقف الحياد ، إلا أن المرحلة الثانية لم تكن كذلك عندما أعلنت هذه الأخيرة الحرب على ألمانيا فى إبريل عام ١٩١٧ ومن جراءها قطعت العلاقات بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية بالرغم من عدم إعلان الأولى الحرب على الثانية .

لقد كان حجر الزاوية فى هذا كله هو المصالح الاقتصادية والأدبية والتبشرية ، حتى إذا أيقنت من حسم أمر الحرب ، إذ بها تلقى بكل ثقلها كى تسجل دورها العالمى من خلال ما طرحته من تسوية تدعو للسلم الدائم وتقرير مصير الولايات التى كانت تابعة للدولة العثمانية

فيما عرف باسم حق الشعوب المغلوبة على أمرها فى تقرير مصيرها وجاءت محددة بالبنود الأربعة عشر .

هذا الخط البيانى المتأرجح بين الارتفاع والهبوط فى مسيرة العلاقات العثمانية الأمريكية كان يقابله فى ذات الوقت ثبات تقريبى فى العلاقات التجارية التى نشطت عقب معاهدة ١٨٣٠ هـ وعلى نفس المنوال كانت طبيعة ميزان التجارة .

لقد كان الطموح الاقتصادى أملا عضت عليه كافة الأطراف بالنواجذ ، وظل الهدف التجارى نقطة محورية للربط بين الطرفين بعدى وثيقة يضمن سيولة الحركة ، وتصدرت سلع بعينها قائمة الصادرات العثمانية ، إلى أمريكا التى على قمتها التبغ والسجاد والأقمشة ، الفواكه ، الصوف ، الكيماويات ، الأصباغ ، والمعادن - لاحظ أكثريتها مواد خام - أما الصادرات الأمريكية إلى العثمانية فكانت معظمها سلع وسيطة أو مصنعة كالزيوت المعدنية والمنتجات الجلدية والقمح ، المواد الكيماوية وأصباغها ، السكر والسمن الصناعى ، إلا أن السلع الرأسمالية هى التى تربعت على القائمة كالسيارات ، الأدوات الزراعية المواد المصنعة والآليات الصناعية ، وإن احتجبت الأسلحة عن التصدير بعد عام ١٨٨٢ م .

فى المقابل ظهر البطء فى تنشيط ميزان التجارة بفعل عوامل أخرى خارجة عن إرادة الأطراف ولعب فيه الاعتماد على النقل على السفن البريطانية دورا أساسيا عندما احتكر الإنجليز خدمات الملاحة فى الدولة العثمانية ، بالرغم من تأسيس خط ملاحى مباشر بين نيويورك والموانئ العثمانية افتتحته شركة باربر Barber فى فبراير ١٨٩٩ م وكذا افتتاح شركة خط هامبورج الأمريكى فى أبريل عام ١٩١٤ م ، إلا أن استمراره فضلا عن بقائه لم يستمر طويلاً لاندلاع الحرب العالمية .

كان للجهد الأمريكى أثر واضح فى قيام بعض المشروعات العثمانية الاستثمارية التى صاحب قيامها رغبة لدى سلاطين الدولة إصلاح أمرها وجمع شتاتها وربط ولاياتها بعد أن تكالب عليها ركام من الأزمات ، لهذا لم يكن أمرا مستغربا أن ينصب الاهتمام بوسائل المواصلات والاتصالات وإفساح الميدان لإقامة مشاريع رابطة لأطراف الدولة كمشروع خطوط التلغراف ، وبناء السفن والسكك الحديدية فكان أبرزها مشروع (تشستر - Chester) بين حلب والبحر المتوسط ومن سيواس وسط الأناضول إلى السليمانية بالقرب من الحدود الفارسية ، إلا أن المشروع اعترضته العديد من الصعاب مع اصطدامه وأهدافه بالمصالح البريطانية والألمانية والروسية بالمنطقة حتى لقب عليه الفشل فى نهاية المطاف بعد أن فقد

الحماس من قبل الحكومة الأمريكية ، ووجدت الشركة " التنمية الأمريكية العثمانية " نفسها وحيدة بالميدان عند مشارف ساحة المعارك الحربية العالمية .

أما العلاقات الثقافية فقد ترعرعت بذور النفاذ الأمريكي إلى الدولة العثمانية ضمن موجات التدفق الغربي بشكل عام داخل جسد الدولة العثمانية مع بداية عام ١٨١٩ م ، وما لبثت أن ظهرت أخرى في " أزمير " كي تكون أملا وظهرا عهد الطريق للوصول إلى القدس حتى لا يترك الميدان فسيحا للبعثات الروسية والفرنسية والإنجليزية فقط .

كانت البعثات الأمريكية أكثر كثافة في المشرق العربي عامة نظرا للثقة المكتسبة على مدار قرن من الزمان ، واستثمرت البعثات التبشيرية هذه الحالة خير استثمار وظلت تعمل بنشاط حثيث في بلاد الشام بتشجيع وإشراف من قبل " المجلس الأمريكي " ، إلا أن الحركة التبشيرية الأمريكية لم تكن بذات الطموح الذي علق عليها نظرا لصلابة ورسوخ الديانات السماوية بالمنطقة التي عملت فيها الإرساليات ، كما اتسم موقف الحكومة العثمانية أيضا بالتأرجح بين الصمت حينا والرفض أحيانا أخرى بشكل تناسب مع طبيعة الموقف السياسي والضغوط على رؤوس السلطة بالأستانة والتي انزلقت عليها من قبل الرعايا ضد هذه الإرساليات وموقف الدولة السلبي إزاءها على حد سواء ، وعبرت هذه الكراهية عن نفسها بما تعرضت له عناصر الإرساليات من اعتداءات في استنابول وقونية ومن الأرمن واليونانيين - نظرا للخلافات المذهبية - بما يضع علامات استفهام عديدة من موقف الأخرين ، ومع انتشار مثل هذه الأحداث ، ظل الموقف الأمريكي الرسمي يتسم بالتحدي والإصرار واستمر في ضغطه على المسؤلين العثمانيين وتحميلهم أمر ضمان الحرية ودفع تعويضات نقدية عن الخسائر تحت ستار ذات الهدف الثقافي الظاهر أقيمت المدارس الأمريكية بإشراف أيضا من الإرساليات وافتتحت العديد من المستشفيات ليس فقط في بلاد الشام بل في العاصمة العثمانية ذاتها وفي المدن الرئيسية ، وإذا كان هناك من فضل لهذا كله فإنه يرجع إلى تزامنه مع عدة تطورات جعلته أمرا مقبولا ولو في حدود :

أولا : مع التوجه الإصلاحي للدولة العثمانية منذ النصف الأول من ق ١٩ وانتشار التيارات الفكرية المتعددة ، مما يعني إثراء للفكر العربي والإسلامي بشكل عام يحرك الركود الذي خيم على حياة أهل المنطقة الشرق أوسطية خاصة منذ أمد بعيد .

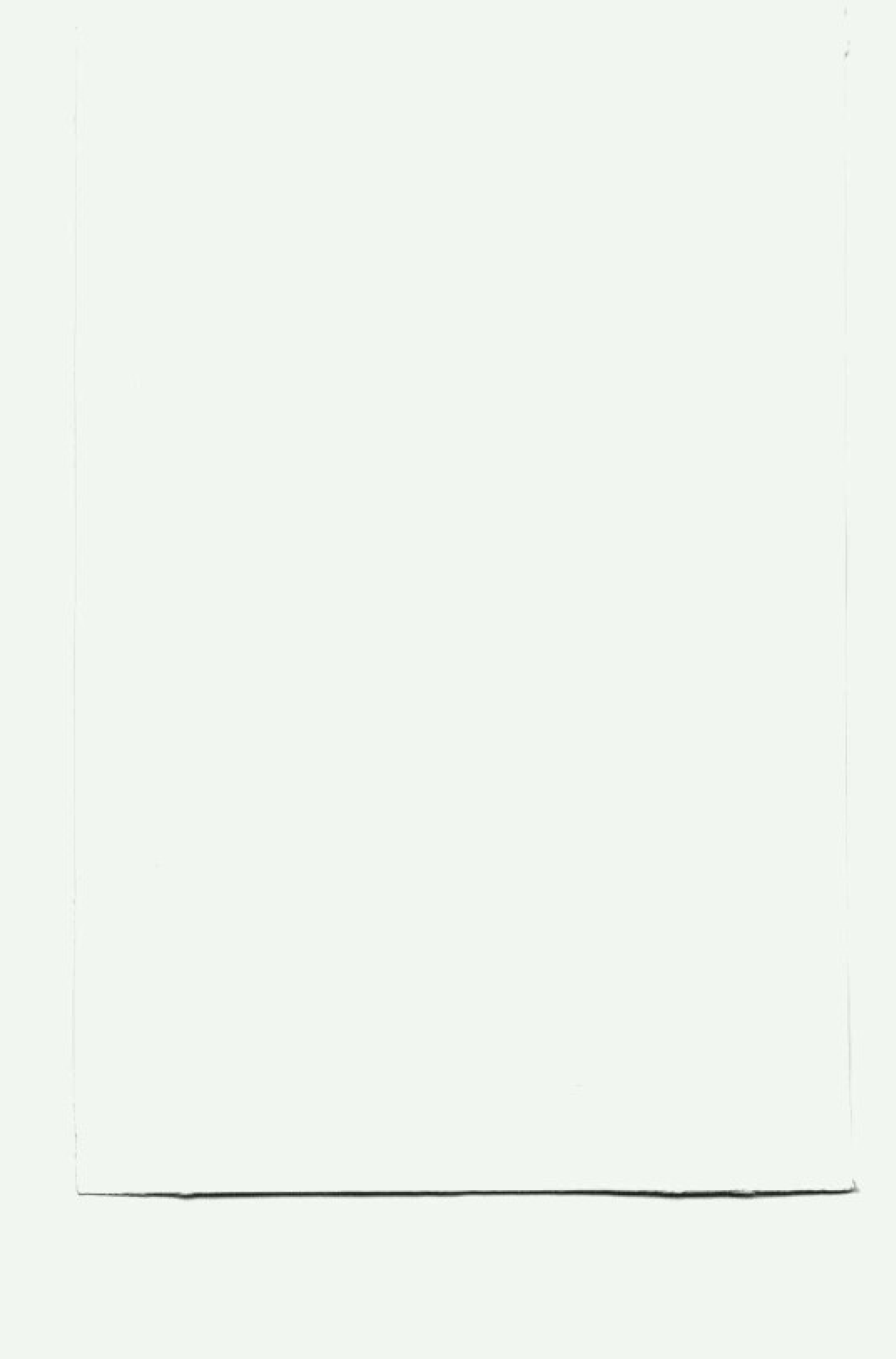
ثانيا : تأرجح التنافس بين قوى الداخل المعنية في إطار من الانتعاش الثقافي أيضا عندما

ارتدى كافة الطوائف والفئات ثياب الريادة الفكرية والثقافية فى محاولة لكسب السباق مع قوى الخارج الغربية .

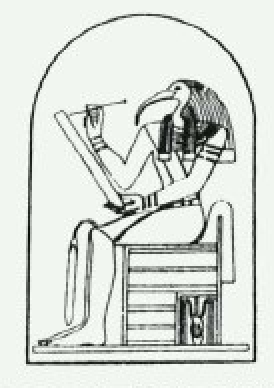
وكما حرك هذا التنافس البحر الثقافى العثمانى الآسن ، فالإيمان راسخ بمثل هذه الدراسة عن العلاقات العثمانية الأمريكية التى قامت بها الدكتورة سلوى الغالب لحفزهم ذوى العلاقة لخوض غمار موضوعات من قبيلها لتقصى الموضوعية وإزاحة الغبار الذى نثره الفكر الغربى على أعين الكثيرين من أهل الشرق بما آمن به بعضهم بأن الغربيين هم فقط أصحاب المنهج العلمى الصحيح والرؤية التاريخية الثاقبة ، حتى إذا استيقظ العرب خاصة والعالم الإسلامى عامة من سباته لم يجد فى تلك الموضوعية المرعاة وهذه العملية الزائفة إلا ركاما جمعه الغربى من الجسد والعصب الشرقى اعتصارا .

رقم الإيداع : ٨٨/٧١٣٧

الترقيم الدولى ٩ - ٠٢٦ - ٢٣٨ - ٩٧٧



CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 24 (Jannuary 2001)